العقائد

من نهج البلاغة

ISBN 978-9922-9464-9-8

9 789922 946498

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 3457 لسنة 2020م

مصدر الفهرسة : IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda
رقم تصنيف LC : BP193.1.A2 M81 2020
المؤلف الشخصي : المعلم، محسن علي، 1372 للهجرة - مؤلف.
العنوان : العقائد من نهج البلاغة /
بيان المسؤولية : تأليف الشيخ محسن علي المعلم.
بيانات الطبع : الطبعة الاولى.
بيانات النشر : كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة علوم نهج البلاغة 2020 / 1442 للهجرة.
الوصف المادي : 433 صفحة ؛ 24 سم.
سلسلة النشر : (العتبة الحسينية المقدسة ؛ 814).
سلسلة النشر : (مؤسسة علوم نهج البلاغة ؛ 189).
سلسلة النشر : (سلسلة الكتب العلمية، وحدة الدراسات العقدية ؛ 23).
تبصرة ببليوجرافية : يتضمن هوامش. لائحة المصادر (الصفحات 411 - 419)
موضوع شخصي : الشريف الرضي، محمد بن الحسين، 359-406 للهجرة - نهج البلاغة.
موضوع شخصي : علي بن أبي طالب (عليه السلام) الامام الاول، 23 قبل الهجرة40- للهجرة – حديث.
مصطلح موضوعي : علم الكلام (الشيعة الإمامية).
مصطلح موضوعي : عقائد الشيعة الامامية.
اسم شخص اضافي : دراسة لـ(عمل) : الشريف الرضي، محمد بن الحسين، 359-406 للهجرة - نهج البلاغة.
اسم هيئة اضافي : العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق)، مؤسسة علوم نهج البلاغة. جهة مصدرة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية

سلسلة الدراسات والبحوث العلمية (٢٣)

وحدة الدراسات العقدية

العقائد

الشرفوية

من نهج البلاغة

تأليف

فضيلة الشيخ محسن علي المعلم

إصدار

مؤسسة علوم نهج البلاغة

في العتبة الحسينية المقدسة

جميع الحقوق محفوظة
العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

العراق - كربلاء المقدسة -مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام

مؤسسة علوم نهج البلاغة

هاتف: ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠ - ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣

الموقع الألكتروني: www.inahj.org

الإيميل: Info@Inahj.org

تنويه:

إن الأفكار والآراء المذكورة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة

تخلي العتبة الحسينية المقدسة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وآلِ محمد

مقدمة المؤسسة

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

أما بعد:

فلم يزل كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) منهلاً للعلوم من حيث التأسيس والتبيين ولم يقتصر الأمر على علوم اللغة العربية أو العلوم الإنسانية فحسب، بل شمل غيرها من العلوم التي تسير بها منظومة الحياة وإن تعددت المعطيات الفكرية، إلا أن التأصيل مثلما يجري في القرآن الكريم الذي ما فرط الله فيه من شيء كما جاء في قوله تعالى: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام: ٣٨)، كذا نجد يجري مجراه في قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ (يس: ١٢)، غاية ما في الأمر أن أهل الاختصاصات في العلوم كافة حينما يوفقون للنظر في نصوص الثقلين يجدون ما تخصصوا فيه حاضراً وشاهداً فيهما، أي في القرآن الكريم وحديث العترة النبوية (عليهم السلام) فيسارعون وقد أخذهم الشوق لإرشاد العقول إلى تلك السنن والقوانين والقواعد والمفاهيم والدلالات في القرآن الكريم والعترة النبوية.

من هنا ارتأت مؤسسة علوم نهج البلاغة أن تتناول تلك الدراسات العلمية

المختصة بعلوم نهج البلاغة وبسيرة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وفكره ضمن سلسلة علمية وفكرية موسومة بـ(سلسلة الدراسات والبحوث) التي يتم عبرها طباعة هذه الكتب وإصدارها ونشرها في داخل العراق وخارجه بغية إيصال هذه العلوم إلى الباحثين والدارسين وإعانتهم على تبين هذا العطاء الفكري والانتهال من علوم أمير المؤمنين علي (عليه السلام) والسير على هديه وتقديم رؤى علمية جديدة تسهم في إثراء المعرفة وحقولها المتعددة.

وما هذه الدراسة التي بين أيدينا إلا واحدة من تلك الدراسات التي وفق صاحبها للغوص في بحر علم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقد أذن له بالدخول إلى مدينة علم النبوة والتزود منها بغية بيان أثر تلك المرويات العلوية في ميدان علم الكلام والمعارف العقدية، الذي شغل حيزاً كبيراً في الدراسات الحوزوية والأكاديمية لارتباطه بمباحث التوحيد والنبوة والإمامة وغيرها مما شغل الفكر الإنساني.

فجزى الله الباحث فضيلة الشيخ محسن المعلم دامت توفيقاته فقد بذل جهده وعلى الله أجره والحمد لله رب العالمين.

السيد نبيل الحسني الكربلائي

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ﴿الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وأقام محمدًا وعليًّا عليهما وآلهما السلام وليَّين في خلقه وهو الوليّ المطلق.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1].

وجعل ولاية (عليّ) بعد ختم رسالاته بـ (محمد) كمالًا لدينه وإتمامًا لنعمته ورضاه بالإسلام دينًا.

﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

فتولى (عليٌّ) الوليُّ خليفةً ووصيًّا ما كان يتولّاه (محمدٌ) رسولًا ونبيًّا.

****

ولئن أزالوه عن مراتبه التي رتّبه الله فيها، وهم يعلمون أنه القمّة الشمّاء، والمحجّة العظمى كما قال عليه السلام: «وإنه ليعلم أن محلّي منها محلّ القطبِ من الرحا، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير»[3].

---

(١) سورة المائدة / ٥٥.

(٢) سورة المائدة / ٣.

(٣) مفتتح الخطبة الشقشقية، نهج البلاغة خ٣، ص٤٨.

فاستبدّوا بالأمر وأداروه بما أرادوه، إلّا أنهم إذا نزلت بهم نازلة، وحلّت بهم معضلة، وفجأتهم مشكلة، واعصوصب خطب، وفدح أمر فلا يجدون من الرجوع إليه بدًّا، ومن الركون إلى كنفه مناصًا، فيميرهم بالعلم، ويحملهم على لاحب من المحجة البيضاء.

****

وإن (نهج البلاغة) ذلكم السفر النفيس الأنفس لخير برهان على سموّ الامتياز، وسمة الانفراد، وتعانق الكمالات التي حبي بجلالها بطلُها الإلهيّ، ورجلُها الربانيّ، فهو المترجم الحقّ لما وعاه قلبه وحمله فكره وضُمّت عليه جوانحه وطُبعت به خلائقه وتجلّت فيه سيرته وسريرته.

فيض عطاء، وزاخر معارف، واسعة الآفاق، متعالية الأبعاد، عميقة الأغوار، متلاطمة الأمواج في أبحر العلم، عقيدة وفكرًا وشريعة ودينًا، وخير هدي وخلائق، مبصِّرةً مبشِّرةً مُنْذِرَةً في أبكار من المعاني لم يحم حولها أحد من قبل ومن بعد.

بل هو –عليه سلام بارئه– فاتح بابها، سابح عبابها، رائد فكرها، وسرّها.

****

فأذعنت لشامخ جلاله العقول، وخشعت لباذخ خلاله القلوب، وحارت في كنهه الألباب، فانطلقت الألسن معترفة بالعيّ والعجز عن توفيته حقّه، حيث لم تدرك من جوهره أمرًا، ومن مكنونه سرًّا.

١) ولقد أبدع فحل الشعراء (علاء الدين الشفهيني) –رضوان الله عليه– في

رائعته، أختار منها وكلها مختارة منتخبة:

وهو القؤولُ وقولُهُ الصدقُ الذي ... لا ريبَ فيهِ لِمَنْ رعا وتأمَّلا:
واللهِ لو أنَّ الوسادةَ ثُنِّيَتْ ... لي في الذي حَظَرَ العَلِيُّ وحلَّلا
لَحَكَمْتُ في قومِ الكليمِ بمقتضى ... توراتِهِمْ حكمًا بليغًا فَيْصَلا
وحكمتُ في قومِ المسيحِ بمقتضى ... إنجيلِهِمْ وأقمتُ منهُ الأَمْيلا
وحكمتُ بين المسلمينَ بمقتضى ... فُرقانِهِم حكمًا بليغًا فَيْصَلا
حتى تقرَّ الكُتْبُ ناطقةً لقد ... صدقَ الأمينُ (عليٌّ) فيما علَّلا
فاستخبِروني عن قرونٍ قد خَلَتْ ... مِنْ قبلِ آدمَ في زمانٍ قد خلا
فلقد أَحطْتُ بعِلْمِها الماضي وما ... منها تأخرَّ آتيًا مستقبلا
وانظُرْ إلى نهجِ البلاغةِ هل ترى ... لأُولي البلاغةِ منهُ أبلغَ مِقْوَلا
حِكَمٌ تَأَخَّرَتِ الأواخِرُ دُونَها ... خُرْسًا وأفحمتِ البليغَ المقولا
خَسِئَتْ ذَوُو الآراءِ عنهُ فلن ترى ... مِنْ فوقِهِ إلّا الكتابَ المُنْزَلا
ولهُ القضايا والحكوماتُ التي ... وضحتْ لديه فحلَّ منها المُشْكِلا[1]

٢) ورائع قول السيد حسن البغدادي في وصف (نهج البلاغة):

نهجٌ له كلُّ الأنامِ قد غدتْ ... خُرسًا وأهدى للطريق الأعدلِ
فلم نجدْ أفصحَ منه منطقًا ... سوى لتالي المصحفِ الغضِّ الجلي

(١) أدب الطف ٤/ ١٧٢.

فـذا كلامٌ قالـه المـولى عـلي وذا كلامٌ قالـه المـولى عـلي[1]

٣) وقال ابن أبي الحديد -شارح نهج البلاغة- في قصيدة من (العلويّات السبع):

هـو النبأُ المكنونُ والجوهـرُ الـذي تجسّـدَ مـن نـورٍ مـن القـدسِ زاهـرِ
وذو المعجزاتِ الواضحـاتِ أقلُّها الظهـورُ على مستودعاتِ السرائرِ
ووراثُ علـمِ المصطفـى وشـقيقُهُ أخًـا ونظـيرًا في العُـلا والأواصرِ
ألا إنـما التوحيـدُ لـولا علومُـهُ كعرضـةِ ضِلِّيـلٍ ونهبـةِ كافـرِ[1]

٤) وقـال أيضًـا: «وهـذا مـن صناعـة الخطابـة التـي علّمـه الله إيّاهـا بـلا تعليم، وتعلّمهـا النـاس كلّهـم بعـده منـه»[2].

قـال ذلـك تعقيبًـا على شرحـه لـكلام أمـير البيـان عليه السلام: «طعنًـا في عيونكـم وحـزًّا في حلوقكـم ودقًّـا لمناخركـم».

بعـد أن قـال: «واعلـم أنـه لمـا ذكـر الطعـن نسـبه إلى العيـون، ولّمـا ذكـر الحزّ وهـو الذبـح نسـبه إلى الحلـوق، ولّمـا ذكـر الـدّق وهـو الصـدم الشـديد أضافـه إلى المناخـر».

أقـول: كـما أمـدّه الله فملّكـه ناصيـة البلاغـة والفصاحـة فعـاد (أمـير البيـان) فقـد ألهمـه الله جـلال العلـم وغـور الحقائـق فهـو (رب المعـاني)، فصلـوات الله عـلى كمالاتـه وإبداعـه.

(١) أدب الطف ٩/ ٣٢٤.
(١) كشكول البحراني ٢/ ٨٤، والروضة المختارة/ ١٢٠.
(٢) شرح نهج البلاغة ١٣/ ١٤٣.

وبعد..

فقد أمدّني التوفيق، وشرّفتني الدعوة الكريمة من الأخ الفاضل المحقق الشهم خير الشباب الأستاذ محمد حسين الواعظ النجفي -حفظه الله ورعاه- بالرغبة في إعادة طبع هذا الكتاب من قبل (مؤسسة علوم نهج البلاغة) المشرّفة بخدمة (الروضة الحسينية) على مشرّفها آلاف التحية والثناء.

فرأيتني مغتبطًا بهذا الطلب، فله -رعاه الله- وللقائمين على تلكم المؤسسة المباركة خالص الشكر والامتنان ووافر الدعاء ومتواصل الرجاء أن يأخذ المولى -جلّت آلاؤه وعظمت نعماؤه- بفكرنا وقلوبنا وأرواحنا حيث يحب ربنا ويرضى على نهج علي إمام الدين والدولة وسنن سيد شهداء الأمة الحسين بن علي -عليهما وآلهما الصلاة والسلام- وأن يجعلنا مصداقًا لقوله -جمّت نعماؤه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾(1)، وأن يجعل ذلك نافعًا في دنيانا، وذخرًا في آخرتنا، إنه وليٌّ كريم.

والحمد لله على هدايته والتوفيق إلى ما دعا إليه من سبيله وموالاة أوليائه والبراءة من أعدائه.

والصلاة التامّة على هداة الخلق إلى الحق محمد وآله الكرام زنةَ عرش الله ومدادَ كلماته ومنتهى رضاه وعدد ما أحصاه كتابه وأحاط به علمه.

---

(1) سورة المائدة / ٥٦.

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللهِ وَلَهُ الحَمْدُ والمَجْد، والصلاةُ والسلامُ على خُزَّانِ عِلْمِه، ومَعْدِنِ حُكْمِه، مَنْ أُوتُوا جَوامِعَ الكَلِمِ وفَصْلَ الخِطَاب، نَبِيِّنَا الأَعْظَمِ وآلِهِ الأَطْيَاب، ولا سِيَّما بَابُ مَدِيْنَةِ عِلْمِه، ولِسَانُ حِكْمَتِهِ، أَمِيْرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام.

وبَعْدُ.. فهَذِهِ مجموعةُ دروسٍ تَدُورُ حولَ أُصُولِ العقيدةِ في نَهْجِ البلاغة، تَشَرَّفْتُ بإلقَائِها على لُمَّةٍ مِنَ الأخواتِ المؤمنات[1]، في الفترةِ من ليلة الأربعاء ٤ جمادى الأولى سنة ١٤١٤هـ إلى ليلة الأربعاء ١٩ ذي القعدة الحرام سنة ١٤١٥هـ، فجاءت في ٣٨ درسًا.

و(نَهْجُ البَلاغَةِ) هو ذلكمُ الأثرُ النفيس، والمعجزةُ الخالدةُ لبطلِ الإسلامِ ورَجُلِهِ الفَذِّ، الذي خَصَّهُ اللهُ بِمَوَاهِبِهِ وعَطَائِه، ومَنَحَهُ من مَلَكَةِ الكَمالاتِ ما شَاء.

وذلكَ التراثُ الفكريُّ الثَّرِيُّ كانَ ولَمْ يَزَلْ مَعِينًا لَمْ يَنْضَبْ، ومَنْهَلًا عَذْبًا سَلْسَلًا رَقْرَاقًا، لَمْ يَنْفَدْ على وَفْرَةِ وُرَّادِه، والمَاتِحِينَ مِنْه، مَعَ اتِّسَاعِ دِلائِهم وشِدَّةِ سَوَاعِدِهم، لا بَلْ إِنَّهُم لَمُعْتَرِفُونَ بِقُصُورِ البَاعِ عَنْ إِدْرَاكِ غَايَتِه، والوُصُولِ إلى أَعْمَاقِه.

وقد أَدْلَيْتُ بدَلْوِي في الدِّلاء.. وأَنَّى لي؟ والرِّشَا قَصِير، والسَّاعِدُ وَاهِن.

---

(١) كان الدرس ينقل إلى قسم الأخوات بالصوت والصورة.

وقد جاءتْ تلكمُ الدروسُ شَفَوِيَّةً غَيْرَ مُحَرَّرَةٍ وَقْتَ إِلْقَائِها، ثُمَّ أُفْرِغَتْ مِنَ الأشرطةِ المسجلةِ فيها، وفي ذلكَ ما يحملُ بعضَ العذرِ في ضعفِ الأسلوب، وعمقِ الطرحِ والفكرة، مضافًا إلى ما رُوْعِيَ من تفاوُتِ مستوى الدارساتِ العزيزات.

وحسبي أَنْ أَجَلْتُ فِكْرِي، وشَرَّفْتُ لِسَاني بالحَدِيثِ عَنِ الإمامِ العظيم، وشيءٍ مِنْ آثارِه، ودلائلِ امتيازِه، فإِنْ حَظِيَتْ بالقبولِ والرِّضا فذلكَ ما أَرْجُو، وإلاَّ فهو بطاقةُ وَلاء، وصحيفةُ وفاء، وعنوانُ انتماء، أسأَلُ اللهَ الكريمَ أَنْ يَتَوَلّاهُ بِقَبُولِهِ الحَسَنِ الجميلِ ويَجْعَلَهُ ذُخْرًا وزادًا ليومِ لِقَاه، وأَنْ يكافئَ بالحُسنى مَنْ سَاهَمَ في إِحْيَاءِ هذا الأَثَرِ وتَقْوِيْمِه، حُضُورًا وإرشادًا وتوجيهًا ورِعَايَة، وأَنْ يُوَفِّقَ الجميعَ للاهتداءِ بنَهْجِ الحق، والسيرِ في طَرِيْقِهِ المُسْتَقِيم.

والحمدُ للهِ دائمًا وأَبَدًا، والصلاةُ على محمدٍ وآلِهِ سَرْمَدًا.

****

محسن علي المعلم

٩ ربيع المولود سنة ١٤٢٠هـ

١) بين يدي الإمام

صلاة

الحمدُ لله الذي لا يبلُغ مِدْحَتَهُ القائلون، ولا يحصي نعماءَه العادُّون، ولا يؤدِّي حقَّه المجتهدون، والصلاةُ والسلامُ على رسولِهِ الذي اختارَهُ اللهُ من شجرةِ الأنبياء، ومشكاةِ الضياء، وذُؤابةِ العلياء، وسرةِ البطحاء، ومصابيحِ الظلمة، وينابيعِ الحكمة، وعلى وصيِّهِ وخليفتِهِ من بعده وبابِ مدينةِ علمِه، وميزانِ حكمته، وعلى آلِهِ أساسِ الدين، وعمادِ اليقين، أزمَّةِ الحقِّ وألسنةِ الصدق، شجرةِ النبوة، ومحطِّ الرسالة، ومختلفِ الملائكة، ومعادنِ العلمِ، وينابيعِ الحكمة.

وبعدُ.. فقد قالَ اللهُ العظيم في محكَمِ كتابِهِ الكريم:

﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[١].

افتتاح

نفتتح درس (نهج البلاغة) ببركات أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) ومن حسن التوفيق أن يأتي هذا الدرس بعد إنهاء درس (في رحاب القرآن) في هذا المجلس المبارك، ذلك لأن كلام الأمير عليه السلام فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق تبارك وتعالى، وأود أن تكون الدروس الأولى حول صاحب النهج ثم حول جامع النهج وبعدها حول هذا النهج الخالد.

---

(١) سورة الرعد / ٤٣.

وإني لأبتعد وأنأى عن أن أتناول شخصية أمير المؤمنين عليه السلام من جوانب طرح الأدلة التي تثبت منزلته السامية ومقامه الرفيع، ذلك لأن هذه القضية قد أحكمت إحكامًا، وهي بمنأًى عن التشكيك، وفضائله -صلوات الله وسلامه عليه- من الضروريات المسلَّمات التي لا تحتاج إلى إثبات سند أو عنعنة رواية أو رد شبهة أو فرية، وفي شخصيته صلوات الله عليه تتعانق الكمالات وتتسابق إلى ذاته، فهو ملتقى الفضائل في أروع صورها.

فنتناول -هنا- ثلاثة أمور.

أولاً: الإعداد الإلهي التكويني لهذه الذات المقدسة

وقد تجلّى ذلك في ناحيتين: حديث الولادة، وتربيته في حجر الإيمان.

أ) حديث الولادة:

فهو من قلب الشجرة الهاشمية الكريمة المباركة، وجاءت ولادته في عناية إلهية خاصة فوق المقاييس، وفوق الاختيار البشري، فلم يكن لفاطمة بنت أسد أن تختار، ولم يكن لأبي طالب، ولم يكن لعلي، ولم يكن للرسول، إنما كان لله وحده أن يختار.

وقد اختار اللهُ تعالى أن يشرِّف كعبتَه بمولد أمير المؤمنين عليه السلام، وتلك منزلة لم تكن لوليٍّ مقرَّب، ولا لنبيٍّ مرسل، إنما كانت لوليِّ اللهِ الأعظم، وأشرقت الكعبة بنور علي فكانت مولده ومهده.

قال الشيخ حسين نجف:

جَعَلَ اللهُ بيتَهُ لعليٍّ مولدًا يا لَهُ عُلًا لا يُضاهَى
لَمْ يُشَارِكْهُ فِي الولادةِ فيهِ سَيِّدُ الرُّسْلِ لا ولا أَنْبِيَاها

وقد قال عبدالباقي العمري في رائعته:

أنتَ العَلِيُّ الذي فوقَ العُلَى رُفِعَا بِبَطْنِ مَكَّةَ وَسْطَ البيتِ إِذْ وُضِعَا

وقال السيد الحميري:

وَلَدَتْهُ فِي حَرَمِ الإلهِ وأَمْنِهِ والبيتُ حيثُ فناؤُهُ والمسجدُ
بيضاءُ طاهرةُ الثيابِ كريمةٌ طَابَتْ وطَابَ وَلِيدُها والمَوْلِدُ

وقال السيد حسين البروجردي (ت١٢٨٤هـ):

هو الذي كانَ بيتُ اللهِ مَوْلِدَهُ وصاحبُ البيتِ أدرى بالذي فيهِ

وقلت -وهو أول شعر قلته-:

رخامةٌ لَمْ تكنْ قِدْمًا سِوَى حَجَرٍ لا فَضْلَ فيها على نوعٍ مِنَ الحَجَرِ
شَرَّفْتَها وَسْطَ بيتِ اللهِ فافْتَخَرَتْ بِحِكْمَةٍ قد أَرَادَتْها يَدُ القَدَرِ

وقد أشبع شيخ المحققين الأميني الموضوع بحثًا بإيراد المؤلفين والشعراء وإضمامة من الشعر في هذا الحدث الأعظم[1].

ورَدَّ الإمام عليه السلام هذا الجميل بأن طَهَّر البيت من الأصنام:

---

(١) الغدير ٦/ ٢١-٣٨ (ولادة أمير المؤمنين عليه السلام في الكعبة).

لَمَّا دعاكَ اللهُ قِدْمًا لِأَنْ تُولَدَ في البيتِ فلبيتَهُ
شَكَرَتهُ بين قريشٍ بأَنْ طَهَّرْتَ من أصنامِهم بيتَهُ

ب) تربيته في حجر الإيمان:

وليس هناك من لحظة فاصلة بين حديث الولادة وتربيته في حجر الإيمان، فقد فتح عليٌّ عينيه وهو بين يدي رسول الله صلى الله عليهما وآلهما، فكانت تربيته، بدنًا وروحًا وقلبًا وفكرًا وخلُقًا وكل وجوده، على يدي أشرف خلق الله محمد ﷺ.

وتقصر الكلمات هنا ويتراجع البيان، وما دام علي فوق المخلوقين -في امتيازاته باستثناء النبي الأعظم- فهم عاجزون عن الحديث حول هذه التربية الخاصة، إذن فلتصغِ قلوبنا إلى ما يقوله عليٌّ -وهو الصادق الأمين- مؤرِّخًا هذه الفترة من حياته الشريفة.

يقول عليه السلام(١):

«أنا وضعتُ في الصغرِ بكلاكلِ العربِ، وكسرتُ نواجمَ قرونِ ربيعةَ ومضر، وقد علمتُم موضعي من رسولِ الله ﷺ بالقرابةِ القريبة، والمنزلةِ الخصيصة، وضعني في حجرِه، وأنا ولدٌ، يضمُّني إلى صدرِه، ويكنُفُني في فراشِه... وما وجدَ لي كَذبةً في قولٍ، ولا خَطلةً في فعلٍ، ولقد قرنَ اللهُ به ﷺ مِنْ لَدُنْ كان فطيمًا أعظمَ ملَكٍ من ملائكتِه، يسلكُ به طريقَ المكارم، ومحاسنَ أخلاقِ العالم، ليلَهُ ونهارَه، ولقد كنتُ أتبعهُ اتباعَ الفصيلِ أثرَ أمِّه، يرفع لي في كلِّ يومٍ من أخلاقِه عَلَمًا ويأمرني بالاقتداءِ به.

---

(١) نهج البلاغة، خ١٩٢، ص٣٠٠ - ٣٠١.

ولقد كان يجاوِرُ في كلِّ سنةٍ بحراءَ، وأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلامِ غيرَ رسولِ الله ﷺ وخديجةَ وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة...».

نعم، لَإِنْ كان اللهُ تعالى خصَّ محمدًا بأعظمِ ملَك، فقدخصَّ اللهُ عليًّا بمحمدٍ وهو أعظم الخلق فقال: «أنا أديبُ الله وعليٌّ أديبي»(١).

ثانيًا: مصادر علمه عليه السلام

من منافذ التعرف على شخصيته عليه السلام منافذ العلم الذي حوته جوانحه، وكيف كان عليٌّ بها عليًّا، وهذه المنافذ هي:

أ) القلب الواعي:

ففيه نزلت -بعد دعاء الرسول له- ﴿وتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾(٢).

فلم يسمع شيئًا من عطاء رسول الله ﷺ إلاَّ وعاه.

ب) الإلهام:

وهو أعظم من الجانب الأول، فلقلبه من الانشراح والصفاء ما يطَّلع به على كلِّ ما في الكون، وعلى حقائق الأشياء، فلم يُسْأَلْ عن مسألة، أو يُفْزَعْ إليه في نازلة إلاَّ وأتى بحلها وكشف جوابها.

---

(١) بحار الأنوار ١٦/ ٢٣١.

(٢) سورة الحاقة / ١٢.

ومن مصادر نزولها في علي: أسباب النزول / ٢٩٤، وشواهد التنزيل ٢/ ٢٧١-٢٨٥، والدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/ ٢٦٠، ولباب النقول في أسباب النزول / ٢١٩.

ج) حديث الملائكة:

وقد كان ذلك في زمن الرسول الأكرم ﷺ وكذلك بعده كما مرَّ في الخطبة الشريفة السابقة الذكر، وكما جاء في الروايات[١].

وهذه ملامح منزلة تسمو على منازل أولي العزم من الرسل.

د) الملَكة الخاصة:

يرى الشيخ ميثم البحراني -أعلى الله مقامه- أن ما يخبر به أمير المؤمنين عليه السلام من المغيَّبات وعلم الملاحم، ليس ناتجًا من مجموعة أحاديث سمعها من النبي ﷺ -وإن كانت هذه منزلة سامية أن يكون مستودع أسرارِ الله- ولكن الأمر يرجع إلى منزلةٍ أسمى وهي الملَكة الخاصة التي تشرق بها هذه النفس الإلهية المميزة فتطَّلع على ما في الكون، فتفيض علمًا وإحاطةً.

بل إن هناك رأيًا لبعض العلماء أسمى حتى من هذه المنزلة، وإلَّا فما معنى أن يستوعبَ إنسانٌ ألف ألف (مليون) باب من العلم في مناجاةٍ واحدة! إنه لأمر فوق التصور وخلاف المقاييس![٢].

وبهذا وغيره لم يتردد علي في حكم قط ولم يتحير في مسألة أبدًا[٣].

---

(١) الكافي ١/ ٢٣٠ (ما أعطي الأئمة من اسم الله الأعظم) وص٢٦٤ (جهات علوم الأئمة) وص٢٧٠ (أن الأئمة عليهم السلام محدثون فهمون) وص٢٧٣ (الروح التي يسدد بها الأئمة عليهم السلام) وأحاديث كثيرة في مواطن عديدة.

(٢) شرح نهج البلاغة ١/ ٨٣-٨٥.

(٣) عن عكرمة عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قال له (لعلي): يا أبا الحسن إنك لتعجل في الحكم والفصل للشيء إذا سئلت عنه، قال: فأبرز علي كفه وقال له: كم هذا؟ فقال عمر: خمسة،

وإلى الآن في مسمع الدهر ووعيه: «**سلوني قبل أن تفقدوني**» وهي كلمته الشهيرة والتي ما قالها أحد غيره إلا افتضح.

ولهذا يرى الشيخ الأميني أن النظر إلى الإمامة باعتبارها مرتبة سامية من الكمالات التي نملكها هو حط من عالي قدرها وجهل بحقيقتها، بل يجب النظر لها من الجانب الآخر الذي هو مصدر الفيض لها ألا وهو الله تعالى وتقدس الذي اختار الإمامة والأئمة[1].

ثالثًا: طرق التعرف على أبعاد شخصيته عليه السلام

أ) كتاب الله الأكرم:

وهو الطريق الدقيق الصائب الذي لا يضاهيه قول مبدع منصف أو شاعرٍ عاشقٍ لعليٍّ محلِّق، فمن أراد ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام فإن كتاب الله تعالى خير مصدر لذلك.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[2].

فمِمَّا تثبت به القضايا شهادة شاهدي عدل، وهذه القضية الكبرى شاهداها هما الله تعالى وعليّ، فأي شيء فوق أن يكون أمير المؤمنين (مع الله تعالى!) شاهدًا

فقال: عجلت أبا حفص، قال: لم يَخْفَ عَلَيَّ، فقال عليٌّ: وأنا أسرع فيها لا يخفى عَلَيَّ.

بحار الأنوار ٤٠/ ١٤٧، وشواهد التنزيل ١/ ٣٠٧.

(١) من تسجيل صوتي لحديث للشيخ الأميني رحمه الله.

(٢) سورة الرعد/ ٤٣.

على صدق النبوة بكلِّ عظمتها ومقامها الجليل.

وخذ آية التطهير وعشرات بل مئات الآيات التي ترجمت مقامه وبيّنت أنه نفس النبي وناهيك به من مقام(١).

ولسنا بعد ذلك بحاجةٍ إلى ترجمة أحدٍ، وقد قال النبي ﷺ:

«يا عليُّ ما عَرَفَ اللهَ حَقَّ معرفتِهِ غيري وغيرُك، وما عَرَفَكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ غيرُ اللهِ وغيري»(٢).

ب) الرسول الأعظم محمد ﷺ:

فقد عاصر دعوة الرسول ﷺ من أول يوم إلى آخر يومٍ مرورًا بهذه الفترة وأحداثها، فكان عليٌّ فيها روحَ النبيِّ وقلبَه بل كانَ نفسَه:

﴿وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾(٣).

وكفى لذلك حديث «عليٌّ مِنِّي وأَنَا مِنْه»(٤).

ج) دلالة عليٍ على ذاته بذاته:

فهو يدل بذاته على كمالاته ومقامه، ومن هذه الدلائل هذا النهج المعجز الخالد، الذي لم يتجلَّ فيه هذا الإبداع في الصياغة وحسب، بل فيه تبيان لكلِّ

(١) كما في آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أَبْنَاءَنا وأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنا ونِسَاءَكُمْ وأَنْفُسَنا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ على الكاذبين﴾. سورة آل عمران/ ٦١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣/ ٦٠.

(٣) سورة آل عمران / ٦١.

(٤) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تأريخ دمشق ١/ ١٤٨.

شيء، فهو فكرٌ إلهي في قوالب علوية، والقرآن فكر إلهي في قوالبَ إلهية.

وإذن فمصدر الإبداع واحد وهو الله تعالى وتقدس فلا غروَ أن يكون نهج البلاغة بهذا المستوى وبهذا المقام الجليل.

وختامًا..

وإن كان يلذُّ للروح والمشاعر والوجود أن تهيم في هذه الذات، إلاَّ أننا ختامًا نكتفي بهذا الأثر الذي يرويه العلاَّمة الحلي[1]، يقول الراوي:

سمعتُ رسول الله ﷺ وقد سُئِلَ بأي لغةٍ خاطبك ربُّك ليلة المعراج فأجاب: «خاطبني بلغةِ عليٍّ عليه السلام، فألهمني أنْ قلتُ: يا ربِّ خاطبتني أم علي عليه السلام؟ فقال: يا أحمد، أنا شيءٌ لا كالأشياء، خلقتُكَ من نوري وخلقتُ عليًّا من نورِكَ، فاطَّلعتُ على قلبك فلم أجدْ أحدًا إلى قلبِكَ أَحبَّ من عليِّ بنِ أبي طالب فخاطَبْتُكَ بلسانِهِ كيما يطمئِنَّ قلبُك»[2].

وفي الحقيقة، أنا لا أفهم هذا السرَّ وما معنى هذه المخاطبة، وأعتقد أن الأمر لا يعني أنه كلام يشبه كلام عليٍّ ونبراتٍ كنبراته، بل أعتقد أن الأمر فوق ذلك وله أسرار لا نحيط بها.

وهذه رواية يرويها مخالفو أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانب مئات بل آلاف الروايات التي تشير إلى شخصية أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) منهاج الكرامة / ١٢٥.

(٢) كشكول البحراني ١/ ٥٤ وقد أورد روايتين، الثانية منهما عن أبي المؤيد الموفق ابن أحمد المعروف بأخطب خوارزم في الباب السادس من كتاب (المناقب) ص٧٨، ط٣.

هـذه الشـخصية التـي خلّدهـا التأريـخ ولم يخلـد غيرهـا ممـن تسـلّم الخلافـة أو غيرهـم، وهـم الذيـن كانـوا يحرجـون حينـما يتحدثـون! وأمـا أمـير المؤمنـين عليه السلام فإنـه خلَّـد للأجيـال -فيـما خلّـد- هـذا النهـج الـذي هـو أثـر مـن آثـار الله تعـالى.

وبعـد .. حيـث نحظـى بنعمـة دراسـة نهـج البلاغـة في حـين يُحْـرَمُ منهـا الكثـير، فجـزاء هـذه النعمـة هـو العمـل بهداهـا وأن تَنفُـذَ إلى أعماقنـا.

نسـأل الله أن نكـون ممـن يقتـدي بأمـير المؤمنـين عليه السلام وأن لا نكـون ممـن يسـاهم في ظلمـه، فـإن مـن الظلـم، بـل مـن أشـد الظلـم لعليٍّ أن يبقـى نهـج البلاغـة بعيـدًا عـن فكرنـا وحياتنـا ومشـاعرنا، في حـين أنـه هـو الفكـر الأصيـل والتربيـة الصحيحـة والموعظـة والثقافـة والتأريـخ والعطـاء الـذي لا حـدَّ لـه.

إذن جديـر بنـا ونحـن ننتمـي إلى هـذه الدوحـة بـكلِّ فخـرٍ واعتـزاز، أن نحيـى حيـاة عـلي بـن أبي طالـب.

«اللهُـمَّ أحيني عـلى مـا أحييـتَ عليه عـليَّ بـنَ أبي طالـب وأَمِتْني عـلى مـا مَـاتَ عليـهِ عـليُّ بـنُ أبي طالـب»[1].

(١) من أدعية تعقيب صلاة الصبح، مفاتيح الجنان / ١٩.

٢) الشريف الرضي

مدخل

أردت أن يكون هذا الحديث حول الشريف الرضي ناظمِ عقدِ النهجِ العلوي، وذلك للتعرف على شخصية جامع النهج لتحديد مدى ثقتنا بما جمعه لنا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ومدى دقة اختياره وتعليقاته حول هذا العِلم الإلهي والكلام النبوي، وإن كان الشريف الرضي أسمى من أن يُعَرَّفَ أو يرقى له شك.

أولاً: نسب الشريف الرضي

جدِّي النبيُّ وأمي بنتهُ وأبي ... وصِيُّهُ وجُدودي خِيرَةُ الأُمَمِ
لنا المقامُ وبيتُ الله حُجْرَتُهُ ... في المجدِ ثابتةُ الأطنابِ والدُعمِ[١]

هو أبو الحسن محمد بن الحسين الطاهر بن محمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم المجاب بن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

وهو -كما في مصطلحهم- قصير النسب، أي يكفي ذكر هذه السلسلة الشريفة من نسبه للتعريف به وأنه منحدر من شجرة مباركة، ويُعَدّ هذا مفخرة وشرفًا كبيرًا.

(١) ديوان الشريف الرضي ٢/ ٣٨٨.

وكان أبوه جليلًا عالي القدر، تقلب في مناصب العظمة من النقابة (يلقب بالنقيب الأوحد) وكذلك منصب رد المظالم وإمارة الحجيج، وما إلى ذلك من مراتب عظيمة.

وأما أمه فهي المرأة الجليلة فاطمة بنت الناصر من سلالة زين العابدين عليه السلام وقيل يلتقي نسبها بنسبه بأمير المؤمنين عليه السلام من طريق ابنه عمر، وكانت أمه عظيمة الشأن جليلة المواقف، ولقد قال فيها الرضي:

لو كان مثلَكِ كلُّ أمٍّ برَّةً   غني البنونَ بها عن الآباءِ[1]

ولد الشريف الرضي رضي الله عنه سنة ٣٥٩هـ وتوفي سنة ٤٠٦هـ فيكون عمره الشريف المبارك والقصير الطاهر ٤٧سنة فقط، وفي هذا يقول أخوه المرتضى:

لله عمرُكَ من قصيرٍ طاهرٍ   ولَرُبَّ عمرٍ طالَ بالأدناسِ

ثانيًا: حياته ومعالم شخصيته

أ) إشارات إلى عظمة شخصيته منذ صباه:

فمن ذلك ما رواه شيخ الأمة ومعلمها أبو عبد الله محمد بن محمد المفيد الأجل -قدس الله روحه الطاهرة- يقول بأنني رأيت فاطمة الزهراء عليها السلام وقد جاءت إلى المسجد وبيدها الحسن والحسين عليهما السلام فقالت لي: يا أبا عبد الله، هذان ابناي فعَلِّمْهُما الفقه، يقول: فتحيرتُ من هذه الرؤيا... حتى كان اليوم الثاني فإذا بي وأنا في المسجد قد جاءت فاطمة بنت الناصر ومعها وصائفها ومعها جواريها

(١) ديوان الشريف الرضي ١/ ٢٧.

وهي في وسطهم وبيديها ولداها محمد وعلي[1] وقد قالت لي: يا أبا عبدالله هذان ولداي فعَلِّمْهُما الفقه، فبكيتُ لذلك وذكرتُ لها الرؤيا[2].

فعَلَّمَهُما وقد فتح الله لهما أبواب الفقه وأبواب المعرفة.

هذا الحدث في بداية دور هذه الشخصية، واشتمال الحدث على الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام وواسطة إمام الأمة المفيد، إضافة إلى صدق هذه الرؤيا وانطباقها وتحققها في الخارج -كل ذلك إِنباء في حينه- عن مستقبل هذه الشخصية الزاخرة بالعظمة والعطاء.

ب) العمر القصير:

وإن المرء ليقضي عجبًا أن السيد استطاع في هذا العمر القصير أن يكوِّن كيانًا علميًّا ضخمًا ويخلد آثارًا ويصنع قيادة مميزة -كما سنتحدث عن هذا هنا إن شاء الله تعالى- ولكن أَلاَ يرفع هذا التعجب معرفتنا أنه من سلالة النبوة وشرف الإمامة وكفى؟

ج) الكيان العلمي العظيم:

كانت بغداد آنذاك عاصمة العلم ومهوى الأفئدة، وكانت مجمع العلماء على اختلاف مللهم ونحلهم وأفكارهم، وحسبك أن فيها عالم الأمة الأوحد وإمامها المفيد، وكانت له حلقته الكبرى، ومع ذلك فقد كان لتلميذه الشريف الرضي حلقته المميزة لجامعيّته للعلوم، وكان له مقام خاص مميز في هذه العلوم لا سيما

---

(١) محمد هو الرضي، وعلي هو المرتضى.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٤١.

فيما يتعلق بالعربية وفنون الأدب، وكان له ما يسمى مجمعًا علميًّا ومكتبة مميزة يرتادها أقطاب الأدب وروّاد المعرفة، على غرار أخيه المرتضى وأستاذه المفيد[1].

د) آثاره:

وَجَّهَ الشريف الرضي عنايته العلمية -أولًا- إلى كتاب الله تعالى، وآثارُهُ حول القرآن الكريم كثيرة، منها:

١) (حقائق التأويل) ويوجد منه الجزء الخامس فقط عنيت بطباعته جمعية منتدى النشر في النجف الأشرف، ومما يؤسف له عدمُ وجود الأجزاء الأخرى من الكتاب، وذلك خسارة للمكتبة الإسلامية إذ يعد هذا الكتاب بمقدار كتاب (التبيان) للشيخ الطوسي -قدس سره- أو تفسير الطبري، ومع ذلك فإنه يُعرف من هذا الجزء المطبوع عمق الشريف الرضي في علم الكلام والعربية والتفسير وما يدور في هذا الفلك.

٢) (تلخيص البيان في مجازات القرآن) وهو مطبوع.

٣) (معاني القرآن)، وكتب أخرى كثيرة حول القرآن الكريم.

ثم وَجَّهَ عنايته العلمية -ثانيًا- إلى حديث جده ﷺ، ومن آثاره فيه (مجازات الآثار النبوية)، وقد يسمّى (المجازات النبوية) وهو -بحمد الله- مطبوع.

ثم وَجَّهَ عنايته -ثالثًا- إلى فضائل آبائه الطاهرين عليهم السلام، فكان من ذلك جمعه لمعجزة علي (نهج البلاغة).

(١) لاحظ حقائق التأويل (المقدمة) / ٨٦.

كما للشريف الرضي شروحٌ وتعاليقُ على كتب غيره وجمع لشعره وشعر غيره مثل (الحسن من شعر الحسين) أي الحسين بن الحجاج الشاعر الشهير.

هـ) جمعه لنهج البلاغة:

لا شك أن من تسمو نفسه إلى هذه القمم الشامخة ويتوجه إلى دُرَرِ وجواهرِ أمير المؤمنين عليه السلام لينظمها في عقد (نهج البلاغة) ينبغي أن يكون له من السمو ما يليق بشجرة النبوة.

وينبغي أَلاَّ يظن أن هذا الجمع أمر سهل يسير، فإن الاختيار دليل عقل المختار.

فلما بلغ الشريف الرضي من الكمالات والاستعداد، والنضج الفكري ما يؤهِّله لجمع النهج توجه لذلك، ولنصغِ إليه في مقدمته القيمة للنهج وهو يحدثنا عن جمعه للنهج، يقول رضوان الله تعالى عليه:

«فإني كنتُ في عنفوانِ السن، وغضاضةِ الغصن، ابتدأتُ في تأليفِ كتابٍ في خصائصِ الأئمةِ عليهم السلام، يشتملُ على محاسنِ أخبارِهم وجواهرِ كلامِهم، حَدَاني عليه غرضٌ ذكرتُهُ في صدرِ الكتاب، وجعلتُه أمامَ الكلام، وفرغتُ من الخصائصِ التي تخصُّ أميرَ المؤمنين عليًّا عليه السلام وعاقت عن إتمامِ بقيةِ الكتاب محاجزاتُ الأيام، ومماطلاتُ الزمان، وكنتُ قد بوَّبتُ ما خرج من ذلك أبوابًا، وفصَّلتُهُ فصولًا، فجاء في آخرِها فصلٌ يتضمنُ محاسنَ ما نقِلَ عنه عليه السلام من الكلامِ القصيرِ في المواعظِ والحكمِ والأمثالِ والآداب، دون الخطبِ الطويلةِ والكتبِ المبسوطة، فاستحسَنَ جماعةٌ من الأصدقاءِ ما اشتمل عليه الفصلُ المقدَّمُ ذكرُه معجبينَ ببدائِعِه، ومتعجبينَ من نواصِعِه، وسألوني عند ذلك أن أبتديءَ بتأليفِ كتابٍ يحتوي على

مختارِ كلامِ مولانا أميرِ المؤمنين عليه السلام في جميعِ فنونِه، ومتشعباتِ غصونِه: من خطبٍ، وكتبٍ، ومواعظَ، وأدب، علمًا أن ذلك يتضمن من عجائبِ البلاغة، وغرائبِ الفصاحة، وجواهرِ العربية، وثواقبِ الكَلِمِ الدينيةِ والدنيوية، ما لا يوجدُ مجتمعًا في كلام، ولا مجموعَ الأطرافَ في كتاب، إذْ كان أميرُ المؤمنين عليه السلام مشرَعَ الفصاحةِ وموردَها، ومنشأَ البلاغةِ ومولدَها، ومنه عليه السلام ظَهَرَ مكنونُها، وعنه أُخِذَتْ قوانينُها، وعلى أمثلتِهِ حذا كلُّ قائلٍ خطيب، وبكلامِهِ استعانَ كلُّ واعظٍ بليغ، ومع ذلك فقد سبقَ وقصروا، وقد تقدَّمَ وتأخَّرُوا، لأنَّ كلامَهُ عليه السلام الكلامُ الذي عليه مسحةٌ من العلمِ الإلهي، وفيه عبقةٌ من الكلامِ النبوي...».

إذن فالشريف الرضي رضي الله عنه بكل ما يحمل من شرف السيادة وطيب العنصر، وعلمٍ وإيمانٍ ومراقبةٍ لله تعالى، ومن فصاحةٍ وبلاغةٍ وذوقٍ رفيع - نجده هو (وليس غيره) الذي أشرف بنفسه على انتقاء وجمع هذا الأثر الخالد، وهذه الحقيقة في الواقع توثيقٌ لهذا الجمع وحسْمٌ وردٌّ رادعٌ لكل مثيري التشكيك حول هذا النهج العظيم.

و) القيادة المميزة:

شَرَّفَ الشريف الرضي مناصبَ عدة ضخمة تصل إلى حدّ أنها خلافة في خلافة كما يحلو لبعض المؤرخين التعبير به، فلم يتجاوز العشرين قليلًا إلاَّ وهو نقيب الطالبيين يرعى شؤونهم رعاية تامة، ويحصيهم ويراقب الداخل فيهم بغير حق والخارج منهم، ويفي لهم بحقوقهم ويقوم بتأديبهم وإرشادهم وتوفير عطاياهم والقيام بقضاياهم.

ثم ترَقَّى ليكون نقيب النقباء، ثم أُوْكِلَتْ إليه ولاية المظالم وإقامة الحقوق،

ثم إمارة الحاج وهذا منصب كان في ذلك الوقت كبيرًا وخطيرًا يعتبر تمثيلًا للخليفة العام في أهم موسم للمسلمين وهو الحج العظيم، ولم يكن هذا المنصب ليعطى إلاَّ لمن توفرت فيه الشجاعة والحزم والعلم وسائر المؤهلات والكمالات.

ثم ترقَّى ليعطى إمارة الحرمين.

وكان كفوًا لهذه المناصب بل كان أكثر من ذلك، حتى أنه كان يطمح أن يشرف الخلافة بتوليه إياها[1].

ثالثًا: صفاته

١) النبوغ المبكر:

ومن شواهد ذلك أن السيرافي -شيخ العربية في وقته- كان أستاذًا للشريف الرضي (وعمره ١٠ سنوات) فسأله مختبرًا: ما علامة النصب في قولنا: رأيت عُمَرَ (أو عَمْرًوا)؟

فأجاب الشريف الرضي على البديهة: إنَّ عَلامَةَ النَّصْبِ بُغْضُ أَمِيرِ المؤمِنينَ عليه السلام، فعجب الحاضرون من جرأته في ذلك المحفل، الذي ملؤه علماء العامة، وسرعة بديهته وحِدَّةِ فكره[2].

٢) إباؤه المنقطع النظير:

عُرِفَ عنه أنه كان يأبى أخذ العطية حتى من أبيه، ويذكر المؤرخون أنه عندما حفظ القرآن الكريم وهو شاب حدث السن، قال له معلِّمه:

(١) يلاحظ الغدير ٤/ ٢٠٤ إلخ و(حقائق التأويل) المقدمة / ٧٨ إلخ.

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١/ ٢٣٤.

«أيها الشريف أين مقامك؟ قال: في دار أبي، بباب محول، فقال: مثلك لا يقيم بدار أبيه، قد نحلتك داري بالكرخ المعروفة بدار البركة، فامتنع الرضي من قبولها وقال له: لم أقبل من أبي قط شيئًا، فقال: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك عليك، لأني حفظتك كتاب الله تعالى، فقبلها»(١).

٣) سموّ نفسه:

فإنه وهو الشاعر العظيم الذي تنقاد له القوافي وتستجيب له المعاني قد ترفّع عن التملق للحكام بالمدح الفارغ لنيل عرض الدنيا مهما كان كثيرًا، ولم يتنزّل في وصفه للغزل والخمريات كعادة الشعراء حتى الكبار منهم، بل كان في جانبٍ واضحٍ يُرْمَقُ من الوقار والترفّع، فلم يساوم بشعره على حساب شخصيته، ولهذا لقب بالشريف الأجل، ولا شك أن ذاك الإباء وهذا السمو عالم خاص ارتضاه الشريف الرضي لنفسه السامية.

٤) كرمه:

كان كريمًا كآبائه الكرام، ومن ذلك أنه وأثناء سيره للحج أميرًا على الحجاج، قطع عصابة عليه الطريق، ففدى الحجاج وحَفِظَ حياتهم هو وأخوه بتسعة أو سبعة آلاف دينار من مالهما الخاص(٢).

٥) علو همته:

فكان -كما مرَّ- يتطلع إلى أن يشرف الخلافة بتوليه إياها، ويرى نفسه أحق بها من أولئك الخلفاء.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٣٤.

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١/ ٢٣٥.

فيخاطب أحد الخلفاء قائلًا:

إِلاَّ الخِلافَةَ مَيَّزَتْكَ فإنني   أنا عَاطِلٌ عَنْهَا وأَنْتَ مُطَوَّقُ

ويمسك بلحيته الشريفة يشمها فيلتفت إليه الحاكم الكبير آنذاك قائلًا: كأنك تشم منها رائحة الخلافة، فيجيبه السيد: لا، وإنما رائحة النبوة[1].

٦) شموليته وجامعيته للمعارف والكمالات:

يبرز العظماء والعباقرة في مجال أو مجالات محددة، وقلّ من يبرز في كل مجال، والشريف الرضي من هؤلاء القلة، فقد برز وحلّق في كل فضيلة ومنقبة، وما ذكرناه في هذا الدرس الشريف دليل كافٍ على هذا الاعتقاد، رغم أن ما ذكر شيء يسير من عطائه وشخصيته الفذة، ويجب أن نعترف بأننا قصرنا في بيان فضل السيد رضي الله عنه إلاّ أن شهرته التي ملأت الخافقين تغني عن بياننا، فهو الخالد بخلود جده أمير المؤمنين عليه السلام[2].

رابعًا: الشريف الرضي قدوة للمؤمنين الموالين

أغتنم الفرصة ونحن في هذه الرحاب المقدسة الطاهرة أن أشير إلى جوانب القدوة لنا في هذه الشخصية النادرة، فإنه كان يريد للطالبيين، وهو نقيبهم ومؤدبهم، أن يكونوا أفضل العباد، وأن يحاكوا آباءهم الطاهرين في إيمانهم واستقامتهم وهديهم، ولهذا كان عندما يُرْفَعُ إليه طالبيٌّ جَنَى يوفّيه حقه من التعزير ثم يضيف إليه تعزيرًا آخر، فيُسْأَلُ عن ذلك فيجيب بأن هذا سلالة منتجَبة من

---

(١) الكشكول للشيخ يوسف البحراني ١/ ٣١٦.

(٢) يلاحظ حقائق التأويل في متشابه التنزيل (المقدمة) / ٨٤-٨٥.

محمد وعلي وفاطمة فيجب أن يكون عمله يليق بهم وأن يكون قدوة للآخرين[١].

ويقول لبعض القائمين بالأمور:

لا تَنْظُرِ الباغِي لِقُرْبَى وَارْمِهِ   بِالذُّلِّ واقْطَعْ ما عَلَيهِ يُعَوِّلُ
والعَفْوُ مَكْرُمَةٌ فَإِنْ أَغْرَى بِها   مُتَغافِلٌ قالَ الرجالُ مُغَفَّلُ[٢]

فيجب ونحن أتينا هنا يجمعنا حبنا ورغبتنا في عطاء أمير المؤمنين عليه السلام أن نكون لائقين به ونحاسب أنفسنا بمقاييسه عليه السلام، يجب على الطالب العزيز أن يهذِّب نفسه من كل منقصة قبل الحضور إلى درس (**علي**) لأنه هو الكمال ولا يرضى منا النقص، علينا أن نلتفت إلى قولنا وعملنا وصحبتنا للآخرين لتكون سيرتنا على (**نهج علي**)، وهذا درس لنا جميعًا أن نستشعر أننا أتينا هنا لنكون بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام فيجب أن نكون في مستوى شرف الإضافة والانتساب لائقين لأن نكون تلاميذَ له، وإلَّا كان علمنا وبالًا علينا، وينبغي مجاهدة النفس وتحقيق صفائها لينفذ إليها (**نور علي**).

جعلنا الله ممن يقتدي بمثل هذه السيرة المباركة وأعاننا على أنفسنا.

٣) سهام التشكيك

(١) حقائق التأويل في متشابه التنزيل (المقدمة) / ٦٣.

(٢) حقائق التأويل في متشابه التنزيل (المقدمة) / ٦٣.

مدخل:

كِتَابٌ كَأَنَّ اللهَ رَصَّعَ لَفْظَهُ بجوهَرِ آياتِ الكتابِ المُنَزَّلِ
حَوَى حِكَمًا كالدُرِّ يَنْطِقُ صادقًا فَلا فَرْقَ إلاَّ أنهُ غيرُ منْزَلِ[1]

أولاً: سند نهج البلاغة

أ) مقصد الشريف الرضي:

وهو أن يَنْظِمَ هذا الكَلِمَ في عِقْدٍ واحد ولم يكن من قصده وهمّه أن يكون باحثًا عن مصادر الكتاب التي كانت ثرية بها مكتبته ومكتبة أخيه ومكتبات بغداد عاصمة العلم آنذاك.

ب) الشريف الرضي موضع الثقة والعدالة:

وذلك ما تَعَرَّفْنَاهُ -في الدرس السابق- في هذه الشخصية الفذة من الثقة ومزيد الإيمان والخشية من الله أن يفتري أو يتَقَوَّلَ على جده أمير المؤمنين عليه السلام قولًا لم يقله.

ج) مصادر نهج البلاغة:

إن صح أنها نقطة تُسجَّلُ على السيد الشريف فنيًّا حيث أنه لم يذكر المصادر

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١/ ٢٤٥، ولم ينسبهما إلى قائل.

التي أخذ منها الكتاب[1] (كما يعتاد عليه الباحثون الآن) إلاَّ أنها والحمد لله قد تداركها الباحثون بعده وأشبعوا البحث فيها بما لا مزيد عليه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: التشكيك في نسبة نهج البلاغة

طرأ التشكيك على هذا الكتاب الفريد منذ زمن طويل، وقيل أول المشككين هو ابن خلِّكَان وقيل غيره، واستمر التشكيك ولعله إلى يومنا هذا.

ثالثًا: أسباب التشكيك

أ) أسباب مفتعلة أو ثانوية:

١) الجُمَلُ والمصطلحات غير المعهودة:

من جملة ما لاحظوا أن هذا الكتاب قد حوى جملًا ومصطلحاتٍ فلسفيةً وعلمية يقولون إنها لم تُعْهَدْ في ذلك الزمن.

٢) المواضيع العلمية:

---

(١) قال السيد الأمين في كتابه (أعيان الشيعة) ١/ ٥٤٠، «منها (أي بواعث التشكيك في نهج البلاغة) إنه ليس فيها أسانيد، (والجواب) لأن جامعه لما كان من العلماء الثقات الخيرين وجب قبول قوله في أنه أخذ ما جمعه من كتب العلماء المعتبرة ولم يكن من قصده من جمعه أن تؤخذ منه الأحكام ومسائل الحلال والحرام ليذكر أسانيده، وإنما قصد جمع مختارات كلام له حظه في الفصاحة والبلاغة والمضامين العالية لينتفع قراؤه بذلك، ولو علم الشريف الرضي أنه سيجيء زمان ينكر فيه بعض الناس أن نهج البلاغة من كلام علي ويدعي فيه الركة وهو لا يعرف جامعه فينسبه إلى غيره لاجتهد في ذكر أسانيده وذكر الكتب التي انتخبه منها كما أنه أشار إلى بعضها».

في حديثه عن الله والمعاد وجملة من الشؤون العَقَدية، نلاحظ أنه لم يعهد عند متكلم أن حام حولها أو تكلم بمثلها فجعلوا ذلك دليلًا أن هذا أمر منتحل باعتبار أنه يعبر عن ظواهر لم تعرف إلا في العصر العباسي من جهات علم الكلام أو ما إلى ذلك.

٣) الأسلوب:

بما فيه من سجع وبما فيه من جوانب بلاغية عديدة، وما فيه من إطالة وإطناب لم يعهد في خطب الخطباء آنذاك، فجعلوا ذلك من الطعن والوهن في هذا الكتاب.

٤) حديثه عن علم الغيب ووصفه لمخلوقات لم يرها.

هذه بعض أسباب التشكيك بالإضافة إلى أمور كثيرة أوصلوها إلى أربعة عشر أمرًا أو أكثر.

وتحكي هذه التشكيكات أنهم لم يدركوا ولم يعرفوا مقام أمير المؤمنين عليه السلام لا سيما ومَبْناهم على أنه صحابي كسائر الصحابة وترتيبه الرابع في الفضل عند الكثير.

ب) أسباب حقيقية أو أساسية:

١) احتجاجُ أمير المؤمنين عليه السلام على من تولَّى الحكم ومعارضته الواضحة لهم:

فقد كان صريحًا وواضحًا في أحقيته بالإمامة وأنه الوصي، وقد احتجّ على من ملك الأمر دونه وانتقدهم بعبارات واضحة وصريحة تجلت في خطبته

(الشقشقية)، التي لا يقرّ قرارٌ لأعداء أمير المؤمنين عليه السلام بالاستماع إليها، لأنه إذا تمت نسبتها إليه فإما أن يخطّئوه وإما أن يخطّئوا من خطّأهم أمير المؤمنين عليه السلام، وتخطئة أولئك لا تجوز عندهم، وتخطئة أمير المؤمنين عليه السلام قد يجرؤون عليها، ولكن البعض منهم لا يود أن يصرح بذلك، فلهذا يسعون جاهدين إلى نفيها وأنها لم تصدر منه.

ولهذا توجّه علماؤنا بالذات إلى هذه النقطة بنحو أخص وأثبتوا المصادر التي اشتملت على هذه الخطبة في كتب كُتِبَتْ قبل حياة الشريف الرضي أو قبل تدوينه للكتاب، أَوْ لا أقل، من معاصريه بل من أساتذته[1].

٢) جهلُهم بشخصية الإمام عليه السلام أو بغضهم له مع معرفتهم بمقامه.

---

(١) قال السيد الأمين في (أعيان الشيعة) ١/ ٥٤٠ ما نصه: «وإذا تأملنا بعين البصيرة والإنصاف وجدنا أن الباعث لهؤلاء على إنكار نهج البلاغة كله أو بعضه إنما هو اشتماله على ما ما يعدونه قدحًا في الصحابة المقدسين عن كل قدح كالذي اشتملت عليه الخطبة الشقشقية وغيرها، واشتماله على ما يظهر منه التألم ممن تقدمه في الخلافة وإظهار أنه أحق بها منهم، هذا هو الباعث لهم على الإنكار لا أقل ولا أكثر، وقد أوضح عن هذا المعنى أمير البيان شكيب أرسلان في كلام له في مجمع معه أفاضل دمشق المشهورين(*) حين زارها بعد رجوعه من أوربا بعد الحرب العامة الثانية فجرى ذكر نهج البلاغة فقال أحدهم إنه موضوع على لسان علي ووافقه الباقون والأمير شكيب ساكت فسألوه عن رأيه في ذلك فقال: إذا كان موضوعًا فمن هو واضعه هل هو الشريف الرضي؟ قالوا: نعم، قال إن الشريف الرضي لو قسم أربعين رجلًا ما استطاع أن يأتي بخطبة واحدة قصيرة من خطب نهج البلاغة أو جملة من جمله، نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب دون شك ولكن الذي أوجب الشك فيه اشتماله على القدح في الصحابة الذين هم مقدسون في أنظار الناس».

(*) كذا في المصدر.

رابعًا: الرد على التشكيكات

١) التخبط في التشكيك:

جملة منهم يقولون إن المرتضى هو الذي انتحل هذا الكتاب، وآخرون يقولون اشترك فيه الرضي والمرتضى، وآخرون قد يضيفون آخرين، فلماذا كل هذا؟

٢) اعتراف الشريف الرضي نفسه: فهو يعترف أنه جامع الكتاب.

٣) إرشاده في كتبه إلى ما دَوَّنه في نهج البلاغة.

وهذا من دلائل الصدق والانسجام، أن ينسب في كثير من كتبه، في (المجازات النبوية) أو في (حقائق التأويل) أو غيرها جملة من الكلمات والبحوث أنه قد شرحها في (نهج البلاغة)، بل إن بعض معاصريه يرشدون ويشرحون بعض ما ورد في (نهج البلاغة) من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

٤) بُعْدُ أسلوب الرضي عن أسلوب أمير المؤمنين عليه السلام.

حتى أن ابن أبي الحديد جعل من الحماقة والغفلة والمكابرة والعصبية أن ينبري أحد فيقول إن (نهج البلاغة) منتحل، وقد قال بملء فيه -وهو العالم الأديب- إننا نعرف مقاييس الشعر وكلمات الشعراء وأنفاسهم وانسجامهم ونميز بين شعر ينسب لفلان وشعر ينسب لآخر، وأن هذا دخيل وهذا صحيح لمعرفتنا لأذواقهم ولمذاهبهم الشعرية، فكذلك عندما نقرأ كلمًا أو خطبة أو كتابة للرضي نَفْسِهِ نعرف نَفَسَهُ ونعرف أسلوبه وأنه شتان ما بين ما ضَمَّنَهُ في نهج البلاغة (من كلام الأمير

(عليه السلام) وبين ما كتبه لنفسه ومن عندياته، وسبحان الله أي داعٍ أن يفتخر الرضي بهذا النوع من الكلم وينسبه لغيره؟ لماذا لا ينسبه لنفسه؟[1].

٥) وجود مصادر قبل النهج ذكرت بعض ما في النهج:

كما نبيِّنه هنا إن شاء الله تعالى.

خامسًا: بعض ما أُلِّفَ حول مصادر نهج البلاغة وحول الشبه المثارة

والكتب في هذا المجال كثيرة جدًّا ومن جملتها:

١) (ما هو نهج البلاغة) للعالم الجليل السيد هبة الدين الشهرستاني (رحمه الله)[2].

وكتابه هذا كراس صغير ولكنه استوعب الحديث عن الشبه المورَدَةِ وردَّها ردًّا علميًّا رصينًا.

٢) (نهج البلاغة لمن؟) للشيخ محمد حسين آل ياسين.

تعرّض فيه إلى أن جملة من المقالات نشرت في بعض المجلات فطلبت إليه مجلة (البلاغ) العراقية الحديث عن ذلك، وأفاض القول في النقاط المطروحة للبحث والتي أثارها من حاول التشكيك.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١٢٨ وهو رأي جدير بالنظر والتأمل.

(٢) ولد سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م في سامراء، وقد كان من الأفذاذ وهو بالإضافة إلى علمه وفقاهته وكثرة مؤلفاته ونشاطه الاجتماعي والإصلاحي- أيضًا ممن شغل منصبًا وهو وزير المعارف سنة ١٩٢١م في العراق، وله مكتبة ضخمة عند مرقد الكاظمين (عليهما السلام)، باسم مكتبة الجوادين (عليهما السلام)، وهو صاحب كتاب (نهضة الحسين) و(الهيئة والإسلام)، و(ثقات الرواة)، وأصدر أول مجلة في النجف الأشرف وهي مجلة (العلم)، وتوفي سنة ١٣٨٦هـ ودفن في حرم الجوادين (عليهما السلام).

٣) (مصادر نهج البلاغة) للعلاَّمة الشيخ عبدالله نعمة[1].

وهو كتاب جليل ويتجلَّى فيه جهد علمي كبير، وقد بيّن فيه جملة من المصادر وردَّ كثيرًا من الشبه ولاحظ تأريخها وبداياتها ومن أسَّس عليها وأصَّلها وفرَّع عليها، كما أجاب على كثير من الشبه والإشكالات.

٤) (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) للعلاَّمة الخطيب السيِّد عبد الزهراء الحسيني.

ويكاد يكون موسوعة تجمع بين كثير من الأمور، ففيه الاستدراك والدفاع والمعارف والعلوم الجليلة، وهو جدير بالرجوع إليه والقراءة المتأنية، وقد أوفى الغرض بما ذكر من مصادر وأسانيد، وكأنما أكمل جهد الشريف الرضي، وأشار إلى مؤلفات ومجاميع ذكرت جملًا كثيرة مما في نهج البلاغة أُلِّفت قبل سنة ٤٠٠ هـ (سنة انتشار أو كتابة نهج البلاغة)، وكذلك إلى أعلام دوَّنوا خطبًا وأشاروا إلى كلمات من كلم أمير المؤمنين عليه السلام قبل الشريف الرضي، فمن ذلك:

أ) المفيد وتوفي سنة ٤١٣ هـ.

ب) القاضي أبو حنيفة المصري صاحب كتاب (دعائم الإسلام)، وتوفي سنة ٣٦٣ هـ.

ج) المسعودي الذي توفي سنة ٣٤٦ هـ وذلك قبل وفاة السيد الرضي.

---

(١) أحد علماء لبنان المعاصرين وصاحب كتاب (فلاسفة الشيعة) و(روح التشيع) و(عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة) وكتب أخرى في مجالات عدة.

د) أبو حنيفة الدينوري الذي توفي حدود سنة ٢٩٠ هـ.

وكذلك آخرون وقد جاءت أكثر من ١١٤ مصدرًا كلها قبل سنة ٤٠٠هـ.

٥) (مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه) لآية الله الشيخ هادي كاشف الغطاء.

٦) (مسند نهج البلاغة)، في أجزائه الثلاثة، للمحقق المتتبع العلاّمة السيد محمد حسين الجلالي[١].

سادسًا: مستدركات نهج البلاغة

إن ما أثبته الشريف الرضي في (نهج البلاغة) لم يكن كل ما أُثِر عن أمير المؤمنين عليه السلام، كما صرح الشريف الرضي نفسُه بأنه انتقاه واختاره، وقد يقف على الخطبة فينقلها أو ينقل شيئًا منها، ثم يقف عليها برواية أخرى فيوردها ثانية لاختلاف الروايتين أو يختار، ولهذا كان الشيخ محمد مهدي شمس الدين المعاصر لا يكتم هذا التبرم أو هذه الرغبة المِلحَّة أنه ليت السيد أكمل للبشرية هذا النفع بأن دوّن كل كلم أمير المؤمنين في مختلف المجالات، ومما يهون الخطب شيئًا وجود مستدركات لنهج البلاغة يتمم بعضها بعضًا، فمن ذلك:

١) ما كتب مستقلًّا في مجالات أخرى تتعلق بالدعاء (كالصحيفة العلوية والتحفة المرتضوية)[٢]، و(الصحيفة العلوية الثانية)[٣]، وكبعض خطب الجمعة،

---

(١) وهو أنموذج مميّز في التتبّع بأناة ودقّة، وقد أنجز جملة وافرة في مجالات عدة.

(٢) للشيخ عبد الله السماهيجي من كبار علماء البحرين وقد جمع فيها ما صحت عنده روايته من الدعوات. مصادر نهج البلاغة وأسانيده ١/ ٨١.

(٣) للشيخ الميرزا حسين النوري وقد استدرك فيها ما فات السماهيجي من أدعية أمير المؤمنين عليه السلام

و(ألفين كلمة من حكم أمير المؤمنين عليه السلام) وغير ذلك.

٢) (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة) في ٨ مجلدات للشيخ محمد باقر المحمودي[١].

٣) (مستدرك نهج البلاغة) لآية الله الشيخ هادي كاشف الغطاء.

وغير ذلك كثير.

سابعًا: نهج البلاغة والضجة الفكرية والعلمية

هذا الكتاب في واقع الأمر أَحْدَثَ ضجة، ومن بعض حسناتها المهمة أنها عادت ضجة علمية ضخمة، لماذا؟ لأن الحق لابد أن يظهر وإن حاول الجاحدون إطفاء نور الله ﴿ويَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نورَهُ ولو كَرِهَ الكافِرُونَ﴾[٢].

فنجد أنه قد انبرت للدفاع ولإثبات أمر نهج البلاغة أقلام وأفكار وعقول متفاوتة تختلف في المذهب ولكنها تتحد في النتيجة، فمن كراسة إلى كتاب ضخم في عدة أجزاء كالموسوعة، كلها بيان لهذا الأمر الثابت بما لا يُبقِي ذرة واحدة من تشكيك، وإن الحر تكفيه الإشارة، والمعاند لا تنفعه ألف عبارة، حتى أن بعضهم يأخذ به الهوى والنصب فينال حتى من الشُّرَّاح لهذا النهج العظيم.

ومناجاته. مصادر نهج البلاغة وأسانيده / ٨٣.

(١) هو أحد المحققين المعاصرين وممن له اهتمام بالغ بتحقيق التراث السني الذي يتعلق بأهل البيت عليهم السلام وقد حقق من (تأريخ ابن عساكر) ما يخص الإمام عليًّا وابنيه الإمامين الحسنين عليهما السلام، كما حقق (شواهد التنزيل) للحسكاني، وغيرها.

(٢) سورة التوبة / ٣٢.

نعم، أحدث ضجة علمية وإلى الآن لم تهدأ، يضاف إلى ذلك ما أثاره من أفكار سواءً كان في مجال الفلسفة أو في المعارف الأخرى، فانبرت الأقلام والأفكار للتحليل والتعليل لما كتب، وكما يقول الخطيب السيد عبد الزهراء حفظه الله إنه لو لاحظنا المصادر التي ترجع إلى هذه الأمور لاستطعنا أن نؤلف مكتبة ضخمة باسم (مكتبة نهج البلاغة)[1].

إذن لنا أن نقف في هذا الموقف بكل وثوق بأن هذا الأثر لم يكن أثرًا عاديًا، بل كلما أوغل الإنسان فيه أصابه العجب بل لا يكاد ينقطع عجبه.

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا   إذا مَا زِدْتَهُ نَظَرا

ثامنًا: موضوعات نهج البلاغة وأفكاره

سار نهج البلاغة سيرة القرآن في هداية البشر وتربيتهم، تحدَّثَ في الإلهيات والفلسفة وعلم الكلام وما إلى ذلك، تحدَّثَ عن الإنسان وأسرار خلقته وما يحمل من نوازع وعواطف وخواص وما في هذه التركيبة من صنع الله وإبداعه وإعجازه، تكلَّمَ عن الآخرة والدنيا، تكلَّمَ عن الحرب والسلم، تحدَّثَ عن القرآن والفقه والحديث والنبوة والتأريخ، وأشار إلى الأصول، تكلَّمَ عن الطير والهواء والأرض والسماء والبر والبحر، تكلَّمَ عن كل شيء، وهذا كله جانب، ومواعظه وزواجره ونواهيه وأوامره جانب آخر.

وقد أحسن الباحثون صنعًا في أنهم يستخرجون موضوعات نهج البلاغة ويصنفونها تصنيفًا فنيًّا بما ينسبون كل شيء إلى بابه، تمامًا كما تأمَّل الباحثون

(١) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ١/ ٢٠٠، وقد نقل تحت عنوان (مكتبة نهج البلاغة) مقتطفات قيمة من كلمات الدكتور زكي مبارك.

والمستشرقون منهم فكتبوا في موضوعات القرآن الكريم.

ويقصر الإنسان عن إدراك هذه الحقيقة، كيف يتأتَّى لإنسان تُعْرَفُ عيشته وحياته وجميع شؤونه وأنه عاش في وسط معه كثيرون وسبقه كثيرون أكبر منه سنًّا وجاء بعده من جاء في عصر العلم وازدهاره، هذا وأمير المؤمنين عليه السلام عاش معهم، لهم صلة برسول الله صلى الله عليه وآله كما له على حدٍّ سواء، ولكن لا نجد لهم شيئًا يذكر.

هذا من جهة الكم فما بالكم من جهة الكيف، لم نعهد لعمر أن تحدث في شيءٍ يتعلق بالآخرة ولا بأسرار خلقة الإنسان ولا لأبي بكر ولا لعثمان شيئًا من هذا، ناهيك عن الفصاحة وكون الكلمات والمعاني أسيرة خاضعة خاشعة له عليه السلام، أنا لا أشك أن المدد من النبي بل من الله تعالى، تمامًا كما أن القرآن علم الله الذي أنزل على قلب محمد.

ويطيب لي أن أنقل كلمة لابن أبي الحديد حول امتياز أمير المؤمنين عليه السلام في سائر شؤونه:

«واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو فخر بنفسه، وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته، التي آتاه الله تعالى إياها، واختصَّه بها، وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره، ولست أعني بذلك الأخبار العامة الشائعة التي يحتج بها الإمامية على إمامته، كخبر الغدير، والمنزلة، وقصة براءة، وخبر المناجاة، وقصة خيبر، وخبر الدار بمكة في ابتداء الدعوة، ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصة التي رواها فيه أئمة الحديث، التي لم يحصل أقل القليل منها لغيره، وأنا أذكر من ذلك شيئًا يسيرًا مما رواه علماء الحديث الذين لا يتهمون فيه، وجلهم قائلون بتفضيل غيره

عليه، فروايتهم فضائله توجب سكون النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم...[1].

واعلم أنا إنما ذكرنا هذه الأخبار هاهنا، لأن كثيرًا من المنحرفين عنه عليه السلام إذا مروا على كلامه في (نهج البلاغة) وغيره المتضمن التحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول له صلى الله عليه وآله، وتمييزه إياه عن غيره، ينسبونه إلى التيه والزهو والفخر، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة، قيل لعمر: ولِّ عليًّا أمر الجيش والحرب، فقال: هو أتيه من ذلك! وقال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهى من علي وأسامة! فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله: (نحن الشعار والأصحاب، ونحن الخزنة والأبواب) أن ننبِّه على عظم منزلته عند الرسول صلى الله عليه وآله، وأن من قيل في حقه ما قيل لو رقى إلى السماء، وعرج في الهواء، وفخر على الملائكة والأنبياء، تعظُّمًا وتبجُّحًا، لم يكن ملومًا، بل كان بذلك جديرًا، فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قط مسلك التعظُّم والتكبُّر في شيء من أقواله ولا من أفعاله، وكان ألطف البشر خُلُقًا، وأكرمهم طبعًا، وأشدَّهم تواضعًا، وأكثرهم احتمالًا، وأحسنهم بشرًا، وأطلقهم وجهًا، حتى نسبه من نسبه إلى الدعابة والمزاح، وهما خلقان ينافيان التكبر والاستطالة، وإنما كان يذكر أحيانًا ما يذكره من هذا النوع، نفثة مصدور، وشكوى مكروب، وتنفس مهموم، ولا يقصد به إذا ذكره إلا شكر النعمة، وتنبيه الغافل على ما خصه الله به من الفضيلة، فإن ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحض على اعتقاد الحق والصواب في أمره والنهي عن المنكر الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل، فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَّا يَهِدِّيَ إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]»[3].

(١) ثم ذكر ابن أبي الحديد أربعة وعشرين خبرًا في فضل أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) سورة يونس / ٣٥.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩/ ١٦٦-١٧٥.

تاسعًا: القرآن الكريم ونهج البلاغة سيرة واحدة

١) التشكيك فيهما:

فقد قال القائلون إن القرآن ليس لله وقد قال القائلون إن نهج البلاغة ليس لعلي، وإن هذا ليس ببعيد عن الأسرار من التماثل أو التشابه بين القرآن الكريم ونهج البلاغة حتى في اتهامهما معًا.

٢) وحدة موضوعاتهما:

فقد حذا النهج حَذْوَ القرآن تمامًا لا يفارقه في اتجاهاته في البحث ومناحيه لهداية البشر وتربيتهم كما مرَّ، وصدق القائل وهو الإمام علي نفسه: «هذا كتابُ اللهِ الصامت وأنا كتابُ اللهِ الناطق»[(١)].

والواقع أننا لا نريد أن نغالي في شخصية أمير المؤمنين عليه السلام وَكَفَى بأنهُ يحملُ أسرارَ القرآنِ كاملةً لا يَشُذُّ عنهُ شيءٌ منها.

٣) الاستفادة منهما للجميع:

اقتضت حكمة القرآن أن يستفيد منه كل من قرأ منه، كذلك أيضًا يستفيد من نهج البلاغة كل من قرأ منه، ففي حديث واحد يأخذ بيده أمير المؤمنين عليه السلام إلى مواطنَ عدة من الحكمة البالغة ومن الهدى والسداد.

٤) كشف العلم والزمن عن أسرارهما:

كلما تقدم العلم جلّى شيئًا من حقائقِ القرآن، كذلك أيضًا شاء الله أن يهب نهج البلاغة ذلك.

---

(١) وسائل الشيعة ١٨/ ٢٠.

وبعد.. فذلكم نهج البلاغة.. شعاع من نور علي.. الذي هو نفس رسول الله، يحيط بكثير من الأسرار الإلهية، وأُوْتِيَ فصلَ الخطاب، أبو الشجاعة، وأبو العبقرية النادرة الذي تقصر حتى كلمة العبقرية أن تعبر عنه، وكل هذا ما لا يفقهونه وما لا يفهمونه.. أو يفهمونه ولكن لا يحبون أن يذيعوه أو يعترفوا به.

وتلكم هي الحقيقة مشرقة كالشمس ما ضرها من جادل وشكك فيها.. وذلكم هو الطود الشامخ لم يعبأ بسهام التشكيك.

خاتمة:

نهجُ البلاغةِ نهجُ العلمِ والعَمَلِ ... فاسْلُكْهُ يا صاحِ تَبْلُغْ غايةَ الأمَلِ

كم فيهِ من حِكَمٍ بالحقِّ مُحْكَمَةٍ ... تُحيي القلوبَ ومن حُكْمٍ ومن مَثَلِ

أَلْفَاظُهُ دُرَرٌ أَغْنَتْ بِحِليتِها ... أهلَ الفضائلِ عن حُلْيٍ وعن حُلَلِ

ومِن معانيهِ أنوارُ الهدى سَطَعَتْ ... فانْجَابَ عنها ظلامُ الزَيْغِ والزَلَلِ

وكيف لا وهْوَ نهجٌ طابَ منهجُهُ ... هدَى إليهِ أميرُ المؤمنينَ علِي[1]

٤) بعض الصدى

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١/ ٢٤٤.

مدخل:

نَهْجُ البلاغَـةِ رَوضَـةٌ مَمْطُـورَةٌ   بالنّـورِ مِـنْ سُـبُحَاتِ وَجْـهِ البَـاري
أَوْ حِكْمَـةٌ قُدُسِـيَّةٌ جُلِيَـتْ بهـا   مِـرْآةُ ذَاتِ اللهِ للنُّظَّـارِ
أَوْ نُـورُ عِرْفَـانٍ تَـلأْلأَ هاديًـا   لِلعَالَمِـينَ مَنَاهِـجَ الأبـرارِ

نُضَمِّنُ هـذه الحلقـةَ حـولَ نهـجِ البلاغـةِ جملـةً مـن الإِحصائيـاتِ والمعلومـاتِ عـن هـذا النهـجِ العظيـمِ لِتكـونَ تَتْميـمًا للحلقـةِ السـابقة.

أولاً: الاهتمامُ العجيبُ والعنايةُ التامةُ بهذا الكتاب الجليل

وإن هـذا الاهتـام وهـذه العنايـة لهـما عـلى غـرار ونسـق الاهتـمام بكتـاب الله الأعظـم، فالقـرآن الكريـم لا يـزال وسـيبقى مصـدرًا للبحـث وإِعْـمالِ النظـر في شـتى المجـالات، ولا يَقْـدِرُ العـادُّون إحصـاء التفاسـير والدراسـات التـي تـدور حـول كتـاب الله الأعظـم، ونجـد الاهتـمام العجيـب حـول نهـج البلاغـة لا يـزال وسـيبقى.

ثانيًا: مظاهر الاهتمام

١) الحِفْظ:

فـإن جملـة مـن الحَفَظَـةِ اشـتغلوا بحفظـه كامـلًا عـلى نَسَـقِ كتـاب الله الأعظـم، وذُكِـرَتْ شـخصياتٌ عديـدةٌ ممـن يحفـظ النهـج كامـلًا قديـمًا وحديثًـا مـن العلـماء

والخطباء، ولا شك أن ذلك مظهر من مظاهر الاهتمام[1].

٢) النَّظْم:

كثير من جُمَلٍ وكلمات وأفكار النهج نُظِمَتْ شعرًا سواءً كان ذلك باللغة العربية أو بلغات أخرى كالفارسية والتركية وغيرها، ومن شواهد ذلك ما في تتميم كتاب (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) لمؤلفه العظيم الميرزا حبيب الله

---

(١) قال الصفدي في (الوافي بالوفيات) ١٨/ ٢٣٦: ابن نباتة الخطيب، عبد الرحيم بن محمد... الفارقي، قال سبط بن الجوزي: كان يحفظ نهجَ البلاغة، وعامةُ ألفاظه وخطبه من معانيه.

وقال ابن الأثير في (البداية والنهاية) ١٢/ ٢٦٠: محمد الفارقي أبو عبد الله الواعظ، يقال إنه كان يحفظ نهج البلاغة ويعبر ألفاظه، وكان فصيحًا بليغًا يُكتب كلامه.

وذكر الشيخ الأميني في الغدير ٤/ ١٨٦ جملة من حفاظه وهم القاضي جمال الدين محمد بن الحسين بن محمد القاساني فإنه كان يكتب (نهج البلاغة) من حفظه، والفارقي، والسيد محمد اليماني المكي الحائري، والشيخ محمد حسين مروَّة، وهو من عجائب الحفاظ.

كما ذكر الشيخ الطهراني في الكرام البررة ١/ ١٥٤ أن الشيخ المولى أكبر زمان الكرماني كان حافظًا لنهج البلاغة.

وجاء في مجلة (العرفان) مج٤٤ ج٣ ص٢٨٢ عن الدكتور زكي مبارك أنه يحفظ نهج البلاغة، كما ذكر الشيخ اليعقوبي في البابليات ٢/ ١٨٢ في ترجمة الشيخ مهدي اليعقوبي: ولا أغالي إذا قلت إنه كان يحفظ ثلاثة أرباع نهج البلاغة بما عليها من شروح ابن أبي الحديد وغيره.

وأضاف السيد الخطيب الحسيني في (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) ١/ ٢٥٦ كلًّا من الخطيب السيد صالح الحلي والأستاذ معن العجلي إلا القاصعة والوصية وعهد مالك الأشتر، والشيخ حسن جلو.

وجاء في (مذكرات الشيخ بهلول السياسية) ص٥٦ أنه يحفظ أكثر خطب نهج البلاغة، والشيخ بهلول من النوادر العجيبة الغريبة في شؤونه وأطواره.

الخوئي، فإن من تَمَّمَهُ ذكر بعد كل ترجمة للكلمات القصار أو لبعض الخطب نَظْمًا فارسيًّا لهذه الكلمات القصار أو الحكم التي يوردها[1].

وذلك باعتبار سرعة حفظ الشعر وكونه أسهل وبما يضفي عليه من وَقْعٍ خاص وإن كان لا يرقى قطعًا لبلاغة وفصاحة النهج ذاته، وقد كان ذلك معهودًا في عهد رسول الله ﷺ أن يُنْظَمَ حديثُه[2].

---

(١) وقد نُظِمَ بالفارسية أكثرَ مِنْ نَظْمٍ كما جاء في (مصادر نهج البلاغة) ١/ ٢٥٧، كما نظم جملة معانيه وحكمه (المتنبي) وقد جمع السيد الخطيب الحسيني شطرًا من ذلك، واقرأ في كتابه (مائة شاهد وشاهد من معاني كلام الإمام علي عليه السلام في شعر أبي الطيب المتنبي).

(٢) فمن حديث قيس بن عاصم: قلت يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها فإنا قوم نعير في البرية، فقال رسول الله ﷺ: يا قيس إِنَّ مَعَ العِزِّ ذُلًّا، وإِنَّ مَعَ الحياةِ موتًا، وإِنَّ مَعَ الدنيا آخرة، وإِنَّ لِكُلِّ شيءٍ حَسِيبًا وعلى كُلِّ شيءٍ رقيبًا، وإِنَّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثوابًا ولِكُلِّ سيئةٍ عِقابًا ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتابًا، وإِنَّهُ لا بُدَّ لَكَ يا قيسُ مِنْ قرينٍ يُدْفَنُ معكَ وهو حيٌّ وتُدْفَنُ معهُ وأنتَ ميتٌ، فإِنْ كانَ كريمًا أَكْرَمَك، وإِنْ كانَ لَئِيمًا أَسْلَمَك، ثُمَّ لا يُحْشَرُ إِلاَّ معكَ ولا تُبْعَثُ إِلاَّ معه، ولا تُسْأَلُ إِلاَّ عنهُ فلا تَجْعَلْهُ إِلاَّ صالحًا فإنهُ إِنْ صَلُحَ آنَسْتَ بهِ وإِنْ فسدَ لا تستوحشُ إِلاَّ منه وهو فِعْلُك، فقال يا نبي الله أحب أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفخر به على من يلينا من العرب وندخره، فأمر النبي ﷺ من يأتيه بحسان، قال قيس: فأقبلت أفكر فيما أشبه هذه العظة من الشعر فاستتب لي القول قبل مجيئ حسان فقلت: يا رسول الله قد حضرتني أبيات أحسب أنها توافق ما تريد، فقال النبي ﷺ: قل يا قيس، فقلت:

تَخَيَّرْ خَلِيْطًا مِنْ فِعَالِكَ إِنَّما ... قرينُ الفتى في القبرِ ما كانَ يفعلُ
ولا بُدَّ بعدَ الموتِ مِنْ أَنْ تُعِدَّهُ ... ليومٍ يُنَادَى المرءُ فيهِ فيُقْبِلُ
فإِنْ كنتَ مشغولًا بشيءٍ فلا تَكُنْ ... بغيرِ الذي يَرْضَى بهِ اللهُ تُشْغَلُ
فلن يَصْحَبَ الإنسانَ مِنْ بعدِ موتِهِ ... ومِنْ قبلِهِ إِلاَّ الذي كانَ يعملُ
أَلاَ إِنَّما الإنسانُ ضيفٌ لأهلِهِ ... يُقِيمُ قليلًا بينَهم ثُمَّ يَرْحَلُ

٣) الشرح:

وإذا أتينا للشرح والشروح فحدث عن البحر ولا حرج، إلى درجة أن الشيخ حسين جمعة العاملي اللبناني كتب كتابًا حول شروح نهج البلاغة فقط وأوصلها إلى ٢١٠ شروح، وأعتقد وقد يعتقد هو أيضًا أنه لم يأت على الشروح بأسرها، فقد يكون في الهند أو أطراف إيران، وعند العرب وغيرهم من الشروح ما لم يَطَّلع عليها أحد.

وكم من ذخائرَ ونفائسَ ذهبت طُعْمَةً للنار أو حيوانات البحر لا سيما جراء الحروب والفتن في العالم الإسلامي أو غيره كما جرى في بغداد وغيرها كثيرًا قديمًا وحديثًا، ولهذا نقول إن هذا الكم الضخم من الشروح قد لا يكون كلها، بالإضافة إلى أن القافلةَ لم تنقطعْ والركبَ بعدُ سائرٌ لشرح هذا الكتاب العظيم.

أنماط الشروح:

١) قد يكون شرحًا لفظيًّا أويذكر شيئًا من المعنى والفائدة للقارئ كما يتجلى ذلك في بعض الشروح المختصرة كشرح الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وعالمها الشهير.

٢) قد يكون شرحًا علميًّا مميزًا كما يتضح في شرح الشيخ ميثم البحراني فإنه عُنِيَ كثيرًا بالنواحي العقلية والفلسفية، ولهذا الشيخ الجليل ثلاثةُ شروحٍ حول نهج البلاغة وهذا من مظاهر الاهتمام.

٣) قد يكون شرحًا يتجه إلى ما في الكتاب من معارفَ عامة كما يتجلى في

بحار الأنوار ٧٤/ ١١٠.

(منهاج البراعة) وكتاب ابن أبي الحديد.

وهناك أنماط متعددة كل يتوجه وجهة معينة، وإن كان من أبرزها بصفة عامة (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد الواقع في ٢٠ مجلدًا (أو قد يطبع في ١٠ أو ٥)، فهذه الموسوعة من أنفس الشروح التي عُنِيَتْ بهذا (الكلم الطيب)، ولا يعني الثناء على المؤلِّف إغفال الاشتباه والضلال والتعصب للباطل عنده، وقد قيل عن هذا: (نِعْمَ المؤلَّف لولا عنادُ المؤلِّف)[١].

ولستُ راغبًا الآنَ في إفاضةِ الحديثِ في هذه النقطة، وإنما ذكرناه كشرح من الشروح المميزة، فإن فيه متعةً في الأدب ومتعةً في التأريخ وإبداعًا في الاعتقاد ومجالاتٍ كثيرة، إلاَّ أنه مع بالغ الأسف أذهب كثيرًا من هذه الطيبات بكثير من التعصب والعناد كما يقف على ذلك المتأمل والباحث.

٤) الدراسات الأخرى:

وهي لا تعني -بالدقة- الشرح، وإنما هي استجلاءُ الفكرةِ حول موضوعٍ ما فتُسْتَوْحَى من كلمات وآراء الإمام عليه السلام، ونلاحظ في هذه الدراسات أشتاتًا وأشكالًا، فمن جملتها الدراسات القانونية والدراسات السياسية ككتاب (الراعي والرعية) للمحامي الكبير والأستاذ الشهير توفيق الفكيكي، فإنه كتب في هذا الكتاب دراسةً مُسْتَوْفاةً حول عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر رضي الله عنه وبيَّنَ فيه مقدار النظرة الإسلامية لسياسة الحكم وقد كان بحق كتابًا رائعًا في زمانه.

وكذلك الدراسات الأخرى التي أولاها الباحثون لهذا الكتاب العظيم مثل

(١) للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء.

(دراسات في نهج البلاغة) للشيخ محمد مهدي شمس الدين، و(في رحاب نهج البلاغة) للشيخ المطهري، ودراسات أخرى عديدة.

هذا بعض ما تقع عليه أعيننا من الدراسات التي كتبت بالعربية وإلَّا فالدراسات الأخرى كثيرة جدًّا[1].

---

(١) ونعطي لذلك مثالاً عن حجم هذه الدراسات، باستعراض موقع (نهج البلاغة) أحد المراكز العلمية التابع للسيد السيستاني -أيده الله تعالى- وعنوان الموقع هو:

https://arabic.balaghah.net/

وقد احتوى على الأقسام التالية:

١- نص نهج البلاغة، تحقيق الشيخ فارس الحسون، وآخر تحقيق صبحي الصالح.

٢- نماذج من مخطوطات نهج البلاغة، وعددها ٥٢ نسخة، وإحداها ترجع إلى سنة ٤٦٩هـ مصورة من مكتبة السيد المرعشي رضي الله عنه.

٣- الدر الثمين في معرفة أمير المؤمنين عليه السلام، يحوي ٢٧١ مقالًا.

٤- البيان الجلي في معرفة الشريف الرضي رضي الله عنه، يحوي ١١٤ مقالًا.

٥- مراصد الاطلاع على نهج البلاغة، يحوي ٣٤٧ مقالًا.

٦- مكتبة المخطوطات، ويحوي ٢٠ مقالًا حول المخطوطات.

٧- مكتبة نهج البلاغة، ويحوي ٤١٤ كتابًا.

٨- المعجم الموضوعي لنهج البلاغة.

٩- سلم الوصول إلى معارف نهج البلاغة، ويحوي ٥١٠ مقالًا في مختلف المعارف من النهج الشريف، كالمعارف العقائدية، والأخلاقية، والإدارية، والأدبية، واللغوية، والتأريخية، والتفسيرية، والاجتماعية، والتربوية، والخطابية، والفلسفية، وعلم النفس، وحقوق الإنسان، وموسيقى اللفظ، وغير ذلك كثير.

١٠- نهج البلاغة في الأدب العربي، ويحوي ١٥٣ مقالًا.

١١- شبهات وردود، ويحوي ١٨٨ مقالًا.

١٢- المستشرقون ونهج البلاغة، ويحوي ١٢٢ مقالًا.

٥) البحوث حول نهج البلاغة في مجالات أخرى:

فنجد أنه قد ينبري مجموعة ليعنوا بالأمثال -مثلًا- في نهج البلاغة، وهنا أيضًا كتب كثيرة وبحوث عديدة جاءت في الغالب ضمن مقالات في المجلات كما للعلامة الشيخ عبدالهادي الفضلي في بعض المجلات قديمًا، وكذلك لأستاذي الشيخ محمد الغروي كتابات في هذا المجال ككتاب (الأمثال العلوية)[١].

٦) عقد المؤتمرات حول هذا الكتاب:

وذلك للبحث فيه والمشاركة والإِسْهام، كل ذي اختصاص من واقع اختصاصه يتناول بحثًا في نهج البلاغة، وقد تكرر ذلك في تأريخنا، كما في مؤتمرات طهران، وقد عُنِيَ الباحثون في هذه المؤتمرات بنواحٍ عديدة، وكُتِبَتْ دراساتٌ في هذا المجال لمناسباتٍ كمرور ألفية على الشريف الرضي أو لدواعٍ أخرى.

٧) الفهارس:

والتي جاد بها أفذاذ وقدموا خدمة كبيرة يشكرون عليها، ومن جملة ذلك:

١) كتاب (تصنيف نهج البلاغة) للأستاذ لبيب بيضون السوري، فإنه من أوسع ما كُتِب حول تصنيف نهج البلاغة واختار تصنيف الموضوعات فجمعها وضمها إلى بعضها البعض وجعل عناوين لها بما يريح الباحث كثيرًا فيما لو أراد الاطلاع على بحوث نهج البلاغة والأفكار فيه.

٢) (المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة)[٢]: وهو للسيد كاظم المحمدي

---

(١) وله أيضًا (الأمثال النبوية).

(٢) على نسق (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

والشيخ محمد الدشتي ويقع في أكثر من ١٤٠٠ صفحة، وقد رُتِّبَ على نسق المعاجم اللغوية، أي بمعرفة مادة الكلمة (جذرها) يمكن استخراجها واستخراج الجمل التي تقع فيها، فمثلًا كلمات (خالق ومخلوق) تكون تحت مادة (خَلَقَ) فتستخرج هي والجمل التي تقع فيها، وهذا بالطبع يوَفِّر الجهد كثيرًا[1].

٣) فهارس نهج البلاغة، للدكتور صبحي الصالح ألحقها به: وإن من الإنصاف أن الإنسان يُقَدَّرُ على عمله بغض النظر عن الاختلاف معه في المعتقد والمذهب، فقد خدم نهج البلاغة بهذا الكتاب وله جهد كبير يُقَدَّرُ لأجله ويُثْنى عليه، وإن كان لم يستوفِ جميع النواحي إلاَّ أنها مشاركة فعَّالة.

٨) مكتبة نهج البلاغة:

ففي مجال الرد والانتصار لأمير المؤمنين عليه السلام وفي مجال النقد والطعن ومجال الأفكار والتحليلات وأمور أخرى في الواقع لو ضممناها إلى بعضها البعض نجدها مجالًا خصبًا وثريًّا للغاية، وكما يسمي ذلك السيد عبد الزهراء الحسيني (مكتبة نهج البلاغة).

ومن باب المثال، حينما يذكرون موضوع الإشْكال والإيراد على أن الإمام عليه السلام قد ذكر عن نفسه أنه الوصي وجعلوا ذلك طعنًا في نهج البلاغة وأنه منتحل، فينبري الباحثون ليؤكدوا على حقيقة الوصاية وما جاء فيها من أحاديث ومعارف وشعر، فتكون دراسة كاملة عن الوصاية فقط، أو مثلًا حديث أمير المؤمنين عليه السلام

وقد شاء الله لهذا الكتاب أن يُخدمَ بمثل ما يُخدمُ به كتاب الله الكريم.

(١) واليوم تتوفر برامج بالكمبيوتر يوجد فيها النهج وبعض شروحه ليمكن الوصول إلى معلومات فيها بشكل أسرع.

ونقده اللاذع لجملة من الحكام والصحابة، فجعلوا ذلك سببًا للطعن في نهج البلاغة، فينبري الباحثون لبحث المسألة من جهة الاعتقاد والتأريخ وأمر الصحبة وجهات أخرى لتكون دراسة واسعة في هذه الجهة فقط.

فإذا لاحظنا الإشكالات والشبه والرد عليها في المقالات والمجلات والكتب الصغيرة والموسوعات نجد أنها مظهر كبير من مظاهر العناية والالتفات، تمامًا وليس ببعيد عن الاهتمام الكبير حول شخصية صاحب النهج أمير المؤمنين عليه السلام فما أكثرَ الاهتمام والاختلافَ فيه، وكذلك حال كتابه فكان مجالًا لإِثْراء البحث إلى ما لا نهاية.

ولا يفوتني أن أشيد بإكبار بالموسوعة القيمة التي جاد بها فكر وقلم الخطيب السيد عبد الزهراء الحسيني حفظه الله، أعني كتابه (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) الذي يتمثل فيه الجهد العلمي والإخلاص وروحية المؤلِف المؤمنة وبذل الوقت الثمين في هذا الكتاب بحثًا وتنقيبًا وجمع الشوارد والشواهد شعرًا ونثرًا، وهو جدير بالقراءة والدرس والتملّي مما فيه من أفكار.

كما أن السيد عبد الزهراء له كتاب (مائة شاهد وشاهد من معاني كلام الإمام علي عليه السلام في شعر أبي الطيب المتنبي)، وقد كان مشاركة منه في مؤتمر طهران عن نهج البلاغة.

ثالثًا: هل يستدل بنهج البلاغة فقهيًا؟

وأعود هنا لبحث المسألة لارتباطها بعنوان البحث ارتباطًا وثيقًا.

فمن خلال تتبع جملة من الآراء حول (نهج البلاغة) لاحظت من يرى

صحة صدوره عن الإمام عليه السلام وقد يعبر عن بعضه بـ (قطعية الصدور)، وربما اسْتُفِيدَ من كلام بعض آخر أنه (متواتر)، فلنستعرض جملة من كلماتهم.

قال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: «وإلا فبعد شهادة مثل النجاشي المعاصر للشريفين والمتخرج عليهما وشهادة ابن شهرآشوب والشيخ الطوسي وكل تلك الطبقة المعاصرة لهما، بل وجل من تأخر عنهما إلى أن انتهى الأمر إلى الشيخ الراوندي وابن أبي الحديد والشيخ ميثم البحراني وهؤلاء الثلاثة شراح النهج وهم بالمكان الذي هم فيه من سعة الفضل وغزارة المادة وهم في قرن واحد، فمع إطباقهم وإطباق من قبلهم وبعدهم على أن ما في النهج كله لأمير المؤمنين -سلام الله عليه- وأن جامعه هو الشريف الرضي، وإرسالهم ذلك كأحد القضايا الضرورية فهل يكون التردد أو الجحود في واحدة منها إلا عنادًا ومكابرة»[1].

وقال أيضًا: «أما أن جميع ما فيه لأمير المؤمنين ليس إلا فذاك -عند أهله المعنيين بهذا الأمر وهم علماء الإمامية شكر الله مساعيهم- أجلى من الشمس وكلها مروية بطرق وثيقة عن أساطين هذه الفرقة من أساتيذ السيد الرضي ومشايخه كالشيخ المفيد وابن قولويه وابن بابويه وأبي يعقوب الكليني ونظرائهم، ومن أصول هؤلاء جمع السيد ما جمع وانتخب في نهجه ما انتخب وهم المصادر والمصائر له، على أن أكثرها يوجد في غير كتب الإمامية ممن تقدم على السيد من جهابذة التأريخ وأساطين العربية».

وقال السيد الأمين: «وهذا الكتاب قد حوى من نفائس الكلام ما استحق به أن يسمى نهج البلاغة واشتهر به في جميع الأقطار والأمصار والأعصار اشتهار

(١) المراجعات الريحانية ٢/ ١١١-١١٢ وله كلام نحو هذا في ١/ ٥٤.

الشمس في رائعة النهار، له منه عليه شواهد، وهو كسائر كلام علي كما قيل عنه إنه بعد كلام النبي ﷺ فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، لا يرتاب في ذلك إلا أمثال من يريد التشكيك في الشمس الضاحية»[١].

ويعبر السيد محمد سعيد الحكيم عن النهج بأنه «يدل على نفسه بنفسه».

ومن أجمع الكلمات ما ذكره الشيخ هادي كاشف الغطاء: «إن الشيعة على كثرة فرقهم واختلاف طرقهم متفقون متسالمون على أن ما في نهج البلاغة هو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام اعتمادًا على رواية الشريف ودرايته ووثاقته، والجميع على اختلاف العصور وتعدد القرون لم يختلجهم في أمره ريب ولا اعتراهم في شأنه شك ولم يخامرهم ظن أو وهم في أن فيه وضعًا أو به تدليسًا حتى كاد أن يكون إنكار نسبته إليه عليه السلام عندهم من إنكار الضروريات وجحد البديهيات، اللهم إلا شاذ منهم لا يعرف ما خالف في نسبة بعضه إليه عليه السلام ولعل جماعة من أكابر علماء أهل السنة والجماعة ومؤرخيهم -إن لم يكن أكثرهم- يوافقون على صحة تلك النسبة ولا يبدون أدنى خلاف في ذلك والمخالف من متقدميهم في نسبة بعضه إليه قليل نادر، وإنما نشأ التشكيك والخلاف من ناشئة جديدة تسعى لنقض الحقائق الراهنة تحت ستار طلبها فأخذوا يتشبثون لنفي ذلك بكل وسيلة ويتوصلون إليه بكل ذريعة.

والخلاصة أن اعتقادنا في كتاب نهج البلاغة أن جميع ما فيه من الخطب والكتب والوصايا والحكم والآداب حاله كحال ما يروى عن النبي ﷺ وعن أهل بيته في جوامع الأخبار الصحيحة وفي الكتب الدينية المعتبرة، وإن منه ما هو قطعي الصدور ومنه ما يدخله أقسام الحديث المعروفة.

---

(١) أعيان الشيعة ١/ ٥٤٠.

وأما مؤلفه الشريف فاعتقادنا فيه أنه منزه عن كل ما يشين الرواة ويقدح في عدالتهم وأنه لم ينشئ شيئًا من نفسه وأدخله في النهج كما أنه لم يدخل فيه شيئًا يعلم أنه لغير أمير المؤمنين، بل لم يكن كحاطب ليل فهو لا يروي شيئًا إلا بعد التثبت ولا ينقله إلا على من يعتمد عليه من الرواة وأهل السير والتأريخ، فجميع ما في النهج هو من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على رواية الثقة العدل ولا دخيلة فيه ولا وضع»[1].

وقال ابن أبي الحديد: «لا يخلو إما أن يكون كل (نهج البلاغة) مصنوعًا منحولًا أو بعضه، والأول باطل بالضرورة لأنا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدثون كلهم أو جلهم والمؤرخون كثيرًا منه وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك».

ثم أخذ في بيان الأمر الثاني فمما قال: «وأنت إذا تأملت (نهج البلاغة) وجدته كله ماء واحدًا ونفسًا واحدًا وأسلوبًا واحدًا، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفًا لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوله كأوسطه وأوسطه كآخره وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض (نهج البلاغة) منحولًا وبعضه صحيحًا لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام ...»[2].

ولاحظت صنفًا آخر من العلماء يعبر عن (نهج البلاغة) بقوله: «فالقول

---

(١) مستدرك نهج البلاغة / ١٩٠-١٩١.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٠/ ١٢٨-١٢٩.

بأنه لا وجه للتشكيك في نهج البلاغة إن أريد به المجموع من حيث المجموع فصحيح، وإما إن أريد به الجميع على نحو استيعاب الجمل والكلمات بأسرها ففيه إشكال»[1].

وبعد.. فالاستدلال بـ (نهج البلاغة) فقهيًّا يعتمد على المبنى فمن قال بالتواتر وقطعيّة الصدور عوّل على ذلك ومن لم يقل فهو وإن صحّح الكتاب إلا أنه قد يرى أن للاستدلال الفقهي منهاجًا خاصًّا كما أشار إلى ذلك السيد العلامة الفاني في قوله: «ولكننا لما رأينا أن الفقيه النابه يأبى عن الاستناد في الأحكام الشرعية والعاقل في ترتيب آثار الصدق إلى ما ليس جامعًا لجميع شرائط الحجية يكون بذلك حجة في نظر الفقيه ودليلًا قاطعًا أجبنا وقلنا إن الدقة في مضامين النهج والاستضاءة بأنوار علوم عليٍّ عليه السلام وحكمه ومعارفه تغني طالب الكمال عن التعرض لأسناد هذا الكتاب، لأن التعرف للحقائق شيء والاستدلال به على الحكم الشرعي شيء آخر»[2].

وعلى ضوء ذلك تعامل نصوصه على نسق ما يتعامل به مع الروايات في مجاميع الحديث، وكما يقول السيد العلامة الفاني: «وكما أنه توجد في الكافي الشريف الأخبار المرسلة فكذلك في نهج البلاغة ولذا نرى اعتراف السيد بالإرسال في جملة من الموارد وربما يذكر السند ونراه ضعيفًا بحسب الاصطلاح الرجالي الفقهي»[3].

---

(١) عبد الله بن عباس / ٤٥٤ (ضمن لكل سؤال جواب).

(٢) عبد الله بن عباس / ٤٥٤ (ضمن لكل سؤال جواب).

(٣) عبد الله بن عباس / ٤٥٤ (ضمن لكل سؤال جواب).

ويقول الشيخ عبدالله نعمة: «فإن حال نهج البلاغة حال المرويات عن رسول الله ﷺ في جوامع الأخبار وكتب الحديث منه ما هو قطعي الصدور ومنه ما يدخل في أقسام الحديث المعروفة كالصحيح والموثق والحسن والمرسل وغيرها، لكن ينبغي أن لا نغفل عن أن هذه الأقسام لا يمكن لنا استفادتها من نفس نهج البلاغة لأن الرضي رضي الله عنه لم يسند شيئًا مما ذكره فيه بل جاء به مرسلًا وإنما نستفيد ذلك من خارج النهج»[1].

أقول:

أ) إن المسألة بالتالي تندرج في حجية مرسل الثقة -وهذا بالطبع فيما لم يسند- والرأي فيها مختلف عند الفقهاء وقد أشبع البحث فيها الشيخ المامقاني في كتابه (مقباس الهداية)[2].

ب) إن الجهد المضني والعمل الكبير لإثبات أسانيد النهج مما يستحق كل إجلال وإكبار.

ج) إن تشخيص المتواتر وقطعي الصدور من النهج يستلزم بسطة في العلم والبحث، نعم قد نقف على المتواتر في ذات النهج مما تكرّر قوله وذكره كثيرًا في خطب الإمام عليه السلام كما في جملة من مسائل الاعتقاد، فيسوغ لذلك الاستدلال به فيها وتبقى المواطن الأخرى على حسب تصنيفها والتعامل معها طبق القواعد المقرّرة والآراء المختارة.

---

(١) مصادر نهج البلاغة / ٢٨.

(٢) مقباس الهداية ١ / ٣٣٨-٣٦٦.

رابعًا: منهجنا في دراسة نهج البلاغة

الدراسة ستكون إجمالًا دراسة موضوعية إن شاء الله تعالى، ففي هذا الكتاب أفكار تشمل الدنيا والدين وتكفل سعادة الإنسان، فيه بحوث كثيرة عن العقائد والأصول الخمسة والملائكة والجهاد والموت وغير ذلك، فيه بحوث في التأريخ وسيرة الأنبياء عليهم السلام وجيلهم، فيه بحوث عن القرآن والحديث النبوي والأخلاق وسيرة الحياة وعجائب المخلوقات، فيه الحكم القصيرة والخطب الطويلة والمراسلات والمكاتبات والعهود وغير ذلك، فننسب كل موضوع إلى جهته ونلاحظ ما يقترن به، ونجعل حديثنا مُبتدأً من الأصول الخمسة مُسْتَوْحاةً من أفكار الإمام عليه السلام ثم نشرع بالأَولى فالأَولى كحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتأريخه وتأريخ أهل البيت عليهم السلام والخلاف والخلافة والإمامة، إلَّا أنه كما أعتقد أن هذا الأمر لو قضينا عمرنا فيه -ونعم ما يُقْضَى العمر فيه- لما استطعنا استيفاءه والتمَلِّي منه، ولكننا سنختصر ما أمكن ونعطي الفكرة الواضحة الموجزة.

خامسًا: بعض المصادر للبحث

وهي كثيرة وأشير إلى بعض ما هو متيسر لدينا للاستفادة منه.

أ) الشروح.

١- شرح ابن أبي الحديد.

٢- منهاج البراعة للميرزا حبيب الله الخوئي.

٣- شرح الشيخ محمد عبده.

٤- شرح الشيخ محمد جواد مغنية (في ظلال نهج البلاغة)، وهو لطيف

خفيف يتعرض لنواحٍ اجتماعية وسياسية.

٥- شرح الشيخ ميثم البحراني الذي يمتاز بعمقه بطبع المؤلِّف كفيلسوف.

ب) الدراسات:

١- دراسات في نهج البلاغة.

٢- قضايا الحرب والسلم.

٣- حركة التأريخ.

٤- عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر.

وهذه كلها للشيخ محمد مهدي شمس الدين.

٥- في رحاب نهج البلاغة، للشيخ المطهري.

٦- دراسات أخرى في ضمن (أعيان الشيعة) أو (المجالس السَّنِيَّة) أو (دين وتمدين) للحَوْمائي فإنه على النمط الذي ذَكَر (الله ومحمد وعلي) فيعرض فيما يرتبط بالإمام عليه السلام جملة من أفكار الإمام وسياسته وحكمته، وهو كتاب أدبيٌّ راقٍ إلاَّ أن في ثناياه بعض الأمور التي ينبغي للباحث أن يكون على حَذَرٍ في دراستها.

كلمة للسيد السيستاني حول نهج البلاغة

أحببت أن أورد هذه الكلمة التوجيهية التي سطَّرها سماحة المرجع السيد السيستاني أيده الله تعالى حول كلام أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة):

بسم الله الرحمن الرحيم

إن ما تضمّنه هذا الكتاب الشريف من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يعدّ في ذروة الكلام -بعد كلام الله تعالى وكلام نبيّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم- لما فيه من بيان للمنهج الفطري للتفكر والتأمل في الكون وحقائقه، وبيانٍ لأصول الإسلام ومعارفه، وإيضاح لِحِكَمِ الحياة والسنن التي يبتني عليها، وتبيينٍ لسبل تزكية النفس وترويضها، وتوضيحٍ لمقاصد الشريعة وما بني عليها من الأحكام، وتذكيرٍ بآداب الحكم وشروطه واستحقاقاته، وتعليمٍ لأسلوب الثناء على الله تعالى والدعاء بين يديه وغير ذلك كثير.

كما أنه من جهة أخرى مرآة صادقة للتأريخ الإسلامي وما وقع فيه من الحوادث بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة في زمن خلافة الإمام عليه السلام، ويتضمن جانبًا مهمًّا من سيرته وخلقه وسجاياه وعلمه وفقهه.

وحريّ بالمسلمين عامة أن يستنيروا في أمور دينهم تعلمًّا وتزكية بهذا الكتاب، ويهتمّوا -ولا سيما الشباب منهم- بمطالعته والتدبر فيه وحفظ طرف منه، كما يجدر بمن يدّعون محبة الإمام عليه السلام ويتمنون أنهم لو كانوا في عصره ليستمعوا إلى مواعظه ويهتدوا بهديه ويسيروا على نهجه أن يفعلوا ذلك في ضوء ما ورد في هذا الكتاب، ولقد قال عليه السلام في حرب الجمل إنه حضره في هذه الحرب قوم من الناس

لم يزالوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وإنما عنى بذلك الذين علم الله منهم صدق النية فيما يتمنونه من الحضور في زمانه والاقتداء به في أفعاله، وهم الذين سيحشرون مع أوليائه عليهم السلام يوم يحشر كل إنسان خلف إمامه، وذلك لأنهم عَمِلوا بما عَلِموه من الحق من غير أن يعتذروا عن ذلك بالشبهات ويزيّنوا انتماءهم إليه عليه السلام بالأماني.

وينبغي لرجال الحكم من المسلمين أن يطبِّقوا ما بيّنه من وظائف أمثالهم ويقتفوا أثره ويتبعوا خطاه في سلوكهم وأعمالهم، وليقدّروا في أنفسهم أنهم بمثابة ولاته وعمّاله ليظهر لهم مقدار التزامهم بنهجه وتأسّيهم به.

نسأل الله العلي القدير أن يأخذ بأيدي الجميع إلى اتّباع الهدى واجتناب الهوى إنه ولي التوفيق[1].

(١) المصدر: موقع (نهج البلاغة). والكلمة مؤرخة في ٢٦/ ٧/ ١٤٣٣هـ.

٥) تأسيس الإمام عليه السلام لعلم الكلام

أولاً: علم الكلام

أ) تعريفه:

هو العلم الذي يُبحَثُ فيه عن إثبات أصول الدين الإسلامي بالأدلة المفيدة لليقين بها.

ب) فائدته:

١- معرفة أصول الدين بنهج علميٍّ قائم على الدليل والبرهان.

٢- القدرة على إثبات قواعد العقائد وإبطال الشبهات حولها بالحجة والدليل.

ج) مكانته وشرفه:

يقول ابن أبي الحديد: «وقد علمتَ أن أشرفَ العلومِ هو العلمُ الإلهي لأن شَرَفَ العلمِ بشَرَفِ المعلوم، ومعلُومُهُ أشْرَفُ الموجودات[1] فكان هو أشرفَ العلوم، ومن كلامِهِ عليه السلام اقْتُبِسَ وعنه نُقِل وإليه انتهى ومنه ابتدأ»[2].

---

(١) وهو الله جَلَّ وعلا.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١٧.

ثانيًا: دور العقل في القضايا الاعتقادية

لا إشكالَ في أهميةِ العقلِ في القضايا الاعتقاديةِ، والوجدانُ يؤكدُ ذلك. ومع بالغ الأسف نجدُ طبَقةً حتى من المثقفينَ والكتابِ البارزينَ يتنكَّرُونَ لهذا الدورِ المهم ويريدونَ أن تستندَ جميعُ أفكارِنا إلى الدليلِ النقليِّ فقط (الكتاب الكريم والسنة المطهرة)، بمعنى أنه حينما نؤمنُ بالله تبارك وتعالى ربًّا فإننا في جميعِ القضايا لا نُعْمِلُ الدليلَ العقليَّ على الإطلاق بل نأخذُ جميعَ القضايا كالمُسَلَّمات بل يعتبرون الاستدلال العقليَّ تفاهةً وتضييعًا للعمرِ فيما لا يحسُن، ومن الواضحِ أن هذه المقُولةَ قد تلقى قَبُولًا في الأذهان لتأطيرها بإطارٍ يرتبط في ظاهر الأمر بالله تعالى وتنزيهه وبرسوله ﷺ، والواقع أن هذه المقولة تخالف هدي أمير المؤمنين عليه السلام كما يتجلّى ذلك بوضوح في طرق معالجته لقضايا الاعتقاد في نهجه الخالد.

والشيء الآخر أن نَفْسَ الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ يحتاج إلى الدليل العقلي كما هو واضح، فقبل الإيمان بإله واجب الوجود يلطف بعباده فيبعث لهم الأنبياء ويوحي إليهم ويصدق دعواهم بالمعجز لا يمكن الاستدلال على ذلك بمحض الدعوى وأن الله أوحى إلى نبيِّه ﷺ في كتابه، فهل هذا إلا عين المتنازع فيه وهو رتبة ثانية بعد الإيمان بالواجب الباعث.

ومن هنا كان العقل الأصل الأصيل في انطلاقة الاستدلال في أصول الاعتقاد، نعم يمكن الإفادة من القرآن والحديث كهاديين ومرشدين وموقظين مكامن الفطرة لا أن يجعل مرتكز الدليل عليهما.

وسنرى ذلك في هدي أمير المؤمنين عليه السلام فيما نستقبل من دروس إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: التشيع والفلسفة أو علم الكلام

يلاحظ عبر التأريخ أن للفكر الشيعي امتيازًا خاصًّا في علم العقائد والفلسفة، كما يلاحظ أن الشيعة تخالف الآخرين في نظرتهم وأفكارهم حول هذا العلم، وقد شهد بذلك حتى المخالفون، ونَعْرِضُ هنا نماذجَ من ذلك:

١- يقول الأستاذ أحمد زكي صالح[١]: «ومن الجلي الواضح لدى كل من درس علم الكلام أن فرقة الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة، وكانت أول من أسس المذاهب الدينية على أُسُسٍ فلسفية، حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلي بن أبي طالب».

٢- يقول الدكتور أحمد أمين المصري: «ولذلك كانت الفلسفة بالتشيع ألصق منها بالتسنن، نرى ذلك في العهد الفاطمي والعهد البويهي، وحتى في العصور الأخيرة كانت فارس أكثر الأقطار عناية بدراسة الفلسفة الإسلامية ونشر كتبها، ولما جاء جمال الدين الأفغاني مصرَ في عصرنا الحديث -وكان فيه نزعة تشيع وقد تعلم الفلسفة الإسلامية بهذه الأقطار الفارسية- كان هو الذي نشر هذه الحركة في مصر»[٢].

إذن التأريخ يتحدّث والمخالفون يُقِرُّونَ ونهج البلاغة يشهد أن أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) هو واضع أُسُسِ هذا العلم الشريف عبر خُطَبِه يوم

---

(١) الإمام الصادق عليه السلام، للشيخ محمد رضا المظفر ١/ ١٨٢، وقد نقل كلام الأستاذ أحمد زكي من مجلة الرسالة المصرية.

(٢) ظهر الإسلام، لأحمد أمين المصري ج١. نقله الشيخ المطهري في كتابه (في رحاب نهج البلاغة) ص٤٣.

كانت الحاجة تدعو إلى ذلك لاسيما في الكوفة إذ كانت مهدًا لحضارات وثقافات كثيرة، فطرح الإمام أفكاره الفلسفية العقائدية وهي ليست نظريات توصل إليها عالم مهما كان عظيمًا، بل هي فكر الله وعلمه الذي أودعه عليًّا عليه السلام عن طريق الإلهام، ثم أخذ الشيعة هذا العلم عن إمامهم الأعظم عليه السلام وواكبوا هذه الحركة المباركة.

رابعًا: شبه المخالفين.. ﴿وتِلْكَ حُجَّتُنا﴾

وبعد.. ﴿فَمَا لِهَؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، لقد قالوا إن ما تعرض له الإمام عليه السلام في نهجه العظيم -وبالذات حول هذا العلم- كان مخالفًا لما هو مألوف آنذاك عند الصحابة وفي عصره بل فيما بعده من العصور، فهناك المصطلحات والأفكار التي لم تُطرح إلاَّ في فترات متأخرة من نُضْجِ الفلسفة حيث شاع استخدامها، بل إنهم قاسوا الإمام عليه السلام بغيره من الصحابة فقالوا إنه قد كان عصرهم واحدًا وحياتهم واحدة، وثقافته وعلمه كسائر الصحابة بل إن بعضهم أعلم منه (كما يزعمون) ولهذا يستبعدون هذه الأفكار عنه عليه السلام.

فنقول لهم: إننا في مقام الردّ نرشد إلى المقام العظيم والامتياز الخاص الفريد الذي ناله أميرُ المؤمنين عليه السلام وأنه في عالمٍ والآخرون في عالم آخر، وذلك يتجلّى في مجال العلم وجميع مجالات الإبداع، فإنما يأتي بمعجزةِ نهجِ البلاغة من قال فيه الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: «أَنَا مَدِيْنَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُها»(١).

فهو الذي امتاز بالمعارف الإلهية الخاصة فلا عجب لو جاد قلَمُه ولسانه ووجوده المقدس بشيء آخر لم يُعْهد في حياة الصحابة وفي زمانهم، فعندما يُعَبِّرُ

(١) وسائل الشيعة ١٨/ ٢٠.

الإمامُ عليه السلام عن (الأين) و(الأزل) و(المدى) وغير ذلك ويطرح مصطلحاتٍ وأفكارًا لم تُعهد إلاَّ في فترات متأخرة من بروز الفلسفة فهذا دليل على أنها أُخِذَتْ منه، فإنَّ كلَّ مصطلحٍ وفكرةٍ لابد أن هناك من يبدأ بها، لا أنه يُسْتَغْرَبُ ويُستبعَدُ ذلك من الإمام عليه السلام لأن فلانًا لم يَقُلْ خطبة كخُطَبِ أمير المؤمنين عليه السلام، إن هذا لدليل ضعيف لا يمكن أن يُرْكَنَ إليه إلاَّ في حسابِ الجهلِ أو العناد.

إنما يأتي بنهج البلاغة من على منبرِ الحقِ يتحدى كل من حوله، وحوله خصومه وأعداؤه الذين يُحْصُون عليه أنفاسَه ويعدون عليه كلماتِه ويرصُدون كل شيء ينطق به ومع ذلك كان يأمر أنصاره بالسؤال ويتحدى أعداءه قائلًا: «سَلُوْنِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُوْنِي»(١).

وهذا الأمر بالسؤال أو التحدي لم يخص جانبًا دون آخر بل شمل كل علم، في العقائد والفقه والنحو والفلك وكل معرفة، بل إن ابن أبي الحديد لاحظ انتماء وانتساب كل العلوم إلى أمير المؤمنين عليه السلام فهو مصدرها ومنبعها وأخذ بتعداد هذه العلوم وتفصيل ذلك، فذكر علم العقائد والفقه والتفسير والتصوّف أو علم الحقيقة والنحو، وذكر الكمالات فتحدث عن الشجاعة (سيد الأبطال) والسخاء والحلم والصفح والجهاد (سيف الله الغالب)، والخُلق الرفيع ولِيْن الجانب وشدة التواضع والزهد والعبادة وتعلقه بالقرآن الكريم، والرأي والتدبير والسياسة وشدتها في ذات الله تعالى(٢).

بل يتعدى ابن أبي طالب كل هذا ليكون مصدرًا لكل الكمالات وإمامها

(١) وسائل الشيعة ١١/ ٩٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٣٥-٤٦.

الأول، فإنما يتحدث عن الشجاعة من قال فيه جبرئيل عليه السلام بأمر الله تعالى: «لا سَيْفَ إلاَّ ذُو الفِقَارِ ولا فَتَى إلاَّ عَلِيٌّ»[1]، ومن يخوض غمار الحرب «حَتَّى يَطَأَ صِمَاخَها بأَخْمُصِه»، كما تحدثت الصديقة الزهراء عليها السلام، ولا يتحدث عن الشجاعة من قال فيهما ابن أبي الحديد:

عَذَرْتُكُمَا إِنَّ الحِمَامَ لَمُبْغَضٌ   وإِنَّ بقَاءَ النفْسِ للنفْسِ محبوبُ

ويذكر بفرارهما في مواطن الحرب ومواطن الحرج والعناء، (وفاقد الشيء لا يعطيه)، ويقاس على ذلك إبداع الإمام عليه السلام في الخطابة والوعظ والإرشاد وكل معرفة بل كل كمال فهو الفاتح والمؤسس.

خامسًا: القرآن الكريم ونهج البلاغة.. أساليب متفقة لإثبات العقائد

القرآن الكريم فيه تبيان ﴿لِكُلِّ شيء﴾ و«عليٌّ مَعَ القُرْآنِ»، وهو عِدْلٌ له في حديث (الثقلين)، إذن فهو الوجود البارز في المدرسة الإلهية الكبرى ومُعَلِّمُهُ الأول هو كتاب الله تعالى وتقدس فلا غرابة بعد ذلك إذا أتى بما لم يُعْهَد عند أحد.

ومن هنا نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه واستدلالاته وبرهنته حول هذا العلم (علم العقائد) بالذات نَهَجَ نَهْجَ القرآن الكريم ولم يَشُذَّ عن شيء من الأنماط التي اتخذها القرآن الكريم للاستدلال على المعارف الإلهية، سواءً كان ذلك في أدلة النفس أو الآفاق أو العقل[2]، وما تعرض له من إيقاف البشر على السر المبتكر والإبداع والإعجاز في خلق الله والاستدلال بواقع الإنسان من جانبِ إبداعِ خلقه، بل من جانبِ عجزِه، وسائر ما في الكون من عظات وعِبَر ودلائل

(١) بحار الأنوار ٤٠/ ٨٧.

(٢) ﴿سنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتى يَتبَيَّنَ لهم أَنَّهُ الحقُّ﴾. سورة فُصِّلَتْ/ ٥٣.

وشواهد، فنجد كل ذلك في نهج البلاغة على نسق ما هو في القرآن الأعظم.

وهذه الناحية (المدرسة الإلهية الكبرى) رُصِدَتْ ولُوحِظَتْ في حياة جميع الأئمة عليهم السلام، ولنا أن نأخذ شاهدًا من حفيد أمير المؤمنين الإمام الصادق عليه السلام والذي يعتبر ممثلًا له في تأسيس الأفكار الإسلامية، فنجد أن الصادق عليه السلام لم يتتلمذ على يد أحد، وفي علم الكيمياء -مثلًا- لم يكن له أستاذ ولا مختبرات ومع ذلك فهو يطرح النظريات الكيميائية الدقيقة الثابتة على رَسْلِهِ كما يتحدث مالكُ الكلام حتى يكتب أحد تلامذته وهو جابر بن حيان ألف صفحة في الكيمياء[1].

ونضيف إلى ذلك ما يتعلق بالطب وعلم التشريح كما في كتاب المفضل بن عمر وغير ذلك كثير مما هو مشهور وواضح، إذن فلا مصدر لهذه المعارف عند الأئمة وعند أبي الأئمة عليهم السلام إلاَّ الإلهام الإلهي، وَمِنْ هُنَا سِرُّ إِعْجَازِ عَلِيٍّ عليه السلام... فكان كالنجم... بل هو فوق النجم... بل هو شمسٌ... بل هو سماءٌ وغيرُه أرضٌ بل غيره لا شيء... بل هو أسمى من كل تعبير وأعظمُ من كل وصف.

(١) يمكن الاطلاع على كتاب (الإمام الصادق مُلْهِمُ الكيمياء) للدكتور محمد يحيى الهاشمي.

٦) الذات المقدسة

مدخل:

يـا وَاهِـبَ العَقْـلِ لَـكَ المَحَامِـدُ | إلى جَنَابِـكَ انْتَهَـى المَقَاصِـدُ
يـا مـن هـو اخْتَفَـى لِفَـرْطِ نُـورِهِ | الظاهِـرُ البَاطِـنُ في ظُهُـورِهِ(١)

أولاً: تعريف الذات المقدسة

الله اسـمٌ عَلَـمٌ عـلى الـذاتِ المقدسـةِ المُسْـتَجْمِعَةِ لصفـاتِ الجـلال والجـمال، ولا يُقْصَـدُ مـن هـذا التعريـفِ أنـه يُطَابِـقُ القواعـدَ العلميـةَ والمنطقيـةَ، بـل هـو أشـبهُ بالتعريـف الاسـمي كـما في علـمِ المنطـق، كـما أنـه ليـس تعريفًـا حقيقيًّـا دقيقًـا لأن التعريـفَ الحقيقـيَّ الدقيـق لِـشيءٍ يسـتدعي الوقـوفَ عـلى حقيقتِـهِ وأَبْعَـادِهِ وجميـعِ شـؤونِه، والإنسـانُ عاجـزٌ تمامًـا عـن ذلـك فيـما يتعلـقُ بـاللهِ تعـالى وتَنَـزَّه.

ثانيًا: العقول قاصرة عن إدراك الكنه

الكُنْـهُ بمعنـى الحقيقـة، والعقـلُ في واقعِـهِ مخلـوقٌ لله ومحـدود في قدرتـه الإدراكيـة فهـو في عجـزٍ ذاتيٍّ عـن أن يحيـطَ بتلـك الأبعـادِ غـيرِ المتناهيـة، بـل إن العقـلَ عاجـزٌ عـن أن يحيـطَ بـأسرارِ إبـداعِ الخلـقِ في السـماواتِ والأرضِ ومـا بينهـما -كـما هـو واضـح- فكيـف يحيـطُ علـمًا بخالـقِ الخلـقِ ومُبْدِعِـهِ، وعَجْـزُ الإنسـانِ ليـس فقـط عـن تعريـفِ اللهِ

(١) المولى الملا هادي السبزواري.

تعالى بدقةٍ بل عجزُهُ عن الإحاطةِ بسائرِ الشؤونِ الإلهيةِ كالقدرةِ والعلمِ والخلقِ والرزقِ والإحياءِ والإماتةِ والتشريعِ والحسابِ والجنةِ والنارِ والإبداعِ في الخلق.

ثالثًا: قال سيد الموحدين عليه السلام

نَعْرِضُ فيما يلي بعضَ ما قالَهُ سَيّدُ الموحدينَ عليٌّ عليه السلام حولَ هذه النقطةِ (العقولُ قاصرةٌ عن إدراكِ الكُنْه)، وتنبغي مراجعةُ هذه الخُطَبِ بكاملِها وبعضِ الشروحِ حولها للتوسُّعِ قدرَ الإمكان.

أ) قال عليه السلام[1]:

«الذي لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَم ولا ينالُهُ غَوْصُ الفِطَن»:

(بعد الهمم): نهايتها عُلُوًّا، في قِبَالِ (غوص الفطن) أي نهايتها عُمْقًا، يقول عليه السلام إنَّ بُعْدَ الهممِ لا يمكنُ أن يدركَ اللهَ تعالى لأن ما يدركُهُ العقلُ أشياءُ من جِنْسِهِ وفي مجال ما يمكن أن يَفْقَهَ فيه، أمَّا إذا كان الشيءُ بمنأًى بعيدٍ من أن يُفهمَ فإن العقلَ لا يدركه، وكذلك غوص الفطن فهي عاجزةٌ عن أن تدركَ الذاتَ المقدسةَ مهما جَهِدَتْ في ذلك، ولماذا هذا العجزُ؟

ذكر الإمامُ عليه السلام عددًا من أسبابِ ذلك:

«الذي ليس لصفتِهِ حَدٌّ محدودٌ ولا نَعْتٌ موجود»: ولذلك فإن من يريدُ وَصْفَهُ يكونُ في تمامِ العجزِ إِذْ كيف يُوصَفُ من لا تُحَدُّ حقيقتُه.

---

(1) خ۱، ص۳۹. ويمكن مراجعة (منهاج البراعة) ۱/ ۲۹۳ وكذلك شرح الشيخ ميثم البحراني رضي الله عنه ۱/ ۱۰٦ للاطلاع أكثر على شرح هذه الخطبة الشريفة.

«ولا وقتٌ معدودٌ ولا أجَلٌ ممدود»: فهذه الذاتُ خارجةٌ عن الزمانِ والمكانِ وما يستطيعُ العقلُ إدراكَهُ إنما هو في حدودِ الزمانِ والمكانِ بطبيعةِ الحال.

ولكن إذا عجزت العقولُ عن إدراكِ الله فكيف يُعْرَفُ لِيُشْكَرَ ويُعْبَد؟ هذا ما بادَرَ الإمامُ عليه السلام إلى تِبيانِهِ قائلًا:

«فَطَرَ الخلائقَ بقدرتِه، ونشَرَ الرياحَ برحمتِه، ووَتَّدَ بالصخورِ مَيَدَانَ أرضِه»: نعم لا يمكنُ أن يدركَهُ العقلُ ولكنه يتعرفُ على آثارِهِ إجْمالًا، فإنما هذه الخلائقُ والرياحُ والجبالُ مظاهرُ من مظاهرِ الإبداعِ يمكنُ أن تكونَ شواهدَ ومنافذَ للتعرفِ على الذاتِ المقدسة.

ب) وقال عليه السلام(١):

«الحمدُ لله الذي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُور»: أي عَلِمَهَا من باطنِها بل هو في أعماقِها، لأن روحَ الخلقِ منه والمخلوقاتِ أثَرٌ له، فهو مصدرٌ لخلقِها ومصدرٌ لبقاءِ وجودِها، وخفياتُ الأمورِ بطبعِها وتعريفِها لا يمكن أن يُطَّلَعَ عليها، فلا شكَّ أن من أوجدَ فيها السرَّ والإبداعَ والخفاءَ هو أخفى منها، فكيف يُعْرَفُ إذن؟

«ودَلَّتْ عليه أَعلامُ الظُهُور»: أي الأدلة الظاهرة، فله من الشواهدِ على ذاتِه المقدسة وهيمنتِه المطلقة ما يُذْعِنُ له عقلُ كلِّ عاقل وفكرُ كلِّ مفكر اعترافًا بأنه هو الواحدُ الأحد.

«وامتنعَ على عينِ البصيرِ» لاستحالةِ إبصارِه إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٢)،

---

(١) خ٤٩، ص٨٧.

(٢) سورة الشورى / ١١.

والـذي يُـرَى يجـبُ أن يكـونَ في جهـةٍ وفي وقـتٍ مـا، واللهُ تعـالى خـارجٌ عـن الزمـانِ والمـكان، ولكـن إذا لم تبـصِرْه العـين فهـل يعنـي هـذا أنـه لا وجـودَ لـه؟ يجيـب عليه السلام:

«فـلا عـينُ مـن لم يـرَهُ تنكِـرُه»: أي صاحـبُ العـينِ التـي لم تـره يجـبُ أن لا ينكـرَه إذ أنَّ وجودَهـا في ذاتِهـا أثـرٌ مـن آثـارِه ودليـلٌ عليـه.

«ولا قلـبُ مـن أثبتـه يُبْصِرُه»: ولا يخفـى مـا في هـذه المقابلـةِ مـن جهـةٍ بلاغيـة، فـلا العـينُ الناظـرةُ التـي لم تـره يحـقُّ لهـا إنكـارُه، ولا القلـبُ الـذي أثبتَـه رآه، وأثبتـه أي جَـزَمَ بوجـودِه.

«سَـبَقَ في العُلُـوِّ فـلا شيءَ أعـلى منـه، وقَـرُبَ في الدُّنُـوِّ فـلا شيءَ أقـرب منـه، فـلا اسْـتِعْلاؤُه باعَـدَهُ عـن شيءٍ مـن خلقِـه، ولا قُرْبُـهُ سـاواهم في المكانِ بـه»: فهـو ﴿مَعَهُـمْ أَيْنَـمَا كانـوا﴾(١)، وهـذه المَعِيَّـةُ والقـربُ ليـس مسـاواتُهُمْ في المكانِ بـه، بـل هـو في علـوه وهـذا العلـوُّ ليـس بعـدًا عنهـم بـل هـو محيـطٌ بهـم رُغْـمَ علـوِّه.

«لم يُطْلِـعِ العقـولَ عـلى تحديـدِ صفتِـهِ»: فهـذا العقـلُ المُرَكَّـبُ قـاصرٌ عـن إدراكِ المُرَكِّـبِ المبـدعِ لـه فقـد حَجَـبَ العقـولَ عـن إدراكِـه.

«ولم يحجبْها عن واجبِ معرفتِه»: لماذا؟

«فهو الذي تشهدُ له أعلامُ الوجودِ على إقرارِ قلبِ ذي الجحود».

«تعـالى اللهُ عـما يقولُـه المشـبِّهونَ بـه والجاحـدونَ لـه»: أي أيهـا العبـدُ لا تفكـرْ في ذاتِ اللهِ فـإن مـا يحُـومُ حـولَ فكـرِكَ مـن شُـبَهٍ إنـما هـي عـلى صـور مـا تَـرى مـن

(١) سورة المجادلة / ٧.

المحسوساتِ والمادياتِ مما هو في مجالِ إدراكِك ولكن اللهَ تعالى ﴿ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السميعُ البصير﴾، لذلك ثِقْ تمامًا أيها العبدُ أن ما تراه من صور ليست هي اللهَ تعالى، ويقول عليه السلام: أيها الجاحدُ إنَّ عدمَ إدراكِك لله ليس دليلَ عدمِ وجودِه إذ تشهدُ له أعلامُ الوجودِ على إقرارِ قلبِك أي أنك أيها الجاحدُ مُقِرٌّ بالله تعالى في قرارةِ نفسِك.

ج) وقال عليه السلام[1]:

«لا تَقَعُ الأوهامُ له على صِفَةٍ ولا تُعْقَدُ القلوبُ منه على كيفِيَّة»: يؤكدُ الإمامُ عليه السلام هذه الناحيةَ أن الأوهامَ والأفكارَ لا يمكنها وَصْفُه، لماذا؟ لأنها -كما مرَّ- إذا كانت تجهلُ كُنْهَه وحقيقتَه فكيف تصفُه، فقد يُفاجَأُ الإنسانُ بجهازٍ ضخمٍ لا يَعرفُ لِمَ هو فضلًا عن أن يَعرفَ دقائقَ تركيبِه فيكونُ حَذِرًا في التعاملِ معه، فكذلك -ولله المثلُ الأعلى- ذاتُهُ المقدسةُ لا يمكنُ وصفُها لاسْتِحالةِ الإحاطةِ بها وإدراكِ أبعادِها.

رابعًا: شواهدُ على عجزنا

وهي شواهدُ نحياها في واقعِنا وندركُ أبعادَها وشيئًا من أمورِها ومع ذلك لا نقفُ على حقيقتِها وأسرارِها فكيف نطمعُ أن نقفَ على حقيقةِ خالقِها ومبدعِها.

ونأخذ شاهدًا من كلامِ أميرِ المؤمنينَ نفسِه عليه السلام في وصفِه للطاووس، فيقول عليه السلام[2]:

---

(١) خ٨٥، ص١١٥.

(٢) خ١٦٥، ص٢٣٥ التي أولها (ابْتَدَعَهم خلقًا عجيبًا). وموضع الشاهد في ص٢٣٨.

«وإذا تَصَفَّحْتَ شعْرةً مِن شَعَرَاتِ قَصَبِه أَرَتْكَ حُمرةً وردِيَّة وتارةً خضرةً زَبَرْجَدِيَّة وأحيانًا صفرةً عسجدية، فكيف تصلُ إلى صفةِ هذا عمائقُ الفِطَنِ أَوْ تبلُغُهُ قرائحُ العقول أو تستنظِمُ وصفَه أقوالُ الواصفين! وأقلُّ أجزائِه قد أعْجَزَ الأوهامَ أن تدركَه والألسنةَ أن تصفَه، فسبحانَ الذي بَهَرَ العقولَ عن وصفِ خلقٍ جَلاَّهُ للعيون فأدركتْه محدودًا مكوَّنًا ومؤلَّفًا ملوَّنًا وأعجزَ الألسنَ عن تلخيصِ صفتِه وقَعَدَ بها عن تأديةِ نَعْتِه».

نلاحظ أنه قد أشارَ إلى الطاووسِ وهو ليس أعظمَ مخلوقاتِ الله بل أشار إلى أقلِّ أجزائِه شعرةٍ واحدةٍ منه بل أشارَ إلى صفةٍ واحدةٍ لهذه الشعرة وهي اللون ليُبَيِّنَ عظَمةَ الخالقِ وأنَّ كلَّ شيءٍ يدُلُّ عليه تعالى وتقدس، فما بالك لو ذكرَ فسيولوجيتَه وتشريحَه وما في عقلِه مركز هدايته، وأحشائِه وأسرارَها واستقامةَ جهازِ التغذيةِ عنده فلو أفاضَ في ذلك لأتى بكتابٍ كهذا الكتاب، وفي هذا النصِّ الشريفِ من الاستدلالاتِ به الشيءُ الكثيرُ وإنما ذكرنا موضعَ الشاهدِ من حديثِنا، وكم من شواهدَ أخرى في أنفسِنا، فعقولُنا وأرواحُنا وغرائزُنا وهي فينا ومع ذلك لا نستطيعُ تحليلَها وتجزأتَها والوقوفَ على أسرارِها.

خامسًا: جوانبُ بلاغيةٌ وعلميةٌ في هذه النصوصِ الشريفة

١ - «بُعْدُ الهمم»: فإن الأصلَ (الهممُ البعيدة)، الموصوفُ تَلِيه الصفةُ ولكنه عليه السلام أضافَ المصدرَ (بُعْد) إلى الموصوفِ (الهمم) لأن موضعَ الشاهدِ هو في البُعْدِ وأنه عاجزٌ عن إدراكِ الله تعالى فليس الشاهدُ في الهِمَمِ بل في بُعْدِهَا ولذلك قَدَّمَ البُعْد، وكذلك الحال في (غوص الفطن).

٢ - «غوصُ الفطن»: فإن فيه استعارةً إذ شَبَّهَ العلومَ العقليةَ والعوالمَ الإلهيةَ

بالبحارِ المتلاطمةِ والإنسانُ سابحٌ يغوصُ باحثًا عن ضالتِه من الجواهرِ واللؤلؤ وهي هنا الأسرارُ الإلهيةُ وحقيقةُ الذاتِ المقدسةِ ولكنه لا ينالُ ذلك كما قدمنا.

٣ - «ووَتَّدَ بالصخورِ مَيَدَانَ أرضِه»: والمقصودُ بالصخورِ الجبالُ والميدانُ التحركُ بتمايل، وهي إشارةٌ إلى حركةِ الأرضِ وأنه من أجْلِ أن لا تميلَ في حركتِها ثبّتَها اللهُ بالجبال، وهذا التعبيرُ والإشارةُ مستعارة من القرآنِ الكريمِ إذ يقولُ تعالى: ﴿وألْقَى في الأرضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بكم﴾[1].

مطاف الخاتمة

قال ابنُ أبي الحديد من شعرِ المناجاة[2]:

والله لا موسى ولا ... عيسى المسيحُ ولا محمدْ
علموا ولا جبريلُ وهْو ... إلى محلِّ القدسِ يَصْعَدْ
كلا ولا النفسُ البسيطةُ ... لا ولا العقلُ المُجَرَّدْ
من كُنْهِ ذاتِكَ غيرَ أنك ... واحِدِيُّ الذاتِ سَرْمَدْ
وجدُوا إضافاتٍ وسَلْبًا ... والحقيقةُ ليس توجَدْ[3]
ورأوا وجودًا واجبًا ... يَفْنى الزمانُ وليس ينفَدْ
فلْتخْسَىءِ الحكماءُ عن ... حَرَمٍ له الأملاكُ تسجُدُ

(١) سورة النحل / ١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣/ ٥٠.

(٣) أي أنهم بفضل الله تعالى علموا الصفاتِ الثبوتية والسلبية ولكنهم ما علموا الذات المقدسة التي لها هذه الصفات.

مـن أنـت يـا رسْـطو ومـن　　　أفْـلاطُ قبلـك يـا مُبلَّـدْ
ومـنِ ابـنُ سينا حـينَ قـرَّرَ　　　مـا بنيـتَ لـه وشـيَّدْ
هـل أنتـمُ إلاَّ الفـراش　　　رأى الشـهابَ وقـد تَوَقَّـدْ
فَدَنَـا فـأحْـرَقَ نفسـهُ　　　ولـو اهْتَـدَى رشـدًا لأَبْعَـدْ

خاتمةُ المطاف

عن أبي حمزةَ ﵁ عن زينِ العابدين وسيدِ الساجدين ﷺ قال: «يا أبا حمزةَ إن الله لا يوصَفُ بمحدودية، عَظُمَ ربُّنا عن الصفة، فكيف يُوصَفُ بمحدوديةٍ من لا يُحَدُّ ولا تدركُه الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير»(١).

تنبيه

يجب أن نعيشَ جميعًا مع الإمامِ ﷺ فكرًا وروحًا وحياةً من أجلِ تحقيقِ الفائدةِ القُصوى من هذا الدرسِ الشريفِ لنيلِ الكمالات، وهناك أسبابٌ مهمةٌ للتوفيقِ، فأولها وجوهَرُها الإخلاصُ في العمل، ومنها أن يأتي الطالبُ العزيزُ على وُضُوءٍ فإنه ليس أمرًا عاديًا أن يأتي الإنسانُ ليتحدثَ أو يَسمعَ كلامًا حول أميرِ المؤمنين ﷺ، ونحن هنا نتعلمُ التوحيد، نتعلمُ سيِّدَ العلومِ على يَدِ سَيِّدِ الأوصياءِ عليٍّ ﷺ وبابِ مدينةِ علمِ رسولِ الله ﷺ.

إذن ينبغي أن يُلاحَظَ للدرسِ قدسيتُه واحترامُه ومن ذلك التهيؤُ له بالحضورِ والمراجعةِ والحفظِ والتتبعِ قدر الإمكان، وهذه المسائلُ فيما أعتقد متروكةٌ للتفاعلِ

(١) أصول الكافي ١/ ١٠٠. والآية الكريمة في سورة الأنعام/ ١٠٣.

الخاصِّ مع أميرِ المؤمنين عليه السلام لأنه روحُنا ووجودُنا ودنيانا وآخرتُنا، فلْنَجْعَلْ هذا الدرسَ وهذا الإخلاصَ طريقًا للوصولِ إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام.

٧) التوحيد

مدخل:

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«التَّوْحِيْدُ أَلاَّ تَتَوَهَّمَه».

أولاً: ضيق الخناق

وهـو تعبير أصولي يعني أن الحديث والتعبير عن الذات المقدسة، عن الله تبارك وتعالى يكون غير واف وغير واضح لأن العقل والإدراك لا يستطيع الإحاطة بالله تعالى وحتى عقول الأنبياء والأوصياء والأولياء وإدراكهم، وهذا العجز يكون في اللغة نفسها بالإضافة إلى المتكلم، ولذلك تُتخذ في التعبير عن الذات المقدسة أساليب متعددة حتى يقرب المعنى المقصود إلى الذهن، وابتداء ننبِّه أن ما نسمعه من بعض التعبيرات حول الذات المقدسة قد نتوهم فيها ما لا يصح على الله تعالى وتقدس.

ثانيًا: أقسام التوحيد

للتوحيد أقسام عدة لخصت في أربعة أقسام أو أربع مراتب وهي:

أ) توحيد الذات: فهو واحد لا شريك له.

ب) توحيد الصفات: فصفاته عين ذاته ولا يشاركه فيها أحد.

ج) توحيد الأفعال: في تفرده بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والقدرة وغيرها.

د) توحيد العبادة: في قبال الرياء والعجب وما إلى ذلك مما يكون مظهره عبادة غير الله، وسوف يأتي بيان كل هذا إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: الواحد والأحد

فمن صفاته تعالى الواحد والأحد، ويرى البعض أنه لاداعي للاعتناء بالفرق بين الكلمتين مادامتا تشيران إليه تعالى وتقدس، بينما يرى البعض الآخر أن الواحد في قبال الاثنين، بينما الأحد في قبال المركب أي من أجزاء مضافًا إلى فوارق أخرى ذكرت في كتب اللغة وغيرها.

رابعًا : قال إمام الموحدين صلوات الله وسلامه عليه

ولنا هنا بعض الملاحظات حول ما نذكره من كلامه عليه السلام:

- إن الخطبة الواحدة فيها عدة بحوث تمامًا كالسورة الواحدة التي تتناول جهات عدة في البحث.

- ما نذكره هو نماذج فقط وليست كل ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام حول موضوع درسنا التوحيد.

- هذه النصوص الشريفة ونحوها وما فيها من أفكار وحقائق يمكن أن نصنفها حسب أقسام التوحيد الأربعة التي ذكرناها.

- تعدد الأساليب وتفنن أمير المؤمنين عليه السلام في إثبات حقيقة التوحيد، فتارة

يستخدم حقيقة أنه لا يحتاج إلى أنيس وليس له والد أو ولد، وتارة يستخدم عجز الإدراك العقلي وتارة يشير إلى أنه لوكانت هناك آلهة غيره سبحانه لكانت لهم أنبياء ورسل إلى الناس، وهذا التنوع في الأساليب ناتج من أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وعلي عليه السلام أعلم بها، فإلى جملة من كلماته الشريفة:

أ) قال عليه السلام[1]:

«وكَمَالُ التَّصْدِيْقِ بِهِ تَوْحِيْدُه»: يعبر الإمام عليه السلام بكلمة (كمال) أي أن الاعتقاد بالله يجب أن يكون كاملًا وأما الاعتقاد المنقوص فلا يحقق الهدف لأن النتيجة تتبع أضعف المقدمات، أي أن نتيجة الاعتقاد الناقص تتبع هذا النقص لأنه أضعف مقدمة.

ويرى بعض الشراح والمفسرين أن التصديق ينقسم إلى قسمين: تصديق كامل وتصديق ناقص وكذلك التوحيد، وقوله عليه السلام (توحيده) جاء مطلقًا ليدلل على توحيده في كل اعتبار فيوحده بأنه هو الرب والخالق والمعبود والفعال لما يريد ويوحده في أي جهة أخرى، واخْتُلِفَ في تفسير هذا فقال البعض إن التصديق الناقص هو الاعتقاد فقط بأن الله واجب الوجود فهذا اعتقاد صحيح ولكن ليس كاملًا فيجب أن يضاف إليه معرفته تعالى بالبراهين والأدلة، وبعضهم يرى أن إثباته فقط (الجزم بوجوده) هو تصديق ناقص والكمال أن ينفي ما سواه في مقام الألوهية.

«وكَمَالُ تَوْحِيْدِهِ الإِخْلاَصُ لَه»: يشعر هذا بتقسيم التوحيد أيضًا إلى توحيد

(١) خ١، ص٣٩.

ناقص وتوحيد تام، فالتام هو الاعتقاد به ونفي الشريك عنه، والناقص هو الاعتقاد به وبشريك معه، إلا أن الشيخ محمد جواد مُغْنِيَة يرى أن هذا من الخطأ في التفسير لأن الشرك من أقبح مواطن الإلحاد، فيرى الشيخ مُغْنِيَة أن المقصود بالإخلاص ليس عدم الشرك لأن الشرك ينافي التوحيد كله ولا ينافي كماله فقط، وإذن فما هو الإخلاص الذي يحقق كمال التوحيد؟ فسر بعضهم الإخلاص بأنه الإخلاص في العبادة وأن عدمه ينافي كمال توحيده تعالى ولا ينافي التوحيد كله، بعكس الشرك الذي ينافي التوحيد كله.

وهنا تذهب العقول مذاهب بعيدة فبعضهم يرى أن هذا التعبير عن (الإخلاص) هو إشارة إلى العرفان الإسلامي والفناء في الله بحيث لا يرى العبد في الوجود إلا الله سبحانه، وما يعنينا هنا أن الإمام عليه السلام قد جاء بهاتين الكلمتين ليشير إلى أن هذه المعارف حول التوحيد بينها وشائج مترابطة.

ب) وتحدث عن تَوَحُّدِ الله تعالى، فقال عليه السلام[1]:

«مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ ولا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِه».

إننا في تعابيرنا ننطلق من واقعنا، فكوننا ماديين يستدعي أننا نتعامل مع القضايا والأفكار من منطلق مادي فنقيسها بواقعنا، وفي هذا المثال يستشعر الإنسان أنه إذا ذهبت زوجته أو فقد ولده حتى بمرض فضلًا عن الموت فإنه يستوحش لذلك، والإنسان يستأنس حينما يعود إليه صديقه المسافر أو المسجون، وهذه ونظائرها من صفات المخلوق صاحب المشاعر والغرائز والأحاسيس التي

(١) خ١، ص٤٠.

ركَّبها الله تعالى فيه، وأما الله تبارك وتعالى فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، فما نحسّه في أنفسنا أو نتصوّره فيها فإنه لا يصحّ على الله تعالى، فهو واحد متوحِّد لا شريك له ولا سكن من زوجة أو ولد ولا هو يأنس بملائكته في سماواته أو حملة عرشه وكرسيّه -جل وعلا- أو أي شيء آخر.

ولنا أن نتأمَّل في شأن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وهو مثال القدرة الإلهية والعلم الإلهي، فإنه عليه السلام وكما قال: «حَتَّى أَلْقَى اللهَ لا تَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ولا تَفَرُّقُهُم عني وَحْشَةً»[2]، هذا هو أمير المؤمنين عليه السلام فكيف بالله تعالى الذي هو الغِنَى المطلق والكمال المطلق.

ج) وبيَّن معنى الوحدة في حقه تعالى، فقال عليه السلام[3]:

«كُلُّ مُسَمَّى بالوِحْدَةِ غَيْرِهِ قَلِيل»: وفي هذا ما عبّرنا عنه بضيق الخناق، فإن كلمة (الوحدة) تنطبق على الشخص الذي يكون في بلاد وحده أو في سجن وحده أو كحديث أن أبا ذرّ يُحشر أمة وحده أو فلان يمشي وحده، وتنطبق هذه اللفظة على الله تعالى وتقدس ولكن -ويا لروعة التعبير!- يقول عليه السلام إن غيره إذا وصف بالوحدة فإنها تعني القلة والتي تحتاج إلى كثرة تؤازرها، أما الله سبحانه فهو الواحد الحقيقي الذي لا يحتاج إلى كثرة، فكلمة الوحدة في حقه تعني التفرد والاستقلال والتوحيد الكامل.

---

(١) سورة الشورى / ١١.

(٢) كتاب رقم٣٦، ص٤٠٩.

(٣) خ٦٥، ص ٩٦.

د) وقال عليه السلام[1]:

«لَمْ يُولَدْ»: استدلال على الوحدانية بحقيقة التوالد، فإن الغالب في التناسل أن يكون عن طريق التوالد، فالمولود -إنسانًا أو حيوانًا- محتاج إلى من يقوم بتغذيته ورعايته، أما الله سبحانه لتنزهه عن الحاجة فإنه «لَمْ يُولَدْ».

«سُبْحَانَهُ»: وهنا شاهد على روعة أمير المؤمنين في قوله (سُبْحَانَهُ) فبمجرد أن قال (لم يولد) فَصَلَ الكلام وقرنها بالتنزيه لأن الله تعالى حي في قلبه ووجوده.

«فيَكُونَ فِي العِزِّ مُشَارَكًا» :لأنه سيكون له أب له شأن الأبوة والهيمنة فتكون العزة منقوصة وليست كاملة وحاشا ساحة الجلال والجمال أن يطرأ عليه نقص من النقائص.

«ولَمْ يَلِدْ فيَكُونَ مَوْرُوثًا هَالِكًا»: لأن في هذا أسبابًا لعروض الحاجة للغير.

هـ) وتحدث عن معنى (الواحد) تعالى، فقال عليه السلام[2]:

«وَاحِدٌ لا بِعَدَدٍ»: فعندما يقال (الواحد) يرتسم في أذهاننا مباشرة (الاثنان والثلاثة)، أما بالنسبة لله تعالى فإنه عنوان الوحدة الكاملة التي لا تحتاج إلى رديف أو زيادة، وهذه نقطة مهمة جدًّا ولهذا تكرر هذا التعبير في كلامه عليه السلام.

و) وتحدث منزِّهًا الله تعالى عن وقوع الحال، فقال عليه السلام[3]:

---

(١) خ١٢٨، ص ٢٦٥.

(٢) خ١٨٥، ص٢٦٩.

(٣) خ١٨٦، ص٢٧٢.

«مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَه»: فمن واقعنا أن نسأل عن مزاج الشخص وصحته وكيف عمله فيلاحظ في ذلك الزيادة والنقيصة والتبدل وغير ذلك، أما الله سبحانه فمنزَّه عن أن تطرأ عليه الأحوال والكيفيات كاللون الذاتي والجهر والإخفات للقراءة أو أنه ثخين أو رقيق، والاعتقاد بانتفاء الكيفيات عنه هو من كمال التوحيد.

ز) وقال عليه السلام[1]:

«يَعُوْدُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لا شيءَ مَعَهُ»: وقوله (يعود) من ضيق الخناق أيضًا في أفهامنا فقد نتصور أنه ذهب عنها ثم عاد إليها، ولكن المعنى أنه قبل الدنيا ومعها وبعدها على حد سواء وهو لا يحتاج إليها أو يرتبط بها وبما يعرض عليها من فناء وتحوّل، بل يعود كما هو دائمًا بلا زمان أو مكان.

ح) وفي الوصية الخالدة إلى نجله الحسن المجتبى عليه السلام التي كتبها له من حاضرين، قال عليه السلام[2]:

«واعْلَمْ يا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيْكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ ولَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وسُلْطَانِهِ ولَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وصِفَاتِهِ، ولَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، ولا يَزُولُ أَبَدًا ولَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلا أَوَّلِيَّةٍ وآخرٌ بَعْدَ فَنَاءِ الأَشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَة»:

وهو استدلال عجيب حقًّا، إذ يقرر الإمام (صلى الله تعالى عليه) أن قوافل

---

(١) خ١٨٦، ص٢٧٦ .

(٢) ص٣٩١-٤٠٦، وموضع الشاهد ص٣٩٦.

من الأنبياء كوكبة إثر كوكبة وفي مدد مختلفة جاءت إلى الناس بدعوة واحدة مجمع عليها وهي أنهم -أي الأنبياء- يقرّون بالله ربًّا وينزِّهونه ويعترفون بأنه ليس لهم من الأمر شيء، ولم يأتِ نبيّ من قبل إله آخر مما يدلّل صراحة أنه لا إله إلا الله تعالى وتقدّس، هذا من جانب الأنبياء وكذلك هو الأمر من جانب الخلق فهو في انسجامه وإبدعه يدلل على أن مبدعه واحد ولو كان له شريك لظهرت آثار هذا الشريك.

وكلمة الأمير عليه السلام التي افتتحنا بها الدرس: «التَّوْحِيْدُ أَلاَّ تَتَوَهَّمَهُ» هي جامعة لهذه المعاني، فخواطر الإنسان حول الله تبارك وتعالى التي يجسدها الإنسان في أنها واحد في قبال الاثنين أو يجسدها في أنه لابد أن يكون له خالق أو أنه يجري عليه نظام التوالد والكيفيات، كل هذه الخواطر إنما هي توهّمات بتأثير مادية الإنسان، وهنا ينبِّه أمير المؤمنين عليه السلام أن هذه التوهّمات تتنافى مع التوحيد، نعم يضيق فكر الإنسان دون الوقوف على حقيقة الذات المقدسة، ولهذا جاء النهي عن التفكر في ذات الله ولكن تفكّروا في مخلوقات الله تعالى[1].

خامسًا: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾

إن الرب والابن وروح القدس أقانيم ثلاثة إله واحد، وهذه من المقولات الغريبة ومع بالغ الأسف نجد أن المفكرين المحدثين من النصارى المسيحيين يحاولون تصحيحها وتبريرها وهي في الواقع تستعصي على التصحيح وتأبى إلا

---

(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «تفكروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق». الدر المنثور ٢/ ١١٠.

وعن أبي جعفر عليه السلام: «إيَّاكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه». الكافي ١/ ٩٣.

الغلط فكيف يجتمع آلهة ثلاثة كل منهم له وجوده المستقل ليكونوا إلهًا واحدًا، بل يقولون: صحيح أن العلم لا يقر ذلك ولكن الدين يقره، وهذا أسلوب فيه مغالطة يهدف إلى اتهام الدين بأنه مجموعة خرافات لا تنسجم مع العقل والعلم.

وهذا يذكرنا بجملة فارسية تستعمل لبيان فداحة الخطأ والاشتباه الكبير لبعض المغفلين، وهذه الجملة هي:

خسن وخسين هرستاش دختران معاوية، وترجمتها الخسن والخسين ثلاثتهم بنات معاوية، فأنى تستقيم هذه المقولة؟!

خاتمة

إن أعرابيًّا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إن الله واحد؟... فحمل الناس عليه، قالوا يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: «يا أَعْرَابِيُّ إِنَّ القَوْلَ في أَنَّ اللهَ واحِدٌ على أَرْبَعَةِ أَقْسَام: فوَجْهَانِ مِنْهَا لا يَجُوْزَانِ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ ووَجْهَانِ يَثْبُتَانِ فيه، فأَمَّا اللذانِ لا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ فقولُ القَائِلِ: وَاحِدٌ يَقْصِدُ بِهِ بابَ الأعداد فهذا ما لا يَجُوزُ، لأَنَّ ما لا ثَانِيَ له لا يَدْخُلُ في بَابِ الأَعْدَادِ، أَمَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ: ثالثُ ثلاثة، وقولُ القائلِ هو وَاحِدٌ مِنَ الناسِ يريدُ بهِ النوعَ مِنَ الجنسِ فهذا ما لا يَجُوزُ عَلَيْهِ لأَنَّهُ تَشْبِيْهٌ، وجَلَّ رَبُّنَا عَنْ ذَلِكَ وتعالى، وأَمَّا الوَجْهَانِ اللذانِ يَثْبُتَانِ فيهِ فقولُ القائلِ: هو وَاحِدٌ ليسَ لهُ في الأشياءِ شِبْه، كذلكَ رَبُّنا، وقولُ القائلِ: إِنَّهُ عَزَّ وجَلَّ أَحَدِيُّ المعنى، يعني بأَنَّهُ لا يَنْقَسِمُ في وجودٍ ولا عقلٍ ولا وَهْمٍ، كذلك رَبُّنا

عَـزَّ وجَـلَّ»[١].

﴿شَـهِدَ اللهُ أَنَّـهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ والمَلاَئِكَـةُ وأُولُـو الْعِلْـمِ قَائِـمًا بِالْقِسْـطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ العَزِيْـزُ الحَكِيم﴾[٢].

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق / ٨٣-٨٤.

(٢) سورة آل عمران / ١٨.

٨) الصفات الإلهية

مدخل

قال سيد الموحدين عليه السلام:

«الحمدُ لله الذي أظْهَرَ من آثارِ سلطانِه وجلالِ كبريائِه ما حَيَّرَ مُقَلَ العقولِ من عجائبِ قدرتِه، ورَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النفوسِ عن عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِه».

أولاً: «وبَحْرٌ عَمِيْقٌ فلا تَلِجُوهُ»

إن بحث الصفات بحر عميق متلاطم الأمواج فهو يتحدث عما يليق وكيف يليق بالذات المقدسة الإلهية، ولما كانت الذات الإلهية في حدِّ ذاتها لا يُعلم كنهُها ولا يتأتَّى للعقل الوقوفُ على ساحلها فكيف يمكن الولوج إلى أعماقها وأسرارها؟!

يركِّز الإمام عليه السلام على عجز الإنسان وقصوره الذاتي عن إدراك ما يشاهد أو ما لا يشاهد من المخلوقات كحديثه عليه السلام عن ملك الموت عليه السلام فإن الإنسان يجهل وصف هذه الذات المخلوقة ومعرفة أسرارها وشؤونها فكيف يصف ويحيط بخالقها بل لا قياس في المقام أصلًا، وكفى بهذا اعترافًا بعجزنا.

بل يذكر الإمام عليه السلام أن الأولياء والمقرَّبين وُصِفُوا بالراسخين في العلم لاعترافهم بقصور أفكارهم وإدراكاتهم عن الإحاطة بصفات الله تبارك تعالى.

ثانيًا: أقسام الصفات

صفات الذات المقدسة تُقَسَّمُ إلى صفات ثبوتية وهي صفات الجمال والكمال، وصفات سلبية وهي صفات الجلال.

والصفات الثبوتية تُقَسَّمُ أيضًا إلى قسمين:

أ - الصفات الثبوتية الذاتية أو صفات الذات.

ب - الصفات الثبوتية الفعلية أو صفات الأفعال، ويعبر عنها بالصفات الثبوتية الإضافية.

وهذا التقسيم هو بملاحظة ما يليق بالذات المقدسة وما لا يليق بحسب ما نتعلمه من أمير المؤمنين عليه السلام الذي علَّم الناس التوحيد وعرَّفهم على الله التعريف الممكن لعقولهم أن تدركه أو تدرك شيئًا منه.

وهنا تفصيلات أخرى في هذا التقسيم كإرجاع بعض الصفات لبعضها مثل علاقة الإرادة بالعلم وغير ذلك مما لا يهمنا التعرض له هنا.

ثالثًا: مقياسٌ دقيق

صفات الذات كثيرة من أهمها العلم والقدرة والحياة والإرادة والغنى، وكذلك صفات الأفعال ومنها الخلق والرزق.

وهنا مقياس دقيق للتفريق بين صفات الأفعال وصفات الذات، فمن ذلك:

١ - يلاحظ في صفات البشر أن الصفة شيء والموصوف شيء آخر، فإذا

وُصِفَ شخص بأنه شاعر أو مهندس فمن الواضح أن هذا الشخص (الموصوف) شيء والشعر أو الهندسة (الصفة) شيء آخر، وهذا جليٌّ جدًّا.

بينما في حقّ الذات المقدسة لا نجد هذا، بل نجد أن صفات الذات ليست شيئًا آخر غير الذات فهنا الصفة والموصوف شيء واحد أي صفاته (الذاتية) هي عين ذاته، بينما صفات الأفعال صفات إضافية كما قدمنا.

٢- وقد يكون هذا الأمر تتميمًا أو توضيحًا للأمر الأول، وهو أن صفات الذات لا تنفك عن الذات، فلا يمكن تصور أن الله موجود ولكنه غير عالم أو غير قادر، بينما يمكن تصوّر الله تعالى موجودًا دون صفة من صفة الأفعال، مثلًا كان الله ولا سماء ولا أرض ولا كائن، إذن كان الله موجودًا ولم يكن خالقًا ثم خلق فكان خالقًا.

٣- صفات الذات لا يمكن وصف الله بعكسها فلا يقال علم الله هذا الأمر ولم يعلم هذا الأمر، أو قدر على هذا ولم يقدر على هذا، بينما صفات الأفعال يمكن وصف الله تعالى بعكسها فيصح أن يقال إن الله تعالى رزق فلانًا ولم يرزقني بستانًا مثلًا، أو أن الله خلق هذا الولد لي ولم يخلق لي ولدًا آخر.

رابعًا: قال إمام الموحدين عليه السلام

أ- قال عليه السلام[1]:

«الحمدُ لله الذي أظهرَ من آثارِ سلطانه وجلال كبريائه ما حيَّر مُقَلَ العقولِ من عجائب قدرته»:

(١) خ١٩٥، ص٣٠٨.

المُقَل جمع مقلة وهي شحمة العين التي فيها السواد والبياض، ونسبتها إلى العقول من باب الاستعارة فليس للعقول عيون تبصر، وإنما المراد أن العقول لديها القدرة على النظر الفكري أي الإدراك ومع ذلك فهي حائرة أمام آثار سلطانه وجلال كبريائه.

«ورَدَعَ خطراتِ هَمَاهِمِ النفوسِ عن عرفان كُنْهِ صفته»:

الهماهم يعني ما يهم النفس أي همومها في طلب العلم، فيقول لها بلسان الحال والواقع إنها تعود خاسئة حسيرة عاجزة عن الوصول إلى كنه صفاته تبارك وتعالى.

ب - وقال عليه السلام[1]:

«الذي ليس لصفتِهِ حَدٌّ محدودٌ ولا نعتٌ موجود»:

وهذه النقطة يجعلها الإمام عليه السلام ركيزةً في تعليم الناس طريقة التعامل مع الله بأننا نجهل كنهه وحقيقته وصفاته ولذلك لا يمكننا الإحاطة به تعالى وتقدس.

«وكمالُ الإخلاصِ له نفيُ الصفاتِ عنه»:

ماذا يعني الإمام عليه السلام بهذه العبارة؟! كيف ننفي الصفاتِ عنه رغم أنه وَصَفَ نفسه في كتابه ووصفه رسوله ووليُّه (صلى الله تعالى عليهما وآلهما) بأفضل الصفات؟! نعم لا يراد من هذا ما قد يُتوهم من ظاهر العبارة بل يراد ما بيَّنَتْه العبارة التي بعد هذه العبارة مباشرةً بقوله عليه السلام:

(١) خ١، ص٣٩.

«لشهادةِ كلِّ صفةٍ أنها غيرُ الموصوف، وشهادةِ كلِّ موصوفٍ أنه غيرُ الصفة»:

فقد بيَّنا أن قولنا: فلان المهندس أو الشاعر، فيه فلان (الموصوف) شيء والشِعْر أو الهندسة (الصفة) شيء آخر ويمكن تَعَقُّلُ الموصوف مستقلًّا دون الصفة كما يمكن تَعَقُّلُ الصفة مستقلة دون الموصوف، فكل منهما معنى قائم بذاته.

ويا لروعة أمير المؤمنين عليه السلام في تعبيره (لشهادة) فهو يقول إن مجرد لفظ (صفة) و(موصوف) شهادة منهما أنهما ليسا شيئًا واحدًا، وحتى في الإعراب النحوي عندنا صفة وموصوف، بينما الصفات الذاتية لله تعالى هي عين ذاته ولا يمكن أن تكون هناك اثنينية: صفة وموصوف، وما المانع من الاثنينية؟ يجيب عليه السلام:

«فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فقَدْ قَرَنَهُ، ومَنْ قَرَنَهُ فقَدْ ثنَّاهُ، ومَنْ ثنَّاهُ فقد جَزَّأَهُ ومَنْ جَزَّأَهُ فقَدْ جَهِلَه».

لأنه وصفه بما لا يصحّ عليه، فالذي يتجزّأ إلى شيئين أو أكثر إنما هو الجسم المخلوق، تعالى الله الخالق وتقدّس.

«ومَنْ جَهِلَهُ فقَدْ أَشَارَ إِلَيه»:

فيشير إليه بما هو موصوف مستقل عن صفاته تعالى.

«ومَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فقَدْ حَدَّه»:

فيأخذ الإمام عليه السلام في بيان المفارقات التي تترتب على هذا التصوّر الخاطئ.

إذن (نفيُ الصفات عنه) يعني عدم جعلها مستقلة عن ذاته جلَّ وعلا،

فالواقع أنه ليست هناك صفات متعددة فهو عالم بما هو حيٌّ وحيٌّ بما هو قادر وهذه الكمالات مجتمعة هي الذات المقدسة.

وهنا ثلاثة آراء:

١ - أن كل صفات الله حادثة.

أي كان الله ولم يكن معه أو فيه شيء من صفاته ثم حدثت.

وهذا الرأي لبعض أهل السنة وهو منبوذ، والرأيان الرئيسان هما:

٢ - أن صفاته تعالى هي عين ذاته ولا اثنينية في المقام كما قال سيد الموحدين ومن علَّم الناس التوحيد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد أخذ بهذا الرأي العَدْلية الذين هم الإمامية والمعتزلة.

٣ - أن صفاته ليست حادثة بل هي قديمة ولكنها مستقلة عن ذاته فليست هي عين ذاته.

وهو رأي الأشاعرة الذين هم الكثرة الكاثرة من المسلمين في مجال الاعتقاد.

أي أن الصفات التسع أو الثمان بالإضافة إلى الله تعالى كلها قدماء وتعدد القدماء تعدد في الآلهة، فإذا كان النصارى قالوا بآلهة ثلاثة فقد قال هؤلاء بآلهة تسعة، ولا نقول أنهم يعتقدون بآلهة تسعة إنما ذلك لازِمُ مقولتهم.

ولهذا قال الفخر الرازي العالم الشهير:

«إن النصارَى أثبتوا ثلاثةَ قدماءَ وأصحابنا أثبتوا تسعة»[1].

إخوانَنا الأذْنَيْنَ مِنَّا ارْفقُوا   لقد رقيتُمْ مُرْتَقَىً صَعْبا

إنْ ثلَّثَتْ قومٌ أقانِيمَهُم   فإنكمْ ثمَّنْتُمُ الربَّا[2]

خاتمة

سمع الإمام الصادق عليه السلام رجلًا يُكَبِّر (الله أكبر) فسأله الإمام عليه السلام: أكبر من أي شيء؟ فقال الرجل: أكبر من كل شيء، فقال الإمام عليه السلام: كان الله ولم يكن شيء معه، فإذن أكبر من كل شيء؟ (يعني لم يكن هناك شيء حتى يكون أكبر منه) فقال الرجل: فماذا أقول؟ فقال عليه السلام: قل الله أكبر من أن يوصف[3]، يعني اعْتَقِدْ بهذا المعنى وإن كان قول (الله أكبر من كل شيء) صحيح ولكن يعَلِّمُه الإمام عليه السلام أَنَّ الأَلْيَقَ بالله تعالى حينما نقول (الله أكبر) أن نعتقد أنه أكبر من أن يوصف، والاعتراف بالعجز وصف من الأوصاف بل هو نهاية قدرة الإنسان.

مصادر للبحث

١- (في ظلال نهج البلاغة) للشيخ محمد جواد مغنية، شرح الخطبة الأولى وكلامه واضح وجدير بالرجوع إليه.

٢- (عقائد الإمامية) للشيخ المظفر، في بحثه للصفات.

٣- (معالم التوحيد) للشيخ السبحاني، في بحث بساطة ذاته تعالى.

٤- (خلاصة علم الكلام) للشيخ الفضلي في هذا المجال أيضًا.

---

(١) معالم الفلسفة الإسلامية، للشيخ محمد جواد مغنية / ١١٧ .

(٢) الغدير ٣/ ٢٩٣.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ١/ ٢٧٩.

٩) تنزيه الذات المقدسة

أثر واقعنا على فهمنا للصفات الإلهية

قال أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الوَصْفِ الجَمِيل».

إننا بطبعنا العادي ونظرًا لكوننا ماديين نميل دائمًا إلى المحسوس ونقيس الأمور على واقعنا فلا نتعقل مثلًا أن يكون السمع بلا حاسة، لماذا؟ لأننا وما حولنا من حيوانات نراها نسمع بحاسة هي الأذن، وهذه الناحية هي في الواقع قصور ذاتي فينا، ولو طبقنا هذه المادية وهذا القصور في فهمنا لصفات الله تعالى لكان ربنا مثلنا تعالى الله وتقدس، وهو تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾[١].

وعلى هذا فإن نسبة السمع والبصر والكلام نسبة صحيحة وصادقة ولكن ينبغي فهمها من منطلق ما يليق بالله تعالى، وقد أكّد أمير المؤمنين عليه السلام على هذه الناحية كثيرًا كما رأينا ونرى في كلامه عليه السلام.

قال سيد الموحدين عليه السلام

١ – قال عليه السلام[٢]:

«وكلُّ سميعٍ غيرَهُ يَصَمُّ عن لطيفِ الأصواتِ ويُصِمُّهُ كبيرُها ويذهب عنه

(١) سورة الشورى / ١١.

(٢) خ٦٥، ص٩٦.

ما بَعُدَ منها»:

هناك أصواتٌ للنمل في المكان البعيد في الأرض، وأصوات لحيوانات في قعر البحار، وأصوات لطيور في أجواء السماء البعيدة وهذه لا ندركها ولا نحسها، كذلك الإنسان، الصوت القويُّ يُصِمُّ آذانه وقد تصل الحالة إلى أنه لا يستطيع تمييز الصوت وفهمه وهذا أمر مشاهَدٌ بالتجربة، إذن الإنسان وكل سامع من المخلوقات له حدَّان أدنى وأعلى لمدى قدرته على السمع[1].

وهذا نقص في المخلوق والخالق منزَّه عنه، وكذلك هو الأمر في مجال البصر ومداه، يقول عليه السلام:

«وكلُّ بصيرٍ غيره يعمى عن خفيِّ الألوان[2] ولطيفِ الأجسام»:

وهذا ما نعرفه اليوم من وجود المخلوقات التي لا ترى بالعين المجردة ونحتاج لنراها إلى المجهر، بل يقررون أن ثمة أجسامًا تعيش في النار وبعضها يعيش في الجليد وغير ذلك وهي ذات ألوان ولكن لا تقع عليها أعيننا، ولكن الله أحاط بكل هذه الأمور فهو خالقها، فضلًا عن إحاطته تعالى بخلقه الذي لا نراه من ملائكة وجن وغير ذلك، وأتصور أن الإمام عليه السلام في حديثه هذا عن السمع والبصر في حق الله تعالى أراد إعلام الناس على قدر عقولهم ومن واقع تجاربهم

---

(١) يقول المختصون: إن الإنسان يسمع الأصوات من تردد (٢٠ هرتز) كحدٍّ أدنى، إلى تردد (٢٠,٠٠٠هرتز) كحدٍّ أعلى، والإنسان (يَصَمُّ عن لطيفِ الأصواتِ) أي ما هو أقل من (٢٠ هرتز)، (ويُصِمُّهُ كبيرُها) أي ما هو أكثر من (٢٠,٠٠٠هرتز)، وقد يكون مراد الإمام عليه السلام هذا المعنى أو معنى لا ندركه.

(٢) كالأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية، القادمة من الشمس.

وأن الله تعالى فوق هذه المدرَكات والمدرِكات من مخلوقاته.

٢ – وتحدث عليه السلام عن صفات الله تعالى فقال[١]:

«لا تقع الأوهامُ له على صفة»: وقد بيَّنا فيما سبق من الدروس أن هذا لا يعني عدم وصف الله تعالى وأنه خالٍ من الصفات فقد وصف نفسَه ووصفه رسولُه ووصفه أمير المؤمنين عليهما وآلهما الصلاة والسلام، وإنما المعني -كما سبق- استحالة الصفة بعنوان أنه شيء غير الذات المقدسة فيلزم التركيب والتجزيء وهذا ما لا يصح.

«ولا تُعْقَدُ القلوبُ منه على كيفيَّةٍ»: لأن معرفة كيفيته تستدعي إحاطةَ ممكنِ الوجود بواجبِ الوجود، والقاصرِ بالكاملِ وهذا غير معقول.

«ولا تنالُه التجزئةُ والتبعيضُ»: يمكن تفسير هذه العبارة الشريفة بعنوان نفي التجسيم كما سيأتي إن شاء الله تعالى، كما يمكن تفسيرها بعنوان أن صفاته عين ذاته، فلو جزَّأنا الصفات عن الذات أو جعلنا كل صفة منفصلة عن الأخرى لجزَّأنا الله تعالى وبعَّضْناه وذلك يستدعي التركيب، والتركيب يستدعي مركِّبًا إلى آخر هذه اللوازم الفاسدة، تعالى الله علوًّا كبيرًا.

ولهذا قال عليه السلام في آخر هذه الفقرة الشريفة:

«ولا تُحِيطُ بِهِ الأَبْصارُ والقُلُوبُ»: الأبصار كوسيلةٍ للشيء المنظور لا تحيط به وإنما ترى آثار سلطانه وقدرته، والقلوبُ وإنِ انعقدت على معرفته ووجوب وجوده وتوحيده، فهذا شيءٌ وأما الإحاطة به فشيءٌ آخر، وكيف تحيط به وهي

(١) خ٨٥، ص١١٥.

بعض ما خلق.

٣ - وتحدث حول اطلاع الله تعالى عل أعمال العباد، فقال عليه السلام[1]:

«إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى لا يَخْفَى عَلَيْهِ ما العِبادُ مُقْتَرِفُونَ في لَيْلِهِمْ ونَهارِهِمْ»: فهو مطلعٌ على العباد ليلًا ونهارًا ولا فرق لديه لأنه العالم النافذ ولأنه منفصل عن الزمان، ولهذا قال بعد هذه العبارة:

«لَطُفَ به خُبْرًا وأحاطَ به علمًا»: واللطف: هو الرقة الخاصة التي تستوجب النفوذ والتوغل في أعماق الشيء الدقيق، وهو شبيه بما نعرف الآن -ولله المثل الأعلى- بعالم الأشعة التي تمكننا من التصوير من العلو إلى قيعان البحار وأعماق وخفايا الأرض، وهذا اللطف والدقة في العلم والإحاطة شيء معجز من جانب، ومن جانب آخر فإن هذه الإحاطة تستوعب كل خلق الله تعالى بأعداده الهائلة من إنسان وجان ومَلَكٍ وحيوان وغير ذلك وهذا إعجاز آخر.

«أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ»: وهذه الأعضاء ليست مصادر علمه تعالى وتقدس بل هو الذي جعلها شهودًا وأنطقها سواء كان النطق هذا الذي نعرفه أو أنها تحفظ آثار الجريمة التي تنطبع عليها، ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الذي أَنْطَقَ كُلَّ شيءٍ وهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مرةٍ وإِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾[2].

«وَضَمائِرُكُمْ عُيُونُهُ»: وهذا لطف في التعبير لأن الضمير بطبعه يناسبه الكتمان بينما العيون شاخصة بارزة، وإنما جمع بينهما الإمام عليه السلام ليخبر بأن الله تعالى لا يُفَرِّقُ

---

(١) خ١٩٩، ص٣١٨.

(٢) سورة فُصِّلَتْ / ٢١.

عنده حال العبد في السرِّ أو العلانية.

«وخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُه»: يرتكب الإنسان إثمًا في خلواته بعيدًا عن الناس لكن هذه الخلوة هي عِيانٌ عند الله أي معايَنة ومشاهَدة.

٤ – وقال عليه السلام(١):

«ليسَ في الأشياءِ بِوَالِجٍ، ولا عنها بِخَارِجٍ»: ولتقريب حجم المخلوقات والمعلومات فلنأخذ قريتَنا هذه وما فيها من البناء والبشر والمخلوقات والماء والنخيل والأرض والسماء فنجد أنها دنيا واسعة وما هي إلاَّ قطرة صغيرة في بحر محيط بالنسبة لخلق الله، ومع ذلك فإنه الله مستغنٍ بعيدٌ ليس بداخلٍ فيها كما أنه -في بُعدِه- معها ومحيطٌ بها.

٥ – ووصف عليه السلام ملك الموت، وهذا أسلوب لأمير المؤمنين عليه السلام إذْ يدلل بعجزنا عن الإحاطة بالمخلوقات على عجزنا عن الإحاطة بخالقها ومبدعها، وقد رأينا فيما سبق مثالًا آخر من هذا في وصفه عليه السلام للطاووس، فيقول هنا في وصف ملك الموت(٢):

«هل تُحِسُّ بِهِ إذا دَخَلَ مَنْزِلًا أَمْ هَلْ تَرَاهُ إذا تَوَفَّى أَحَدًا»: فقد جاء في الروايات أنه يتفقد البيوت كل يوم وإذا قبض روح أحدهم قال إن لي معكم عودات(٣).

ثم يترقى الإمام عليه السلام في بيان عجزنا عن وصف هذا الملك بقوله عليه السلام:

---

(١) خ١٨٦، ص٢٧٤.

(٢) خ١١٢، ص١٦٧.

(٣) بحار الأنوار ٦/ ١٤١-١٤٣ و١٦٩، ومنهاج البراعة ٨/ ٣٧.

«بـل كيـف يتـوَفَّى الجنيـنَ في بطـنِ أمِّـه! أَيَلِـجُ عليـهِ مِـنْ جَوَارِحِهـا أَمِ الـروحُ أجابتْـه بـإذنِ ربِّهـا؟».

ثم يَخْلِصُ الإمام عليه السلام إلى الدرسِ من ذلك بقوله عليه السلام:

«كيفَ يصِفُ إلهَه مَنْ يَعْجزُ عَنْ صِفَةِ مخلوقٍ مِثْلِه».

خاتمة

تحدثنـا عـن بعـض صفاتـه تعـالى وتقـدس وأن نسـبتها إليـه تعـالى صحيحـة صادقة ولكـن ليس كما نتصوّر ونعايش في واقعنا، وهـذا ينطبق على غير الصفات مما يتعلق بـالله تبارك وتعالى كـما نقرأ في القرآن الكريم مثلًا، ومـن ذلـك قولـه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِيْنَ مِنْكُم﴾[1]، فـإن (قـد) هنـا كـما نعلـم مـن اللغـة تفيـد أنـه قـد يعلـم وقـد لا يعلـم، ولكـن يجب حملها على غير هـذا المعنى لأنـه لا يليق بـالله تعـالى وتقـدس، ويذكـر في النحـو أن (قـد) تفيـد التكثير وقـد تفيـد التوكيـد.

كما أن كان وأمثالها مـن أفعـال يذكـرون أنهـا مـع الله تكـون مسـلوبة الدلالـة على الزمـان، ولهـذا فـإن أسـتاذنا العمـران حفظـه الله وأيَّـده يرتِّـب عـلى أمثـال هـذه الأمـور آثـارًا حتى في الإعـراب لكـي يتـلاءم وجـلال الله ومـا يليـق بـه تبـارك وتعـالى، فمثـلًا، في قولـه تعـالى: ﴿وكَانَ اللهُ عليـمًا حكيـمًا﴾[2] لا يُعـرِبُ كلمـة (حكيـمًا) بحسـب ظاهرهـا (خـبرًا لـكان) لأن هـذا يسـتلزم أنـه تعـالى كان جاهـلًا -ونسـتغفر الله لهـذه الكلمـة- ثـم عَلِـم، بـل يعربهـا حـالًا أي أن حـال الله في كينونتـه هـي العلـم دائـمًا وأبـدًا، لذلـك يجب تفسير مثل هـذه الألفـاظ بـما يليـق بـه تعـالى، وهـذا مـا عبَّرنـا عنـه سـابقًا بضيـق الخنـاق.

(١) سورة الأحزاب / ١٨.

(٢) سورة النساء / ١٧.

١٠) صفة العدل

مدخل

قال أمير المؤمنين وسيِّد الموحدين صلوات الله وسلامه عليه:

«التوحيدُ أَلَّا تتوهَّمَهُ، والعدلُ أَلَّا تَتَّهِمَه».

أولاً: تعريف العدل لغة واصطلاحًا

العدلُ لغةً: القسط والإنصاف، وأصله المرتبة الوسط وكذلك التسوية والمماثلة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾[1]، أي يجعلون له مثيلاً، والعدل مصدر فإطلاقه على الله أي أنه ذو عدل أي عادل.

واصطلاحًا: يُعرَّفُ في علم الكلام بأنه تنزيه الباري جلَّ وعلا عن فعل القبيح وعن الإخلال بالواجب.

وهذه التسمية بالنظر إلى أن جميع ما يصدر عنه تعالى متصف بالعدل بما يليق به تعالى لذلك جاء العدل وصفًا واسمًا من أسمائه تعالى.

ثانيًا: مجالات العدل

فهي لا تنحصر في دائرة من الدوائر كالعدل في التشريع مثلًا، بل تشمل جميع الدوائر وكل ما ندرك وما لا ندرك في عالم التكوين وعالم التشريع، ونقصد

(١) سورة الأنعام / ١.

بعالم التكوين أن الله فيما خلق وفيما يُميت ويُحيي وما يتعلق بالسماوات العُلى والأرضين السُفلى وما يتعلق بالجنة والنار والمعاد وكل شيء في الوجود فإنه على بُنْيَةِ العدل واستقامته التي لا يشذّ عنها شيء، فتركيبة الإنسان بما فيها من غرائز وطاقات وقوى ولحم وعظم مبتنية على العدل، وكذلك هو الأمر في عالم الملائكة والجن والمخلوقات كلها.

ونقصد بعالم التشريع الأحكام الشرعية إذْ نؤمن أنها منبعثة من عدل، وهذا يريحنا كثيرًا عن معرفة أسرار التشريع وما يظهر أنه تمييز مثلًا بين الرجل والمرأة في الميراث فقد يُظن أنه حَيْفٌ وظلم ولكن لكوننا نؤمن بأنه تعالى عادل فإننا نؤمن بعدالة التشريعات الصادرة عنه سواءً فهمنا أسرارها أم لم نفهمها، ومن ذلك أيضًا شرف السيادة والانتماء لرسول الله ﷺ وأن السادة لهم حق في الخمس وليس في الزكاة، وكذلك الأمر في القصاص والشهادة وأحكام المرأة، فإننا على يقين بعدالة هذه التشريعات فهمنا أسرارها أم لم نفهمها.

ثالثًا: لماذا خُصَّ العدلُ ليكون الأصلَ الثاني من أصول الدين؟

العدل بالنظر التحقيقي صفة من صفات الأفعال كسائر الصفات، وأصول الدين أساسًا ثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، فيدخل العدل وجميع الصفات تحت التوحيد لأن التوحيد جامع لكل ما يتعلق بالله ومن ذلك توحيده في صفاته.

وتدخل الإمامة تحت النبوة لأنها امتداد لها وتشترك معها في شروطها وأمورها إلا ما اختصّ بالنبوة كالوحي مثلًا، فلماذا إذن نرى تقسيمًا آخر يجعل أصول الدين خمسة فيضيف لها العدل والإمامة؟

والجواب أن ذلك بسبب اختلاف المسلمين في العدل والإمامة إلى فرقتين، فبالنسبة للعدل قالت إحدى الفرقتين وهم الأشاعرة الذين هم غالبية السنة: أن الحَسَنَ ما حسَّنَه الشرعُ، والقبيحَ ما قبَّحَه الشرعُ، فجميع الأمور يجوز صدورها عن الله تعالى وتكون عدلًا حتى لو لم تتفق مع العقول السليمة والفطرة المستقيمة، ويمثلون لذلك بأنه لو أدخل اللهُ سيِّدَ رسلِه النارَ لكان ذلك عدلًا، ولو أدخل أشدَّ أعدائِه المتكبرين جنتَه لكان ذلك عدلًا، بينما قالت الإمامية والمعتزلة إن هناك حُسنًا عقليًّا وقُبحًا عقليًّا، والله لا يصدر منه إلَّا الجميل الذي يوافق العقل السليم والفطرة المستقيمة والوجدان، ولذلك توصف الإمامية والمعتزلة بالعدلية.

رابعًا: من فكر وتربية أمير المؤمنين عليه السلام

١ - قال عليه السلام:

«والعدلُ ألاَّ تتهمه»: فالمؤمن الذي هو على بصيرة من أمر ربه يثق بعدالته في كل الأمور فيما يعلم وفيما لا يعلم، وفيما يرضى وفيما لا يرضى وتلك منزلة كبيرة تلتقي مع منزلة التسليم لله تعالى وتقدس، فقد يفقد الإنسان ما يظن أنه سرُّ سعادته كأن يفقد ولده الوحيد فيتبرّم ويقول: أي حكمة وأي عدل في أن يحرم اللهُ عبدًا مسكينًا من ولده الوحيد ومصدر خيره ونفعه الظاهري، وقد يحرم الإنسان من وجاهةٍ كانت له فيسقط في نظر المجتمع، وقد يحرم نعمة من النعم، ولكنه إذا عرف أن الله عدل سلَّم له وانقاد ورضي بقضائه، ولو كان الله ظالمًا -ونستغفر الله لهذه الكلمة- للزم أن يكون هناك دوافع تدعوه للظلم تعالى الله وتنزّه، فإما أن يكون محتاجًا للظلم، ولكن الله هو الغنيُّ المطلق، وإما أن يكون عمله هذا عبثًا، ولكنه الحكيم الذي لا يعبث، وإما أن يكون ظلمه جهلًا، ولكنه العالم بكل شيء،

وحيث امتنعت جميع الدوافع للظلم لأنها لا تليق بجلاله إذن ثبت استحالة الظلم منه سبحانه وتعالى[1].

إذن فالله سبحانه عدلٌ في تكوينه، وعدلٌ في تشريعه، وعدلٌ في كل أمره، فيجب التسليم له سواءً عرفنا أسرار ذلك أم لم نعرفه، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2].

٢ – وعن عدل الله تعالى في الآخرة، قال عليه السلام[3]:

«إذا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وحَقَّتْ بِجَلائِلِها القِيامَةُ، ولَحِقَ بكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وبكُلِّ معبودٍ عَبَدَتُه، وبكلِّ مطاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فلَمْ يُجْزَ في عَدْلِهِ وقِسْطِهِ يومئذٍ خَرْقُ بَصَرٍ في الهَواءِ ولا هَمْسُ قَدَمٍ في الأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّه»:

يقول عليه السلام إن هذه الدنيا مليئة بالفوضى والآثام والمظالم، أما إذا قامت القيامة بما فيها من أهوال ولحِق كل أناسٍ بإمامهم سواءً كان إمامَ باطلٍ أو حقٍّ، فعندها لا يكون ظلم حتى بمقدار لا يكاد يُحَسُّ كخرق البصر في الهواء أو همس القدم في الأرض.

«فكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وعَلائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ»:

كم: خبرية لبيان الكثرة، أي أنه يمكن التضليل والتزوير في الدنيا

---

(١) يراجع في ذلك (عقائد الإمامية) للشيخ محمد رضا المظفر، في مبحث العدل.

(٢) سورة النساء / ٦٥.

(٣) خ٢٢٣، ص٣٤٥.

والاحتجاج بحججٍ واهية وأعذارٍ ضعيفة، أما في الآخرة فتتكشف الحقائق ولا تنفع هذه الحجج والأعذار، فهو يوم العدل الذي يُنتصر فيه للمغلوب وللمظلوم في الدنيا، و«يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم»[1].

وعن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في رسالة بعث بها إلى هارون العباسي من مطامير السجن: «إِنَّهُ لَنْ يَنْقَضِي عَنِّي يَوْمٌ مِنَ البَلاءِ إِلَّا انْقَضَى عَنْكَ مَعَهُ يَوْمٌ مِنَ الرَّخَاءِ حَتَّى نُفْضِي جَمِيعًا إِلى يَوْمٍ لَيْسَ لَهُ انْقِضَاءٌ يَخْسَرُ فيهِ المُبْطِلُون»[2].

نعم تمر الحياة وتنتهي، على الظالم والمظلوم، على السجين والسجَّان، على من في القصر وعلى من في الكوخ، ثم يكون الملتقى عند الله تعالى...

هكذا أدَّبنا أمير المؤمنين عليه السلام

فقد جاء عنه عليه السلام: «اللَّهُمَّ احمِلْني على عَفْوِكَ ولا تَحمِلْني على عَدلِك».

فإذا كان إمامنا عليه السلام الذي كان من عدله ما جاء عنه: «والله لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيْمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِها عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ في نَمْلَةٍ أَسْلُبُها جُلْبَ شَعِيْرةٍ ما فَعَلْتُه»[3]، ومع ذلك يبتهل بلسان العبودية الصادقة يسأل الله أن يعامله بعفوه لا بعدله لأن الحَمْلَ على العدل ثقيل، وهذا درس وعِظَةٌ لنا للكف عن كل ذنب خوفًا من عدل الله وحكومته.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمة رقم ٢٤١، ص٥١١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٧٣.

(٣) نهج البلاغة، خ٢٢٤، ص٣٤٧.

نسأل اللهَ أن يعيننا على أنفسنا ويعاملنا بعفوه بحق من نتشرف بالانتماء إليه صلوات الله وسلامه عليه.

١١) العدل وسعة آفاقه

مدخل[١]

ورأيت أن في العدل مواطن إفاضة ووفرةً في كلم الإمام الهادي والمربي الربّاني كما هو شأنه في كافّة ما يعالج، فسلكت نهجه ووطئت عقبه، واقتفيت أثره، فكانت هذه المراحل والمنازل.

أولاً: عدل الله سبحانه وتعالى

أ) «فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لله سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى العِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ المَزِيدِ أَهْلُهُ»[٢].

ب) «الذي صَدَقَ في مِيعادِهِ، وارتفعَ عن ظُلْمِ عِبادِه، وقام بالقِسْطِ في خَلْقِهِ، وعدلَ عليهم في حُكْمِهِ»[٣].

ج) «الذي عَظُمَ حِلْمُهُ فعفَا وعدلَ في كلِّ ما قضى»[٤].

---

(١) فصل مضاف في الطبعة الثانية.

(٢) نهج البلاغة خ ٢١٦/ ٣٣٢ -٣٣٣.

(٣) نهج البلاغة خ ١٨٥/ ٢٦٩.

(٤) نهج البلاغة خ١٩١ / ٢٨٣.

د) «وأشهدُ أنه عدلٌ عَدَلَ، وحَكَمٌ فَصَل»[1].

هـ) «وقدَّرَ الأرزاقَ فكثَّرَها وقلَّلَها، وقسَّمها على الضيقِ والسعَةِ فعَدَلَ فيها لِيَبْتَلِيَ مَنْ أرادَ بميسورِها ومعسورِها، ولِيَخْتَبِرَ بذلكَ الشكرَ والصبرَ من غنيِّها وفقيرِها»[2].

ثانيًا: القرآن الكريم منهل العدل ومشرعته

«فهو معدنُ الإيمانِ وبحبوحَتُهُ، وينابيعُ العِلْمِ وبُحُورُهُ، ورِياضُ العدلِ وغدرانُهُ»[3].

ثالثًا: الرسول الأعظم صلى صلى الله عليه وآله وسلم

أ) «وأَجْزِهِ مِن ابْتِعاثِكَ لهُ مقبولَ الشهادةِ ومَرْضِيَّ المكانَةِ، ذا منطقِ عدلٍ وخطبةِ فصلٍ»[4].

ب) «فهو إمامُ مَن اتَّقى... وسنَّتُهُ الرُّشْدُ وكلامُهُ الفَصْلُ وحُكْمُهُ العَدْل»[5].

رابعًا: الوالي والعدل

أ) ففي حديثه مع عاصم بن زياد وقد شكاه أخوه العلاء للبسه العباءة وتخليه عن الدنيا، فدعا به إليه فعاتبه ونصح له وأرشده، فقال عاصم: «يا أمير

(١) نهج البلاغة خ٢١٤/ ٣٢٠.

(٢) نهج البلاغة خ١٩٨/ ٣١٥.

(٣) نهج البلاغة خ٢١٤/ ٣٢٠.

(٤) نهج البلاغة خ٧٢/ ١٠١.

(٥) نهج البلاغة خ٩٤/ ١٣٩.

المؤمنين، هـذا أنـت في خشـونة ملبسـك وجشـوبة مأكلـك!»، فقـال عليه السلام: «وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ[1] بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[2].

ب) ومما قاله لعثمان لما أجمع الناس إليه وشكوا ما نقموه عليه وسألوه مخاطبته واستعتابه:

«فاعلـمْ أنَّ أفضـلَ عبادِ اللهِ عنـدَ اللهِ إمـامٌ عـادلٌ هُـدِيَ وهَـدَى، فأقـامَ سـنةً معلومـةً، وأمات بدعةً مجهولـة... وإِنَّ شرَّ الناسِ عندَ اللهِ إمامٌ جائرٌ ضَلَّ وضُلَّ بـه، فأمـات سـنةً مأخـوذةً، وأحيا بدعـة متروكـة»[3].

ج) وما جاء في عهده الشريف لوليه وواليه (مالك):

«ثـم اعلـمْ يـا مالـكُ أني قـد وجَّهْتُـكَ إلى بـلادٍ قـد جَـرَتْ عليهـا دُوَلٌ قبلَـك، مِنْ عـدلٍ وجـورٍ، وإِنَّ النـاسَ ينظُرُونَ مِنْ أمـورِكَ في مِثْلِ مـا كنـتَ تنظُرُ فيـه مِنْ أمـورِ الـوُلاةِ قَبْلَكَ، ويقولـونَ فيكَ مـا كنـتَ تقـولُ فيهِـمْ».

---

(١) يتبيَّغ: يهيج به الألم فيهلكه.

(٢) نهج البلاغة خ٢١٩ / ٢٢٤-٢٢٥.

وطريف تفاوت أمر الأخوين وعيشهما، وكذا اختلاف مقولة الإمام عليه السلام لهما.

فقد قال للعلاء وكان قد دخل عليه يعوده، فلما رأى سعة داره قال: «ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة».

(٣) نهج البلاغة خ١٦٤/ ٢٣٤ -٢٣٥.

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ».

«وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ».

د) والعدل قائم بين الوالي والرعية:

«وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لأُلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتْ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ»[(١)].

خامسًا: ومن مقومات العدل وشؤونه

أ) وسئل عليه السلام: أيهما أفضل العدل أو الجود؟ فقال عليه السلام: «الْعَدْلُ يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا»[(٢)].

ب) ومن صفات المتقين: «قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا»[(٣)].

ج) وقال عليه السلام في شأن طلحة والزبير:

(١) نهج البلاغة خ ٢١٦/ ٣٣٣.

(٢) نهج البلاغة حكمة ٤٣٧/ ٥٥٣.

(٣) نهج البلاغة خ ٨٧/ ١١٩.

«وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»[1].

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، رَاجِيًا ثَوَابَهُ، وَمُتَخَوِّفًا عِقَابَهُ»[2].

وفيما كتبه عليه السلام لمحمد بن أبي بكر حين قلّده مصر:

«وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلاَ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ»[3].

وقال عليه عليه السلام في خطبة خطبها بصفين:

«وَلاَ تَظُنّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلاَ تَكُفُّوا

---

(١) نهج البلاغة خ ١٣٧/ ١٩٤.

(٢) نهج البلاغة كتاب ٥١/ ٤٤٩.

(٣) نهج البلاغة كتاب ٢٧/ ٣٨٣.

ونحوه في كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله. كتاب ٤٦/ ٤٢١.

عَـنْ مَقَـال بِحَـقّ، أَوْ مَشُـورَة بِعَـدْل»[1].

د) وقال عليه السلام فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان:

«وَالله لَـوْ وَجَدْتُـهُ قَـدْ تُـزُوِّجَ بِـهِ النِّسَـاءُ، وَمُلِـكَ بِـهِ الإمَـاءُ، لَرَدَدْتُـهُ؛ فَـإِنَّ فِي العَـدْلِ سَـعَةً، وَمَـنْ ضَـاقَ عَلَيْـهِ العَـدْلُ، فَالجَـوْرُ عَلَيْهِ أَضيَـقُ»[2].

هـ) «وأَفْضَـلُ مِـنْ ذلـكَ كُلِّـهِ (الأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر) كَلِمَـةُ عَـدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ»[3].

سادسًا: عشّاق الدنيا لا يروق لهم العدل

فمـن كتـاب لـه عليه السلام إلى سـهل بـن حنيـف عاملـه عـلى المدينـة في لحـوق قـوم مـن أهلهـا إلى معاويـة:

«وَإِنَّـمَا هُـمْ أَهْـلُ دُنْيَـا مُقْبِلُـونَ عَلَيْهَـا، وَمُهْطِعُـونَ إِلَيْهَـا، قَـدْ عَرَفُـوا الْعَـدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَـمِعُوهُ ووَعَـوْهُ، وَعَلِمُـوا أَنَّ النَّـاسَ عِنْدَنَـا فِي الْحَـقِّ أُسْـوَةٌ، فَهَرَبُـوا إِلَى الأَثَـرَةِ، فَبُعْـدًا لَهُـمْ وَسُـحْقًا!! إِنَّهُـمْ -وَاللهِ- لَمْ يَنْفِـرُوا مِـنْ جَـوْر، وَلَمْ يَلْحَقُـوا بِعَـدْل، وَإِنَّـا لَنَطْمَـعُ فِي هـذَا الأَمْـرِ أَنْ يُذَلِّـلَ اللهُ لَنَـا صَعْبَـهُ،يُسَـهِّلَ لَنَـا حَزْنَـهُ، إِنْ شَـاءَ اللهُ، وَالسَّـلاَمُ عَلَيْـكَ»[4].

---

(١) نهج البلاغة خ ٢١٦/ ٢٣٥.

(٢) نهج البلاغة خ ١٥/ ٥٧.

(٣) نهج البلاغة حكمة ٣٧٤/ ٥٤٢.

(٤) نهج البلاغة الكتاب ٧٠/ ٤٦١.

سابعًا: انقطاع الأمل وبقاء الحسرة

أ) «أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ[1] عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ[2] الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ»[3].

ب) «أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ! وَرَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلالِ وَالْحَرَامِ، وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمُ[4] الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاقِ مِنْ نَفْسِي؟»[5].

ثامنًا: ويتجلّى الحق في يوم الجزاء

«يَوْمُ العَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الجَوْرِ عَلَى المَظْلُومِ»[6].

وبعد..

فهذه لئالئ من جوامع الكلم والعقد المنتظم، صاغها ربُّ البيان ومن أوتي فصلَ الخطاب، أفرغها بيانُه، ورسمها بنانُه، جمعت فأوعت، مصدرَ العدلِ ومعدنَه وموطنَه ومجراه، بدءًا من منبعه (العدل الحكيم)، و سبرًا لتغلغله في قوام حياة البشر حكّامًا ورعية، ونفوذه في شؤونهم، وختمًا لعاقبة الأمور حيث

(١) أظأركم: أعطفكم.

(٢) السرار: آخر ليلة من الشهر والمقصود الظلمة.

(٣) نهج البلاغة خ ١٣١/ ١٨٨-١٨٩.

(٤) فرشتكم: بسطتُ لكم.

(٥) نهج البلاغة خ ٨٧/ ١٢٠.

(٦) نهج البلاغة حكمة ٣٤١/ ٥٣٤.

محكمة (العدل) الكبرى يوم العرض الأكبر في ساحة الحق ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ(٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٩)﴾.

فسبحانه من عليم حكيم وحكم وعدل:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾[1].

﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(٢٠)﴾[2].

﴿إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ(٥٧)﴾[3].

وما أجلّ الواهب! وأكرم الموهوب! فقد أفاض عليه مولاه وحباه خير ما حباه، فجعله خزانة علمه ولسان حكمه ومظهرًا لكماله وجلاله وجماله، ومن ثَمّ أقامه علمًا بعد خاتم رسله وصفوة أنبيائه، وبابًا لمدينة علمه، لينهج بالأمة مسالك الهدى ويسدّ عنها منافذ الردى، ويأخذ بها إلى الله حيثما وكيفما يريد في حياتها الدنيا والأخرى.

فصلى الله على محمد نبيّه وعليٍّ وليّه والأئمةِ الهداة من آلهما وسلّم تسليمًا.

(١) سورة النمل، الآية ٧٨.

(٢) سورة غافر، الآية ٢٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٧.

١٢) الحكمة والروية

مدخل

قال سيِّد الحكماء والموحدين عليه السلام:

«وأَرَانا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وعَجَائِبِ ما نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ».

أولاً: تعريف الحكمة وعلاقتها بالرَّوِيَّة

الحكمة هي وضع الشيء في موضعه وهي بذلك مزيد التفكّر والروِيَّة وإمعان النظر، وأما في حق الله فهو حكيم لا يحتاج إلى روِيَّة، وهذا ما سيتجلَّى إن شاء الله تعالى خلال الدرس مستوحًى من نهج البلاغة الذي هو دائرة المعارف الإلهية الكبرى.

ثانيًا: أسلوب الإمام عليه السلام في التدليل على الحكمة

يستدل الإمام عليه السلام على الحكمة في الأمور المحسوسة من خلال آثار الإبداع والإتقان في الخلق المحسوس، ثم يستدل عليه السلام بذلك على الحكمة في الأمور غير المحسوسة وغير المدرَكة سواءً كان ذلك في عالم التشريع أو عالم التكوين.

وقد أكَّد أمير المؤمنين عليه السلام على هذا النمط من الاستدلال كثيرًا فمن ذلك ما يلي:

ثالثًا: دلائل الحكمة

١) تحدث الإمام عن دلائل الحكمة في الخلق، فقال عليه السلام[١]:

«وأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ... فَصَارَ كُلُّ ما خَلَقَ حُجَّةً لَهُ ودَلِيلًا عَلَيه»:

يستدل الإمام عليه السلام بآثار الصنع وعجيب الإتقان في الخلق على حكمة الخالق.

«وإِنْ كَانَ خَلْقًا صَامتًا فحُجَّتُهُ بالتَّدْبِيْرِ نَاطِقَة، ودلالَتُهُ على المُبْدِعِ قَائِمَة»: هذه المخلوقات المتقنَة وإن كانت أرضًا جامدةً أو سماءً أو أي شيءٍ مما يصنَّف أنه جماد، إلاَّ أنه ناطق بلسانٍ آخر معبِّرًا دالًّا على آثار الحكمة.

هذا شيءٌ، والشيءُ الآخر أن نواحي الإبداع هذه هي فقط ما تقع عليه أعيننا أو تلمسه أيدينا أو تدركه مشاعرنا الخاصة فكيف لو عرفنا كنهها ونفذنا إلى أعماقها واستطلعنا سرَّها واستخبرنا حقيقتها لكان في ذلك من الدلائل ما هو أجلى وأعظم وأهم ولكن في حدود ما ندرك فإنه دلالة كبيرة على الملكوت والقدرة والحكمة ودلالة على المبدع.

والمبدع هو من ينشيء الأمر ابتداءً على غير مثالٍ سابقٍ يحتذيه ويقفوه، وهذا مظهرٌ آخر للإعجاز.

٢) وقال عليه السلام[٢]:

---

(١) خ٩١، ص١٢٦.

(٢) خ٩١، ص١٢٧.

«قدَّرَ ما خلقَ»:

تستخدم (ما) غالبًا لغير العاقل في مقابلة (من) التي تستخدم غالبًا للعاقل، واستخدام الإمام عليه السلام (ما) هنا من باب التغليب بالنظر إلى أن المخلوقات المرئية وغير المرئية التي تصنَّف في قسم غير العاقل هي أكثر من التي تصنَّف في قسم العاقل، فالمعنى إذن قدَّر كل ما خلق لاشتمال (ما) على العاقل وغير العاقل.

«فأَحْكَمَ تقديرَه»:

أي جعل له مقداره الخاص به ﴿وأَنبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْزُون﴾[1]، أي لكل شيء مقداره أو تركيبته، وهذا ما يكشف عنه العلم وإن كنا لسنا بحاجة إلى الاقتصار عليه في الاستدلال على الخالق ولكنه من آثار التعرف على الله تعالى، فنرى عالَمَ الفضاء وما فيه من الأبعاد وعلاقة الأجرام فيه، كبعد الشمس عن الأرض ودرجة حرارة الشمس وأنه لو اختلف هذا البعد وهذه الحرارة لانعدمت الحياة على الأرض، وكذلك تركيب الثمار وطبقات الأرض من نسبٍ ثابتة من المواد، إلى ما شاء الله من المخلوقات.

«ودبَّرَهُ فأَلْطَفَ تَدْبِيْرَه»:

أي كان في غاية الدقة بحيث لا يتأتّى لغير الله الحكيم المطلق هذا التدبير الدقيق المتقن.

«ووَجَّهَهُ لِوُجْهَتِهِ فلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِه»:

---

(١) سورة الحجر / ١٩.

وهـذه رائعـة فكريـة تضـاف إلى كل روائـع أمـير المؤمنـين ﴿عليه السلام﴾، والمعنـى واضـح مـن سـير الخلـق إلى الهـدف وعـلى الطريـق الـذي رسـمه الله لـه.

٣) وقال ﴿عليه السلام﴾ مستدلًّا ببعض الخلق على حكمة الخالق(١):

متحدثًـا عـن الخفَّـاش، كـما يتحـدَّثُ عنـهُ مَـنْ خَلَقَـه، وأمـير المؤمنـين ﴿عليه السلام﴾ ليـس خالقًـا ولكنـه لسـان الخالـق، أو كـما يحلـو للشـيخ محمـد جـواد مغنيـة أن يعـبِّر بـأن الله تعـالى هـو المؤلِّـف وعـليٌّ ﴿عليه السلام﴾ هـو المخـرج، وهـذا كاشـف عـن شيء مـن عظمـة أمـير المؤمنـين ﴿عليه السلام﴾ في التدليـل عـلى إعجـاز الله وإبداعـه وحكمتـه، وإن كانـت هـذه الخطبـة قصـيرة إلاَّ أنهـا أحاطـت بـما يفـي بالغـرض ممـا يتعلـق بهـذا الحيـوان الـذي يعجـز الإنسـان (غـير محمـد وآلـه) مـن أن يحيـط بوصفـه، فقـال ﴿عليه السلام﴾:

«الحمدُ للهِ الذي انحَسَرَتِ الأوصافُ عن كنهِ معرفتِه...»:

روعةٌ في الاستهلال وبراعة، وهو فنٌّ من فنون البلاغة.

«ومن لطائفِ صنعتِه، وعجائبِ خلقتِهِ ما أرانا...»:

دلائلُ وشواهدُ واضحةٌ جليَّةٌ لنا.

«في هـذه الخفافيـش التـي يقبضُهـا الضيـاءُ الباسـطُ لـكلِّ شيءٍ، ويبسطُها الظلامُ القابـضُ لـكلِّ حيٍّ»: وهنـا ينحـو الإمـام ﴿عليه السلام﴾ منحًـى آخـر ليقـول إن خاصيـة الضيـاء أنـه يبسـط الأشـياء، والظـلام يقبـض الأحيـاء، وأمـا الخفافيـش هـذه فـإن الضيـاءَ يقبضهـا والظـلام يبسـطها، وبغـض النظـر عـن النواحـي الفنيـة والبلاغيـة التـي يبرزهـا

---

(١) خ١٥٥، ص٢١٦.

الإمام عليه السلام دونما تكلف وهذه المقابلة وغيرها - فإنه عليه السلام يأخذ في الوصف مدللاً على إبداع الله وحكمته وأن هذا لا تليق نسبته إلى المصادفة أو العشوائية، ولو أخذ الإنسان عيِّنةً من هذه الخفافيش وشرَّحها وقارنها بما يقول أمير المؤمنين عليه السلام وهو الصادق المصدَّق، لرأى مدى الانطباق وجمال الوصف بل قد يقع بصره على ما لايستطيع وصفَه، ولهذا قلنا إن الإمام عليه السلام هو لسان الله المعبِّر، ولا يعني هذا أنه خبر هذه المخلوقات ودرسها بل قد يكون رآها كما يراها غيره ولكنه العلم والإحاطة الإلهية.

٤ - وأفاض عليه السلام في صفة خلق من الحيوان مستدلًّا بذلك على بديع الصنع وإتقان الخلق وجليل الحكمة(١).

٥ - وبيَّن عجز الخلق، فقال عليه السلام(٢):

«ولو اجتمع جميعُ حَيَوانِها... ومتبلِّدةِ أممِها وأكياسِها على إحداثِ بعوضةٍ ما قَدَرَتْ على إحداثِها ولا عرفتْ كيف السبيلُ إلى إيجادِها»: وهذا النوع من التحدي هو على غرار ما تحدَّى به القرآنُ الأممَ أن تأتي بمثل القرآن الكريم.

رابعًا: الرَّوِيَّة

قلنا إن الحكمة تتلازم مع ما تحتاجه من الروِيَّةِ والتأمُّلِ ومزيدِ التفكير، لكن الله تعالى مع بالغ حكمته وكما يصفه الإمام عليه السلام بأنه لا يحتاج إلى روية.

---

(١) في خ١٨٥، ص٢٧٠.

(٢) خ١٨٦، ص٢٧٥.

١ – وفي هذه الناحية قال عليه السلام[1]:

«أنشأَ الخلقَ إنشاءً، وابتدأَهُ ابتداءً، بلا رويَّةٍ أَجَالَهَا، ولا تجربةٍ استفادَها»:

نعم نحن نفكّر في الأمور ونتأمل ثم نقرر وقد نخطيء وقد نصيب، وكلما كان الأمر عظيماً احتاج إلى رَوِيَّةٍ وتفكيرٍ أكثر، ولكن الله تعالى مع عظم خلقه وجلال حكمته فإنه لم يحتج إلى رَوِيَّةٍ وتفكيرٍ حين أبدع الخلق ولم يستفِدْ من تجربةٍ سابقة، وما أروعَ قوله عليه السلام:

«ولا حَرَكَةٍ أَحْدَثَها، ولا همامةِ نفسٍ اضْطَرَبَ فيها».

٢ – وقال عليه السلام عن الروية[2]:

«خلقَ الخلقَ من غيرِ رويَّة»:

لماذا ؟ لأن هذه المخلوقات لا تحتاج في خلقها إلى تعقلٍ منه، وإن كانت هي عين العقل، ولا تحتاج إلى تعليلٍ من جهته وإن كانت معلَّلَةً بتمام الحكمة.

«إذْ كانتِ الرَّوِيَّاتُ لا تليقُ إلاَّ بذوي الضمائر، وليس بذي ضميرٍ في نفسِه»: إن إجالةَ الفكر تكون عند من يختلف عليه الحال، عند من يقلب الأمر ظهرًا لبطن مرةً بعد أخرى وقد يستجدُّ له شيءٌ وقد يستفيد من تجربةٍ ويصحح أخطاءه، والله تعالى منزَّهٌ عن كل ذلك، فلا يظهر له علمٌ كان قد جهِله، وهذه أيضًا عقيدتنا في البداء فليس هو علمٌ بعد جهلٍ بل هو إظهار بعد إخفاء، وهذا ينطبق على باقي

---

(١) خ١، ص٤٠.

(٢) خ١٠٨، ص١٥٥.

الصفـات كـما تحـدث عليه السلام في مواطـنَ أخـرى مـن أنـه تعـالى (متكلـمٌ بـلا روِيَّـة) وغـير ذلـك.

خاتمة وخلاصة

يُجمل الإمام عليه السلام هذه الأمور بقوله[1]:

«المقدِّر لجميع الأمور بلا روِيَّةٍ ولا ضمير»:

وذلـك في عـالم التكويـن والتشريـع عـلى حـدٍّ سـواء وقـد جـاءت هـذه الجملـة الشريفـة نتيجـةً منطقيـةً حتميـةً لمـا سـبقها في هـذه الخطبـة الجليلـة.

(١) خ٢١٣، ص٣٣٠.

١٣) صفات الكمال والجمال

مدخل

قال مولانا وسيدنا أمير المؤمنين وسيد الموحدين عليه السلام:

«لا تُدْرِكُهُ الحواسُّ فتُحِسَّه، ولا تَلْمَسُهُ الأيدي فتَمَسَّه، ولا يتغيَّرُ بحال، ولا يتبدَّلُ في الأحوال».

حديثنا هذا هو ختام ما يتعلق بالإلهيات في هذا الدرس الشريف، ويدور حول جملةٍ من صفات الكمال والجمال، فنأتي بما يتعلق بموضوع كلام الله تعالى وخلق القرآن والصفات الأخرى كالسمع والبصر وغير ذلك مما وقع فيه النزاع وصار مثارًا للجدل عبر تأريخ المذاهب الإسلامية.

أولاً: حقيقة السمع والبصر

السمع والبصر من صفات الذات، ولعلَّ هذه الفكرة تتبلور وتتضح حينما نتطلق من رأي الإمامية في حقيقة هذه الصفات، فلا يصح القول بأنه يسمع إذا دعاه أحد (سمع الله لمن حمده) وإذا لم يدعه فإنه لا يسمع. فحقيقة السمع علمه بالأشياء المسموعة، وحقيقة البصر علمه بالأشياء المبصَرة، من دون توسط آلة ولا أداة ولا جارحة، إذن السمع والبصر مظهر وبعد من أبعاد العلم، والعلم من صفات الذات وبالتالي فإن السمع والبصر من صفات الذات.

ولكن إذا كان السمع والبصر مظاهر لصفة العلم فلماذا خُصَّا بالذكر؟

من ضمن التعليلات والتفسيرات لهذا التخصيص الجنبة الترهيبية بالنسبة للعبد والتركيز على أن الله تعالى يعلم السرَّ وأخفى ويطلع على السرائر والضمائر وهذا مثار للإنسان كي يرعوي ويرجع عمَّا يهم أن يأتي به من عمل غير لائق.

ثانيًا: أسباب التصور الخاطئ لصفات الكمال والجمال

فقد لوحظ هذا التصور الخاطئ عند الفرق الإسلامية بشكل انْجَرَّ معه إلى مفارقات كثيرة كما سيمر خلال البحث إن شاء الله تعالى، ومن أسباب ذلك ما يلي:

١) قيود المادية:

وقد أشرنا في أحاديثَ سابقة أن الإنسان لا يكاد ينفك عن ماديته، وهذه المادية تنحو به دائمًا إلى أن يفهم المعقول بلباس المحسوس، فلا يكاد يدرك المعقولات إلَّا حين تمثَّل له بمثالٍ ويريد للمعاني الإلهية أن تتجسّد، والمعاني الإلهية معانٍ تأبى عن التمثيل والتجسيم وشؤون المحسوس، فنحن محكومون بلغتنا وببيئتنا فيما ندرك ونخبر عنه وفيما نشبه به، ولهذا نحن مثلًا في دور الطفولة نتصور إلهنا بموجود كبير يلبس الثياب البيض في السماوات العلى متربع على عرشه، وهكذا توحي لنا أوهامنا وتصوراتنا وبيئتنا أو أي سبب من الأسباب.

٢) الجمود على ظواهر الألفاظ:

فهم يخضعون ألفاظ القرآن الكريم إلى تصوراتهم ومن هنا وقعت المشكلة، فالقرآن الكريم قطعي السند وهذه الألفاظ -السمع والبصر واليد والوجه ونحوها- صدرت حتمًا عن الله تعالى، ولكنهم اعتقدوا أن لله يدًا وساقًا وعرشًا والتزموا بالمعنى الظاهر المخالف لتقديس الله وتنزيهه عما لا يليق به تبارك وتعالى،

بل يرون أن الدين والورع هو الجمود عليها ولكنهم للتنزيه قالوا إن له يدًا وساقًا وغير ذلك ولكنها بالشكل الذي يليق بجلاله، وسيأتي نقض ذلك من فكر أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد أشرنا فيما مضى إلى أن الألفاظ القرآنية مع إعجازها البشر إلَّا أنها لم تخرج عن إطار اللغة بكاملها، والمعاني الكبيرة الشامخة تستعصي عن أن تصاغ بشكل واضح في هذا الإطار اللغوي، فإذا جمدنا على ظواهر الألفاظ جرَّنا ذلك إلى القول بما لا يليق بالله تعالى وتقدس، فمثلًا نقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾[1] فحينما نأخذ ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ بظاهرها مما درسناه في اللغة أن (قد) إذا دخلت على المضارع تفيد التقليل، عندها يكون المعنى أنه يعلم أحيانًا وأحيانًا لا يعلم، وهذا محالٌ على الله وهو فهمٌ فاسد باطل جرَّه الجمودُ على ظواهر الألفاظ.

إذن لابدَّ للعقل من مدخل وقد قدَّمنا في الأحاديث الأولى أن أساس البحث العلمي في العقائد والفلسفة وعلم الكلام هو دليل العقل، والآيات والروايات تعاضد العقل وترشد إلى ما يرشد إليه، وأمَّا تعطيله فسيكون على حساب الدين والفكر وسيكون سببًا لنسبة ما لا يليق إلى الله تعالى.

ومن ناحيةٍ أخرى أنه حتى من منطلق لغوي فإن باب المجاز والكنايات في اللغة العربية مفتوح على مصراعيه، فلا يقول أحدٌ إن قول العرب: (فلان مهزول الفصيل، فلان جبان الكلب، فلان كثير الرماد، فلان كثير الدخان) أن هذه الألفاظ تعني ظاهرها، بل المعنى الذي كانوا يقصدونه أنها كنايات عن الكرم،

(١) سورة النور / ٦٣.

بل إن المعنى الظاهر لا يحوم حول أذهانهم أصلًا فإن مدلولها اللفظي المطابقي قد يسوغ (كوجود الرماد بالفعل دليل على الإطعام) وقد لا يسوغ هذا المدلول اللفظي المطابقي (كأن لا يوجد رماد) ولكن المدلول الالتزامي (وهو الكرم هنا) هو الذي يسوغ دائمًا وهو المقصود.

٣) دور السياسة:

ومن الغريب أن الجمود على الألفاظ وتنحية العقل وإقصائِه كان في ذات الوقت الذي قُبِلَتْ فيه السياسة المضللة في هذه القضايا، فقد صارت المعارف الإلهية الشامخة محلًّا لأن يعبث فيها (المتوكل) و(المأمون) ومن جاء بعدهم ويسخِّرون العقول والأقلام والشعراء والناس لأفكارهم، ويكون المقياس للولاء والعداء هو تبني هذه الأفكار، فذهب كثير من قيمة المعارف الإسلامية بسبب التدخل المشين للسياسة الحاكمة وألقت تبعاتها الوخيمة على فكر المسلمين، ولعل هذه الآثار وكذلك تلك الأسباب باقية إلى الآن ﴿واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصَيْبَنَّ الذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيْدُ العِقَابِ﴾(١).

ولذلك يُشْكَلُ على أحمد بن حنبل أنه هنا بالذات قد تخلَّى عن مبناه، فقد كان مبناه عدم الخوض في المسائل التي لم يأتِ فيها نصٌّ في الشرع وأن الحديث عنها بدعة في حين أنه عالج موضوع خلق القرآن بهذا النوع من المعالجة ولم يلتزم بمبناه، وإن كان ينسب له أنه في نهاية أمره عدل عن خوضه في موضوع خلق القرآن لعدم ورود نص فيه، وإلَّا فإنه كان يكفِّر من لا يقول بمقالته.

---

(١) سورة الأنفال / ٢٥.

ثالثًا: المقولة الحق

١- قال (عليه السلام) مبينًا الاعتقاد الحق في الله تعالى[1]:

«والخالقِ لا بمعنى حَرَكَةٍ ونَصَبٍ»:

وقد أشرنا إلى ذلك في الأحاديث السابقة فلا حركة ولا جهد ولا عناء في خلقه للسماوات والأرض وما فيها ومن عليها.

«والسميعِ لا بأداة»: إثبات السمع من جانب، ونفي الأداة سواءً كانت أذنًا أو غيرها لأن الأداة من صفات المخلوق لا الخالق.

«والبصيرِ لا بتفريقِ آلة»: فسَّر البعضُ هذه الجملة أن الإنسان عندما يريد الإبصار يفرق جفنيه ليبصر، ولكن الله تعالى مستغنٍ عن أداة الإبصار، مع ثبوت البصر له كمظهر من مظاهر العلم أي أنه عليم بالأشياء المبصَرة كما مرَّ.

«والشاهدِ لا بمماسة»: فالله حاضر مع الأشياء كلِّها في كلِّ زمان ومكان ولكن ليس ملامسًا ومماسًّا لها، ومن هنا قال بعض العلماء إنه لا تعقل الجسمية في حقِّ الله تعالى لأن الله يقول: ﴿وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما تَكُونُوا واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2] والجسم لا يشغل أكثر من مكان واحد في نفس الوقت.

٢- وقد سأله ذعلبُ اليماني: هل رأيت ربَّك يا أمير المؤمنين؟ فقال (عليه السلام): أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال (عليه السلام):

---

(١) خ١٥٢، ص٢١٢.

(٢) سورة الحديد / ٤.

«لا تُدْرِكُهُ العيونُ بمشاهدةِ العِيانِ، ولكن تُدْرِكُهُ القلوبُ بحقائقِ الإيمان، قريبٌ من الأشياء غيرَ ملابس، بعيدٌ منها غيرَ مباين، متكلمٌ لا برويَّة، مريدٌ لا بِهِمَّة، صانعٌ لا بجارحة»(١).

فهو -تعالى- منزَّه عن كلِّ هذه الأمور، بل حتى إدراك القلوب له ليس رؤيةً أو إحاطةً بل هو نوعٌ من الوجدان بل إنه يعني التصديق والإذعان.

٣- وقال عليه السلام(٢):

«والحمدُ للهِ قبل أن يكون كرسيٌّ أو عرشٌ أو سماءٌ أو أرض...»:

بغض النظر عن أن يكون معاني الكرسي والعرش هي معاني العلم والإحاطة أو غير ذلك .

«الذي كلَّمَ موسى تكليمًا، وأَرَاهُ مِنْ آياتِهِ عظيمًا، بلا جوارحَ ولا أدواتٍ، ولا نطقٍ ولا لهوات»: يمهد الإمام عليه السلام للموضوع بذكر الكلام وإثباته في حقِّ الله تعالى ويضرب لذلك مثالًا وهو تكليم الله تعالى لموسى تكليمًا، ثم ينفي أن يكون لله تعالى في هذا الكلام أي أداة يحتاجها المخلوق للكلام كاللسان والشفتين واللهوات (وهي جمع لهاة) فهو ينفي الجارحة أصلًا لا أنه يثبتها ثم يقول إن هذه الجارحة بشكل يليق بالله تعالى، لأن هذه الجوارح لو وُجدت أصلًا لكان اللهُ مركَّبًا منها فيحتاج إلى مركِّب فيكون مخلوقًا ممكنَ الوجود، لا خالقًا واجبَ الوجود، ولا عجبَ أن تصدر هذه الرائعة من علي بن أبي طالب عليه السلام الذي علَّم الناس التوحيد، وإلَّا فهم

---

(١) خ١٧٩، ص٢٥٨.

(٢) خ١٨٢، ص٢٦٢.

لا يفقهون شيئًا ولا يهتدون إلاَّ به ﷺ، ولينظر الإنسان الحر وليقارن بين ما قدَّمه أمير المؤمنين ﷺ وبين ما قدَّمه غيره، إن كانوا قدَّموا شيئًا.

ثم يقول ﷺ كعادته في روائعه فيقرن تنزيه الله تعالى عن المخلوقين بالتدليل على عجزهم عن وصفه بعجزهم عن وصف مخلوقاته، فيقول ﷺ:

«بل إنْ كنتَ صادقًا أيها المتكلِّفُ لوصفِ ربِّك فَصِفْ جبريلَ وميكائيلَ وجنودَ الملائكةِ المقرَّبينَ، في حُجُرَاتِ القدسِ مُرْجَحِنِينَ [1]، متولهِّةً عقولهُم أن يحدُّوا أحسن الخالقينَ، فإنما يُدْرَكُ بالصفاتِ ذَوُو الهيئاتِ والأدواتِ...»: وتمامًا كما قدمنا أن من يجيل الرأي ويتروَّى فيما يمارس، ومن تعرض عليه الحالات يفكر ويتأمَّل، ويخطئ ويصيب، وكذلك لا يوصَف إلاَّ من له هيئة وله أدوات يمارس بها، وكل هذه الأمور منزَّه عنها الله تعالى، ولهذا لا يمكن حدُّه أو وصفُه، وهذه الكلمات من معلِّم التوحيد هي تفصيل لما أفاده الله تعالى في كتابه ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2].

٤- وتحدث عن تنزيه الله تعالى، فقال ﷺ[3]:

«ولا تدركُهُ الحواسُّ فتحسَّهُ، ولا تلمسُهُ الأيدي فتمسَّهُ، ولا يتغيَّرُ بحالٍ، ولا يتبدَّلُ في الأحوال»: يتحدث الإمام ﷺ عن الجسمية ثم -كعادته- ينحو منحى القرآن في تشعب مواضيعه فيتحدث عن السمع والبصر والكلام والحب والبغض والإرادة وغير ذلك فيقول ﷺ:

---

(١) المُرْجَحِنُّ -كالمُقْشَعِرِّ- المائلُ بثقله والمتحرك يمينًا وشمالاً.

(٢) سورة الأنعام / ١٠٣.

(٣) خ١٨٦، ص٢٧٤.

«يخبر لا بلسانٍ ولهواتٍ، ويسمعُ لا بخروقٍ وأدواتٍ، يقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحَفَّظُ، ويريدُ ولا يُضْمِر، يحبُّ ويرضى من غيرِ رِقَّة، ويبغَضُ ويغضَبُ من غيرِ مَشَقَّة»: إذن فالإطلاق اللفظي لهذه الأوصاف يشمل الخالق والمخلوق فالجميع يسمع ويبصر ويتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويغضب، ولكن الفرق بين هذه الصفات في حق الخالق عنها في حق المخلوق هو الفرق بين واجب الوجود وممكن الوجود، فيتنزَّهُ تعالى عن اللسان واللهوات وأداة السمع ويتنزَّه عن التلفظ والتحفظ والإضمار في النفس والرقة والمشقة، وكل هذه عوارض على المخلوق.

ولهذا تفسر محبة الله للخلق ورضاه بمعنى الثواب، وبغضه وسخطه بمعنى العقاب ولهذا أجمل الإمام في الأخير بقوله عليه السلام:

«يقولُ لمن أرادَ كونَه: ﴿كُنْ فيَكُونُ﴾ لا بصوتٍ يُقرَعُ ولا بنداءٍ يُسمعُ وإنما كلامه سبحانه فعلٌ منه أنشأه ومثَّله، لم يكن من قبلِ ذلك كائنًا، ولو كان قديمًا لكان إلهًا ثانيًا»:

نلاحظ أن الإمام عليه السلام يوسع دائرة معنى الكلام ليكون الكلام بمعنى الفعل والوجود، وكمثالٍ على ذلك ﴿إن اللهَ يبشركِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى بنُ مريم﴾(1) فمعنى عيسى كلمة الله أي أن وجوده دالٌّ على الله تعالى فكلام الله هنا هو إيجاده لعيسى عليه السلام، ويتحدث الإمام عليه السلام عن الكلام ليكون بمعنى العلم لا بمعنى هذه الحروف والألفاظ.

ومن هنا دخلت هذه المشكلة على الفكر الإسلامي وجرَّت ويلاتِها على الأمة

(1) سورة آل عمران / ٤٥.

الإسلامية حينما تصوَّروا أن الله يتكلم مثلما نتكلم نحن فإذا كان اللهُ قديمًا وجب أن يكون كلامه قديمًا لأنه صفة من صفاته وانحدر هذا الفكر إلى منحدرات سحيقة سخيفة كما سنعرض في النتيجة.

والنتيجة

النتيجة أن المادية والجمود ودور السياسة لعبت بالمعارف الإسلامية وأوصلتها إلى منحدرات سحيقة جدًّا، ففي مجال خلق القرآن وصل الأمر إلى أن قالوا إن الحروف والقلم الذي استخدمه الخطاط يكون قديمًا بل كذلك جلد الماعز الذي يكتب عليه يكون قديمًا كقدَمِ الله(١) ﴿سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(٢)، بل إنهم يكفِّرون من لا يقول بمقولتهم وينعون على من يناقش فإنه من باب السؤال المحرم، وكم من فرقٍ بين هذا الفكر وما يقوله نجلُ أمير المؤمنين الباقرُ عليه السلام: «إنه سميعٌ بصيرٌ، يسمع بما يُبصِر ويُبصر بما يسمع»(٣)، لأن السمع والبصر ما هما إلاَّ مظاهر للعلم والإحاطة وكلها شيء واحد.

وفي مجال التجسيم وصل الانحدار إلى أن قالوا إن الله له يد وساق ووجه ولحية بل وغير ذلك، بل يصل الأمر في التجسيم إلى الفكاهة والتندر فقوله تعالى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإِكْرامِ﴾(٤) وهم يقولون إن له غير الوجه يدًا وساقًا وجوارحَ إذن كلُّ شيء من هذا يهلك ويبقى الوجه فقط، في حين أنه من لطف التعبير في الآية أنْ جاءت كلمة ﴿ذُو﴾ مرفوعة على أنها صفة لكلمة

---

(١) معالم الفلسفة الإسلامية / ١١٠.

(٢) سورة الإسراء / ٤٣.

(٣) الكافي ١/ ١٠٨. وقد ذكره السيد عبد الله شبر في (حق اليقين) ١/ ٣٦.

(٤) سورة الرحمن / ٢٧.

﴿وَجْهُ﴾ في حين أن المناسب أن يقول (ذي) مجرورة على أنها صفة لكلمة ﴿ربِّكَ﴾ لو كان المعنى أن الوجه هو ما نعرفه كجزء من جسم ﴿ربِّكَ﴾ ويبقى هذا الجزء دون بقية الأجزاء، ولكن حيث جاء المعنى أن الوجه هو الموصوف بأنه ذو الجلال دلَّ هذا أن الوجه هو ذات الله تعالى فكل شيءٍ هالكٌ إلاَّ الله تعالى.

وما أعجب ما يذكره السيوطي[1] في تفسيره لقوله تعالى ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ فتَقُوْلُ هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ﴾[2] من أن جهنم تنادي بملء فيها ﴿هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ﴾ فلا يشبعها شيءٌ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط، قط، بعزتك وكرمك وجلالك.

وهذه مهزلة في الفكر، ولهذا كانت كلمة للشيخ الفضلي في كتابه (خلاصة علم الكلام) أنه جدير بالباحثين السُّنَّة أن ينزهوا المجاميع الحديثية الكبيرة كالبخاري ومسلم وغيرهما عن هذا النوع من الفكر ويلتقوا مع فكرة أهل البيت عليهم السلام وما قرَّره أمير المؤمنين عليه السلام بأن الله تعالى «لا تُدْرِكُهُ العُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ العِيانِ، ولَكِنْ تُدْرِكُهُ القُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمانِ».

وقد صدق من قال إن أمير المؤمنين عليه السلام هو معلِّم التوحيد، ومن تجنب هذا الهدى فقد تنكّب الصراط والجادة، ومن تنكب الجادة لم يأمن العثار.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/ ١٠٧.

(٢) سورة ق/ ٣٠.

١٤) النبوة، آدم عليه السلام

مدخل:

قال سيِّد العارفين ومولى الموحِّدين (صلوات الله وسلامه عليه):

«فَبَعَثَ فيهم رُسُلَه، ووَاتَرَ إليهم أنبياءَه، لِيستأدُوهم ميثاقَ فِطرتِه، ويُذَكِّرُوهُم مَنْسِيَّ نِعمتِه، ويَحتجُّوا عليهم بالتبليغِ، ويُثِيروا لهمْ دَفَائِنَ العقول، ويُروهم آياتِ المقدرة»[1].

بعد أن أنهينا القسم المتعلق بالتوحيد والإلهيات في هذا الدرس الشريف، نعطف على ذلك بالحديث حول النبوة مستوحًى من واقع الدرس وهو كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه الخالد.

ومنطلق الحديث من أمير المؤمنين عليه السلام له خصوصية إذ أنه عليه السلام محيط بتأريخ الأنبياء عليهم السلام لاسيما تأريخ النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وكلامه عليه السلام تفصيل لما أجمل في القرآن الكريم حول النبوة.

أولاً: تعريف النبوة

النبوة لغةً[2] مأخوذة من النبأ أي الخبر، وقيل معنى ذلك في الأساس من النَّبْوَة أو النَّبَاوة وهي الأرض المرتفعة، وتسمية النبي من هذه الجهة نظرًا لكونه

(١) خ١، ص٤٣.

(٢) كما في (مجمع البحرين) ١/ ٤٠٤.

أرفع وأشرف من سائر الخلق.

واصطلاحًا: النبي هو المخبِر عن الله تعالى بغير واسطة بشر، وهنا تفصيلات كثيرة جدًّا نشير إلى بعضها إشارات عابرة، فالنبي يرى في منامه الملَك ويسمع صوته ولكنه لا يراه في اليقظة، وذلك أن النبي قد يكون نبيًّا لنفسه فقط، بينما الرسول يرى الملَك حتى في اليقظة، ويتفاوت الرسل في حجم الرسالة، فبعضهم كان رسولًا في ظل رسالة رسولٍ آخر، وبعضهم كان رسولًا مستقلًّا، كما أن بعضهم كان لهم كتاب سماوي وبعضهم لم يكن له، بالإضافة إلى امتياز أولي العزم من الرسل.

ثانيًا: أصل الإنسان

أحببت أن تكون بداية الحديث عن أبي الأنبياء وأول الخلق آدم عليه السلام وهذا الحديث يقودنا إلى أحاديث كثيرة نشير إليها إشارة فقط، ومن ضمنها الحديث عن أصل الإنسان.

تتحدث بعض النظريات أن الإنسان منحدر من أصل بعض الحيوانات الأخرى، ويتحدث بعضها أن الإنسان جاء من امتزاج الطبيعة من السماء والأرض، بل إن بعضهم يرى أن الإنسان منحدر من مجموعة القاذورات والنفايات في العالم الأول(1).

---

(1) من المفيد مراجعة ما ذكره الشيخ محمد جواد مغنية حول هذا الموضوع في كتابه (في ظلال نهج البلاغة) 1/ 42.

ثالثًا: رأي الإسلام

تلاحظ في الرأي الإسلامي حول هذا الموضوع ملاحظتان:

أ) أن آدم عليه السلام هذا الذي نتحدَّث عنه ليس هو أول إنسان بل إن الروايات تتحدث عن أن قبله آلاف الأوادم، وأن عالمنا هذا قبله آلاف العوالم، ولعلَّ هذا الرأي ينسجم مع الإحصائيات حول عمر الكون وأنه بمليارات السنين، وأن الإنسان وجد قبل فترة قصيرة مقارنة بعمر الكون، فينسجم هذا مع معنى الروايات أن قبل آدم الآلاف ممن عمروا الكون وعاشوا في هذا العالم، ويلتقي هذا الرأي مع ما يمكن استفادته مما جاء في القرآن الكريم من حديث الملائكة حول استخلاف الله تعالى آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، بناء على أن حكمهم قائم على معرفتهم بأحوال البشر ممن سبقوا آدم المراد استخلافه.

ب) يتحدث القرآن الكريم بوضوح عن أول الخلق في عالمنا هذا وأنه مخلوق من تراب، والروايات تفصِّل وتشرح الآيات المباركة حول هذا الموضوع، فيُذكر أن هذا التراب أُجرِيَ عليه الماء ومُزِجَتِ الطينة وعجنت ثم بعد ذلك جففت وبقيت فترة ذكرت بعض الروايات أنها أربعون عامًا، وبعضها أكثر من ذلك، ثم بعد ذلك نفخ الله فيها الروح فكانت الحياة، وتتحدث الروايات عن تَكَوُّنِ الجوارح والأطراف والعقل والمشاعر والإحساسات وشؤون النفس.

---

(١) سورة البقرة / ٣٠.

ويلاحظ في هذا المجال التطابق والانسجام بين ما يذكره القرآن الكريم وبين ما يذكره عدل القرآن وتلميذ السماء أمير المؤمنين عليه السلام.

يضاف إلى ذلك أن الإمام عليه السلام كان يرتجل هذه الخطب ارتجالًا عقيب سؤال أو غير ذلك فيأتي بما يحيّر الألباب ويحيط بالموضوع إحاطة العارف وينحو في مختلف هذه المجالات الشائكة الغامضة في واقع الأمر، وهذا بعض من دلائل إعجازه عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلُ عيسى عندَ الله كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ من تُراب ثم قال له كن فيكون﴾[1]:

الضمير في ﴿خَلَقَهُ﴾ يعود على آدم عليه السلام فهو المخلوق من التراب، وأما عيسى عليه السلام فإن حمله في بطن أمه العذراء كان بغير واسطة أب بل ﴿فنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾[2]، وهذا التمثيل في الآية المباركة بين آدم وعيسى عليهما السلام إنما جاء للرد على من يقول إن عيسى عليه السلام ابن الله حيث أنه لا أب له وخلقه معجز، فيجيبهم القرآن بأن آدم عليه السلام خُلق من التراب من غير أبٍ ولا أم وخلقه أكثر إعجازًا، فلماذا لا يكون هو ابن الله، تعالى اللهُ وتقدس.

رابعًا: كيفية الخلق

١ – تحدث عن خلق أول الخلق، فقال عليه السلام[3]:

(١) سورة آل عمران / ٥٩ .

(٢) سورة الأنبياء / ٩١.

(٣) خ١، ص٤٢.

«ثم جمع سبحانه من حَزْنِ الأرضِ وسَهْلِها، وعَذْبِها وسَبخِها، تربةً سَنَّها بالماءِ حتى خَلُصَتْ، ولاطَها بالبلَّةِ حتى لزبَتْ»:

الحزن مقابل السهل ومعناه الشديد من الأرض، وكذلك العذب الحلو مقابل السبخ وهو المالح، وسنَّها بالماء أي أجراه عليها، حتى خلصت (أي كانت خالصة) ولاطها (أي خالطها) بالبلة حتى لزبت (أي حتى يبست).

فائدة: قال الإمام عليه السلام: (ثم جمع)، فنسب الجمع إلى الله تعالى وهذا ما يسمى بنحو التوسع في النسبة، فالروايات تذكر أن الذي جمع التراب إنما هو عزرائيل عليه السلام، ولكن أسند ذلك إلى الله تعالى لأن هذا الجمع كان بأمره وكل الأمور إنما هو المسبب لها بأسبابها[1]، وهذا متعارف عليه في اللغة فيقال فتح الملك الفلاني المدينة الفلانية في حين أن الذي فتح المدينة هو جيشه المؤتمر بأمره.

«فجَبَلَ منها صورةً ذات أحناءٍ ووُصُول، وأعضاءٍ وفُصُول»: جبل أي خلق، والأحناء هي الضلوع، وبعضهم قال إنها الأطراف، والوصول والفصول إشارة إلى ما في الجسم من عظامٍ متصلة وأخرى منفصلة.

«أجْمَدَها حتى استمسَكَتْ، وأَصْلَدَها حتى صَلْصَلَتْ»: الكلام هنا يعود على الطينة، وأصلدها جعلها قوية صلدة حتى صلصلت، ولعلَّ هذا إشارة

---

(١) ونظير ذلك نسبة من يَتَوَفَّ الأنفس، فتارة ينسب ذلك إلى الله تعالى، وتارة إلى ملك الموت، وتارة إلى الملائكة من أعوانه، قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ﴾. وعلى نسق ذلك ما جاء في الزيارة الجامعة: «وإياب الخلق إليكم، وحسابهم عليكم» أي أن أهل البيت عليهم السلام هم من يحاسبون الناس بأمر الله تعالى، وهذا معنى التوسُّع في النسبة.

إلى الصلصال الذي تتحدث عنه الآيات الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾(١)، فيسمع لها صوت حين تضرب نظرًا لأنها يابسة.

«لِوَقتٍ معدود، وأَمَدٍ معلوم»: وتذكر بعض الروايات أن هذه الطينة بقيت مدة قبل أن تلجها الروح، وتحدد بعض الروايات هذه المدة بأربعين عامًا أو أكثر، وبالطبع قد تكون هذه السنين بحساب كوكبنا أو بحسابٍ آخر.

«ثم نَفَخَ فيها من رُوحه»: فالطينة لا حياة فيها إلاَّ بولوج الروح التي بها الحياة والهيمنة على المخلوق.

«فمثُلت إنسانًا ذا أذهانٍ يجيلُها، وفكَرٍ يتصرفُ بها، وجوارحَ يختدِمُها وأدواتٍ يقَلِّبُها»: فهو صاحب عقلٍ يميز وكذلك يجعل الجوارح خادمةً له فيما يودُّ أن يصنع طبقًا لتمييزه وإدراكه.

«ومعرفةٍ يفرِّقُ بها بين الحقِّ والباطل، والأذواقِ والمَشَام، والألوان والأجناس، معجونًا بطينةِ الألوانِ المختلفة»: هذه إشارات إلى ما في الإنسان من إدراكات وحواس كالذوق والشم والنظر واللمس وكيف أن هذا كله مودع في مخلوقٍ أصله من التراب، وهذا إظهار للإعجاز الإلهي في خلق الإنسان.

«والأشباهِ المؤتَلِفة، والأضدادِ المتعادية...»: وهذا ما يذكره العلماء من نسب المواد من أملاح ومعادن في جسم الإنسان كالحديد والكبريت وغيرها.

ثم يذكر الإمام (عليه السلام) موضوعًا يتعلق بأحداث أول الخلق وقضية إبليس اللعين.

---

(١) سورة الحجر / ٢٦.

٢ - وقال عليه السلام(١):

«فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدمَ عليه السلام خيرةً من خلقِه»:

الإمام عليه السلام يبين أن الاختيار هو اختيار الله فلا بد أن يكون عين الحكمة، وكون آدم عليه السلام هو المختار الأول خصوصيةٌ له وليست أفضليةً له على سائر الخلق، فالأفضلية لسيد الموجودات وفخر الكائنات الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

«وجعله أولَ جبلَّتِه»: وهذه هي النظرة الدينية للخلق وأنه ابتدأ بالتولُّد وهو نشوء الخلق الأول، ثم تسلسل بالتوليد وهم الخلق الذين انحدروا من الخلق الأول، ويلاحظ ذلك في بعض المخلوقات، ولآدم عليه السلام الكرامة والشأن، فيلاحظ أن بعض المخلوقات تنشأ من التراب دون أن تتولد من حيوانات أخرى سابقة ثم تبدأ عملية التكاثر والتناسل، ولا أوضح من تعفن الأطعمة كالسكر وغيره فتتولد منها ديدان وبكتيريا لم تأت من مخلوقات سابقة لها، ثم بعد ذلك تبدأ عملية التكاثر، وكل هذا بعين الله وقدرته.

٣ - وتحدث عن الانحراف الأول، فقال عليه السلام(٢):

«إلاَّ إبليس اعترضَتْهُ الحميةُ فافتَخَرَ على آدم بخلقِه، وتَعَصَّبَ عليه لأصلِه، فعدوُّ اللهِ إمامُ المتعصبين، وسَلَفُ المستكبرين»:

يؤكد عليه السلام هذه الحقيقة من افتخار إبليس اللعين على آدم عليه السلام بالنظر إلى

(١) خ٩١، ص١٣٣.
(٢) خ١٩٢، ص٢٨٦.

خلق كل منهما ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقتَهُ من طين﴾[1]، فكان إبليس مؤسس العصبية والتكبّر، مثلما أنه أول من قاس حيث اعتقد أن فضل النار على التراب يوجب فضله على آدم عليه السلام وأنه لا يصح أن يسجد له.

ثم يذكر عليه السلام أن هذا كان عين الحكمة وأنه كان بإمكان الله تعالى أن يفوّتَ على إبليس اللعين الفرصة ويقطع عليه الحجة بأن يخلق آدم عليه السلام من مادة أخرى محيرة للعقول كالنور مثلًا الذي هو بلا شك أرقى من النار فتخضع النفوس له، هذا وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور ومع هذا فلم يستكبروا عن عبادته وسجدوا لآدم عليه السلام رغم أنه مخلوق من تراب، ولكن كما يبين الإمام عليه السلام جعل اللهُ ذلك بلاءً يتميز فيه من يطيع، ويبعد عن خُلُقِهِ الخيلاءَ والتكبر، وهذه الناحية تصلح أن تكون تعليلًا لاختيار التراب عنصرًا لأول الخلق.

وللأمير عليه الصلاة والسلام كلمات بهذا المعنى حول موضوع الحج وأن الله جعل بيته ﴿بوادٍ غيرِ ذِي زرعٍ﴾[2] وكان بإمكانه أن يجعل بيته في جنة رائعة تسحر الخلائق ولكنه أمرُ الابتلاء والتمحيص[3].

---

(١) سورة الأعراف / ١٢.

(٢) سورة إبراهيم / ٣٧.

(٣) خ١٩٢ / ٢٩٢.

١٥) الأنبياء عليهم السلام

مدخل

قال سيدُ العارفين عليه السلام:

«اختارَ آدمَ عليه السلام خِيرةً من خلقِه، وجعلهُ أولَ جِبلَّتِه، وأسكنهُ جنتَه، وأرغدَ فيها أُكُلَه، وأوعزَ إليه فيما نهاهُ عنه، وأعلمه أن في الإقدامِ عليه التعرضَ لمعصيتِه»(١).

أحببتُ أن يكون هذا الحديث متممًا للحديث عن آدم عليه السلام وبدايةً لحديثنا عن الأنبياء عليهم السلام فيما نستقبل من دروس إن شاء الله تعالى.

أولاً: آدم عليه السلام

أ) مظهر للقدرة والابتلاء:

فقد مرَّ علينا حديث القدرة في خلق آدم عليه السلام بذلك التفصيل الذي هو نهاية الإبداع والإعجاز فيما يتصوره الفكر، وهو على الله تعالى سهل يسير.

وأما مظهر الابتلاء فيتمثّل في اختبار الله تعالى للملائكة عليهم السلام ولإبليس اللعين في موضوع السجود لآدم عليه السلام، ومن التعليلات المستلطَفة لهذا السجود ما يذكره شيخ الفلاسفة الأصفهاني أستاذ السيد الخوئي رضوان الله تعالى عليهما في قوله:

تُقُبِّلَتْ توبةُ آدمَ الصَّفِي   بِيُمْنِهِ، أَكْرِمْ بهِ مِنْ خَلَفِ

(١) خ٩١، ص١٣٣.

وسـجدةُ الأمـلاكِ لا لِغُرَّتِـهْ   بـل نـورُ ياسـينَ بـدا في طلعتِـهْ

وكـما مـرَّ[1] فـإن خلـق آدم مـن تـراب هـو في حدِّ ذاتـه ابتـلاء وكان بإمـكان الله جلَّ وعـلا أن يخلقـه مـن مـادة سـامية تخضـع لهـا الخلائـق ولكـن اقتضـت مشـيئته أن يبلوهـم.

كـما يتجلَّى الاختبـار لـذات آدم عليه السلام وذلـك أنـه نُهِـيَ عـن شيءٍ ولكنـه أتـى بـه ثـم بكـى عـلى مـا صـدر منـه وتوسـل إلى الله تعـالى بكلـمات خاصـة فتـاب عليـه، وسـتتبين حقيقـة الأمـر في هـذا الـدرس إن شـاء الله تعـالى، ثـم أهبطـه الله تعـالى إلى أرضـه.

ب) والمصدر لتناسل البشر:

لمـا هبـط آدم عليه السلام الأرض مـارس فيهـا الشـؤون الطبيعيـة فـكان مصـدرًا لتناسـل البـشر.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام[2]:

«ثـم بسـطَ اللهُ لـه في توبتِـه، ولقَّـاه كلمـةَ رحمتِـه، ووعـده المردَّ إلى جنتـه، وأهبطـهُ إلى دارِ البليـة، وتناسـلِ الذريـة».

وقال عليه السلام[3]:

«وأوعزَ إليه فيما نهاه عنه وأعلمهُ أن في الإقدامِ عليه التعرضَ لمعصيتِه»:

(١) الدرس السابق في ذكر كلماته عليه السلام في الخطبة رقم١٩٢، ص٢٨٦-٢٨٧ من نهج البلاغة.
(٢) خ١، ص٤٣.
(٣) خ٩١، ص١٣٣.

أي الإقدام على نهيٍ نهاه اللهُ عنه.

«والمخاطرةَ بمنزلتِه»: وهي أنه كان مبوَّءً في جنة النعيم.

«فأقدمَ على ما نهاه عنه – موافاةً لسابقِ علمه»: فالله تعالى كان يعلم أن آدم عليه السلام سيصدر منه ما صدر، ولكن هذا العلم ليس جبرًا لآدم عليه السلام أن يأتي بما أتى به، فعِلْمُ الله تعالى بسائر الأمور ليس علةً وسببًا لحدوثها بل هي تجري بمجرياتها الطبيعية وفقًا لاختيار الإنسان فيما يمارس.

«فأهبطه بعد التوبة ليعمرَ أرضَه بنسلِه، وليقيمَ الحجةَ على عبادِه».

ثانيًا: المخالفة

من جملة النقاط التي تستوقفنا حقيقةُ المخالفة التي صدرت من آدم عليه السلام، والحديث هنا يقودنا إلى أحاديث متشعبة ليست من غرض هذا الدرس وتحتاج إلى وقت طويل للإلمام بها كموضوع عصمة الأنبياء عليهم السلام وتنزيههم وما يدور في هذا الفلك، ولكننا سنشير إن شاء الله تعالى إشارةً مجملة ونترك الأمر للطالب أن يتوسع في هذا المجال في فلك النهج الأشرف وفي خارجه.

ومما يلاحظ هنا ما يلي:

١- أنه لا يمكن أن تكون المخالفة التي صدرت من آدم عليه السلام بذلك المستوى من الشناعة والفظاعة، والعياذ بالله تعالى، لأنه لو كان الأمر كذلك لذهبت منزلته السامية، كيف والمهمة التي أوكلت إليه مهمة كبيرة تتعلق بهداية البشر وإعمار الأرض وتحقيق خلافة الله تعالى عليها، وهو حجة الله على عباده فكيف يرتكب

الذنب الكبير ويقبل منه العباد أن يكون واسطة بينهم وبين الله تعالى.

٢- يقرِّرون في الاعتقاد أن هذه المخالفة كانت مخالفةً للأَولى ولا تعني المعصية المحضة، كما أنهم يذكرون أنها كانت قبل التكليف إذ التكليف بعد أن أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض، وأما في الجنة فليس هناك تكليف.

٣- من هنا يجب فهم الألفاظ القرآنية أو التي يذكرها المعصوم حول هذا الموضوع فهمًا صحيحًا بلحاظ بعدنا عن اللغة ومداليلها ومع مراعاة تنزيه الأنبياء عليهم السلام، فمثلًا يذكرون أن (غوى) بمعنى أنه كان تائهًا في الأرض أو اتخذ منهجًا ظنَّ أنه يوصله إلى الله تعالى ولكن ذلك لم يكن، وكذلك (نسي) يعني هذا النسيان الذي يكون الإنسان عرضةً له بطبعه أو أن النسيان بمعنى الترك.

٤- مما يذكر أيضًا هنا أن آدم عليه السلام لم يعهد أن شخصًا يحلف بالله كاذبًا، وقد أقسم له إبليسُ اللعين فصدقه وذلك قوله تعالى: ﴿وقاسَمَهُما أني لكَما من الناصحين﴾ (١).

٥- وهي النقطة الأهم هنا، وهي ما اتفقت عليه الأدلة النقلية من وجوب عصمة الأنبياء على نبينا وآله وعليهم الصلاة والسلام، وكيف يجوز أن قرآنًا يتلى آناء الليل وأطراف النهار يسجل ويصرح بارتكاب الأنبياء عليهم السلام للذنوب الكبيرة؟ وكيف يتم الهدف من إرسالهم ويخضع لهم الناس وقد أرسلهم اللهُ تعالى لهداية الناس وفضَّلهم وتفضَّل عليهم وهم المقرَّبون المصطفَون؟! لا شكَّ أن ذلك خلاف للحكمة واللطف الإلهيين.

---

(١) سورة الأعراف / ٢١.

ثالثًا: الأنبياء عليهم السلام

أ) ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾[1]:

لله تبارك وتعالى الحجة البالغة على خلقه، فهيَّأ لهم عقولًا يميزون بها وتعتبر بمثابة أنبياء باطنة تقودهم إلى الفطرة وتهديهم إلى الله تعالى، ومع ذلك فإن الذنوب والجهل والغفلة والاشتغال بالدنيا تؤدي إلى أن تموت هذه القلوب وهذه العقول وتضمر وتنتهي فلهذا هيَّأ لهم أنبياء أرسلهم إتمامًا للحجة.

وحول ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام[2]:

«فَبَعَثَ فيهم رُسُلَه، ووَاتَرَ إليهِمْ أنبياءَه»: إثباتٌ للحقيقة القرآنية التي أشارت إليها الآية المتقدمة، وقد جاء في الحديث الشريف أن أول مخلوق على وجه الأرض هو الحجة وآخر من يموت هو الحجة[3]، وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق»[4]، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «والله ما تركَ اللهُ أرضًا منذُ قبضَ اللهُ آدمَ إلاَّ وفيها إمامٌ يُهْتَدَى به إلى الله وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرضُ بغيرِ إمامٍ حجة للهِ على عباده»[5].

والإمام هنا بالمعنى العام، نبيًّا كان أو رسولًا أو إمامًا وصيًّا لنبيٍّ كأئمتنا

(١) سورة فاطر / ٢٤.

(٢) خ١، ص٤٣.

(٣) يقول السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله في كتابه (مواهب الرحمن) ١/ ١٧٦ إن الرواية مستفيضة عن أهل البيت عليهم السلام أن أول مخلوق على وجه الأرض هو الحجة وآخر من يموت هو الحجة.

(٤) الكافي ١/ ١٧٧.

(٥) الكافي ١/ ١٧٨. وقد ذكره الميرزا حبيب الله الخوئي في (منهاج البراعة) ٢/ ١٥٩.

عليهم وعلى جدهم وأمهم وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام، وقد ذكر الأمير عليه السلام من الأنبياء آدم وعيسى وموسى وإبراهيم وإسحاق وإسماعيل وداوود وسليمان عليهم السلام، في مناسبات مختلفة سواءً تعلقت بالموعظة أو الرسالة أو أي ناحية أخرى نلم بها فيما نستقبل في الدروس القادمة بعون اللهِ وتوفيقه.

ب) طهارة الأصلاب والأرحام:

قال أمير المؤمنين عليه السلام(1):

«فاستودعهم في أفضلِ مُستَودَع، وأقرَّهم في خيرِ مستقَر، تناسختهم كرائمُ الأصلابِ إلى مطهَّراتِ الأرحامِ، كلما مضى منهم سلفٌ قام منهم بدينِ اللهِ خَلَف»:

نعتقد أن أمهات الأنبياء عليهم السلام منزهات عن السفاح والتناسل غير المشروع والعياذ بالله، كما نعتقد أن آباء الأنبياء عليهم السلام وأجدادهم منزهون عن الشرك، ومن حِكَمِ ذلك أن الأنبياء عليهم السلام يليق بهم هذا التكريم وهذا التطهير والكمال، وحتى يكونوا محل القبول والإجلال في المجتمعات التي يدعونها وهذا هو الدليل العقلي، ومن الأدلة النقلية قوله تعالى ﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلُّبَكَ في الساجدين﴾(2)، يعني آباءك وأجدادك إلى آدم عليه السلام كانوا كلهم عبادًا لله موحدين ساجدين، وقد جاء في زيارات الرسول الأكرم وأهل بيته عليهم السلام: «ولم تزالوا بعينِ الله ينسخُكم في أصلابِ كلِّ مطهَّر، وينقلُكم في أرحامِ المطهرات، لم تدنِّسْكمُ الجاهليةُ الجهلاء».

ولهذا يُدفع ما قد يُتوهم من ظواهر الآيات خلاف هذا المعتقد حول

(1) خ94، ص139.

(2) سورة الشعراء / 218-219.

الأنبياء عليهم السلام، وكمثالٍ على ذلك ما يُقرأ من أن آزرَ المشرك كان والدًا حقيقيًا لإبراهيم عليه السلام خليل الله تعالى، وهذا لا يمكن أن يكون بل كان آزرُ عمًّا لإبراهيم عليه السلام، وحيث ربَّاه صار يسميه أباه[1].

ويلحق بهذا كل ما قد يُتوهم منه خلاف هذا الاعتقاد في طهارة نسب الأنبياء عليهم السلام لقيام الدليل العقلي والنقلي الصريح بذلك.

ج) النبيُّ والمهمة:

قال أمير المؤمنين عليه السلام[2]:

«بعثَ اللهُ رسلَه بما خصَّهم به من وَحْيِه»: فالوحي إذن من مختصاتهم عليهم السلام لا يشاركهم فيه أحد مهما سما، وهو من عند اللهِ وليس من عندياتهم فهم مبلغون ومؤتمنون على الوحي.

---

(١) ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ أَتتخذُ أصنامًا آلهة﴾. سورة الأنعام / ٧٤.

وقد ناقش السيد الطباطبائي رحمه الله صلة القرابة بين إبراهيم عليه السلام و(آزر) من وحي آيات القرآن، وذلك في ج٧، ص١٦١-١٦٥ من تفسيره الميزان، وبيَّن فيما بيَّن أن القرآن الكريم أطلق على آزر صفة (الأب) لإبراهيم عليه السلام، وأنه استغفر له، ثم تبرأ منه بعد إصراره على الكفر، وبعد ذلك دعا إبراهيم عليه السلام لنفسه ولوالديه بالمغفرة، فالذي تبرأ منه وترك الاستغفار له ليس هو الذي دعا إليه بعد ذلك بالمغفرة، مما يدل على أن آزر هو أب إبراهيم عليه السلام أي جده أو عمه وليس والده، وبيَّن السيد أن لفظ الأب في القرآن يطلق أيضًا على الجد والعم، بينما الوالد هو الأب الصلبي، ووالد إبراهيم عليه السلام الوارد في التأريخ وفي التوارة هو (تارخ) وليس (آزر).

وفي الآية إشارة واضحة إلى أن آزر لم يكن أبًا حقيقيًا لإبراهيم عليه السلام، ولو كان كذلك لم تذكر الآية اسم (آزر) واكتفت بكلمة (أبيه).

(٢) خ١١٤، ص٢٠٠.

«وجعلهم حجةً له على خلقِه لئلاَّ تجبَ الحجةُ لهم بترك الإعذارِ إليهم»: وهذه العبارات توأم الآية الكريمة ﴿لئلاَّ يكونَ للناسِ على الله حجةٌ بعد الرسل﴾[1].

«فدعاهم بلسانِ الصدقِ إلى سبيلِ الحقِ، ألا إنَّ اللهَ تعالى قد كشف الخلقَ كَشفةً، لا أنه جهل ما أخفوه من مَصُونِ أسرارِهم ومكنونِ ضمائرِهم، ولكنْ ليبلوَهم ﴿أيهم أحسنُ عملًا﴾[2]، فيكونَ الثوابُ جزاءً والعقابُ بواءً»[3]:

نلاحظ بيان مهمة الأنبياء من عناوين الإعذار والحجة وبيان السبيل ليكون اختبار الخلق، يأتيهم النبي فيعلمون صدقَه وأمانته ويرون معجزته ويدعوهم دعوة الخير في الدنيا والآخرة ليكشف من يتمسك بحبله ونهجه ومن يخالفه، لا أنه -تبارك وتعالى- جهل حالهم فأراد أن يعلمه -تعالى اللهُ عن هذا علوًّا كبيرًا.

وتحدث عن مهام الأنبياء عليهم السلام فقال عليه السلام[4]:

«وهو الذي أسكنَ الدنيا خلقَه، وبعثَ إلى الجنِّ والإنسِ رسلَه، ليكشفوا لهم عن غطائِها، وليحذروهم من ضرَّائِها، وليضربوا لهم أمثالَها، وليبصِّروهم عيوبَها، وليهجموا عليهم بمعتبَرٍ من تصرفِ مصاحِّها وأسقامِها وحلالِها وحرامِها، وما أعدَّ اللهُ للمطيعين منهم والعصاةِ من جنةٍ ونار، وكرامةٍ وهوان».

ونلاحظ هنا نوعًا من التفصيل الآخر والأكثر حول مهمات الأنبياء عليهم السلام تجاه

---

(١) سورة النساء / ١٦٥.

(٢) سورة الكهف / ٧.

(٣) باءَ فلانٌ بفلانٍ أي قُتل به.

(٤) خ١٨٣، ص٢٦٥.

الخلق.

وقال عليه‌السلام عن ذلك أيضًا[1]:

«ويحتجُّوا عليهم بالتبليغِ ويثيرُوا لهم دفائنَ العقولِ ويُرُوهم آياتِ المقدرَة...»: قلنا إن العقول تخبو وتنتهي وكذلك القلوب تموت بفعل الاشتغال بالدنيا والذنوب والغفلة والجهل فيأتي الأنبياء عليهم‌السلام لإحياء كل ذلك وهذا معنى البعثة، أي إحياء ما أماتته الدنيا والذنوب وتنبيه الناس من غفلتهم وإرشادهم بعد جهلهم إلى الفطرة التي بدَّلوها.

(١) خ١، ص٤٣.

١٦) موسى وهارون عليهما السلام

مدخل:

قال عليه السلام:

«ما شككْتُ في الحقِّ مُذْ أُريتُه، لم يُوجِسْ موسى عليه السلام خِيفةً على نفسِه، بل أشفقَ من غلبةِ الجهَّالِ ودولِ الضلال»[١].

أولاً: أهداف الإمام عليه السلام من عرض السيرة

لم يكن الإمام عليه السلام في عرضه للسيرة بصدد الترجمة والإفاضة والتحليل لحياة هذا النبي أو حياة ذلك الوصي، وإنما غرضه كغرض القرآن الكريم من التنبيه والتركيز على جانب الموعظة أحيانًا، وأحيانًا أخرى أخذ العبرة من سيرة العظماء وتأريخ الزمان، ولهذا نلاحظ الفرق بين كلامه عليه السلام عن آدم عليه السلام وما مرَّ علينا من بديع خلقته وكونه أول الخلق ومظهر القدرة والابتلاء وبين حديثه هنا عن موسى وهارون.

ثانيًا: ﴿أفمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه﴾[٢]

قال الإمام عليه السلام[٣]:

«ما شككْتُ في الحقِّ مُذْ أُريتُه، لم يُوجِسْ موسى عليه السلام خِيفةً على نفسِه، بل

---

(١) خ٤، ص٥١.

(٢) سورة هود / ١٧.

(٣) خ٤، ص٥١.

أشفقَ من غلبةِ الجهَّالِ ودولِ الضلال».

أ) مناسبة الكلمة:

يشير الإمام عليه السلام إلى موقف من المواقف الصعبة الحرجة بعد واقعة الجمل المشومة وبعد قتل طلحة والزبير اللذين في البدء كانا معه يدافعان عنه ثم بايعاه ثم ألَّبا عليه وحارباه في الجمل حتى أمكنه الله منهما.

ب) دلالة الكلمة:

يقول علي عليه السلام: «ما شَكَكْتُ في الحَقِّ» فيركز أولًا على موضوع الشك وما يحمله عليه السلام من بصيرة تامة وثبات ويقين أبرزه في كلمته المعجزة الخالدة: «لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا»، وقوله عليه السلام (مُذْ أُرِيْتُه) لا يعني -والعياذ بالله- أنه لم يكن يعرف الحق في فترة سابقة ثم عرفه في فترة متأخرة بل المعنى أنه عرفه منذ وجوده الشريف نظرًا لعلمه وإحاطته سواءً كان ذلك بالإلهام أو بتعليم النبي له (صلى الله عليهما وآلهما) أو بأي مصدر من مصادر علم الإمام عليه السلام كما مرَّ علينا في الدرس الأول من هذا الدرس الشريف.

يصرِّح عليه السلام أن هذا القلق الذي يعيشه الإمام عليه السلام في هذا المعترك وفي الموقف العصيب لم يكن من باب الخوف والتردُّد في أنه محق أو ليس كذلك أو أنه وُفِّقَ للصواب أو لم يوفَّق له، وينظِّر عليه السلام تنظيرًا مهمًّا ورائعًا بنبي الله موسى عليه السلام الذي هو في مقام العصمة والتسديد من قبل الله تعالى وهو من أولي العزم الكرام وصاحب رسالة ضخمة وشاملة، فقد ألقى السحرة عِصِيَّهم فإذا هي ثعابين ترهب الناس ﴿فأوجسَ في نفسِهِ خِيفةً موسى﴾[1]، ولكن هذه الخيفة لم تكن على نفسه شكًّا

---

(١) سورة طه / ٦٧.

منه في السلاح الذي يملكه أو أنه سيخسر الموقف أو شكًّا في نصرة الله تعالى له وأنه على الحق بل كان يخشى على الأمة أن تكون عاقبتها الضلال وتكون للظالمين دولة.

فالإمام عليه السلام يثبت أنه قد يعرض على النبي الخوف الذي لا يعني النقص والجبن ومن ذلك أيضًا الآية التي تحدثت عن خروج موسى عليه السلام ﴿فَخَرَجَ منها خائفًا يترقَّبُ﴾(١)، إلاَّ أنه صلوات الله عليه ينزِّه موسى عليه السلام عن الشك ويبين هذا المقام الشامخ من اليقين والبصيرة.

ومما يجدر ذكره هنا أن هذا الحكم ينطبق على الفكرة التي تطرح كما في قول الشاعر:

خرجَ الحسينُ من المدينةِ خائفًا ... كخروجِ موسى خائفًا يتكتمُ

فالحسين عليه السلام أبدى من الشجاعة ما حيَّر العقول ولم يُرَ شجاعٌ مثله كما تحكي سيرته الخالدة، وإنما كان خوفه عليه السلام على مستقبل الدين ومصير الأمة.

وقد قال الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في شرحه للنهج(٢) إن هذه الجملة الشريفة هي أحسن تفسير لقوله تعالى: ﴿فأوجَسَ في نفسِهِ خِيفةً موسى﴾ وأفضل تبرئة لنبي الله عليه السلام من الشك في أمره، فهي تفسر الآية بمعنى من المعاني الكبيرة والمهمة لا أنها تعني الخوف والتردد والشك في الحق، كما تعطي هذه المعاني الجليلة وتشير إليها في شخصية أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) سورة القصص / ٢١.

(٢) ج١، ص٤٠.

ج) الدلالة على العصمة:

هذه الكلمة التي ذكرناها للإمام عليه السلام فيها دلالة على العصمة في حق الأئمة عليهم السلام، لماذا؟ لأن البصيرة والعلم والتسديد والإلهام وتمام الموازنة في سائر الملكات الموجودة عند الإمام عليه السلام تمنعه من ارتكاب جرم أو وقوع في خطيئة والعياذ بالله، لذلك بيَّن الشيخ ميثم البحراني رحمه الله أن هذه الكلمة فيها دلالة على العصمة[1].

ثالثًا: ﴿وَكَلَّمَ اللّهُ موسى تكليمًا﴾[2]

ومما قاله الإمام حول نبي الله موسى عليه السلام[3] بعد تقديس الله تعالى:

«ولا يُوصف بالأزواج، ولا يُخلق بعلاج، ولا يُدرك بالحواس، ولا يُقاس بالناس، الذي كلَّم موسى تكليمًا، وأراه من آياتِهِ عظيمًا، بلا جوارحَ ولا أدوات».

وهذا بيانٌ جلي لمقام موسى عليه السلام فهو كليم الله تعالى، وبالطبع فإن المسألة مشروحة في موطن آخر سواءً كان في بحث الاعتقاد أو التفسير أو الرواية باعتبار أن الكلام الذي صدر من الله تعالى لم يكن بجارحة إنما خلق الله تعالى الكلام وأوجده في الشجرة فخرج منها مخلوقًا من مخلوقات الله تعالى، وقد تعرَّضنا في أحاديث سابقة لما ينفع مما يتعلق بهذه النقطة من الجهة الاعتقادية.

رابعًا: موسى عليه السلام مثال الزهد والانقطاع

تحدث الإمام عليه السلام عن الزهد في الدنيا الفانية، وذكر من يؤثرها على الآخرة

---

(1) في شرحه للنهج ١/ ٢٧٥.

(2) سورة النساء / ١٦٤.

(3) خ١٨٢، ص٢٦٢.

ومن يؤثر هواه على الله تعالى، وتعرَّض لكثير من زخارفها ومعايبها ثم أعطى للزهد فيها أمثلة ابتدأها بالمثل الأعلى والقدوة الكبرى لكل الخلق ألا وهو النبي الأعظم محمد ﷺ، ثم ثنّى بالحديث عن موسى عليه السلام، فقال عليه السلام[1]:

«وإنْ شئتَ ثنَّيتُ بموسى كليم الله -صلى الله عليه وسلم- حيث يقول: ﴿ربِّ إني لِمَا أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾[2]، والله، ما سأله إلاَّ خبزًا يأكله، لأنه كان يأكلُ بقلةَ الأرض، ولقد كانت خضرةُ البقلِ تُرى من شفيفِ صِفاقِ بطنه، لهزالِه وتشذُّبِ لحمه».

يضربُ الإمام عليه السلام مثلًا أروع بشخصية كبيرة عظيمة جليلة، نبي من الأنبياء الكرام من أولي العزم وأنه كان في تمام الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى، والتأريخ يحدث أن نبي الله موسى عليه السلام سار مسافات طويلة يقطع الفيافي والبيد بلا كلأ ولا ماء ثمانية أيام، فلما أرهقه الجوع شكا إلى الله تعالى وتضرَّع إليه أن يرزقه خبزًا فقط، فهو على شدة جوعه في تمام الإعراض عن الدنيا وإنما يطلب خبزًا كي يحفظ حياته ويتقوَّى على العبادة والطاعة والشكر، فهذه اللذات ليست مرغوبة بالأصالة وإنما بالعرض.

وقول الإمام عليه السلام: (واللهِ) ليس في صدد أن يقسم لمحض القسم فهو يستعرض العبَّاد والزهَّاد والأولياء الذين انقطعوا عن الدنيا إلى الله تعالى ولكن نظرًا إلى أن الأمر قد يصعب على الأذهان، واقتلاع حب الدنيا من ذوات الناس يحتاج إلى قول قاطع لذلك عزَّزه بالقسم وجاء القسم في الصميم عقيب الآية

---

(١) خ١٦٠، ص٢٢٦.

(٢) سورة القصص / ٢٤.

المباركة مباشرة (والله، ما سأله إلاَّ خبزًا) يأكله فقط ولا يجمعه ويكنزه، وفي تصوير الإمام عليه السلام لشدة الجوع الذي وصل له نبي الله عليه السلام لم يرد أن يبالغ بل هو يذكر الواقع كما هو، فلقد كان صفاق بطنه (وهو الجلد الأسفل الذي فوقه الجلد الظاهر للبطن) شفيفًا (أي رقيقًا يُستشفُّ ما وراءه) بحيث ترى خضرة البقل داخل بطنه فقد كان شديد الهزال متفرق اللحم، هذا وهو في تمام المنزلة والكرامة عند الله بحيث لو سأله ما يشاء من الملذات لأعطاه إياها حلالًا طيِّبًا لا ينقص من منزلته عند الله شيء، ومع ذلك يترك هذه الملذات تعففًا.

ويلاحظ في حياة الزهاد كالرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وكأمير المؤمنين عليه السلام ونبي الله موسى عليه السلام، أنهم رغم زهدهم وقلة طعامهم لم يكن ذلك ليقعد بهم عن العبادة والحرب والجهاد وكل مظاهر القوة والكمالات الجسمية.

خامسًا: موسى وهارون عليهما السلام

وقال عليه السلام عن تواضعهما وقوة يقينهما عليهما السلام(1):

«ولقد دخل موسى بنُ عمرانَ ومعه أخوه هارونُ عليهما السلام على فرعونَ، وعليهما مدارعُ الصوف، وبأيديهما العِصِيُّ، فَشَرَطا له -إنْ أسلمَ- بقاءَ ملكِه، ودوامَ عزِّه، فقال: «ألا تعجبونَ من هذينِ يشرُطانِ لي دوامَ العِزِ، وبقاءَ الملك وهما بما ترونَ من حالِ الفقرِ والذُّل، فهلاَّ أُلقِيَ عليهما أساورةٌ من ذهب؟(2)» إعظامًا للذهبِ وجمعِه، واحتقارًا للصوفِ ولبسِه...».

---

(1) خ١٩٢، ص٢٩١.

(2) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾. الزخرف / ٥٣.

في هـذه الجمـل الشريفـة أبعـاد كثيرة وإنـما يعنينا منهـا مـا نربطـه بموضوعنا حـول هذيـن النبيـين العظيمـين.

أ) التواضع وصلابة الموقف:

يسجل الإمام عليه السلام التواضع الذي تمثل في هذا اللباس البسيط وتلك العصي وأنهما على طبيعتهما ودونما تكلف يدخلان على فرعون وهو يتقلب في أفخر لباس من خز وذهب، فلا يقعد بهما هذا التفاوت في المظهر أن يؤدِّيا وظيفتهما بكل صلابة وثقة، فإن القيمة ليست في اللباس بل فيما يحملان في قلبيهما وفي فكرهما وإيمانهما.

ب) الحاكم العادل:

يفهم من هذه الحادثة وهذا الوصف أنه من صالح العباد والبلاد بقاء الحاكم العادل، بل إن عدل الحاكم هو من موجبات بقاء عزِّه، فليتمتع كما يشاء، ولكن فليكن عادلًا في رعيته يقوم بالنظام ويحفظ الحقوق، ولكن إذا كان فرعونًا جائرًا متعسفًا فإن ملكه إلى الزوال، وهو يحتقر أولياء الله تعالى بقوله (ألا تعجبون من هذين) فإنه لا يسميهما باسميهما بل يشير لهما باسم الإشارة (هذين) احتقارًا ومهانةً لهما.

ج) اليقين في الدعوة:

فهما يحملان دعوة الحق على تمام اليقين والبصيرة، ويحملان ضمان الغيب، ومن يضمن الغيب سوى الله تعالى؟ إذن فهما ينبئان عن الله تعالى في هذه القضية الضخمة وهي ضمان بقاء ملك فرعون، وأي مُلكٍ هذا الملك؟! كل ذلك دلالة واضحة على أنهما رسولا رب العالمين اللذين هما بعزة الله فوق كل عز ومقام،

وفوق مقياس فرعون المادي الذي ينظر للذهب واللباس والمال على أنه يرفع من شأن الإنسان، والواقع كما هو في مقياس الله تعالى أن الإنسان يشرِّف اللباس ويشرِّف الذهب وكل مظهر للترف.

نعم، يتشرَّف ويتبرَّك الناس بتراب أقدام العالم، وهم يحتقرون قصور الظالم، وفي الرواية «لا يهوننَّ عليكَ من قَبُحَ مَنْظَرُهُ ورثَّ لباسُه، فإن الله تعالى ينظر إلى القلوب ويجازي بالأعمال»[1].

وقد تتربَّى أفكارنا ونفسياتنا بحسب ما نعايش في حياتنا أن صاحب المركب الفخم، والدار الواسعة، والمال الكثير هو إنسان كريم على الله تعالى ولذا أعطاه وأنعم عليه، وقد نتصور أن صاحبة الجمال واللباس الحسن هي التي تستحق التقدير والإجلال بسبب جمالها ولباسها، فنقيِّم الناس ونصاحبهم بهذه المقاييس الخاطئة التي تأخذ أثرها في مجتمعنا وأعماقنا، في حين أن مقياس الله تعالى في تقييم عباده لا يُعْنَى بهذه المظاهر فرب عبد في أطماره لو أقسم على الله تعالى لأبرَّ قسمه، وهذا درس نستفيده جميعًا من أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠/ ٣٢٦.

١٧) عيسى عليه السلام.. روح الله وكلمته

مدخل

قال عليه السلام متحدثًا عن عيسى روح الله وكلمته[١]:

«وإنْ شئتَ قلتُ في عيسى بنِ مريمَ عليه السلام، فقد كان يتوسَّدُ الحجرَ، ويلبسُ الخشِنَ، ويأكلُ الجشِبَ، وكان إدامُه الجوعَ، وسراجُهُ بالليلِ القمرَ، وظلالُهُ في الشتاءِ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، وفاكهتُهُ وريحانُهُ ما تنبتُ الأرضُ للبهائمِ، ولم تكنْ له زوجةٌ تفتنُه، ولا ولدٌ يحزنُه، ولا مالٌ يلفتُه، ولا طمعٌ يذلُّه، دابَّتُه رجلاه، وخادمُهُ يداه».

أولاً: هدف الإمام عليه السلام

يهدف الإمام عليه السلام من هذا العرض لحياة السيد المسيح عليه السلام -التزهيد في الدنيا وإرشاد الخلق إلى الإعراض عنها، والورع وعدم التهالك على مظاهرها وزخارفها، كما يدلِّلُ الإمام عليه السلام ويوضِّح أن هذه الدنيا في تمام الحقارة وأنها لا تستحق أن يذلَّ الإنسان نفسه من أجلها، ولو لم تكن كذلك لما أعرض عنها أنبياء الله وأولياؤه عليهم السلام.

ثانيًا: عيسى عليه السلام .. نهاية الانقطاع عن الدنيا

«كان يتوسَّدُ الحجرَ»: وإذن فلم يكن له بيت أو فراش يأوي إليه، وهذا

(١) خ١٦٠، ص٢٢٧.

غايـة في البسـاطة والغرابـة في نفس الوقـت، وهـو عليه السلام «يلبسُ الخَشِـنَ» فـلا يعنـى بلبـاس، «ويـأكلُ الجَشِـبَ»، أي الغليـظ فهـو لا يهتـم بالحصـول على الطعـام الحسـن الراقـي، بـل «إدامه الجوع» وهـذا تعبير عجيب جدًّا فإن الإدام معروف لـدى النـاس ولـه درجـات فقـد يكـون ملحًـا أو خـلًّا أو لحـمًا، أمَّـا أن يكـون هـو الجـوع فهـذا نهايـة الوصف والتعبير، فإنه عليه السلام روَّضَ نفسه رياضـةً لا تطمح معهـا إلى شيءٍ أصـلًا حقيرًا كان أم غـير ذلـك، ثـم لم يكـن يعتمـد حتـى عـلى شـمعةٍ أو سراجٍ بـل كان «سراجـه بالليـل القمـر»، وكانـت «ظلالـه» التـي يلجـأ إليهـا للدفـءِ في الشـتاء «مشـارقَ الأرضِ ومغاربَهـا» فلـم يعـد لنفسـه شـيئًا مـن الدنيـا لهـذا الغـرض، وإذا كان عنـد النـاس عنايـة وتصنيـف وتمييـز بيـن فاكهـةٍ تسـتطاب، ورياحـينَ تشـم، فـإن عيسـى عليه السلام كانـت «فاكهتـه وريحانـه» -عـلى حـدٍّ سـواء- «مـا تنبـتُ الأرضُ للبهـائـم» مـن نبـاتٍ لا يحتـاج إلى عنايـةِ إنسـانٍ بـل ينبـتُ طبيعيًّـا بفعـل مطـر السـماء، فهـو مـن هـذه الناحيـة لا ينشـغل عـن الخالـق بزراعـة فاكهـة وريحـان أو الحصـول عليهـا.

والمـرأة بطبعهـا تكـون محبوبـةً ومحـلًّا للإعجـاب والانشـغال بهـا وهـذا شـأن مـن شـؤون الحيـاة، أمـا هـذا النبـي العظيـم فلـم «تكـن لـه زوجـةٌ تفتنـه» وتشـغله عـن معشـوقه الأوحـد، ونتيجـة لهذا فلـم يكـن لـه أيضًـا «ولـدٌ يحزنـه» فـالأولاد يحتاجـون إلى اشـتغال بهـم وجهـد ووقـتٍ يصـرف معهـم ويأنـس بهـم، فينشـغل العبـد بهـذا الأنـس عـن الأنـس بـالله تعـالى، وكذلـك هـي الحـال في المـال ومـا يتطلـب مـن عنايـةٍ بجمعـه والحفـاظ عليـه والنظـر في مصارفـه وشـؤونه، ثـم يعمِّـم الإمـام عليه السلام نواحـي الانقطـاع في حيـاة هـذا النبـي العظيـم بقولـه إنـه لم يكـن لـه «طمـعٌ» فـإن الطمـع يـذل ويضـع الإنسـان موضـع الضعـة والاحتقـار والمسـكنة، ثـم هـو بعـد كل هـذا «دابتُـهُ رجـلاه، وخادِمُـهُ يـداه».

ثالثًا: مثال الكمال والعشق الإلهي

فهو يمثل قدوة ومقامًا عظيمًا من الكمال برز فيه بأروع صوره، وبرز في القلة ممن ربَّاهم وأدَّبهم بصورٍ أخرى من الانقطاع والإعراض عن الدنيا، وأما بقية الناس فبعيدون كل البعد عن هذا الكمال وهذا العشق، ولو نظرنا إلى من ينتسب لعيسى عليه السلام حديثًا لرأيناهم أهل الدنيا الغارقين في ملذّاتها، بينما كان الجدير بهم أن يتخذوا من ينتسبون له قدوةً، وأمير المؤمنين عليه السلام يؤكد على حقيقة القدوة هذه في موطن آخر[1] بقوله:

«يا نوفُ، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قومٌ اتخذوا الأرضَ بساطًا، وترابَها فراشًا، وماءَها طيبًا، والقرآنَ شعارًا، والدعاءَ دثارًا، ثمَّ قرضوا الدنيا قرضًا على منهاجِ المسيح».

وقوله عليه السلام (طيبًا) هو عنوان شامل لكل الطيبات، وأما تعبيره (قرضوا) فإنه يعني أنهم تناولوا الدنيا بأطراف أسنانهم كنايةً عن قلة تزودهم من طيباتها، في قبال الذين (خضموا الدنيا) أي تناولوها بكل فمهم كنايةً عن شدة إقبالهم على ملذاتها، وإذن هذا هو التفاوت والتعبير لما بين الصنفين من فرق، ويختم الإمام عليه السلام هذا البيان والإشادة بالزاهدين بقوله (على منهاج المسيح) فهو مثلٌ يُرْمَقُ شاخصًا للكمال والعشق الإلهي.

رابعًا: لماذا هذا الإعراض الكامل عن الدنيا؟

يتساءل البعض: لماذا هذا الإعراض التام عن الدنيا في حين أن الله تعالى

(١) الكلمة رقم ١٠٤، ص٤٨٦.

يحب من عباده أن تظهر عليهم آثار نعمته وأن يأكلوا من الطيبات؟ ويجاب على ذلك بعدة أمور، منها أن الأنبياء ﰈ هم قدوة الناس وهم أسوةٌ للفقراء والضعاف من الرعية، فحينما يرى المحرومون أن أولياء الله الذين هم أكرم خلقه عليه ومع هذا فإنهم في تمام الإعراض والزهد في ملذات الدنيا - لا شك أن هذا يخفف على المحرومين معاناتهم وحرمانهم، فلا يتبرَّمون من قضاء الله وقدره أو يظنون أنه من غضب الله عليهم، ومن ناحية ثانية فإن زهد الأنبياء والأولياء ﰈ في الدنيا تصريحٌ عمليٌّ أنها جديرةٌ بالاحتقار وأن الإعراض عنها لا يوجب منقصة أو يمنع من أداء الرسالة والتكليف الإلهي، وهذا خير إرشادٍ للعباد أن لا يتهالكوا على الدنيا وتحصيل ملذاتها الزائلة حتى لو استوجب ذلك ذلةً وبعدًا عن الله تعالى بارتكاب المحرمات، هذا بالإضافة إلى نواحٍ أخرى تتعلق بالصفاء والسمو الروحي وهذه الكمالات التي تتطلب التخلص من قيود الماديات.

خامسًا: عيسى في حياة الأئمة ﰈ

يلاحظ في حياة الأئمة ﰈ سيرة مشتركة مع نبي الله عيسى ﰀ، ومن ذلك ما يلي:

أ) قول الرسول الأعظم لعلي (صلى الله عليهما وآلهما)[1]:

«والذي نفسي بيده لولا أن تقولَ طوائفُ من أمتي فيكَ ما قالتِ النصارى في ابنِ مريم لقلتُ اليوم فيكَ مقالًا لا تمرُّ بملإٍ من المسلمين إلاَّ أخذوا الترابَ من تحت قدميكَ للبركة».

---

(١) بحار الأنوار ٤٠/ ٨١.

يضاف إلى ذلك أن عيسى عليه السلام غالى فيه قومٌ ادعوا له الربوبية، وطعن آخرون فيه فقذفوا أمه مريم عليها السلام في أمر ولادته، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام جعله قومٌ إلهًا في حين استخفَّ آخرون بشأنه فرموه بما رموه[1].

ب) فيما أَبَّنَ به الإمام الحسن أباه أمير المؤمنين عليه السلام قائلًا[2]:

«ولقد توفِّيَ في هذه الليلة التي عرج فيها عيسى بن مريم».

فسيرتهما واحدة ونهجهم واحد.

ج) عليٌّ سيدُ الزاهدين:

فحياته كحياة أخيه عيسى عليه السلام زهدًا وإعراضًا عن الدنيا التي يخاطبها:

«يا دنيا، يا دنيا، إليكِ عني، أبي تعرضْتِ؟ أم إليَّ تشوَّقْتِ؟ لا حانَ حينُكِ! هيهات! غرِّي غيري، لاحاجةَ لي فيكِ، قد طلَّقتُكِ ثلاثًا لا رجعةَ فيها!»[3].

أو يقول عليه السلام[4]:

---

(١) «يا علي فيك مثلُ عيسى بنِ مريم، أبغضَتْه اليهود حتى بهتتْ أمَّه، وأحبتْه النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليست له، يا علي يدخل النار فيك رجلان: محبٌّ مفرط، ومبغضٌ مفرط، كلاهما في النار». بحار الأنوار ٤٠/ ٧٩.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى، للطبرسي / ٢٠٨.

(٣) الكلمة رقم٧٧، ص٤٨٠-٤٨١.

(٤) الكتاب رقم٤٥، ص٤١٩-٤٢٠. وهو كلام ضمن كتابٍ وجَّهَهُ عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، عاملِه على البصرة. وتجدر مراجعة هذا الكتاب بكامله نظرًا لروعته وكثرة الفوائد فيه فيما يتعلق بشخصية أمير المؤمنين وسيرته عليه السلام.

«وأيم الله -يمينًا أستثني فيها بمشيئةِ الله- لأَرُوْضَنَّ نفسي رياضةً تَهِشُّ معها إلى القرصِ إذا قدرتُ عليهِ مطعومًا، وتقنعُ بالملحِ مأدومًا، ولأدعنَّ مقلتي كعينِ ماءٍ، نضبَ معينها مستفرغةً دموعَها».

فهو من باب الحرص على كمال نفسه الشريفة ومن باب الحرص على رعيته ومواساته لهم، ومن موقع قيادته كان مثالَ الزهد والبعد عن الدنيا وقد كانت بين يديه، وتعبيره (إذا قدرْتُ عليه) تعبيرٌ دقيق جدًّا، يعني أنه يدع نفسه تفارق حتى الخبز والملح فراقًا تهشُّ بعده لهذا الطعام البسيط، وقد كان عليه السلام متحليًا بهذه الكمالات بنحو أجلى وأمثل.

د) عيسى يصلي خلف المهدي عليه السلام:

فقد جاء عن الإمام المجتبى عليه السلام[1]: «ما منَّا أحدٌ إلاَّ ويقع في عنقه بيعةٌ لطاغيةِ زمانه، إلاَّ القائم الذي يصلي خلفه روحُ اللهِ عيسى بنُ مريم».

فصاحب الزمان (أرواحنا فداه) إمامٌ للخلق بما فيهم نبي الله عيسى عليه السلام.

سادسًا: تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح[2]

ورد أن هذه التسمية جاءت لعدة أسباب محتملة، فمن ذلك أنه سمِّيَ بالمسيح لأنه مُسِحَ باليمن والبركة أي أن وجوده الشريف كان يمنًا وبركةً على الخلق، وقيل لأنه مطهَّرٌ من كلِّ ذنبٍ وعيب، وقيل لأن جبرئيل عليه السلام مسحه بجناحه، وقيل لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يتمسحون به تبركًا، وقيل لأنه عليه السلام كان يمسح

---

(١) بحار الأنوار ٥٢/ ٢٧٩.

(٢) للوقوف على نواحٍ أكثر في حياة نبي الله عيسى عليه السلام يمكن مراجعة (بحار الأنوار) ١٤/ ١٩١-٣٥٠.

الأعمى فيبصر، ويمسح الأبرص والأكمه فيعافى بإذن الله تعالى.

سابعًا: القدوة والتكليف

يلاحظ في سيرة الأنبياء عليهم السلام أن جملة منهم لم يتزوجوا ومنهم نبيَّا الله عيسى ويحيى عليهما السلام، ومن هنا أُثيرت مسألة في الفقه وهي هل أن الزواج مستحبٌّ ومرغوبٌ في ذاته أم أنه مستحب ومرغوب لمن تتوق نفسه إلى ذلك؟ وذكر في هذا المجال أن الزوجة -بما هي- تقتضي الانشغال بها وبالأولاد وقتًا وجهدًا وتعلقًا، وعشق الأنبياء وهمهم هو التعلق والانشداد إلى الذات المقدسة، ويلاحظ أن هذه الأدلة أدلة عامة وقد يكون هناك أدلة خاصة في حق عيسى أو يحيى أو غيرهما من أنبياء الله عليهم السلام.

ويقرر العلماء أن ما يذكر من إعراض الأنبياء والأولياء عن الدنيا أو عدم زواج بعضهم ليس تكليفًا في حقنا، بل هم في مقام القدوة والقيادة وتكليفنا هو الاقتداء بهم في حدود أن لا نساق خلف الدنيا انسياقًا نصبح معه أسارى لها تملكنا وتوجهنا، بل نحن الذين يجب أن نملكها، كما أن الإسلام نسخ الشرائع السابقة عليه جملةً وتفصيلًا، لا أنه أقرَّ بعضَ أحكامها وترك الآخر، وما يأتي من تعاليم الإسلام موافقًا للشرائع السابقة عليه إنما هو تشريعٌ جديدٌ لا أنه مأخوذ من تشريع سماويٍّ سابق(١).

نسأل الله تعالى أن يهدينا ويحيينا حياة الأنبياء والأولياء المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

(١) الأصول العامة للفقه المقارن / ٤٢٩.

١٨) إبراهيم عليه السلام .. خليل الله

أولاً: معنى (إبراهيم)

إبراهيم كلمة سامية استخدمتها السريانية وفق طريقة نطقها فكانت إبراهيم، ومعناها بالسريانية (أب رحيم)، وإذا نطقت في العربية غَيْرَ عَلَمٍ فهي كذلك (أب رحيم) وفي حالة العلمية أخذت عن السريانية ممزوجة ومسرينة أي (إبراهيم)، و(أب) و(رحيم) من الكلمات الخوالد وهي المتحدرة من السامية إلى فروعها من سريانية وعربية وعبرانية وغيرها، ويلاحظ في التأريخ انطباق هذا الوصف على إبراهيم عليه السلام فإنه كان مظهرًا بارزًا من مظاهر رحمة الله تعالى، وعرف بحبه للمساكين وتفقده للأضياف وغيرته وغير ذلك من الخصال الرفيعة.

ثانيًا: إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

ذكر القرآنُ الكريمُ خليلَ الله إبراهيمَ عليه السلام في سبعين موضعًا[1] تتحدث عن مختلفِ شؤونه فإنه خليلُ الرحمن وبطلُ التوحيد.

ثالثًا: إبراهيم عليه السلام في نهج البلاغة

«إنَّ أولى الناسِ بالأنبياءِ أعلمُهم بما جاؤوا به، ثمَّ تلا: ﴿إنَّ أولى الناسِ بإبراهيمَ لَلَّذين اتَّبعُوهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمَنُوا﴾[2] الآية، ثم قال: إنَّ وليَّ محمدٍ

(١) ذكر ذلك السيد السبزواري في (مواهب الرحمن) ٢/ ٦.

(٢) سورة آل عمران / ٦٨.

من أطاعَ اللهَ وإنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُه، وإنَّ عدوَّ محمدٍ من عصى اللهَ وإنْ قَرُبَتْ قرابتُه»[1].

ذكر أميرُ المؤمنين عليه السلام خليلَ الله إبراهيمَ عليه السلام في نهجه العظيم في موطنٍ واحدٍ هو هذا الذي ذكرناه[2]، كما تحدث عن إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام بشكل غير مباشر ضمن الحديث عن أولادهم وعن بني إسرائيل، وسأحاول في هذا الدرس أن أتناول هذه الجوانب من وحي كلامه عليه السلام.

رابعًا: معنى كلامه عليه السلام

يحتمل في هذه الكلمات الشريفة معنيان، وإن كان أحدهما أعمق وأنسب وأقرب إلى مراد الإمام عليه السلام، وهذان المعنيان هما:

أ) المعنى الأول: وهو عنوان القدوة الصالحة والاتباع للأنبياء والأولياء عليهم السلام وذلك في قوله (أولى)، وأما قوله عليه السلام: (أعلمهم بما جاؤوا به) فليس حصرًا في محض العلم، بل يشمل ويقتضي العمل، أو هو العلم الباعث على العمل، ولذلك تلا بعد ذلك الآية وفيها ﴿اتَّبَعوا﴾ وهذا تأكيدٌ على جانب العمل، فإذن العلم والعمل والاتباع تحقق الصلة بالأنبياء والأولياء عليهم السلام وتجسد حقيقة القدوة بهم، وهذا أمرٌ متاحٌ لكل البشر.

ب) المعنى الثاني: وهذا المعنى أهم وأعمق وأولى بالقصد، وإن كان لا ينفي المعنى الأول، ألا وهو الأولوية في الخلافة والإمامة كامتدادٍ لإمامة خليلِ الله إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء، وإذا كان أولى الناس بإبراهيم عليه السلام هو من يكون إمامًا

---

(١) الكلمة رقم٩٦، ص٤٨٤.

(٢) مع التذكير أن (نهج البلاغة) لا يحوي كل ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام.

وخليفةً مثله، وجب والحال هذه أن يكون مراد الإمام عليه السلام من قوله (أعلمهم) هو العلم الإلهي الذي تكون به تمام الخشية، وكمال العمل، بحيث يكون هذا الشخص (الأولى) مؤهلًا لأن يكون إمامًا يهدي إلى الله تعالى، كأنبيائه عليهم السلام، ومما يؤيد هذا المعنى أن الآية الكريمة التي استشهد بها الأمير عليه السلام ذكرت أن أولى الناس بإبراهيم عليه السلام هو النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، ولهذا لا يكون المعنى الأنسب عنوان القدوة والاتباع لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أفضل من خليلِ الله عليه السلام، وإنما المعنى المراد في حق رسول الله صلى الله عليه وآله أن نبوته وإمامته للخلق، وكذلك إمامة أمير المؤمنين عليه السلام هي امتداد لنبوة وإمامة إبراهيم عليه السلام.

وفي معرض الحديث عن النبوة والإمامة ذكرتُ في بعض ما كتبت ما ذكره السيد البهبهاني رحمه الله من التفصيل في الفرق بين النبوة والإمامة، وكما تذكر كتب الاعتقاد أن الإمامة مرتبة أسمى من النبوة، ومن ذلك أن إبراهيم كان نبيًّا ثم بعد ذلك أعطاه اللهُ مقام الإمامة في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلناسِ إِمامًا﴾[1]، وقد كان قبلها نبيًّا وحسب، فقد تنفرد النبوة كما في معظم الأنبياء عليهم السلام، وقد تنفرد الإمامة دون النبوة كما هو مقام أمير المؤمنين وأئمتنا عليهم السلام، وقد تجتمع النبوة والإمامة كما في مقام خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

ويستدل بالآية السابقة على اشتراط العصمة في الإمام فإن الله تعالى يقول ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلناسِ إِمامًا قالَ ومِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظالِمِين﴾، فكلمة (عهدي) فاعل، و(الظالمين) مفعول به أي أن عهدَ الله تعالى -وهي الإمامة- لا يشمل الظالمين، والظلم هنا مطلقٌ سواءً كان ظلم العبادِ أو ظلم النفس بأي ذنبٍ

(١) سورة البقرة / ١٢٤.

كان، وسواءً كان ذلك الظلم قبل إسلام الشخص أو بعد إسلامه.

خامسًا: قانون الانسجام

أعرض هنا بعض الروايات التي تتعلق بحديثنا هذا، لنرى مدى انسجامها معه من جهة ومع سيرة الشخص وواقع الحال من جهة أخرى، وهذا ما يحلو لي أن أسميه (قانون الانسجام) الذي يدلل على صدق القضية، وتمام الحقيقة، هذا الحديث في موضوع الآية المباركة هو قول الرسول ﷺ(1):

«أنا دعوة أبي إبراهيم، فقلنا: يا رسول الله، وكيف صِرْتَ دعوةَ أبيك إبراهيم عليه السلام؟ قال: أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فاستخفَّ إبراهيمَ الفرح فقال: يا ربِّ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أئمة مثلي... فانتهت الدعوة إليَّ وإلى أخي علي، لم يسجدْ أحدٌ منا لصنمٍ قط، فاتخذني اللهُ نبيًّا وعليًّا وصيًّا»(2).

إذن ففي هذا الحديث وغيره نجد أن طهارة النشأة وعدم السجود لصنم قط هو مظهر من مظاهر عدم الظلم التي أشارت إليه الآية الكريمة، وبذلك

---

(1) رواه الشيخ في أماليه ورواه ابن المغازلي في مناقبه، نقل ذلك السيد السبزواري في (مواهب الرحمن) ٢/ ٢٠.

(2) وقد ورد في دعاء الندبة ما ينسجم مع هذا الحديث من أن أمير المؤمنين عليه السلام دعوة إبراهيم عليه السلام، فقد جاء في هذا الدعاء: «وبَعْضٌ اتَّخَذْتَهُ لِنَفْسِكَ خَلِيلًا وسَأَلَكَ لِسانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ فَأَجَبْتَهُ وجَعَلْتَ ذلكَ عليًّا»، والنص الشريف جمع بين الآيتين الكريمتين: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (سورة الشعراء/ ٨٤)، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (سورة مريم/ ٥٠).

استحقَّ رسول الله ﷺ أن يكون في مرتبة الإمامة بعد النبوة والرسالة، واستحقَّ أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون في مرتبة الإمامة، فيكون معنى كلام أمير المؤمنين عليه السلام -الذي ذكرناه من النهج- أنه يُنَظِّرُ ويشبِّه نفسه بإبراهيم عليه السلام لأنه في القمة من الإمامة والوظيفة الإلهية.

سادسًا: ولد إسماعيل وبنو إسحاق وإسرائيل عليهم السلام

١) قال عليه السلام[1]:

«فاعتبروا بحالِ ولَدِ إسماعيلَ وبني إسحاقَ وبني إسرائيلَ عليهم السلام، فما أشدَّ اعتدالَ الأحوالِ، وأقربَ اشتباهِ الأمثال! تأمَّلوا أمرَهم في حالِ تشتتِهم وتفرقِهم، لياليَ كانت الأكاسرةُ والقياصرةُ أربابًا لهم، يحتازونهم عن ريفِ الآفاقِ، وبحرِ العراقِ، وخضرةِ الدنيا، إلى منابتِ الشيح، ومهافي الريح، ونكَدِ المعاش، فتركوهم عالةً مساكين إخوانَ دَبَرٍ ووَبَرٍ، أذلَّ الأممِ دارًا، وأجدبَهم قرارًا، لا يأوون إلى جناحِ دعوةٍ يعتصمونَ بها...».

كان هذا تنظيرًا من الإمام عليه السلام وتشبيهًا لحالة المسلمين في عصره بعد أن رجع الحقُّ إليه، ولكن تشتت الناس وقامت الفتن من هنا وهناك - بحالِ أولاد إسماعيل نبي الله عليه السلام الذي كان له ما نعلمُ من المقام الجليل وشرف بناء الكعبة المشرفة، وكذلك أولاد إسحاق وإسرائيلَ (يعقوب) عليهم السلام، وقد كان لإسرائيل اثنا عشر ولدًا، ومع كثرتهم وانحدارهم من سلالة الأنبياء فإنهم لما تركوا الحقَّ جانبًا وتمردوا آلَ أمرُهم إلى الشتات والضياع بهذا المقدار الذي وضحه الإمام عليه السلام من استعباد القياصرة والأكاسرة لهم وحرمانهم من خير الدنيا.

---

(١) خ١٩٢، ص٢٩٧-٢٩٨.

٢) تحدث الإمام عليه السلام عن التيه الذي حلَّ ببني إسرائيل والذي تحدث عنه القرآن الكريم أيضًا، فقال عليه السلام[١]:

«أيُّها الناس لو لمْ تتخاذلوا عن نصرِ الحق، ولم تهنوا عن توهينِ الباطل، لم يطمعْ فيكم من ليس مثلكم، ولم يقوَ من قوِيَ عليكم، لكنكم تِهْتم متاهَ بني إسرائيل، ولعمري، لَيُضعَّفَنَّ لكم التيهُ من بعدي أضعافًا بما خلَّفتم الحقَّ وراءَ ظهورِكم، وقطَعتم الأدنى ووصلتم الأبعد، واعلموا أنكم إن اتبعتم الداعيَ لكم، سلك بكم منهاجَ الرسول...».

نلاحظ الانسجام بين هذا المقطع والمقطع السابق من كلامه عليه السلام، فإنه يتحدث عن الفرقة والابتعاد عن الحق ويتحدث عن بني أمية (الذين وصلهم الناس وهم أبعد عن الحق) كما يتحدث عن الحال التي وصل لها المسلمون ويدعو إلى التآلف ونصرة الحق، ويشبِّه الناس في خذلانهم وابتعادهم عن الحق ببني إسرائيل الذين تاهوا أشد متاه، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا التيه بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾[٢].

وتذكر الروايات أشياء عجيبةً عن هذا التيه وأنهم يمشون طوال الليل حتى إذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في نفس المكان لم يبرحوه، وذلك أن اللهَ يأمر

(١) خ١٦٦، ص٢٤١.

(٢) سورة المائدة / ٢٤-٢٦.

الأرضَ بذلـك فتعـود بهـم إلى نفـس المـكان، واسـتمر تيههـم هكـذا أربعـين سـنة، وتذكـر الروايـات أيضًـا أن الأمـة تاهـت فـترة طويلـة إلى زمـن حكـم أمـير المؤمنـين عليه السلام لتُشابِهَ الأمـم السـابقة كـما هـو مدلـول الحديـث «لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مـن كان قبلكـم، حـذو النعـل بالنعـل، والقـذة بالقـذة، حتـى لا تخطئـون طريقهـم، ولا يخطئكـم سـنة بنـي إسرائيـل»[1].

سابعًا: أنبياء الله عليهم السلام في الكتب السماوية الأخرى

مع بالـغ الأسـف فإن الكتـب السـماوية الأخـرى طالتهـا يـد التحريـف بشـكلٍ لم يبقَ فيهـا أثـرٌ مـن آثـارِ الله تعـالى، ففـي الوقـت الـذي يتحـدث فيـه القـرآن الكريـم بكلِّ إجلالٍ لأنبيـاء الله عليهم السلام وعلاقتهـم بـالله تعـالى وإجلالـه بـما هـو أهـلٌ لـه- نجـد أن الكتـب السـماوية الأخـرى تذكـر السـخافات والأباطيـل التـي وضعتهـا يـد التحريـف، فمـن ذلـك يذكـرون أن كلمـة (إسرائيـل) تعنـي في العبريـة (مُصَارِع الله)، وقـد سـمِّيَ نبـي الله إسرائيـل (يعقـوب) عليه السلام بهـذا الاسـم لأن الله تعـالى وتقـدس دخـل عـلى يعقـوب في الليـل غرفتـه وتصـارع معـه إلى الفجـر فـما غلـب أحدهمـا الآخـر فمنحـه الله لقـب (إسرائيـل).

ثامنًا: الأنبياء عليهم السلام.. القدوة

استشـهد أمـير المؤمنـين عليه السلام بالآيـة الكريمـة ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، واسـتنادًا إلى المعنـى الأول الـذي قلنـا إن المعنـى الثـاني لا ينفيـه فـإن الأنبيـاء قـدوة للجميـع مـع اختـلاف مسـتوى الأخـذ بهـم كقـدوة، فـكل يأخـذ حسـب قـدره وشـأنه، فتحمـل الآيـة أن أولى النـاس بنبـي الله إبراهيـم هـم

(١) بحار الأنوار ١٣/ ١٨٠.

الذين يتبعونه ويسيرون على نهجه ويقتدون به، فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إن وليَّ محمد من أطاع الله وإنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُه، وإنَّ عدوَّ محمد من عصى الله وإنْ قَرُبَتْ قرابته»، فالقريب من قرَّبته الطاعة، ومن ذلك أيضًا الحديث الصادقي: «إنَّ وليَّ عليٍّ عليه السلام لا يأكل إلَّا الحلال لأن صاحبه كان كذلك، وإنَّ وليَّ عثمان لا يبالي أحلالًا أكل أو حرامًا لأن صاحبه كذلك»[1].

وهذا مظهر من مظاهر الانتماء يتجلَّى ليس في جانب الاعتقاد وحسب بل في جانب السلوك والعمل، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «العلمُ مقرونٌ بالعمل، فمن عَلِمَ عَمِلَ، والعلمُ يهتفُ بالعمل، فإنْ أجابَهُ وإلَّا ارْتَحَلَ عنه»[2].

(١) الكافي ٨/ ١٤٤.

(٢) نهج البلاغة، الكلمة رقم ٣٦٦، ص٥٣٩.

١٩) داوود وسليمان عليهما السلام

أولاً: داوود عليه السلام

أ) قال عليه السلام، متحدثًا عن نبي الله داوود عليه السلام[(١)]:

«وإنْ شئتَ ثلثتُ بداوودَ -صلى اللهُ عليه وسلم[(٢)]- صاحبِ المزاميرِ، وقارئِ أهلِ الجنةِ، فلقد كان يعملُ سفائفَ الخوصِ بيدِه، ويقولُ لجلسائِه: أيكم يكفيني بيعَها! ويأكلُ قرصَ الشعيرِ من ثمنِها».

هذه الكلمات عطف على ما سبق من عنايته -سلام الله عليه- بأخذ العبرة من حياة الزُّهَّاد والعُبَّاد، فقد ذكر أولًا رسول الله صلى الله عليه وآله ثم موسى عليه السلام ثم ثلَّث بداوود عليه السلام، ووصف داوودَ عليه السلام بأنه (صاحب المزامير)، وقد فسَّر بعضهم -كالشيخ محمد جواد مُغْنِيَة- ذلك بأنه الزمر المعيَّن المتعارف، أما غيره فقد ذكروا بأن (المزامير) من جهة لغوية هنا، ما كان يتغنَّى به داوود عليه السلام بقراءته الزبور نظرًا لأن الله تعالى وهبه عذب النغم ولذة الترجيع فلهذا وصف صوته بالمزامير، وكان لصوته عليه السلام أثر غريب كالسحر، فقد كان يؤثر في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فقد جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أن داوود عليه السلام كان «إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل

---

(١) خ١٦٠، ص٢٢٧.

(٢) عبر الإمام عليه السلام عن داوود كما عبر عن موسى أيضًا بقوله: (صلى الله عليه وسلّم)، ولعلَّ هذا إشارة إلى أن آل بيت رسول الله ٢ هم وحدهم المخصوصون بوجوب الصلاة عليهم مقرونة بالصلاة على الرسول ٢ وأن هذا لا يشمل أهل بيت أي نبي آخر.

ولا حجر ولا طائر ولا سبع إلَّا جاوبه»[1]، وجاء أن الطير تقع عليه والوحش تدخل بين الناس لاهية عن افتراسهم.

وإن كنتُ أتصور -والله العالم- أنه ليس فقط حسن الصوت هو السبب بل هو ما ينبعث من صفاء القلب المؤمن المتعلق بالله تعالى فيأسر النفوس جميعًا.

والوصف الآخر، هنا، لداوود عليه السلام أنه (قارئ أهل الجنة) و(خطيب أهل الجنة)[2]، ولعلَّ المعني هنا أنه لسان الحمد والثناء لله تعالى في الجنة، أو أنه للصوت النافذ المؤثر، وقد يكون لشيءٍ آخر، وبالمناسبة فقد ذكرتُ فيما كتبت أننا نلاحظ في حياة المعصومين عليهم السلام هذا النوع من التأثير في إسماع العدد الكثير بالكلام العادي الطبيعي، كما ينقل في حق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك في حق الإمام الحسين والإمام الرضا عليهما السلام، والسيدة زينب عليها السلام، وأعتقد أن هذا نوع من الهيمنة والنفوذ والولاية على الكون وعلى هذه الذبذبات والموجات وما فيها من طاقة وأنها منجذبة لأصواتهم وخاضعة لهم.

ثم يذكر عليه السلام أن داوود عليه السلام (كان يعمل سفائف الخوص بيده) على ما هو معروف لدينا الآن، فقد جاء أن داوود عليه السلام حكم أربعين سنة وفي حديث له مع جبرئيل عليه السلام سأله ماذا يعاب مني؟ فأجابه يعاب منك أنك إنما تأكل من بيت المال، أي لا تأكل من كسب يدك، فأثَّر ذلك فيه أثرًا كبيرًا فكان يعمل سفائف الخوص بيده وهذا العمل في حدِّ ذاته غاية في الزهد، ثم إنه كان لا يحب بيعها لأن ذلك اشتغالٌ آخر بالدنيا، فيسأل بعضهم أن يبيعها ويؤثر البائع بثمنها ثم يأكل

(١) أمالي الصدوق / ١٥٩.

(٢) مستدرك سفينة البحار ٣/ ٣٨٠.

منه قرص الشعير وهو طعام زهيد في قبال قرص البر مثلًا، وهذه مرحلة من حياة هذا النبي، ففي فترة أخرى كان عليه السلام يصنع في كلِّ يوم درعًا ويبيعه بألف، فصنع في سنة ٣٦٠ درعًا وباعها بـ ٣٦٠ ألفًا فكان بعد ذلك يأكل من صنع يده، وهذه المقدرة الخاصة تحدث عنها القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)﴾[١].

وقال تعالى: ﴿واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢]، وذو الأيد يعني صاحب القوة، فكان يأخذ الحديد يقطعه بيده دون حاجة إلى إعمال آلة، فيصنع منه درعًا، فلهذا جاء في الدعاء (يا ملينَ الحديدِ لداودَ عليه السلام)[٣]، وبالمناسبة أيضًا، يستحب أن يكون السفر في يوم الثلاثاء لأنه يوم ألانَ اللهُ فيه الحديدَ لداوود عليه السلام[٤].

ويلاحظ هذا التفاوت في حياته عليه السلام بين الفقر والغنى ومع ذلك يبقى هذا الجوهر على ما هو عليه من التعلق بالله والانقطاع إليه.

ب) في جانب من جوانب العرفان والانقطاع إلى الله تعالى يستشهد الإمام عليه السلام بداودَ عليه السلام قائلًا[٥]:

---

(١) سورة سبأ / ١٠-١١.

(٢) سورة ص / ١٧.

(٣) من أدعية الليالي العشر الأواخر من شهر رمضان. مفاتيح الجنان/ ٤٠٤.

(٤) من ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «سافروا يوم الثلاثاء واطلبوا الحوائج فيه، فإنه اليوم الذي ألان الله فيه الحديد لداوود عليه السلام». الدعوات، لقطب الدين الراوندي / ٢٩٣.

(٥) الكلمة رقم ١٠٤، ص٤٨٦.

«يا نوفُ، إنَّ داوودَ عليه السلام قام في مثلِ هذه الساعة من الليل فقال: إنها لساعةٌ لا يدعو فيها عبدٌ إلاَّ استجيب له، إلاَّ أن يكون عشَّارًا أو عَرِيفًا أو شرطيًا أو صاحبَ عَرْطَبَةٍ أو صاحبَ كَوْبَة».

في هذه الفقرة الشريفة عدة أمور:

١) إنه نوع من الأسرار الخاصة يعرفها أهل التعلقِ والولَهِ والعشق في الله تعالى، فهم يعرفون ساعات المناجاة، وقد ذُكر أن هذه الساعة التي أشار إليها الأمير عليه السلام هي السَّحَر.

٢) ورد في خصائص نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أن له مع الله تعالى حالات خاصة لا صلة فيها بأي ملك وإنما ارتباط مباشر خاص به، فيبدو أن للأنبياء عليهم السلام ساعات مناجاة معينة يعرفونها، وأمير المؤمنين عليه السلام واقف على هذه الأسرار، وهو يفيضها على الأوعية القابلة لتحمل ذلك، مثل نوف البكالي الذي يبدو أن له خصوصيات مع الأمير عليه السلام في المواعظ التي يلقيها، فكان على درجة عالية من الترفع عن الدنيا والإقبال على الله تعالى، ولهذا أفاض عليه أمير المؤمنين عليه السلام من الأسرار كما كان ذلك في حق الصفوة من أصحابه، فقد أُثِرَ عنه عليه السلام إخباره المغيَّبات لرشيد الهجري وميثم التمار وسلمان المحمدي رضي الله عنه.

٣) إن هذا ترغيب للعبد أن يبتهل إلى الله تعالى في عموم الأوقات وفي الأوقات المخصوصة كليالي الجمعة وآخر ساعة من يوم الجمعة قريب الغروب وفي السحر وبين الطلوعين، فإنها أوقات مناجاة وإقبال على الله تعالى.

٤) إن فيه أسلوبًا تربويًّا معينًا يهدف أمير المؤمنين عليه السلام من ورائه أن يبعد

الإنسان عن جملة من المهن الوضيعة، وذلك بأنه ذكر أنها نقائص تحول دون استجابة الدعاء، وهذا هو ما نهجه الإمام السجاد عليه السلام في أسلوبه التربوي عن طريق الدعاء، فيذكر أمير المؤمنين عليه السلام هنا أن هذه النقائص وهذه المهن هي أن يكون المرء عشَّارًا وهو من يأخذ أعشار المال من الناس في الجمرك، والثاني العريف وهو الجاسوس على الناس الذي يعمل لصالح الحاكم الجائر، والثالث هو الشرطي والمقصود به من يكون عونًا للحاكم الجائر، والرابع صاحب العَرْطَبَة وهي الطنبور، ولعلها عموم اللعب بشيءٍ محرم، والخامس صاحب الكَوْبة وهي الطبل، إذن هذه أمور ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام عن داوود عليه السلام في معرض الحديث عن المناجاة والدعاء، ثم ذكر بعض موانع الدعاء في أسلوب تربوي يهدف من ورائه أن يتنزه العبد عنها.

ثانيًا: سليمان عليه السلام

قال أمير المؤمنين عليه السلام[1]:

«فلو أن أحدًا يجدُ إلى البقاء سلَّمًا أو لدفعِ الموتِ سبيلًا، لكان ذلك سليمان بن داوود عليه السلام الذي سخِّر له مُلْكُ الجنِّ والإنس، مع النبوة وعظيمِ الزلفة، فلما استوفى طعمته واستكملَ مدته، رمته قسيُّ الفناء بنبالِ الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون، وإن لك في القرونِ السالفةِ لعبرة».

ذكر القرآن الكريم ما يتعلق بشأن ملك سليمان عليه السلام، كما يمكن الرجوع في ذلك إلى ج١٤ من البحار، وما يعنينا هنا عدة أمور:

(١) خ١٨٢، ص٢٦٢.

١) إن سليمان عليه السلام وهو نبي الله، مظهر أعظم لسلطانِ الله الأعظم وغناه وقدرته، واجتماع هذه الأمور فيه لا يعني جانب تفضيله على بقية الأنبياء كنبينا محمد صلى الله عليه وآله، بل يعني خصوصية لنبي الله سليمان عليه السلام وفرق بين الأفضلية والخصوصية، وفي جانب آخر يجب أن لا يتسرب لأذهاننا أن ما نراه من غنى الكافرين هو بسبب كرامتهم على الله تعالى، بل إن الرزق يشمل الجميع وللسعي مجال في ذلك، وقد يحرم المسلم ويعطى الكافر للابتلاء أو لحكمة يريدها الله تعالى.

٢) إن هذا السلطان وهذه الدنيا التي أعطيت لسليمان عليه السلام لم تنقص من قدره شيئًا، فهو النبي الزاهد المقرَّب من الله تعالى.

٣) إن هذه القدرة وهذا السلطان لسليمان عليه السلام لا يحيط به عقل بشر ولا يمكن أن يتصور لبشر لولا أن الله تعالى خالق البشر هو الذي مكَّنه، فهو يسخِّر الجن والشياطين والإنس والرياح ويخاطب الحيوانات وما بقي أحد إلا وهو تحت قبضته، ولكن كل ذلك كان تمكينًا من الخالق سبحانه وتعالى، ولذلك عندما تتدخل القدرة الإلهية لتعطيل قدرة سليمان عليه السلام أو هدمها ينقطع كل شيء لأنها قوة ومدد من الله تعالى وليست ذاتية، «فلما استوفى طعمته، واستكمل مدته، رمته قسيُّ الفناء بنبال الموت».

نعم، هذا السلطان الذي يعجز عن تصوره فقط كل متصور مهما بلغ من قوة الخيال، يسميه أمير المؤمنين عليه السلام (طعمة) أي أنه قوت قليل حقير، وكما جاء في (البحار) أنه لم يهنأ بيوم راحة ونعيم أبدًا، وفي يومٍ ما أراد أن يخلو كما يريد، فأمر غلمانه وحشمه بتغليق أبواب قصره وأن لا يدخل عليه أحد، وإذا بداخل يدخل عليه! فقال له سليمان: من الذي أدخلك؟ قال: أدخلني رب القصر! قال: ومن

رب القصر؟ قال: الذي وكّلني بقبض روحك! وانتهى كل شيء.. وإذا بهذا الذي تخافه الجن والشياطين والطير والإنس ﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عليه الموتَ ما دَلَّهم على مَوْتِهِ إلَّا دابَّةُ الأرضِ تأكلُ مِنْسَأَتَه﴾ أي تأكل عصاه حتى نخرتها ﴿فلما خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لو كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ﴾ بموتِه ﴿ما لَبِثُوا في العَذابِ المُهِين﴾[1]، أي ما بقوا مملوكين يخافونه حتى بعد موته وهم لا يعلمون أنه ترك هذه الدنيا.

ثالثًا: ﴿ومَنْ عندَهُ عِلْمُ الكتاب﴾

قال تعالى: ﴿قالَ الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ من الكتابِ أنا آتِيكَ بهِ قبلَ أَنْ يَرْتَدَّ إليكَ طَرْفُكَ﴾[2]، فهذا الذي عنده علم (من) الكتاب وهو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام استطاع أن يأتي بعرش بلقيس لسليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه، وهذه معجزة خارقة أتى بها آصف بن برخيا وعنده علم (من) الكتاب فقط أي عنده شيء من علم الكتاب، وتذكر الروايات أنه عنده حرف واحد من الاسم الأعظم، وأما أمير المؤمنين عليه السلام فعنده اثنان وسبعون جزءًا من الاسم الأعظم وهو الذي عنده ﴿عِلْمُ الكِتَابِ﴾[3] فكيف لا تصح منه وتثبت له كل معجزة خارقة؟ وكيف لا يكون أمير المؤمنين وأئمة الهدى عليهم السلام هم أصحاب الولاية والإمامة العامة التامَّة المطلقة؟ وكيف لا يكونون أعلى مراتب وأسمى وأكثر عطاءً وإعجازًا من جميع الأنبياء باستثناء النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟

---

(١) سورة سبأ / ١٤.

(٢) سورة النمل / ٤٠.

(٣) الكافي ١/ ٢٢٩-٢٣٠.

رابعًا: أمير المؤمنين عليه السلام سيد الزاهدين

تقول الروايات إن سليمان عليه السلام كان يطعم أضيافه الطعام الجيد من خبز البر واللحم وغيره، أما هو مع عظيم ملكه فقد كان يأكل خبز الشعير غير منخول، وهذا ما كان عليه سيد الزاهدين علي بن أبي طالب عليه السلام بل أكثر من ذلك، فقد كان يكسر خبزه اليابس بركبته ويشرب ماء ويمسح بطنه ويحمد الله تعالى، وهذا نهاية ما يتصور من الإعراض عن الدنيا.

طريفة وموعظة

يروى أن سليمان عليه السلام سمع عصفورًا يخاطب عصفورته قائلًا لها: لماذا تمتنعين مني ولو شئتُ لأخذت قبة سليمان ورميتها في البحر؟! فتبسم سليمان من قوله والتفت إليه قائلًا: أوَ تطيق أن تفعل ذلك؟ قال: لا يا رسول الله، ولكن المرء قد يزين نفسه ويعظمها عند زوجته، فالتفت سليمان عليه السلام للعصفورة وقال لها: لماذا تمنعين نفسك منه وهو يحبك؟ فقالت العصفورة: إنه لا يحبني، وإنه لمدعي في حبي، ولو كان يحبني لما أحب أحدًا معي، تقول الرواية فأثَّر ذلك في قلب سليمان أثرًا بليغًا وبكى بكاءً شديدًا واعتكف عن الناس أربعين يومًا داعيًا سائلًا الله تعالى أن يفرغ قلبه لحبه[1].

(١) الكُنَى والألقاب ١/ ٣٥٧.

٢٠) النبي الأعظم محمد ﷺ

مدخل

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِيْنَ تَقُومُ * وتَقَلُّبَكَ في السَّاجِدِينَ﴾(١).

الحديث في هذا الدرس الشريف بداية الأحاديث عن النبي ﷺ فنتحدث -إن شاء الله تعالى- في هذا الدرس والدروس القادمة عن مراحل حياة النبي ﷺ مستعرضين نشأته الأولى، وعصر الجاهلية المظلم، وما أحدثته دعوة النبي ﷺ من نور أضاءت له الآفاق، وعموم أدوار حياته بما أفاض به تلميذه، وحبيبه وربيبه ونفسه أمير المؤمنين عليه السلام.

أولاً: مصادر معرفة النبي ﷺ

أ) كتابُ الله الكريم:

وقد افتتحنا الحديث بهذه الآية المباركة حول نشأته الأولى، بالنظر إلى أن القرآن الكريم هو المترجم الأول الصادق في الحديث عن النبي ﷺ، ومَنْ أصدقُ وأعلم من الله تعالى بنبيه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾(٢)، ومن ذلك أن ألَّفَ محمد عزة دروزة كتابًا حول (سيرة الرسول) مستقى ومنتقى من الآيات

(١) سورة الشعراء / ٢١٨-٢١٩.

(٢) سورة الملك / ١٤.

الكريمة فقط[1].

تتحدث الآية المباركة -كما نقل المفسرون عن الأئمة عليهم السلام- أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان طاهرًا مطهرًا في عموم أدوار حياته، فقد جاء في مجمع البيان لأمين الإسلام الطبرسي رضي الله عنه: «وقيل معناه وتقلبك في أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبيًّا... عن ابن عباس، في رواية عطاء وعكرمة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله صلوات الله عليهما، قالا: في أصلاب النبيين نبي بعد نبي، حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام»[2].

ب) ترجمةُ أميرِ المؤمنينَ علي لرسولِ اللهِ الأعظمِ محمد (صلوات الله وسلامه عليهما وآلهما):

وحسب ما نلاحظ وكما جاء في الآثار أن المعرفة الصادقة إنما تؤخذ من هذه الطرق الموثوق بها، فإن شخصية الرسول العظيمة تشتمل على أسرار كبيرة لا يمكن أن يحيط بها أحد إحاطة ظلِّهِ ونفسِهِ عليٍّ بها، وقد جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبًا عليًّا عليه السلام: «ولا يعرفُني إلاَّ اللهُ وأنت»[3].

وقد كان الإمام عليه السلام لهجًا بالحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولهذا فلنعايشه في جميع أدوار حياته في ظلال نهج البلاغة العظيم.

---

(١) ذكر ذلك الشيخ السبحاني في (معالم النبوة في القرآن الكريم) / ٥٣٩.

(٢) مجمع البيان، للطبرسي ٧/ ٣٢٣.

(٣) مناقب ابن شهرآشوب ٣/ ٢٦٧-٢٦٨.

ثانيًا: طهارة الأصلاب والأرحام

وقد مرَّ هذا الحديث عن عموم الأنبياء عليهم السلام[1]، ولكن نذكره هنا حسب مقتضى نقاط البحث، ولأنه جدير بأن تتمثل هذه الناحية وهذا الكمال في أجلى مصاديقها وأروع صورها في شخص خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد قال عليه السلام[2]:

«حتى أفْضَتْ كرامةُ الله سبحانهُ وتعالى إلى محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فأخرجه من أفضلِ المعادنِ منبتًا، وأعزِّ الأُروماتِ مغرسًا؛ من الشجرةِ التي صدَعَ منها أنبياءَهُ وانتجبَ منها أُمَنَاءَهُ، عترتُه خيرُ العتر، وأسرتُه خيرُ الأسر، وشجرتُه خيرُ الشجر؛ نَبَتَتْ في حَرَم، وبَسَقَتْ في كَرَم... فهو إمامُ من اتَّقى...».

الأرومات: جمع أرومة، وهي الأصل، فأصوله صلى الله عليه وآله وسلم هم شجرة الأنبياء عليهم السلام.

وقد كرَّر هذا المعنى في قوله عليه السلام[3]:

«مستقرُّه خيرُ مستقر، ومنبتُه خيرُ منبتٍ، في معادنِ الكرامة...».

كما أكد ذلك في موطن آخر بقوله عليه السلام[4]:

«أسرتُهُ خيرُ أسرة، وشجرتُهُ خيرُ شَجَرة، أغصانُها معتدِلة، وثمارُها متهدِّلة». أي متدلية دانية القطاف.

---

(١) في الحديث عن الخطبة رقم٩٤، ص١٣٩، في درس (الأنبياء عليهم السلام).

(٢) خ٩٤، ص١٣٩.

(٣) خ٩٦، ص١٤١.

(٤) خ١٦١، ص٢٢٩.

وتلاحظ عناية الباحثين كثيرًا بذكر نسب النبي وقد ذكر هو ﷺ: «أنا دعوةُ أبي إبراهيم»[1]، أي حينما دعا -كما مرَّ- بأن يهبه الله تعالى الذرية الصالحة، فهو ﷺ ينحدر من سلالة الأنبياء عليهم السلام عن طريق إسماعيل بن الخليل إبراهيم عليه السلام.

وفي حديث عنه ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريش من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[2].

فأسرته إذن خير الأسر، سواءً فسرناها بإسماعيل وإبراهيم عليهما السلام أو فسرناها بعبدالله وعبدالمطلب وغيرهم من أشراف بني هاشم.

ومن ذلك قوله عليه السلام[3]:

«وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، وسيدُ عبادِه، كلما نسخَ اللهُ الخلقَ فرقتينِ جعله في خيرهما، لم يسهِمْ فيه عاهر، ولا ضربَ فيه فاجر».

وما أروع حديثه عليه السلام[4]:

«اختارَهُ من شجرةِ الأنبياءِ، ومشكاةِ الضياءِ، وذؤابةِ العلياءِ، وسرَّةِ البطحاءِ، ومصابيحِ الظلمةِ، وينابيعِ الحكمة».

ومشكاة الضياء هي كوَّةٌ يوضع فيها المصباح، والذؤابة هي الناصية أو منبتها من الرأس والمعنى قمة العلياء.

---

(١) مرَّ علينا هذا الحديث بكامله في الدرس حول إبراهيم عليه السلام، وقد رواه الشيخ في أماليه ورواه ابن المغازلي في مناقبه، نقل ذلك السيد السبزواري في (مواهب الرحمن) ٢/ ٢٠.

(٢) نقله الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه (في ظلال نهج البلاغة) ٣/ ٢٥٩ عن (صحيح مسلم).

(٣) خ ٢١٤، ص ٣٣٠.

(٤) خ ١٠٨، ص ١٥٦.

ثالثًا: (كريمًا ميلادُه)

قال ﷺ[1]:

«مأخوذًا على النبيين ميثاقُه، مشهورةً سِمَاتُه، كريمًا ميلادُه».

نلاحظ في هذه الكلمات أمرين مهمين:

١) قوله (مأخوذًا على النبيين ميثاقُه): قد يكون في ذلك ارتباط بعالم الذَّرِّ وما كان فيه من أخذ الميثاق، وليس لنا غرض هنا في إفاضة الحديث في هذا المجال، وقد يكون بعنوان ما بشَّرت به الرسل الكرام عليهم السلام من أمر النبي صلى الله عليه وآله وأنهم يعلمون أن جهادهم ودعوتهم هي تمهيد لدعوته الخاتمة المباركة، قال تعالى ﴿ومبشِّرًا برسولٍ يأتي مِنْ بَعْدِي اسمُهُ أحمد﴾[2].

٢) (كريمًا ميلاده): وذلك لشرف المولود وآثار الخير والبركة المترتبة على وجوده الشريف الذي يغير الدنيا فتشرق بتعاليمه وهديه وإخباره عن ربه.

رابعًا: (خيرَ البريةِ طفلاً)

قال ﷺ[3]:

«حتى بَعَثَ اللهُ محمدًا صلى الله عليه وآله شهيدًا، وبشيرًا، ونذيرًا، خيرَ البريةِ طفلًا، وأنجبَها كهلًا».

---

(١) خ١، ص٤٤.

(٢) سورة الصف / ٦.

(٣) خ١٠٥، ص١٥١.

وهذا تعبير مهم ولافت للنظر باعتبار أن النبي ﷺ في دوره الأول في عالم الوجود يوصف بهذا الوصف العظيم وأنه خير البرية وله الأفضلية عليهم منذ أن كان طفلًا، وهذا ليس ثناء وحسب بل إنه الواقع والذي لمسه الناس في شخصه ﷺ ولذلك حينما نرجع إلى السيرة، وإن كانت لا تسعفنا بتفصيل وافٍ عن أدواره الأولى إلا أننا نجد حياته الأولى مع مرضعته حليمة السعدية وامتيازه في أخلاقه بنحو لافت جدًّا، فهو يود أن يخدم وأن يكلَّف بما يكلف به صبيتها وينأى عن الاستبداد، وينأى عن اللعب واللهو الذي كان عادة الصبية، يضاف إلى ذلك بركات وجوده مع مرضعته والخير الذي نالته به، كل هذا وهو بعد طفل، وكذلك رحمته الواسعة وحبه للخلق وقد كان معاصروه يعرفونه بالصادق الأمين، فهو بحق خير البرية طفلًا.

والنقطة الأخرى المهمة في حياته ﷺ والتي تعتبر من الأسرار التي ما كان ليكشف عنها غير أمير المؤمنين عليه السلام بقوله[1]:

«ولقد قرنَ اللهُ به ﷺ مِنْ لَدُنْ أنْ كان فطيمًا أعظمَ مَلَكٍ من ملائكتِه، يسلكُ به طريقَ المكارم، ومحاسنَ أخلاقِ العالم، ليلَهُ ونهارَه».

فهذه جوانب روحية وإلهية خاصة لا يحيط بها إلَّا من كان ظلًّا للنبي بل هو نفسه، ملازمًا له في أدوار حياته الأولى، ولهذا جاء عنه ﷺ: «لقد صلَّتْ الملائكةُ عليَّ وعلى عليٍّ سبعَ سنينَ، وذلك أنه لم يصلِّ معي رجلٌ غيره»[2].

فالله هو المسدد والملهم لرسوله الكريم على يد أعظم ملكٍ من ملائكته

(١) خ١٩٢، ص٣٠٠.
(٢) بحار الأنوار ٤٠/ ٧٧.

من لدن أن كان فطيماً، وتعبير الإمام عليه السلام (قرنَ به) أي جعله ملازماً له (ليله ونهاره)، وهذا الملَك ليس أمين الله جبرئيل عليه السلام بل الروايات الواردة أنه أعظم منه وأنه كان مع الأئمة عليهم السلام أيضاً، يوصل لهم تسديد الله تعالى وتعاليمه[1]، وقد أشرت فيما مضى أن ذلك لا يعني أصلاً فضل الملَك على النبي أو الإمام، فالنبي أشرف الخلق، والإمام يأتي في الفضل بعده، وإنما هذا الملَك هو تكريم للنبي أو الإمام بإرسال موفَدٍ إليهما من قبل الله تعالى، وقد قال صلى الله عليه وآله: «أنا أديبُ اللهِ وعليٌّ أديبي»[2].

وقوله: (ومحاسن أخلاق العالم) ليس يعني الأخلاق التي كان العالم يتصف بها، فالنبي أشرفهم وأفضلهم، وإنما المقصود الأخلاق الإلهية التي أراد الله تعالى للعالم أن يتصف بها ويبلغ ذروتها فبها صلاح الدنيا والآخرة.

إذن فالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله حتى قبل البعثة وقيامه بأمر الدعوة كان قمة الكمال البشري فلا يمكن أن يصدر منه ما يتنافى والكمال، ولا دور لبعثته في كماله بل كماله ورعاية الله تعالى له منذ نشأته الأولى، وقد أبدع الإمام عليه السلام في إيجاز هذه النواحي العظيمة في هذه الكلمات.

---

(١) عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾(*) قال خلق من خلق الله تعالى أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله ١ يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده. الكافي ١/ ٢٧٣.

(*) سورة الشورى / ٥٢.

(٢) بحار الأنوار ١٦/ ٢٣١.

٢١) النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم .. ما قبل البعثة

مدخل

جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«كنتُ نبيًّا وآدمُ بين الماءِ والطينِ»[١].

الحديث الثاني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدور حول فترة أخرى من حياته المباركة وهي التي تسبق عهد البعثة النبوية الشريفة، وبطبيعة الحال فإن دائرة بحثنا هي ضمن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه العظيم.

أولاً: (وأنـجبَها كهلاً)

قال عليه السلام[٢]:

«خيرَ البريةِ طفلًا، وأنجبَها كهلًا».

معنى الكهل في اللغة: يراد به تحديد فترة زمنية وقد اختلف فيها فهناك قول أن ما جاوز الثلاثين فهو زمن الكهولة، وهذا خلاف لما نعهد، وقول آخر أنه ببلوغ المرء سن الأربعين يكون كهلًا، وقول ثالث أن ما بين سن الرابعة والثلاثين إلى الحادية والخمسين هي فترة الكهولة، وقبل الكهولة تكون فترة الشباب، وبعد

(١) مناقب ابن شهرآشوب ١/ ١٨٣.

(٢) خ١٠٥، ص١٥١.

الكهولة تأتي فترة الشيخوخة ثم فترة أرذل العمر.

فهنا بعد أن قال الأمير عليه السلام إن الرسول صلى الله عليه وآله هو خير الناس وهو طفل، فإنه يقول هنا إنه أفضلهم أيضًا في فترة الكهولة فهو في هذه الفترة التي تشتد فيها الغرائز والرغبات ومع ذلك يكون أنجب الناس، والأنجب بمعنى الأفضل وبمعنى الأكرم.

ثانيًا: بماذا كان النبي صلى الله عليه وآله يتعبد قبل البعثة؟

ورغم أن هذا ليس له فائدة عملية، إلا أننا نشير إليه من باب الفائدة العلمية، وقبل هذا يطرح سؤال وهو: هل يجب أن يتعبد النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة؟

يميل البعض إلى أنه لا يجب أن يتعبد النبي صلى الله عليه وآله بشريعة ما قبل البعثة على الإطلاق، وفي قبال هذا الرأي هناك رأي يقول إن فرض عدم تعبد النبي قبل البعثة لا يتلاءم بل يتنافى مع مقام النبي وعظمته وكونه لسان ومثال الشكر لخالقه والمنعم عليه، وشكرُه لخالقه يتمثل بنحو أكمل من طريق العبادة، أضف إلى ذلك الروايات الواردة في هذه الناحية، ومنها ما افتتحنا به الحديث من وصفه بالنبي قبل خلق آدم عليه السلام فلا يحسن بعد ذلك أن لا يمارس عبادة قبل البعثة، وقد جاءت الروايات أنه صلى الله عليه وآله كان يصلي ويحج ويمارس سائر العبادات.

ولكن بماذا كان يتعبد؟ هل بتشريع نوح أو إبراهيم أو عيسى أو غيرهم عليهم السلام؟

اختلفت الأقوال كثيرًا عند السنة والشيعة في هذه النقطة، وملخص القول عند الإمامية هو ما يميل إليه ثقة الإسلام المجلسي رحمه الله الذي أشبع الموضوع

بحثًا وإيرادًا للروايات في بحار الأنوار[1]، وخلاصة رأيه الشريف أن النبي ﷺ كان يتعبّد قبل البعثة بشريعته هو لأنه كان نبيًّا قبل البعثة بكثير، وأنه كان يُلِمُّ بغار (حراء) كل عام ويبقى شهرًا كاملًا يعبد الله تعالى فيه، وكان يطعم فيه من يأتيه من المساكين فهو محل حاجة الناس وتوجههم، وهو رحمة لهم يرى نفسه مسؤولًا عنهم حتى قبل البعثة.

وبما يملكه الرسول الأعظم ﷺ من معرفة وعلم وعقل فائق يمكنه أن يعبر عن شكره لله تعالى بطرق أخرى؛ إلا أنه من لطف الله تعالى به وحبه له زوّده بهذه العبادات وعلّمه كيف يناجيه ويشكره، فيتلقى عباداته من الله تعالى ويمارس عبادةً عقليةً وقلبيةً وجسدية.

ثالثًا: قال أمير المؤمنين عليه السلام

أ) مرَّ علينا الكلام حول قول أمير المؤمنين متحدثًا عن النبي (عليهما وآلهما السلام): «ولقد قرنَ اللهُ به ﷺ من لدُنْ أنْ كان فطيمًا أعظمَ مَلَكٍ من ملائكتِه، يسلكُ به طريقَ المكارم، ومحاسنَ أخلاقِ العالم، ليلَهُ ونهارَه»[2]، ولا شك أنه مع هذه العناية الكبيرة به كان يتحفه بمختلف المعارف فلا يعقل أن تكون فترة ما قبل البعثة خالية من الأحكام الشرعية والتعبد بها، بل جاءت الروايات أن هذا الملَك الموكل بالنبي كان يخاطبه وهو بعدُ شاب بقوله: «السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا رسول الله».

هذا والجمل الأخرى تشرك عليًّا عليه السلام في هذه الكرامة وأن الرسول ﷺ كان

(1) ج١٨، ص٢٧٨.

(2) خ١٩٢، ص٣٠٠.

يأمره بالاقتداء به فيما رس معه العبادات، وكان للإمام عليه السلام تمام المنزلة والمكانة «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، أي أنه لو جاز أن يكون نبي بعد النبي لكان عليٌّ، وهذا بعيد عن الغلو بل هو عين الحقيقة فمقام الإمامة الحاصلة لأمير المؤمنين عليه السلام فوق مقام النبوة، وقد تحدثنا سابقًا أن مقام الإمامة التي نالها إبراهيم عليه السلام هو بعد أن نال مقام النبوة.

وأما كيفية صلاته صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة فهذا يرتبط بكونه يتعبد بشريعته فتكون صلاته هي التي شرعها للناس بعد ذلك، وإلاّ فمن المحتمل أن تكون له عبادات خاصة قبل البعثة المباركة.

ب) وقال عليه السلام(1):

«اللهم إني أولُ من أناب، وسمعَ وأجاب، لم يسبقني إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة»: وفي هذا حكاية لما قلنا، ويمكن تطبيقه على ما قبل البعثة وأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعبّد بالصلاة قبل الكل ثم كان علي عليه السلام هو الشخص الثاني الذي عبد الله تعالى، وقد جاءت الروايات صريحة بذلك، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد صلَّتْ الملائكةُ عليَّ وعلى عليٍّ سبعَ سنينَ، وذلك أنه لم يصلِّ معي رجلٌ غيره»(2)، إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة.

---

(1) خ ١٣١، ص ١٨٩.

(2) بحار الأنوار ٤٠/ ٧٧.

٢٢) النبي الأعظم محمد ﷺ .. البعثة المباركة

مدخل

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١).

ستكون أحاديثنا المقبلة -إن شاء الله تعالى- حول بعثة النبي ﷺ وستكون في الموضوعات التالية:

١) البعثة النبوية الشريفة وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام حولها.

٢) الجاهلية، وكلمات الإمام عليه السلام في تصوير عهد ما قبل البعثة المباركة.

٣) النجاح العظيم الذي حققه النبي ﷺ عقيب قيامه بهذه الدعوة العظيمة.

٤) درس مهم نستفيده في حياتنا من هذه الأحاديث المباركة.

وسيكون هذا الدرس حول الموضوع الأول (البعثة النبوية الشريفة).

أولاً: تعريف البعثة

البعثة كمصطلح ديني تعني قيام النبي ﷺ بدعوته الإلهية من قبل ربه تبارك وتعالى، وإظهار أمر دينه وتبليغ رسالة ربه.

---

(١) سورة الجمعة / ٢.

ويوم البعثة هو السابع والعشرون من شهر رجب، وقد جاء في فضلها وشرفها حديث عن الإمام الجواد عليه السلام: «إن في رجب ليلةً هي خيرٌ للناسِ مما طلعتْ عليه الشمس، وهي ليلةُ السابع والعشرين منه؛ نبِّيءَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله في صبيحتِها»(١).

ونقاط البحث كالتالي:

ثانيًا: مهمات النبي صلى الله عليه وآله

قال أمير المؤمنين عليه السلام(٢):

«إلى أنْ بعثَ اللهُ سبحانهُ محمدًا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله لإنجازِ عِدَتِه، وإتمامِ نبوَّتِه، مأخوذًا على النبيينَ ميثاقُه...».

فبمقتضى إنجاز الوعد الإلهي بُعِثَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وكأنما هذا المبعث هو تمام الحلقة والبشارة والتكميل الإلهي لرسالات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وعبَّر عنها بأنها إتمام لنبوة الله أي لولاها لكانت النبوة ناقصة والعروة منفصمة، ومن تمام الفضل أن يختم الله هذه السلسلة المباركة بخير الأنبياء وأشرف المرسلين صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين.

وقال عليه السلام عن هذا الحدث الأعظم(٣):

«حتى أورى قبسًا لقابسٍ، وأنار علَمًا لحابس، فهو أمينُكَ المأمون، وشهيدُكَ

(١) مفاتيح الجنان، للشيخ القمي / ١٤٨.

(٢) خ١، ص٤٤.

(٣) خ١٠٦، ص١٥٣.

يومَ الدين، وبعيثُكَ نعمةً، ورسولُكَ بالحقِّ رحمةً»[1].

فهو المأمون من قبل الله تعالى على التنزيل وهذه رتبة سامية أن يكون الحامل للقرآن العظيم بما يحويه من آثار الله وعلمه وأسراره، وبما يحمل من هداية للبشر، وهو الشهيد، والشهادة مهمة كبيرة جدًّا تعني الحضور والمراقبة لعمل الخلق ومدى اتباعهم للحق، وهذه المهمة أيضًا من اللطف الإلهي أن تكون هذه الرحمة المهداة وهذا النور قائمًا بين أظهر الناس يرعى شؤونهم ويخط لهم درب السعادة، ويتلافى أخطاءهم ويستدرك عليهم، وتلك نعمة كبيرة. قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النبيُّ إِنَّا أرسلناكَ شاهدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيْرًا﴾[2]، فهو يشهد لهم في الدنيا ويشهد لهم وعليهم في الآخرة.

وقوله عليه السلام (وبعيثك نعمة) إشارة إلى أن بعثة النبي في حد ذاتها نعمة جليلة من الله تعالى، ورحمة واسعة للعباد.

وقال عليه السلام[3]:

«حتى بعثَ اللهُ محمدًا صلى الله عليه وآله شهيدًا وبشيرًا ونذيرًا».

وينبغي الالتفات إلى أن هذه ليست فقط صفات للنبي، بل هي في واقعها مهمات أُوكلت إليه فقام بها خير قيام.

(١) يمكن مراجعة نهج البلاغة، ص٦١٣ للاطلاع على معاني بعض الكلمات الواردة في هذا النص الشريف (الكلمات رقم ١٤٠٩ إلى ١٤١٢).

(٢) سورة الأحزاب / ٤٥.

(٣) خ١٠٦، ص١٥١.

وقال عليه السلام حول بعض مهام هذه الدعوة[1]:

«فبعثَ اللهُ محمدًا صلى الله عليه وآله بالحقِّ ليخرجَ عبادَه من عبادةِ الأوثانِ إلى عبادتِه، ومن طاعةِ الشيطانِ إلى طاعته...».

وفي الواقع يمكن أن يقال إن هذا هو السر، والأمر الأهم في البعثة المباركة، فإن الإنسان ما لم يعبد الله ويهتدِ بهداه فإنه يعبد الوثن، لأنه إما الله وإما الشيطان، سواءً كان ذلك الوثن متمثلًا في صنم يصنعه الإنسان بيده من حجارة أو خشب ثم يسجد له ويقدم له القرابين، أو كان هواه يتبعه، أو كانت الدنيا يعبدها ويعبد حُكَّامها، فكل تلك أوثان مآل صاحبها إلى الهلاك، ولا منجى ولا مخلص إلا بعبادة الله تعالى، ولهذا لاحظوا التعبير: (ليخرجوا العباد) فهم في مأزقٍ وبلاء مبرم وهوَّةٍ سحيقة، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، كما سنذكر ذلك في حديث لاحق عن الجاهلية، إن شاء الله تعالى.

وأخيرًا قال عليه السلام معممًا دور بعثة الرسل[2]:

«وبَعَثَ إلى الجنِّ والإنسِ رسلَه، ليكشفوا لهم عن غطائِها، وليحذروهم من ضرَّائِها، وليضربوا لهم أمثالَها، وليبصروهم عيوبَها، وليهجموا عليهم بمعتبرٍ من تصرُّفِ مصاحِّها وأسقامِها، وحلالِها وحرامِها، وما أعدَّ اللهُ للمطيعينَ منهم والعصاةِ من جنةٍ ونار وكرامةٍ وهوان...».

والرسول صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء وسيدهم وقد تجلت في نبوته هذه المهمات

(1) خ١٤٧، ص٢٠٤.

(2) خ١٨٣، ص٢٦٥.

وهـذه الجامعيـة بنحـو أكمـل.

ثالثًا: دعامة أمره وركن دعوته

للرسـول الأكـرم جنبتـان: جنبـة مـع الخَلْـق، وجنبـة مـع الحـق، مـع الله تبـارك وتعـالى، وهـذا معنـى جامعيتـه للنبـوة والرسـالة كـما تقـدم، فالنبـوة هـي جنبتـه مـع الحـق، فهـو يتلقـى الوحـي منـه تعـالى بطريـق الأمـين جبرئيـل عليه السلام بـل إن لـه مـا هـو فـوق ذلـك، فلـه مـع خالقـه مناجاة وخلـوات وانقطاعـات خاصـة بغـير واسـطة ملَـك ووحـي، وهـذه الناحيـة هـي إحـدى دعائـم أمـره.

ومـن أركان دعوتـه القـرآن الكريـم ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ولا يُطلَـبُ بعـده شيء، وقـد أحـاط رسـول الله صلى الله عليه وآله بـأسـراره ومعارفـه.

وفي هذا المجال تحدث الإمام عليه السلام[1]:

«إنَّ اللهَ بعثَ رسولًا هاديًا بكتابٍ ناطقٍ، وأمرٍ قائم».

فالقـرآن الكريـم إذن هـو الدعامـة الأولى للدعـوة، وقـد عـبر عنـه الإمـام عليه السلام بأنـه (ناطـق) وهـذا خـلاف مـا يعهـد مـن الروايـات مـن التعبـير عـن القـرآن الكريـم بأنـه كتـاب الله الصامـت، والإمـام كتـاب الله الناطـق لأنـه ترجمان للقـرآن يخـبر عنـه ويجسـد تعاليمـه عمليًّـا، وهـذا التعبـير هنـا عـن القـرآن الكريـم بأنـه (ناطـق) قـد يكـون لعـدة اعتبـارات: منهـا، أنـه ناطـق بالنسـبة للنبـي، وصامـت بالنسـبة لغـيره، وذلـك أن النبـي محيـط بـما فيـه مـن علـم فتنطـق حروفـه وكلماتـه لـه بـكل مـا فيـه مـن أسـرار وحكـم، بينـما هـو صامـت بالنسـبة للآخريـن لعـدم إحاطتهـم بمعارفـه وأسـراره ﴿وَمَا يَعْلَمُ

(١) خ١٦٩، ص٢٤٣.

تَأْوِيْلَـهُ إِلَّا اللهُ والرَّاسِـخُونَ في العِلْـمِ﴾[1].

يضـاف إلى ذلـك أن النبـي سـمع الوحـي بالقـرآن قبـل أن يكتـب فهـو في حقـه ناطـق بهـذا الاعتبـار أيضًـا، ولعـل قولـه عليه السلام (وأمـر قائـم) إشـارة إلى أن سـائر تشريعـات الإسـلام أمـور معلومـة واضحـة جليـة عنـد النبـي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال عليه السلام[2]:

«ابتعثهُ بالنورِ المضيءِ، والبرهانِ الجلي، والمنهاجِ البادي، والكتابِ الهادي»:

وهـذه إشـارة إلى ركائـز الدعـوة سـواءً كانـت هـذه الصفـات مترادفـات تشـير إلى القـرآن الكريـم، أو كانـت تعنـي مـا زُوِّدَ بـه الرسـول الأعظـم صلى الله عليه وآله وسلم مـن قـوة الحجـة وتمـام البرهـان عـلى دعوتـه العظيمـة، وهـذه الحجـة هـي الركيـزة الأخـرى في دعوتـه وأمـره، لأن مـن يتكفـل بهـذه الدعـوة الكبـيرة ويدعـي أنـه وحـده المبعـوث مـن قبـل الله تعـالى إلى جميـع الأمـم- لا بـد وأن يكـون لـه مـن البينـات والحجـج الظاهـرة مـا يثبـت دعـواه، فالنـاس أشـتات فيهـم العقـلاء والمفكـرون وعلـماء الديانـات السـابقة مـن اليهـود والنصـارى لهـم علـم بالكتـب السـماوية ومعرفـة بالأديـان، ولديهـم احتجاجـات لا بـد وأن يظهـر عليهـا بحججـه القويـة الواضحـة (والمنهـاج البـادي والكتـاب الهـادي).

ولذلك قال عليه السلام في نفس الخطبة[3]:

«أرسلهُ بحجةٍ كافية، وموعظةٍ شافية، ودعوةٍ متلافية...»: فهنا يجمع الإمام

(١) سورة آل عمران / ٧.

(٢) خ١٦١، ص٢٢٩.

(٣) خ١٦١، ص٢٣٠.

عليه‌السلام جملة من دعائم أمر البعثة وما كان عليه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله من عدة ومدد إلهي في هذا الأمر.

ومن هذه النصوص قوله عليه‌السلام[1]:

«أرسلهُ بالدينِ المشهور، والعلَمِ المأثور، والكتابِ المسطور، والنورِ الساطع، والضياءِ اللامع، والأمرِ الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجًا بالبينات...»: ولا أعتقد أن هذه كلها مترادفات وإن كانت تصب في أمر الدعوة والإرشاد، بل إن بعضها يشير إلى القرآن، كما يشير بعضها إلى عقل النبي الكبير، وملكاته وكمالاته التي أهَّلته للدعوة.

رابعًا: البلاء الحسن الجميل

في هذه الناحية يجب أن لا يغفل كما نبهنا من قبل أننا نتحدث في إطار كلمات أمير المؤمنين عليه‌السلام وإلا فالروايات الكثيرة فيها تفصيل أكثر -بطبيعة الحال- حول بلاء النبي والأذى الكبير والعناء الذي تحمله، والصعوبات التي اعترضته، في سبيل الدعوة، وقد جاء عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ما أُوْذِيَ نبيٌّ مثلَ ما أُوْذِيت».

وفي هذا الفلك قال عليه‌السلام[2]:

«فبالغَ صلى‌الله‌عليه‌وآله في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمةِ والموعظةِ الحسنة»: وموضع شاهدنا قوله عليه‌السلام: (بالغ) وهذا لا يعني -بالطبع- ما نفهم نحن من أن المبالغة خلاف الحقيقة، بل يعني أنه بذل جهده وابتلي كل البلاء في

(١) خ٢، ص٤٦.
(٢) خ٩٥، ص١٤٠.

سبيل دعوته، فهو لم يكتفِ بدعوة الناس بصدق وعزم، ولهم بعد ذلك أن يختاروا فيهتدوا أو لا يهتدوا، بل أكد دعوته وأصرَّ عليها رغم التكذيب، وتحمل كل عناء حبًّا في هداية من أُرْسِلَ إليهم وهم الناس كافة.

وقد بين ذلك ﷺ بقوله[1]:

«فجاهدَ في اللهِ المدبرين عنه والعادلين به»: ولا سيما وأن الكافرين والمعارضين كانوا همَ الغالبية وأصحاب العدد والعدة، فتحمل منهم الأذى في مكة بكل أنواعه، ثم الطائف، ثم ما باشره من المدينة بنفسه من حروب ضد الكفار جرح فيها الجراحات الشديدة وكسرت رباعيته وانشقت شفته وأدميت ركبته؛ هذا وهو يحمل الهداية والخير والرحمة للناس.

ونختم بقوله ﷺ[2]:

«خاضَ إلى رضوانِ الله كلَّ غمرة، وتجرَّع فيه كلَّ غُصَّة، وقد تلوَّنَ له الأدْنَوْن، وتألَّبَ عليهِ الأقصَوْن، وخلَعَتْ إليهِ العربُ أعِنَّتَها، وضربتْ إلى محاربتِهِ بطونَ رواحِلِها، حتى أنزلتْ بساحتِهِ عداوتَها، من أبعدِ الدار، وأسحقِ المزار».

وهذا تصوير مهم ورائع ومثير، فإن تجرُّعه الغصص وخوضه الغمرات مع طول المدة كان طلبًا لرضوان الله تعالى عنه، وأي جهاد وأي صدق في الدعوة أعظم من هذا؟ وقد تلوَّن له الأدنون فكان أبو لهب وأبو جهل والأقربون منه، وما أسلم بعضهم إلا بعد عناء شديد وفترة مريرة، وبعد أن أخذ الإسلام زمام

(١) خ١٣٣، ص١٩١.
(٢) خ١٩٤، ص٣٠٧.

الأمور وحقق انتصاراته، وتألَّب عليه الأقصون البعيدون فكان اليهود والنصارى والعرب وكل قد أتى لحربه، وأجهد في ذلك واشتد، وأنزلوا بساحته عداوتهم فقصدوه بالإيذاء قصدًا من أقصى الأرض، وكان الله تعالى ناصره ومسدِّده، صلى الله عليه وآل بيته الطيبين الطاهرين.

٢٣) الجاهلية

مدخل:

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(١).

أولاً: تعريف الجاهلية

الجاهلية كمصطلح لا ترتبط فقط بتلك الفترة التي كانت قبل البعثة، ولا ترتبط بأمة معينة، بل حتى في زماننا هذا إذا لم يكن الفكر سليمًا والعقل نيِّرًا وحياة الأمم والشعوب على وفق النظام الإلهي فتلك هي الجاهلية وإن كانت جاهلية حديثة.

ثانيًا: أسبابها

من ضمن الظروف التي تهيء لظهور الجاهلية هو ما يبتلى به البشر من فترة ينقطع فيها إرسال الرسل، وليس في ذلك اعتراض على الله تعالى فقد بعث الأنبياء والمرسلين وجعل الأولياء، ولكن ابتعاد الناس عن منهج الأنبياء في حياتهم وبعد موتهم يؤدِّي إلى ظهور الجاهلية، ولهذا يذكر في هذه الفترة فترة انقطاع الرسل أن نبيًّا من الأنبياء كان قائمًا بين الناس وهو آخر الأنبياء العرب

(١) سورة المائدة / ٥.

وهو خالد بن سنان، وقد جاء في (بحار الأنوار)[1] حديث عنه في أربع روايات تتحدث عن شيء من سيرته وأن رسول الله ﷺ أدرك ابنته وكان يكرمها ويشير إلى أنها ابنة نبي ضيعه قومه، مما يدل على أن عهده قريب من عهد الرسول الأكرم ﷺ، ويناقش البعض في نبوته أو حجمها، ولكن حجم النبوة لا يضر بكونه نبيًّا.

ثالثًا: مظاهر الجاهلية

مظاهر الجاهلية كثيرة ونحن نستمد التعريف بها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام والذي تحدث عن ذلك كثيرًا وفي مناسبات عديدة لا يمكن الإحاطة بها جميعًا في هذا الدرس.

وقيمة حديث الإمام هنا عالية جدًّا ومهمة باعتبار أنه أدقُّ المؤرخين -إن صح التعبير- وأصدق المتحدثين عن هذه الفترة لمعايشته لها وعلمه بالقوم، وعلمه بحقيقتها من رسول الله، ولعلمه الإلهي الذي يستطيع به أن يخبر عن هذا الكون وما يحويه من حقائق.

فمن تلك المظاهر التي ذكرها الإمام عليه السلام:

١) الاعتقاد، والحديث فيه شبه خاص بالعرب باعتبار أن رسول الله ﷺ بُعث فيهم.

٢) الفتن الكثيرة التي كانت نارها متأجِّجة بينهم.

٣) الضياع الذي كانوا يعيشونه بتمام ما لكلمة (الضياع) من معنى.

٤) اتباعهم للشيطان في أهوائهم وميولهم وعواطفهم.

---

(١) ج١٤، ص٤٤٨.

٥) ما كانوا عليه من أمِّيَّة مستقطبة.

٦) إطباق الجهل الذي كان عندهم وانعكاسه على ممارساتهم.

ومن أسباب قيمة الحديث من الإمام عليه السلام أنه البطل الذي واجه الجاهلية بسيفه فقتل أقطابها بين يدي الرسول، وبفكره فحارب بدعها وجهلها، وأرشد الطلاب الأعزاء إلى مراجعة فقرات خطبة الزهراء العصماء في حديثها -صلوات الله وسلامه عليها- عن هاتين النقطتين: تأريخ الجاهلية وبلاء أمير المؤمنين عليه السلام في صراعه معها.

وبعد هذه الإلمامة السريعة والعرض العاجل نحاول أن نستعرض بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال.

أ) قال عليه السلام في وصفه للاعتقاد في الجاهلية[١]:

«وأهلُ الأرضِ يومئذٍ مِلَلٌ متفرقة، وأهواءٌ منتشرة، وطرائقُ متشتتة، بين مشبِّهٍ للهِ بخلقِه، أو ملحدٍ في اسمِه، أو مشيرٍ إلى غيرِه»: فهذا جانب من جوانب الاعتقاد يعرض له أمير المؤمنين عليه السلام وأن أهل الجاهلية كانوا يقيسون الخالق بالخلق وهذا دليل ضآلة معرفتهم، وضعف معتقدهم ويكون انفعالهم معه بمستواه.

ب) وقال عليه السلام[٢]:

«والناسُ في فتنٍ انجذمَ فيها حبلُ الدين، وتزعزعت سواري اليقين،

---

(١) خ١، ص٤٤.

(٢) خ٢، ص٤٦-٤٧.

واختلف النَّجْرُ، وتَشَتَّتَ الأَمْرُ،... ونُصِرَ الشيطانُ، وخُذِلَ الإيمانُ، فانهارتْ دعائمُهُ، وتنكَّرَتْ مَعالِمُهُ، ودَرَسَتْ سُبُلُه، وعَفَتْ شُرُكُه،...»: وهذا وصف آخر للنظرة التوحيدية وما يتعلق بالإلهيات في تلك الفترة العصيبة التي انقطع فيها حبل الدين المتصل (انجذم)، وتزعزعت سواري (دعائم) اليقين واختلف النجر (الأصل والمنبت) فانهارت بسبب ذلك دعائم الإيمان وعفت (انطمست وخفيت) شركه (أي طرقه).

ثم يقول عليه السلام(١):

«في فِتَنٍ داسَتْهم بأخفافِها، ووَطِئَتْهم بأظلافِها، وقامتْ على سنابِكِها، فهم فيها تائهون... في خيرِ دارٍ وشرِّ جيران، نومُهُمْ سُهُودٌ، وكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بأرضٍ عالِمُها مُلْجَمٌ، وجاهِلُها مُكْرَمٌ»: فيشبِّه عليه السلام تلكم الفتن كالإبل تدوس بأخفافها، وكالبقر تطأ بأظلافها، وكالخيل تقوم على أطراف حوافرها (سنابكها)، فهم في بلاء شديد من هذه الفتن، هذا وهم في مكة خير دار، ولكنهم شر جيران لها وللبيت الحرام، ولقد كان عالمهم لا يستطيع التحدث بعلمه وأما جاهلهم فهم يكرمونه، وهذا تصوير دقيق لحال الجاهلية وما كانوا عليه من انعدام المقاييس والتخبط في الجهل.

ج) وتحدث عن الوضع الاجتماعي، فقال عليه السلام(٢):

«وأنتم معشرَ العربِ على شرِّ دينٍ وفي شرِّ دارٍ، مُنِيخُونَ بين حجارةٍ خُشْنٍ وحياتٍ صُمٍّ، تشربونَ الكَدِرَ، وتأكُلُونَ الجَشِبَ، وتسفِكُونَ دماءَكم، وتَقْطَعُونَ

---

(١) خ٢، ص٤٧.

(٢) خ٢٦، ص٦٨.

أَرْحَامَكُم، الأصنامُ فيكم منصوبة، والآثامُ بكم معصوبة»: يتحدث الإمام ﵇ هنا عن مجال آخر هو حياة الجاهلية وممارساتهم في معيشتهم واقتصادهم ويخص العرب بالحديث، بينما في النص الشريف السابق كان الحديث عن أهل الأرض، فالعرب وإن كان لهم دين فهو شر، وهم مقيمون في شر دار، وقد عبَّر عنها هناك بأنها خير دار باعتبار قدسية مكة وقدسية البيت الحرام، أما هنا فعبر عنها بأنها شر دار بلحاظ أهلها وما كانوا عليه، ومثال على ذلك أننا نقول إن ذلك البلد ناصبي بمعنى أن أهله نواصب، وإلاَّ فالأرض لا تكون ناصبية، وكانوا يشربون الكدر ويأكلون الجشب وهو الطعام الخشن أو الذي لا إدام فيه.

ثم يتحدث ﵇ عن شتات المجتمع بسفك الدماء وقطيعة الأرحام، وأخيرًا يشير إلى عبادتهم للأصنام ونصبها على الكعبة المشرفة بقعة التوحيد، وكذلك ممارستهم للآثام وأنها معصوبة (أي مشدودة بهم وملتصقة تمامًا).

د) وتحدث عن الأُمِّيَّة المستقطبة آنذاك، فقال ﵇[(١)]:

«إن اللهَ بعثَ محمدًا، ﷺ وليس أحدٌ من العربِ يقرأ كتابًا، ولا يدَّعي نبوَّة»[(٢)]: وهذه الأمية لها لوازمها ونتائجها لأن الكتابة والقراءة من الطرق المهمة للعلم والمعرفة، وإن لم تنحصر فيها، ومن المهمات التي قام بها النبي ﷺ أن بادر بالقضاء على هذه الأمية في أول أيام دولته المباركة في المدينة، فكان يطلب من أسارى المشركين الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يعلموا عشرة من صبية المسلمين ذلك، في مقابل إطلاقهم من الأسر، وهذه خطوة رائدة ومهمة في طريق

---

(١) خ٣٣، ص٧٧.

(٢) وقد ذكر الإمام ﵇ هذا المعنى أيضًا في الخطبة رقم١٠٤، ص١٥٠.

محـو الأميـة.

هـ) كـما تحـدَّث الإمـام عليه السلام عـن هـذه الجاهليـة، وهـو البطل الـذي حطمها بسيفه وفكره، فقـال عليه السلام(1):

«أرسـلهُ عـلى حيـنِ فـترةٍ مـن الرسـل، وطـولِ هجعـةٍ مـن الأمـم، واعتـزامٍ مـن الفتـن، وانتشـارٍ مـن الأمـور، وتلـظٍّ مـن الحـروب، والدنيـا كاسـفةُ النـور، ظاهـرةُ الغـرور، عـلى حـين اصفـرارٍ مـن ورقِهـا، وإيـاسٍ مـن ثمرِهـا، واغـورارٍ مـن مائِهـا، قـد دَرَسَـتْ منـارُ الهـدى، وظهـرت أعـلامُ الـردى فهـي متجهمـةٌ لأهلِهـا، عابسـةٌ في وجـهِ طالبِهـا، ثمرُهـا الفتنـة، وطعامُهـا الجيفـة، وشـعارُها الخـوف، ودثارُهـا السـيف فاعتـبروا عبـادَ الله»:

يصـوِّر الإمـام عليه السلام الحـروب وأنهـا كالنـار تتلظـى في تلـك الفـترة العصيبـة، كـما يصـوِّر الدنيـا بأنهـا كالشـجرة في الخريـف أوراقهـا صفـراء تتسـاقط، وقـد بلغـت مـن العمـر حـدًّا يـأس النـاس مـن ثمرهـا، وقـد غـار ماؤهـا وانقطـع.

و) وهكذا لا يكاد ينقطع حديثه عن هذه الفترة فمما قال عليه السلام(2):

«بَعَثَـهُ والنـاسُ ضُـلَّالٌ في حـيرةٍ، وحاطبـونَ في فتنـة، قـد اسـتهوتْهُمُ الأهـواء، واسـتزَلَّتْهُمُ الكبريـاء، واسـتخفَّتْهُمُ الجاهليـةُ الجهـلاء، حيـارى في زلـزالٍ مـن الأمـر، وبـلاءٍ مـن الجهـل»:

فالنـاس إذن حاطبـون في فتنـة أي كلهـم يشـارك فيهـا، وهـم في بـلاء مـن الجهـل

(1) خ٨٩، ص١٢١.
(2) خ٩٥، ص١٤٠.

فهو مستحكم على الأفكار وقد ملك كل حياتهم، واصطبغت حياتهم بصبغة الجهل والتنكر لكل القيم والمعارف.

ز) وقال عليه السلام[1]:

«أضاءت به البلادُ بعد الضلالةِ المظلمة، والجهالةِ الغالبة، والجفوةِ الجافية، والناسُ يستحِلُّونَ الحريم، ويستذِلُّون الحكيم، يحيَونَ على فَتْرَةٍ، ويموتونَ على كَفْرَةٍ»: فهم يستحلون المحرمات، ويعيش صاحب الحكمة والروية بينهم ذليلاً لأنه لا يسايرهم فيما يعملون، وهذا غاية في الضعة وانعدام المقاييس، وبالفعل كان مصداق ذلك المعاملة التي تعاملوا بها مع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ فقد عاملوه بكل قسوة من أذى بالقول والفعل، وأما حياتهم فقد كانت خالية من الشرائع منقطعة من الرسالات السماوية، وهم نتيجة لذلك يموتون على الكفر.

ح) نعرض فيما يلي نصين آخرين يمكن لمن يريد أن يتوسع في الدرس بمطالعة شرح النصين في كتب الشروح للنهج.

النص الأول[2]:

«أَظْهَرَ به الشرائعَ المجهولة، وقَمَعَ به البِدَعَ المدخولة، وبيَّنَ به الأحكامَ المفصولة، فمن يبتغِ غيرَ الإسلامِ دينًا تتحققْ شِقْوَتُه...».

النص الثاني[3]:

(١) خ١٥١، ص٢١٠.

(٢) خ١٦١، ص٢٣٠.

(٣) خ١٩٢، ص٢٩٧-٢٩٨.

«لا يـأوون إلى جنـاحِ دعـوةٍ يعتصمـون بهـا، ولا إلى ظـلِّ أُلفـةٍ يعتمـدونَ عـلى عزِّهـا، فالأحـوالُ مضطربـة، والأيـدي مختلفـة، والكثـرةُ متفرقـة، في بـلاءِ أزْلٍ، وأَطبـاقِ جَهْـلٍ، مـن بنـاتٍ مـوؤودة، وأصنـامٍ معبـودة، وأرحـامٍ مقطوعـة، وغـاراتٍ مشـنونة».

هـذا بعـض مـا حدثنـا بـه أمـير المؤمنـين عليه السلام مـن أمـر الجاهليـة، ويكـون تتميـم هـذا البحـث في الـدرس القـادم -إن شـاء الله تعـالى- بذكـر النجـاح العظيـم الـذي حققـه النبـي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوتـه وصراعـه مـع الجاهليـة.

٢٤) نـجاح الدعوة

أولاً: مدخل

قال الله العظيم في محكم كتابه الكريم:

﴿هُـوَ الـذي بَعَـثَ في الأُمِّيِّـينَ رَسُـولًا مِنْهُـمْ يَتْلُـو عَلَيْهِـمْ آياتِـهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُـمُ الكِتـابَ والحِكْمَـةَ وإِنْ كانُـوا مِـنْ قَبْـلُ لَفِـي ضَـلالٍ مُبِـينٍ﴾[1].

درسنا يـدور -إن شـاء الله تعـالى- حـول النقطـة الثالثـة التـي وعدنـا بهـا وهـي نجـاح النبـي في دعوتـه، وحينـما نقـارن بـين واقـع الجاهليـة ومـا كانـوا عليـه مـن تخبُّـط وضـلال وانحـراف كبـير، وبـين حـال النـاس بعـد تلـك الفـترة الوجيـزة التـي قـام فيهـا النبـي داعيًـا إلى الله تعـالى مجاهـدًا مخلصًـا حتـى أحـدث ذلـك التحـول العجيـب- فـلا شـك أننـا نقـف عـلى نجـاح هـو في حـد ذاتـه معجـزة قدَّمهـا النبـي ﷺ دليـلًا عـلى صـدق دعوتـه.

وقـد صـوَّر لنـا أمـير المؤمنـين عليه السلام كـما مـرَّ وضـع النـاس قبـل البعثـة في جاهليتهـم، وهـو هنـا يصـوِّر لنـا النجـاح الكبـير الـذي حققـه النبـي بدعوتـه المباركـة.

وكلامـه عليه السلام ثـريٌّ جـدًّا في كل هـذه المجـالات، كيـف لا وهـو البطـل الفـرد الـذي واكـب الدعـوة مـن أولهـا ورأى النجـاح الباهـر الـذي اسـتمر وواكبـه الإمـام بعـد رحلـة الرسـول الأعظـم إلى الرفيـق الأعـلى بفـترة طويلـة، إذن فهـو أعظـم مـؤرخ

(١) سورة الجمعة / ٢.

وأصدق متحدث عن الفترات السابقة والمواكبة واللاحقة للبعثة المباركة، وهذا ما سنقف عليه من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام التي اخترنا هنا بعضها لتكون كاشفة عن هذا النجاح الإلهي الخاص الذي غيَّر العالم وأخرج الدنيا من الظلمات إلى النور.

ثانيًا: النجاح الكبير

أ) تحدث عن هذا النجاح فقال عليه السلام(1):

«فهَداهُمْ بهِ مِنَ الضَّلالةِ، وأنْقَذَهُمْ بمكانِهِ مِنَ الجَهالة»: أمير المؤمنين عليه السلام هو أمير البلغاء وربُّ الكلام، فهو هنا يقول إن الرسول قد هدى الناس، وهذا يستدعي أنهم كانوا على ضلالة، (وأنقذهم) وهذا يعني أنهم كانوا في مأزق وفي غاية المحنة والبلاء بسبب جاهليتهم، وتركيز الإمام على الجهل باعتباره مصدر البلاء والدمار، وقد استخدمت الزهراء عليها السلام أيضًا هذا التصوير: «فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ بأَبِي محمد»، فالدنيا إذن كانت في مأزق حتى أُنْقِذَت ببركة النبي صلى الله عليه وآله وعطاء دعوته.

ب) وقال عليه السلام عن ذلكم الإنجاز العظيم(2):

«فَسَاقَ الناسَ حتى بوَّأَهم مَحِلَّتَهُمْ وبلَّغَهُمْ مَنْجاتَهُمْ، فاستقامتْ قناتُهم واطْمَأَنَّتْ صَفاتُهُمْ»: وكأنما الناس رعية يحتاجون إلى من يسوقهم سوقًا وليس مجرد إرشادهم، بل لعلَّ الإمام يقصد من قوله (فَسَاقَ) أن الناس كانوا بما هم فيه من جهلٍ وخلوٍّ من الشرائع، وبما كانوا يمارسونه، كانوا كالأنعام بل هم أضل

(1) خ1، ص44.

(2) خ33، ص77.

سبيلًا، فساقهم سوقًا إلى المحل الذي يجدر بهم أن يكونوا فيه.

«وبلَّغهم منجاتَهم»: فقد كانوا على جانب من الهلكة في اعتقادهم وأخلاقهم وسلوكهم، وقد أسند الإمام هذا السَّوق وهذا التبليغ إلى النبي مباشرة باعتباره صاحب الدعوة الأول الذي قاد الناس وشملهم برعايته، وإن كان الله تعالى هو مصدر كل خير وأساس كل عطاء، وكان نتيجة هذا العمل من النبي أن استقامت قناة الناس وهي الرمح أو العمود والذي لا يُنتفع به ما لم يكن مستقيمًا وذلك كناية عن اتجاه الأمة إلى الوجهة الصحيحة وتبدل انحرافها إلى هذه الاستقامة، وكذلك (اطمأنت صَفاتهم) وهي الأرض الصلبة فهي مطمئنة يستقرون عليها، كناية عن استقرار جميع شؤونهم وما يتعلق بدينهم ودنياهم.

ج – وقال عليه السلام متحدثًا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[1]:

«قد صُرِفَتْ نحوه أفئدةُ الأبرار»: فالله تبارك تعالى هو المالك لأزِمَّة القلوب والماسك برغبات الخلائق، فبعد ذلك البلاء والجاهلية ينبعث رجل مفردًا يتحدى الناس أنهم على باطل وهو على الحق، ويصمد أمام جميع المغريات والتحديات، فتستجيب الناس له حتى ينقلب أعداؤه أعوانًا له يستحيون من النظر إليه لما أساؤوا في حقه، وأما (الأبرار) الذين يملكون العقل والصفاء فقد مالوا بقلوبهم إليه بعد أن كانت شؤونهم بعيدة عنه، فأصبح الرسول أحب إليهم من أنفسهم وقاتلوا دونه حتى آباءهم كما حصل في حروب الإسلام الأولى.

«وثُنِيَتْ إليه أزِمَّةُ الأبصار»: فهي لا تشخص إلا إليه ولا ترنو غيره.

---

(١) خ٩٦، ص١٤١.

«دفنَ اللهُ بـه الضغائِنَ، وأطفأَ بـهِ الثوائِـر»: وهـذا تعبيرٌ راقٍ جـدًّا، فقـد عـبَّر عن ضغائن الجاهلية بأنها دُفِنت أي لم يعد لها أثرٌ يُرَى، وكأنها لم تكن أصلًا فهي مُودَعـةٌ في الـتراب، وكذلك الثوائر الهائجة بالنار أُطفِئَتْ، وهـذه جهـة مـن جهات النجـاح.

ثم يقول عليه السلام:

«ألَّـفَ بـه إخوانًـا وفـرَّقَ بـه أقرانًـا»: وقـد نسـب الإمـام عليه السلام هـذه الأمـور لله تعالى لأنه المالك والمدبر الحقيقي لها، والنبي صلى الله عليه وآله بما يحمل من عطاء وكمال هو المنفذ لها، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١)، (وفـرَّقَ بـه أقرانًـا) كانـوا متحدين على أمر الباطل، فهو إذن يفرِّقهم عما ينبغي أن يتفرقوا عنه ويجمعهم على ما ينبغي أن يجتمعوا عليه، ولهذا قال عليه السلام مبينًا نتيجة ذلك:

«أَعَزَّ بـهِ الذِّلَّـةَ، وأَذَلَّ بـهِ العِزَّةَ»: فكم من فقير ووضيع لا يُحسب له حساب وإذا به يُرفعُ له شأن، فهذا بلال الحبشي لم يكن عند ذلك المجتمع شيئًا يذكر وإذا به هو -رضوان الله تعالى عليه- يصعد سطح الكعبة مدويًا بالأذان وبذكر الله ورسوله، وأما أبو لهب فقد كان شريفًا في قومه بل كان عمًّا لرسول الله، وإذا به يصبح وضيعًا وسُبَّةً على ألسنِ البشر في قرآنٍ يُتلى آناء الليل وأطراف النهار.

د) وكما قدَّمنا فإن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ثري جدًّا في هذا المجال وهو يحكي ترجمة صادقة لأنها عن معاينة واطلاع على أحداث الدعوة التي كان الإمام

---

(١) سورة الأنفال / ٦٣.

في صميمهـا، فهـو يقـول عليه السلام[1]:

«يسوقُهم إلى منجاتِهم؛ ويبادرُ بهم الساعةَ أَنْ تنزِلَ بهم»: فهو في غاية الخوف عليهم والرحمة بهم أن تنزل بهم الساعة أو يموتون وهم على ضلالهم.

«يحسرُ الحسير، ويقِفُ الكسير، فيقيم عليه حتى يلحِقَه غايتَه، إلا هالِكًا لا خيرَ فيه»: فبعضهم يحسر أي يكل ويتعب فيقف، وبعضهم يقف لأنه مكسور، وهذا كناية عن الذي يضعف إيمانه فلا يسير بل يتردد في طريق الحق ويقف، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله يُعنى ويرعى هؤلاء الضعاف في الاعتقاد، فيصلح شأن الضعيف والمكسور، ثم يلحقه بالركب حتى يبلغ غاية النجاة.

وهذا ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وآله من الأناة والحلم وتحمل الجهد الشديد في سبيل الدعوة وهداية الناس، وأما من يضل ويرفض الحق فيهلك فإنما هو باختياره وليس من الرسول أدنى تقصير بعد أن تحمل غاية الجهد والبلاء في سبيل الدعوة.

«حتى أَرَاهُمْ مَنْجاتَهُمْ وبَوَّأَهُمْ مَحِلَّتَهُمْ فاستدارتْ رَحاهُمْ واسْتَقامَتْ قَناتُهُمْ»: فأوصلهم إلى النجاة فرأوها، وجعلهم في المحل الذي يجدر بهم أن يكونوا فيه، فجرت رحاهم جريها الطبيعي وهذا كناية عن استقامة جميع أمورهم ببركة دعوته.

هـ) وقال عليه السلام[2]:

---

(١) خ١٠٤، ص١٥٠.

(٢) خ١٥١، ص٢١٠.

«أضاءت به البلادُ بعد الضلالةِ المظلمة، والجهالةِ الغالبة، والجفوةِ الجافية»: وهذا تذكير وتكرار لمعان سابقة؛ فالبلاد كانت في ظلام الضلال، وكان الجهل متفشيًا غالبًا، فإذا بالبلاد تشرق بنور دعوته ﷺ.

و) وقال عليه السلام[1]:

«فبَلَّغَ الرسالةَ صادعًا بها، وحمل على المحجةِ دالًّا عليها، وأقامَ أعلامَ الاهتداءِ ومنارَ الضياءِ، وجعل أمراسَ الإسلامِ متينةً، وعُرا الإيمانِ وثيقةً»: فقد جهر بالدعوة وقام بها خير قيام، ودل الناس على المحجة (الطريق) التي توصل للحق، وجعل أمراس (حبال) الإسلام متينة، ولم يجعل للإيمان عرا وحسب، بل جعلها وثيقة، وهذه الجمل وغيرها بيان من الإمام عليه السلام إلى أن الدعوة لم تنجح وحسب؛ بل كان نجاحها باهرًا وهو في حدِّ ذاته معجزة بل هو أول المعجزات.

ز) وأشار إلى الإصلاح الاجتماعي فقال عليه السلام[2]:

«فانْظُروا إلى مواقعِ نِعَمِ الله عليهم حين بَعَثَ إليهم رسولًا فَعَقَدَ بمِلَّتِهِ طاعتَهم، وجَمَعَ على دعوتِه أُلْفَتَهم»: يتخذ الإمامُ عليه السلام -هنا- أسلوبًا إلى الحسِّ أقربَ منه إلى الفكر فيأمرهم بالنظرِ إلى النعمِ الظاهرةِ برسولِ الله ﷺ، وكيف أصبح من بُعث فيهم مطاعين من قبل العالمين، وألَّف بينهم تحت ظل دعوته، بعد أن كانوا شرارًا في علاقتهم ببعضهم، وفي علاقتهم مع الناس.

«كيف نَشَرَتِ النعمةُ عليهِمْ جناحَ كرامتِها، وأسالت لهم جداولَ نعيمِها...»:

---

(1) خ١٨٥، ص٢٧٠.

(2) خ١٩٢، ص٢٩٨.

وهـذا تعبير عـن كثرة النعم وتشعبها فهي كالجدول.

«قـد تَرَبَّعَـتِ الأمـورُ بِهِـمْ في ظـلِّ سـلطانٍ قاهـر...»: وهـو حكـم الله تعـالى، فهـم التجـأوا إلى سـلطان يكـون الحكـم فيـه لله وليـس للأهـواء أو رؤسـاء العشـائر أو غيرهـم.

«فهـم حُـكَّامٌ عـلى العالمين، وملـوكٌ في أطـرافِ الأَرَضِـين، يملكـونَ الأمـورَ عـلى مـن كان يملكُهـا عليهـم... لا تُغمَـزُ لهـم قنـاةٌ، ولا تُقْـرَعُ لهـم صَفـاةٌ»: فبعـد أن كانـوا شراذمَ مفككـين، نهبة الناهـب وطعمـة الطامـع، أصبحـوا حكامًـا وملـوكًا وكانـوا محكومـين ومملوكـين، لا سيَّما وأن حديـث الإمـام عليه السلام كان في زمـنٍ كثـرت فيـه الفتوحـاتُ، فيكـون حديثـه عـن أمـرٍ محسـوسٍ يلاحظـه الجميـع، وبغـض النظـر عـن شرعيـة الفتوحـات وسـلبياتها فإنهـا كانـت باسـم الإسـلام ولذلـك نجحـت، فهـي ليست نتيجةً لعبقريـةِ أبي بكـر وعمـر وشـجاعتهما! بـل هـي نتيجـة لـروح النبـي وروح الإسـلام المهيمنـة في بدايـة الدعـوة، وهـذا الأمـر نلاحظـه حتـى في زماننـا هـذا فنجـد في أقصى البـلاد وشـتى الأقطـار وجـودًا للمسـلمين؛ وهـذا كلُّـه بفضـل جهـدِ النبـيِّ وبـركات دعوتـه صلى الله عليه وآله.

ح) وقـال عليه السلام(١):

«جَعَلَـهُ اللهُ بلاغًـا لرسـالتِه، وكرامـةً لأُمَّتِـه، وربيعًـا لأهـلِ زمانِه، ورِفْعَـةً لأعوانِه، وشَرَفًـا لأنصـارِه»: فـكل فضـل عـاد للأمـة مـن علـم واطـلاع عـلى خـبر السـماء والمـلأ الأعـلى، وواقـع الدنيـا وأخبـار الماضـين، وهـذا التشريـع والقانـون الإلهـي، إنـما هـو

(١) خ١٩٨، ص٣١٥.

ببركـة دعـوة الرسـول ﷺ وهـذا مصـداق الكرامـة والرفعـة والـشرف.

عليكَ بأربابِ الصدورِ فمن يُرَى　　　مضافًـا لأربـابِ الصـدورِ تصـدَّرَا

فإنما شرفهم كان لانتسابهم إليه ووجوده الشريف بينهم.

وكان زمانـه ربيعًـا خصبًـا مميزًا، ولـو أخـذَ النـاسُ بهديـهِ مـن بعـدهِ لعاشـوا في ربيـع دائـم.

ط) وقال عليه السلام(١):

«أَرْسَـلَهُ بالضيـاءِ، وقدَّمَـهُ في الاصطفـاء، فَرَتَـقَ بِـهِ المفاتِـق، وسـاورَ بـهِ المُغالِـبَ...»: أي رتـق (سـدَّ) بـه مـا كان شـائعًا مـن (مفاتـق) وهـي الفسـاد القائـم.

«حتى سرَّح الضـلالَ عـن يمـينٍ وشِـمالٍ»: نتيجـة للغلبـة والنـصر المبين دحـر الضـلال فـولى مهزومًـا عـن يمـين وشـمال.

ي) نعرض هنا نصين يمكن للطالب أن يراجع شرحيهما في كتب الشرح.

النص الأول(٢):

«... عـلى محمـدٍ عبـدِك ورسـولِك الخاتـمِ لمـا سـبق» إلى قولـه: «ورسـولَكَ إلى الخلـق».

---

(١) خ٢١٣، ص٣٣٠.

(٢) خ٧٢، ص١٠١.

النص الثاني[1]:

«فصدَعَ بما أُمِرَ به، وبلَّغَ رسالاتِ ربِّه» إلى قوله: «والضغائنِ القادحةِ في القلوب».

ثالثًا: خاتمة

لا بأس أن نختم حديثنا بكلمة لأحد الفلاسفة المشهورين؛ وإن كنتُ -فيما أرى دائمًا- أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى أن نستعير كلمات فلاسفة أو مفكرين أجانب للتعريف بالنبي أو الإمام أو القرآن الكريم، فشواهد الصدق ودلائل الحق واضحة، وليس بعد قول الله تعالى قولٌ لقائل، ولكن نذكر هذه الكلمة على وفق سيرة الناس وطبعهم وأنهم يرتاحون ويأنسون بمثل هذه الأمور.

فإن الكاتب العالمي الشهير برنارد شو يقول:

«إن محمدًا يجب أن يدعى منقذَ الإنسانية؛ وأعتقد أنه لو تولى رجلٌ مثلُه زعامةَ العالمِ الحديثِ لنجحَ في حلِّ مشاكلِه بطريقةٍ تجلِبُ إلى العالمِ السعادةَ والسلامة، إن محمدًا أكملُ البشرِ من السابقينَ والحاضرينَ، ولا يُتَصَوَّرُ وجودُ مثلِهِ في الآتين». وقال أيضًا: «لو كان محمدٌ في القرنِ العشرينَ لقضى على ما فيه من فسادٍ وضلال»[2].

---

(١) خ٢٣١، ص٣٥٣.

(٢) في ظلال نهج البلاغة، للشيخ محمد جواد مغنية ١/ ٦٣، ٣٥٥.

٢٥) الدرس العظيم

مدخل

قالَ اللهُ العظيمُ في محكمِ كتابِهِ الكريم:

﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَومٍ يوقِنون﴾(١).

تحدثنا في الدروس الأخيرة الماضية عن الجاهلية وما كان عليه حال الأمم قبل الإسلام، وتحدثنا عن النجاح العظيم الذي حققه ذلك النور الإلهي المتمثل في دعوة النبي ﷺ، ويأتي هذا الدرس الأخير في هذه السلسلة وهو ما وعدنا به من الحديث عن الدرس العظيم الذي نستلهمه ويجدر بنا أن نأخذ به من هذه السيرة المباركة، وقصة نجاح الدعوة، ونؤكد مجددًا أن هذا كله يدور في فلك كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال، فقد تحدث عليه السلام عما لاحظه من انقلاب الموازين، وضياع الأمة خاصة في الفترات الأولى لرحيل النبي ﷺ.

أولاً: معنى الجاهلية

إن تحديد معنى الكلمة يمكّننا من الفهم الصحيح لمدلولها، ونستعير هنا معنى الكلمة من حديث للعلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه (بين الجاهلية والإسلام)، فقد قال: «والحقيقة أن الجاهلية اسم للضلال والانحراف عن المُثُلِ الصحيحة والمناهج المستقيمة لدى أي عنصر من الناس وفي أي موطن

(١) سورة المائدة / ٥٠.

وأي زمان، فهي صفة لعالم ما قبل الإسلام كله بما فيه من عرب وغيرهم، وهي أيضًا صفة للمبادئ والمثل التي تبشر بها المادية المعاصرة على اختلاف مظاهرها وأشكالها»[1]، وبتعريف ملخص يذكر -حفظه الله تعالى- أن الجاهلية «منهج في الحياة مقابل ومضاد لمنهج الإسلام»[2].

وكذلك يتحدث عن الجاهلية الحديثة ويرى أنها تتمثل في فلسفة وفكر وحياة ونظام الإنسان الأوروبي فيما اختارَهُ من مَدَنِية وتنكَّرَ لجميع القيم والمبادئ، بل إن كل نمط يمارسه حتى المسلم أو المؤمن ويحمل في طياته مخالفة شرعية فإنه يرجع بالتالي إلى الجاهلية، والشيخ شمس الدين يستعين بالآيات القرآنية على هذا المدلول الواسع، وهذا نمط رائع لدراسة فكرة ما من ناحية موضوعية، بالتماس النصوص القرآنية والروايات ثم الخروج منها بنتيجة صحيحة.

ثانيًا: الدرس العظيم

رأينا في الدروس السابقة حديث الإمام (عليه السلام) ومقارنته بين مظاهر الجاهلية ثم تبدل الحال بعد الدعوة المباركة للنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونحن نبني أمرنا في الاعتقاد والفقه والتأريخ وفي سلوكنا وسائر شؤون حياتنا وفي عموم أبعادها على هذا الدين القويم الذي نؤمن به ونؤمن أنه أخرج الناس من ظلمات الجهل والجاهلية إلى نور العلم والهداية، ثم بعد ذلك ننظر واقعنا فإذا نحن نتنكر له ونغض الطرف عنه وهو النور الذي أبصرناه بل أبصرنا به، وهو مصدر سعادتنا وسر حياتنا الحقة، ولا شك أَنَّ تنكرَ أعداء الإسلام له هو جهل لأن ذلك حرمان

(١) بين الجاهلية والإسلام/ ١٩.

(٢) بين الجاهلية والإسلام/ ٢٣٧.

لهم من مصدر السعادة، فكيف بتنكُّرِ أبناءِ الإسلامِ للإسلام؟

هذا هو الدرس العظيم الذي يجب أن نناجي به أنفسنا وهذه هي نعمة الهداية التي ينبغي أن نلتفت لها ونصونها، وهذا هو التشريع الذي لولاه لكنا عبادًا للأصنام أو خاضعين لحكومات تعبث بمقدراتنا، وهذا هو التشريع الذي كان نتيجة الدعوة والبلاء العظيم الذي قدمه النبي ﷺ، إذن فنحن جميعًا مدعوون لتقييم أنفسنا بعد هذا النجاح العظيم الذي حققته الدعوة حتى أذعن لها أهل الجاهلية فسعدوا بها، فلا يليق بنا أن يكون أهل الجاهلية أسعد منا ونحن الذين نشأنا منذ البداية على تعاليم الدعوة المباركة ثم بعد ذلك نتنكَّر لها ونعرض عنها ويكون ما أخذناه منها شيئًا يسيرًا لا يكاد يذكر في قبال ما تركناه منها.

ثالثًا: هكذا تحدث أمير المؤمنين عليه السلام

أ) قال عليه السلام عن مأساة ما بعد الرسول ﷺ(١):

«حتى إذا قَبَضَ اللهُ رسولَهُ ﷺ رجَعَ قومٌ على الأعقاب، وغالتْهُمُ السُّبل، واتَّكَلُوا على الولائج، ووصَلُوا غيرَ الرَّحِم، وهَجُروا السببَ الذي أُمِرُوا بمودَّته، ونقلوا البناءَ عن رَصِّ أساسِهِ فبنوهُ في غيرِ موضعِه»: فقد ارتدوا بعد النبي إلى الجاهلية، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وما محمدٌ إلاَّ رسولٌ قد خلتْ من قبلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُمْ على أعقابِكُمْ ومن يَنْقَلِبْ على عَقِبيهِ فلن يضُرَّ اللهَ شيئًا وسيجزِي اللهُ الشاكرين﴾(٢).

---

(١) خ١٥٠، ص٢٠٩.

(٢) سورة آل عمران / ١٤٤.

ونتيجةً لهذا الرجوع غالتهم أي قتلتهم السبل وهي المذاهب والآراء والأهواء التي اتبعوها، ثم برزت مظاهر الانحراف فاتكلوا على الولائج وهي بطانة الرجل وخاصته ويقصد بهم من يدبرون المكر والخديعة، ثم وصلوا غير الرحم الذي أمر الله به أن يوصل وهم رحم رسول الله ﷺ فقطعوا بذلك صلتهم برسول الله الذي هو مصدر سعادتهم، وأما السبب فهو الحبل وهم العترة الذين أُمِروا بمودتهم وهذا إشارة إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، فقد هجروهم ونقلوا البناء الذي بناه النبي بأوامر إلهية، فوضع الإمامة في موضعها المهم في بناء الإسلام ولكن الناس أزاحوها وأبعدوها «فلعنَ اللهُ أمةً أَزَالَتْكُمْ عن مَراتِبِكُمُ التي رَتَّبَكُمُ اللهُ فيها».

نقاش

ذكر ابن أبي الحديد عند شرحه لهذا النص الشريف[2] أنه إذا أطلقت كلمة (الرحم) كان المراد بها رحم الرسول ﷺ تمامًا كما إذا أطلقنا عبارة (أهل البيت) فيَفْهَمُ منها المسلمون أنهم أهل بيت رسول الله ﷺ، أما السبب فمعناه الحبل وهو إشارة إلى قول رسول الله ﷺ: «إني تاركٌ فيكمُ الثَّقَلينِ: كتابَ الله وعترتي أهلَ بيتي، حبلانِ ممدودانِ من السماءِ إلى الأرضِ وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض».

ثم يتساءل ابن أبي الحديد: هل في كلمات الإمام عليه السلام هنا دلالة على موضوع الإمامة ونقد من تولى الحكم قبله، أو أنه ليس فيها ذلك، وكأنه يعترف بأن ظاهر

---

(١) سورة الشورى / ٢٣.

(٢) نهج البلاغة ٩/ ١٣٢.

الكلام هو هذه الدلالة ثم يحاول أن يصرفه ويقول إن الإمام يعني أمر صفين والجمل وما فعلته مجموعة أخرى كعمرو بن العاص وبسر بن أرطاة ومروان بن الحكم وهذه الشاكلة، ثم يعترض على نفسه بأنه يفهم من كلام الإمام أنه يعني الأيام الأولى عقيب رحلة النبي ﷺ، ويجيب ابن أبي الحديد بأن الإمام عليه السلام لعله كان يعلم بحقيقة أولئك وأنهم ليسوا مسلمين حقيقة بل ظاهرًا فقط ويعلم ما سيحدثونه من ضلال.

ومن المفيد مراجعة الفصل المتعلق بشرح هذا النص الشريف في كتاب (منهاج البراعة) للميرزا حبيب الله الخوئي رحمه الله فإنه ناقش ابن أبي الحديد في هذا الموطن مناقشة دقيقة، فبيّن الميرزا أن هذا خلاف الإطلاق وخلاف الظاهر من كلام الإمام عليه السلام وفي ذلك تحميل للنص ما لا يحتمله، لا سيما وأن كلمات الإمام التي صرح فيها بنقده للقوم وتأذيه من أحداث السقيفة، تلتقي مع هذا النص الشريف.

«معادنُ كلِّ خطيئة، وأبوابُ كلِّ ضاربٍ في غَمْرة، قد مارُوا في الحَيرة، وذَهَلُوا في السَّكْرة، على سُنَّةٍ من آلِ فرعون: مِنْ مُنْقَطِعٍ إلى الدنيا راكِن، أو مُفَارِقٍ للدينِ مُبايِن»:

ثم يصف هؤلاء الذين عادوا للجاهلية عقيب ذلك النور والهداية والبلاء الحسن الذي أبلاه الرسول ﷺ، فإن كان الأوائل معذورين لجهلهم فما عذر من أبصر نور الإسلام ثم ارتد عنه؟ فهم قد ركبوا كل غمرة (شدة) وماروا (اضطربوا) في الحيرة وذهلوا في السكرة وهي الغفلة التي أصابتهم، ثم يشبِّهُ الإمام عليه السلام ويقرن ضلالهم الجسيم بضلال آل فرعون، فهؤلاء بانصرافهم عن

النبوة والقانون الإلهي كآل فرعون المنكرين من الأساس للنبوة والقانون الإلهي، ثم يصنفهم هذا التصنيف: فهم بين (منقطع) قد جعل الدنيا همه الذي يركن إليه ولا يُعنى بالدين على الإطلاق، أو (مفارق) للدين ولم ينل مع ذلك شيئًا من الدنيا ﴿خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ذلكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبِينُ﴾[1].

ب) وأكّد على الاستفادة من الدرس العظيم فقال عليه السلام[2]:

«ولا تكونوا كجفاةِ الجاهليةِ لا في الدينِ يتفقَّهون، ولا عنِ الله يعقِلون، كقيضِ بيضٍ في أَداحٍ، يكون كسرُها وزرًا، ويخرِجُ حضانها شرًّا»:

تشبيهات الإمام عليه السلام غير مبتذلة بل هي تشبيهات أصيلة يبتكرها الإمام نفسه عليه السلام، وقد اختلفت كلمات جملة من الشراح حول هذا النص الشريف، فيقول بعضهم إن الإمام يشبِّه الذي يحمل الفكر الجاهلي سواءً كان مؤمنًا منحرفًا أو أهل الجاهلية أنفسهم بأنهم أمثلة شر في وجودهم، وهم تمامًا كمثل البيض الذي لا يعرف الإنسان هويته فقد يكسره وهو مفيد ويؤذي كائنًا وجوده خير، وقد يتركه ليُحضن فيتضح بعد ذلك أنه يخرج شرًّا كأن يكون بيضَ أفاعٍ مثلًا، فلو قتل الجاهلي لربما كان ذلك وزرًا إذ ربما يهتدي، ولو ترك فقد يفسد وينشر الدمار، وبالفعل لا يكشِفُ عن حال المرء إلا أفعاله ومواقفه، وهي لا تُعرف إلا بعد حين.

ج) وحذر من رموز الجاهلية وطغاته فقال عليه السلام[3]:

---

(1) سورة الحج / ١١.

(2) خ١٦٦، ص٢٤٠.

(3) خ١٩٢، ص٢٩٠.

«ألا فالحذرَ الحذرَ من طاعةِ ساداتِكم وكبرائِكم! الذين تكبَّروا عن حسبِهم، وترفَّعُوا فوق نسبِهم، وألقوا الهجينةَ على ربِّهم، وجاحَدُوا اللهَ على ما صنع بهم مكابرةً لقضائِه، ومغالبةً لآلائِه، فإنهم قواعدُ أساسِ العصبية، ودعائمُ أركانِ الفتنة، وسيوفُ اعتزاءِ الجاهلية»:

فإنهم دائمو الفخر بالأنساب (الاعتزاء)، فمن يركن إلى ذلك من المسلمين فإنه على نمط أهل الجاهلية.

د) وإن كان هذا النص خارج دائرة موضوعنا (الدرس العظيم)، إلا أن له ارتباطًا بالرجوع إلى الجاهلية بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله[1]:

«وقال له بعض اليهود ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه! فقال عليه السلام له: إِنَّما اخْتَلَفْنا عنهُ لا فيه، ولكنَّكُمْ ما جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ البَحْرِ حتى قُلْتُمْ لنبيِّكُمْ اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ فقال إِنكم قومٌ تَجْهَلُون»: وهذه المناظرة تسجل حقيقة أيضًا وهي أن الاختلاف في أمر الخلافة وسرعة الارتداد بعد الرسول كان مثارًا للانتباه والسؤال وموجبًا لشماتة وفرح أعداء الإسلام وعلى رأسهم اليهود، والإمام يجيبه هنا بأننا لم نختلف في شخصية النبي وفي وجوب الأخذ بما جاءنا به وامتثال أوامره، ولكن سبب الاختلاف كان ما نقله بعضهم كذبًا وافتراءً على النبي فأخذ به الناس ظنًّا منهم أنه صدر عن النبي، والإمام في نفس الوقت لم يدافع عن الذين سببوا الاختلاف والفتنة هنا، وقد صدر منه من النقد الصريح لهم ما هو معروف.

(١) غريب كلامه عليه السلام رقم٣١٧، ص٥٣١.

هـ) ويدخل في هذا السياق قوله عليه السلام[1]:

«إن أولى الناسِ بالأنبياءِ أَعْلَمُهُمْ بما جاؤُوا به، ثم تلا: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، ثم قال: إِنَّ وليَّ محمدٍ مَنْ أطاعَ اللهَ وإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُه، وإِنَّ عدوَّ محمدٍ مَنْ عصا اللهَ وإِنْ قَرُبَتْ قرابتُه»: فإن مصداق اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الالتزام بأوامره ونواهيه، وأما غير ذلك فهي الجاهلية.

نسأل الله أن يهدينا بهدايته وأن يوفقنا لاتباع نهج محمد وآله وسلوك طريقهم المستقيم.

---

(١) الحكمة رقم٩٦، ص٤٨٤.

(٢) سورة آل عمران / ٦٨.

٢٦) الإسلام

مدخل

قالَ اللهُ العظيم في محكَمِ كتابِهِ الكريم:

﴿إِنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[١].

حديثنا الآتي يدور حول الإسلام كما تحدث عنه بطل الإسلام الأول أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه العظيم، ويقع هذا الحديث في حلقتين إن شاء الله تعالى، ففي هذا الدرس نستعرض أربع نقاط هي:

١) نسبة الإسلام وتعريفه.

٢) ضلال البشر وحيرتهم إذا اتبعوا أهواءهم.

٣) الله تعالى هو مصدر الدين، ودعامتا الدين هما الشهادتان.

٤) محاسن الدين ومقاصده.

والعلاقة بين هذه النقاط وثيقة، لأن ضلال البشر هو باتباع أهوائهم وكون الله تعالى ليس مصدر الدين الذي يأخذون به، أما إذا كان الله تعالى هو مصدر الدين ففي ذلك الهدى والنجاة، ثم نعرض بعد ذلك لمحاسن الدين وتتمة لها

(١) سورة آل عمران / ١٩.

نستعرض في الدرس القادم إن شاء الله تعالى بعض تشريعات الإسلام.

أولاً: نسبة الإسلام وتعريفه

الإسلام بالمعنى اللغوي هو الاستسلام والانقياد والطاعة وتتمثل في الخضوع لهذا الدين العظيم، وفي الاصطلاح يقصد بالإسلام ما ينطبق على من شهد الشهادتين من أحكام ككونه طاهرًا تحل مناكحته وذبيحته وما إلى ذلك من أحكام، غير أن المعنى الأعمق والأهم هو الإسلام الكامل الذي يرقى إلى عنوان الإيمان بمعنى أن يصل إلى مرتبة التطبيق العملي الكامل للإسلام في كل مناهجه التي تعود إلى الدين والدنيا وتتصل بالآخرة، وقد نسب الإمام ﷺ الإسلام نسبة بيَّن أنه انفرد بها حيث عرَّف الإسلام التعريف الكامل، وذلك قوله ﷺ[1]:

«لأنسِبَنَّ الإسلامَ نِسْبةً لم ينسِبْها أحدٌ قبلي، الإسلامُ هو التسليم، والتسليمُ هو اليقين، واليقينُ هو التصديق، والتصديقُ هو الإقرار، والإقرارُ هو الأداء، والأداءُ هو العمل».

وهذه نسبةٌ خاصة وصلت كما بيَّنَّا إلى مرتبةِ التطبيق العملي الكامل للإسلام، فقد شمل مسمى (مسلم) كلَّ من أظهر الشهادتين ولو كان منافقًا، فبظاهر الشهادتين تجري عليه أحكام الإسلام، وهذه هي النسبة العامة، أما النسبة الخاصة فهي التي تصل إلى أعماق الإنسان فيكون بداية هذه النسبة (التسليم) كقاعدة أولية بالانقياد لله تعالى في كل ما أمر ونهى، ثم هذا التسليم لا يراد منه أن لا يتجاوز اللسان، بل يراد منه يقين يخالط القلب وينفذ في الأعماق، وإلا فهو لفظ وقشر لا لبَّ فيه، وإن كان هذا التلفظ يحقن دم الإنسان ويجري عليه

(١) الحكمة رقم ١٢٥، ص ٤٩١.

حكم (المسلم)، ثم يترقَّى الإمام ليبيِّن أن هذا اليقين لا بد وأن يعني التصديق لا سيما فيما لا يفقه الإنسان سره ولا يعرف حكمته، فيصدِّق مع هذا به لأنه تنزيل من عزيز حكيم، ثم إن هذا التصديق يرقى إلى مرحلة (الإقرار) والاعتراف، ثم إلى الالتزام و(الأداء) الذي هو وظيفة كبيرة جدًّا تتطلب (العمل) فيكون عمل الإنسان وشعوره وفكره كاشفًا لما في أعماقه من تصديق وإقرار.

إذن فقد أراد الإمام عليه السلام هذه النسبة الخاصة ولم يرد النسبة التي يتعامل بها الناس بالعنوان الأولي العام للإسلام.

ثانيًا: ضلال البشر وحيرتهم إذا اتبعوا أهواءهم

تحدث الإمام عليه السلام عن أن البشر حين يفقدون مرشدًا وهاديًا، ويفقدون نظامًا ودينًا، فإن كلًّا منهم يتخذ من نفسه إمامًا، ومن هواه قائدًا، وهذا يعني التخبط في دياجير الضلال.

فقد قال عليه السلام(1):

«فيا عجبًا! وما لي لا أعجبُ من خطإٍ هذه الفرقِ على اختلافِ حُجَجِها في دينِها! لا يقتَصُّونَ أَثَرَ نبيٍّ، ولا يقتدُون بعملِ وصيٍّ، ولا يؤمنونَ بغيب، ولا يعِفُّونَ عن عيب، يعملونَ في الشبهات، ويسيرونَ في الشهوات، المعروفُ فيهم ما عَرَفُوا، والمنكرُ عندهم ما أَنْكَرُوا».

نلاحظ أن الإمام عليه السلام يلتفت إلى الضلال والحيرة التي تحل بالبشر حينما يتبعون أهواءهم ويشير إلى أن ذلك مثار العجب حيث أنهم متنوعون ومختلفون في الحجج

(1) خ88، ص121.

ومع ذلك فهم على خطإ، و﴿كُلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فَرِحُون﴾[1]، بل كل فرد من هؤلاء يبني لنفسه من هواه دينًا يتبعه ويغض الطرف عن اتخاذ قدوة صالحة من (نبي) أو (وصي) يكون له مرشدًا وهاديًا فيما يتعلق بالدين والدنيا، وهم ينكرون ما لا يوافق هواهم أو ما لم تصل عقولهم إليه فهم (لا يؤمنون بغيب)، ولذلك تنحرف مسيرتهم في الأمور الاعتقادية والعبادية فـ (لا يعفُّونَ عن عيب) سواء لأنهم لا يميزون العيب من غيره، أو يعرفونه ولكن أهواءهم تدعوهم إلى ممارسته دون مبالاة، بل يستمرون في (الشبهات) فلا يهتدون، وينقادون خلف (الشهوات) فيضلُّون.

ونتيجةً لإقصاء التربية الإلهية تتبدل مصاديق (المعروف) و(المنكر)، وذلك ما يلاحظ في حياة الشعوب على مر التأريخ من أعراف وممارسات خاصة خاطئة ولكنها أعراف لا يمكن أن تمحى عندهم، وعلى سبيل المثال يُعَدُّ معروفًا عند بعض الشعوب أن المرأة يجب أن لا تتحجب لأن الحجاب حَجْبٌ للجمال وهذا لا يليق، وهم بذلك يغفلون عما هو أهم من ذلك وهي المفاسد والأضرار التي تترتب على إقصاء الحجاب، وإقصاء التعاليم الإلهية بشكل عام.

«مفزَعُهُمْ في المُعضِلاتِ إلى أَنْفُسِهِم، وتعويلُهُم في المهِمَّاتِ على آرائِهم، كأنَّ كلَّ امرئٍ منهم إِمامُ نفسِه، قد أخذَ منها فيما يرى بعُرًى ثِقَاتٍ، وأسبابٍ مُحْكَماتٍ».

فإن ما تقدم من انحراف يقطع ارتباطهم بالله تعالى فلا يتوكلون عليه أو يفزعون إليه عند الشدائد وفي أخذ الأحكام (كأنَّ كلَّ امرئٍ منهم إمامُ نفسِه) ويرى وثاقة ما يتمسك به من رأيه وأن سببه محكم حتى ولو لم يتصل بالله تعالى،

(١) سورة (المؤمنون) / ٥٣.

وهذا هو الضلال؛ فإن اختلاف وجهات النظر قائم، فلو كان كل شخص يعالج كل قضية تعرض له برأيهِ هو لضلَّ وأضل وهذا مما يلاحظ بالوجدان في حياة الناس وقد «ضلَّ مَنْ ليسَ لهُ حكيمٌ يُرْشِدُهُ»[1].

ثالثًا: الله تعالى هو مصدر الدين ودعامتا الدين هما الشهادتان

وهذه الحقيقة هي من مقومات الدين إذ أنه يستند إلى الله تعالى وهو الذي ارتضاه ﴿إِنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلامُ﴾، وليس هنا من نقطة فراغ فإن الله الذي خلق هو الذي شرع وخالق الطبيعة هو واضع الشريعة، فهو تعالى مصدر الدين، وما الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام إلاَّ مبلِّغون عن الله تعالى يوصلون للناس تشريعه الأعظم ولذلك اختارهم معصومين يتجلّى فيهم الكمال البشري في أروع صوره، وقد جُعِلَ لهذا الدينِ دعامتان، وهما: التوحيد (الشهادة الأولى) والنبوة (الشهادة الثانية)، وقد ركز الإمام عليه السلام على هذه الحقيقة، وأنه بدون الشهادتين لا يكون هناك وجود للدين.

ومن ضمن حديث الإمام عليه السلام حول استناد الدين في مصدره إلى الله تعالى قوله عليه السلام[2]:

«وأنزل عليكم الكتابَ تبيانًا لكلِّ شيء، وعمَّرَ فيكم نبيَّهُ أزمانًا، حتى أكملَ له ولكم -فيما أنزل من كتابِهِ- دينَهُ الذي رضيَ لنفسِه، وأنهى إليكم -على لسانِهِ- محابَّهُ من الأعمالِ ومكارهَه، ونواهيَهُ وأوامرَه».

---

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام. الفصول المهمة في معرفة الأئمة ٢/ ٨٥٩.

(٢) خ٨٦، ص١١٧.

فالله تعالى هو المصدر الذي أنزل (الكتاب) وأكمل (دِينَه) وهذه نعمة ومنة عظيمة، وأوصل إلى الناس (أوامرَهُ ونواهيَه) ولكن عن طريق النبي و(على لسانِه)، فإن النبي ﷺ هو القائم بأمر الدين، وقد عاش بين الناس (أزمانًا) ينفِّذُهُ ويطبِّقُه ويكون قدوةً للناس في كل أمر فيعلمهم أحكام الحرب والسلم وجميع العبادات كالصلاة، والمعاملات كالتجارة، وغير ذلك، وتكامل الدين لا يكون إلا بوجود التشريع المعصوم وهو القرآن الكريم ووجود من يقوم بأمره، ومن هنا تبرز الحاجة إلى الإمامة المعصومة امتدادًا للنبوة المعصومة، وهذا ما أشار له الإمام عليه السلام في النص السابق.

وقد تحدث الإمام عليه السلام عن الحقيقة الأخرى وهي أن الشهادتين (التوحيد والنبوة) هما دعامتا الإسلام، فمن ضمن ذلك قوله عليه السلام[1]:

«أما وصيتي: فاللهَ لا تشركوا به شيئًا، ومحمدًا ﷺ فلا تُضيِّعُوا سُنَّتَه، أقيموا هذينِ العمودين، وأوقدوا هذينِ المصباحين، وخَلاكُم ذَمٌّ، ما لم تشرُدُوا».

والتعبير الرائع للإمام عليه السلام هو أنه قدَّمَ المفعول به (اللهَ: لفظَ الجلالة، ومحمدًا) فجعله في صدر الكلام لبيان أهميته وشدِّ انتباه السامع، فقال: (فاللهَ) فينتظر السامع ما يُلقَى عليه من حكم يتعلق بهذا اللفظ العظيم، فيقول: (لا تشركوا به شيئًا)، ثم يعطف بقوله: (ومحمدًا ﷺ)، (فلا تُضيِّعُوا سُنَّتَه)، فلا تضيعوا شريعته والتعاليم التي جاء بها، وهذا تأكيد على اقتران النبوة بالتوحيد وعدم الاستغناء بالقرآن الكريم وحده، والخطأُ الفادح في قول القائل: حسبنا كتاب الله، فإن كتاب الله نفسه يحكم بكذب هذه المقولة وضلالها وأنه لا بد من السنة مع

(١) خ١٤٩، ص٢٠٧.

الكتاب بقوله تعالى: ﴿وما آتاكمُ الرسولُ فخُذُوهُ وما نهاكُمْ عنهُ فانْتَهُوا﴾[1].

ثم جمعهما الإمام عليه السلام وأمر بإقامتهما فهما للدين كالعمودين للخيمة لا تقوم بدونهما، وهما مصباحان يجدر بالناس أن يوقدوهما ليتبيَّنوا طريق الحق، ثم يعبِّر الإمام عليه السلام تعبيرًا رائعًا بقوله: (وخلاكم ذَمٌّ) أي أنكم بتمسككم بالكتاب تكونون بعيدين عن الذم وتكون أعمالكم محمودة ولكن بشرط: (ما لم تشرُدُوا).

رابعًا: محاسن الإسلام ومقاصده

أفاض الإمام عليه السلام الحديثَ عن كثيرٍ من محاسن الإسلام وآثاره المباركة التي تعود على البشر بكل خير في دنياهم وآخرتهم، ونأخذ هنا ثلاثة نصوص في هذا المجال.

النص الأول: قوله عليه السلام[2]:

«الحمدُ لله الذي شَرَعَ الإسلامَ فسهَّلَ شرائعَهُ لمن وَرَدَهُ، وأعزَّ أركانَهُ على مَنْ غَالَبَهُ»: فهذا الدين بحكم انتمائه إلى الله تعالى له عزة، وبمقتضى العزة يكون غالبًا منتصرًا، وبالفعل لم يكن يدور في خاطر أحد أن هذا الدين بإمكانياته المحدودة ينجح، وكان من المنتظر أن يوأَدَ في مهده فإذا به ينتصر وتدخله الناس أفواجًا بمرور الزمن، بل يعطي وعدًا للمستقبل بأنه سيَظْهَرُ على كل الأديان ويكون له الحكم المطلق ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدينِ كلِّهِ ولو كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[3].

(١) سورة الحشر / ٧.

(٢) خ١٠٦، ص١٥٣.

(٣) سورة التوبة / ٣٣، وسورة الصف / ٩.

«فجعلهُ أَمْنًا لمن عَلِقَهُ، وسِلْمًا لمن دخلَهُ، وبرهانًا لمن تكلَّمَ به، وشاهدًا لمن خاصمَ عنه، ونورًا لمن استضاءَ به...»: فمن علِقه (تعلق به) فإنه يكون له أمنًا وسلمًا، ومن أخذه بوعي فإنه لا يُغلَبُ في حجة لأن حجته مستندة إلى حجة الله تعالى ولله ﴿الحُجَّةُ البالِغَةُ﴾[1]، وجعله الله تعالى شاهدًا لمن خاصم به أو عنه، ونورًا يستضاء به لأنه هدي الله تعالى.

«وراحةً لمن فوَّض»: لأن من يستشعر أن كل شيء بيد الله تعالى وأنه المالك الذي أعطاه ما أعطى ومنعه ما منع، فإنه يفوض الأمر كله لله تعالى فيكون في راحة.

«وجُنَّةً لمن صبر»: أي وقاية في الدنيا والآخرة لمن صبر عن المحرمات وصبر على الطاعات وصبر في الشدائد.

«فهو أبلجُ المناهِجِ، وأوضحُ الولائِجِ، مُشْرَفُ المنارِ، مُشْرِقُ الجَوَادِّ، مُضيءُ المصابيحِ، كريمُ المِضْمارِ، رفيعُ الغايةِ، جامعُ الحَلْبَةِ، متنافِسُ السُّبْقَةِ، شريفُ الفُرْسانِ...».

طُرُقُ الإسلام (مناهجه) هي أشد الطرق ضياءً (أبلج). والولائج هي البطانة والخاصة والمعنى أن أموره أكثر الأمور وضوحًا وكذلك الجوادُّ (جمع جادة وهي الطريق الواضح) مشرقة مضيئة، وهذه الأوصاف حقائق في تشريع الإسلام الذي يؤخذ من مصادره الصحيحة التي تمثله، وليس ما يؤخذ من ممارسات المسلمين فإنها مع بالغ الأسف شيء آخر، فلهذا من الخطإِ أن يُحكَمَ

(١) سورة الأنعام / ١٤٩.

على الإسلام بأفعال المسلمين إذ تصدر منهم أفعال غير إسلامية، وأما قوله عليه السلام: شريف الفرسان، فهو يهيب بالملتزمين بالإسلام أن يستشعروا هذا الشرف وهذه النعمة بكونهم فرسان الدين.

«والموتُ غايتُه...»: وهذه العبارة لها معنيان محتملان وهما متقاربان أيضًا: الاحتمال الأول أن يكون المعنى أنه لا تكليف بعد الموت، والاحتمال الثاني أنه من مقوِّمات الدين تأكيده على أنه لا خلود في الحياة فينبغي للإنسان أن يتزود بفعل الصالحات ما دام يعتقد بالآخرة.

«والجَنَّةُ سُبْقَتُه»: فهي الجائزة بعد كل هذا التسابق في الدنيا، وأَعْظِمْ بها من جائزة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

النص الثاني: هو قوله عليه السلام(١):

«إِنَّ اللهَ تعالى خصَّكم بالإسلامِ، واستخلصَكم له، وذلك لأنه اسمُ سلامةٍ...»: وهذا تشريف لمن ظهر نور الإسلام بينهم وإن كان للبشر جميعًا، وقوله عليه السلام: (اسم سلامة)، وصفه الشُّرَّاحُ بأنه تعبير من أروع وأجمع التعبيرات فهو سلامة في الدنيا والآخرة، وسلامة للجوارح والفكر والمشاعر.

«قد أحمى حماه...»: أي صان الله تعالى دينه وجعل له حمًى وحدودًا لا يتعداها العباد.

النص الثالث: هو قوله عليه السلام(٢):

---

(١) خ١٥٢، ص٢١٢.

(٢) خ١٩٨، ص٣١٣.

«ثم إنَّ هذا الإسلامَ دينُ اللهِ الذي اصطفاهُ لنفسِه...».

هذا التعبير هو من أروع التعابير فقد جاء أن الله تعالى مكَّنَ العباد من التشبُّه به أي التأدُّب بآدابه المتمثلة في الإسلام الذي اصطفاه الله لنفسه فيدلل على آدابه، وهذا غاية الحث على التوجه إلى الكمال والسمو، فلا يليق بعد ذلك الاقتداء بالبهائم في عموم الممارسات.

«أذلَّ الأديانَ بعزَّتِه»: والمقصود إن كانت الأديان السماوية أنه نسخها، أو المقصود الأديان الوضعية وأنه أذلها بغلبته عليها.

٢٧) الإسلام والحياة

مدخل

قالَ اللهُ العظيمُ في محكَمِ كتابِهِ الكريم:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾(١).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢).

تتميمًا للحديث السابق نتحدث في هذا الدرس عن أمور تتعلق بتشريعات الإسلام، وهذه الأمور هي:

١) جامعية هذا الدين لكل الفضائل، ومن ذلك ما هو محض تعبد وتعليم خاص من الله تعالى يتعلق بجملة من العبادات.

٢) حاجة الدين إلى الجماعة.

٣) إنذار بالشر لترك المسلمين الإسلام والعواقب الوخيمة من وراء ذلك.

أولاً: جامعية الإسلام لكل الفضائل

وأداءً لحق البحث ينبغي أن نعترف أن استيفاء النصوص حول جامعية الإسلام للفضائل سواء ما يتعلق بالاعتقاد أو بالعبادات والمعاملات أو الأخلاق-

(١) سورة آل عمران / ١٩.

(٢) سورة آل عمران / ٨٥.

يحتاج إلى توسع كبير لا يسعنا في هذا الدرس بطبيعته، ولذلك نجدد الدعوة لقراءة هذا النهج الخالد للاطلاع الواسع على جوانب جامعية الإسلام لكل الفضائل، ونأخذ هنا نماذج لما ذكره الإمام عليه السلام حول هذه الجامعية.

أ) قال عليه السلام متحدثًا عن مصدر الإسلام(1):

«أمْ أنزلَ اللهُ سبحانهُ دينًا ناقصًا فاستعانَ بهم على إتمامِه!»: حديث الإمام عليه السلام هنا ينعى فيه على العلماء اختلافهم في الفتوى ويذمُّ اختلاف أهل الرأي الذين لا يعوِّلون على المقاييس الصحيحة ولا يأخذون العلم من مصادره، ويبيِّن قبال ذلك أمر الإسلام وكماله وجامعيته للفضائل.

«أمْ كانوا شركاءَ لهُ فلهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى؟»: فالتشريع إنما هو من الله تعالى وحده فهو الحكيم العليم بما يصلِحُ البشر، فعلى الناس أن يرضَوا ويسلِّموا، فلا تنقلب الموازين بعد ذلك لتغير هذه الحقيقة الجوهرية، فالعمل بالهوى والقياس والظنون يغيِّر الحقائق ويصرف عن الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾(2).

«أمْ أنزلَ اللهُ سبحانهُ دينًا تامًّا فقصَّرَ الرسولُ صلى الله عليه وآله عن تبليغِهِ وأدائِه»: وهذا استفهام إنكاري من الإمام عليه السلام أن يُظَنَّ أن التقصير من الرسول صلى الله عليه وآله، ثم يَستدل الإمام بالقرآن الكريم لمن يؤمن به ويعتقد أنه تشريع إلهي، بقوله عليه السلام:

(1) خ18، ص61.

(2) سورة يونس / 32.

«واللهُ سبحانهُ يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1]، وفيه تبيانٌ لكلِّ شيء[2]، وذكرَ أنَّ الكتابَ يصدِّق بعضُهُ بعضًا، وأنه لا اختلافَ فيه فقالَ سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[3]»: فهو محكم لا يناقض أو يخالف بعضه.

«وإنَّ القرآنَ ظاهرُهُ أنيق، وباطنُهُ عميق، ولا تفنى عجائبُه، ولا تنقضي غرائِبُه، ولا تُكشَفُ الظلماتُ إلاَّ به»: فظاهر القرآن الكريم أنيق (حَسَنٌ معجِب) وهذا تعبير عن بلاغته وحسنه، وباطنه عميق، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[4]، ولا تفنى عجائبه؛ فكلما ازداد الإنسان فكرًا وتأملًا اكتشف أسرارًا وعجائبَ في قرآن الله الكريم.

إذن نستفيد من حديث الإمام عليه السلام حول اختلاف أصحاب الرأي وحديثه عن دعامة الإسلام الأولى القرآن الكريم وإشارته إلى كفاءة المبلِّغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نستفيد من كل ذلك جامعية الإسلام للفضائل.

ب) وتحدث عن مكانة الإيمان فقال عليه السلام[5]:

«إِنَّ أفضلَ ما توسَّلَ به المتوسِّلونَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى الإيمانُ به وبرسولِه».

يعرض الإمام عليه السلام جملة من التشريعات لا بنحو الحصر، وإن كانت هذه

---

(١) سورة الأنعام / ٣٨.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾. سورة النحل / ٨٩.

(٣) سورة النساء / ٨٢.

(٤) سورة آل عمران / ٧.

(٥) خ ١١٠، ص ١٦٣.

التشريعات بمكان من الأهمية البالغة وهي أساس مهم في تشريع الإسلام، وقد قدَّم الإمام حديثه ووصفها بأنها أفضل ما يتوسل به المتوسلون ويقربهم إلى الله تعالى زلفى، فالأمر الأول منها الإيمان بالله وهو الدعامة الأولى، والتعبير بالإيمان مرتبة أخرى فوق مجرد إظهار التوحيد، ويعني الاعتقاد الصحيح الراسخ والالتزام الكامل، ثم ذكرَ النبوة (الدعامة الثانية) للإسلام.

بعد ذلك أشار الإمام إلى تشريعات على جانب كبير من الأهمية ولكلٍّ خصائصه وفضله؛ فقال عليه السلام:

«والجهادُ في سبيلِه، فإنهُ ذروةُ الإسلام»: والوجدان أعظم برهان على ذلك؛ فإن هذا الدين لو لم تكن له قوة تحميه لكان ضائعًا لأنه لا حقَّ إلا بالقوة، وليس يعني هذا اعتماد الدين على السيف وإلزامه الناس بالقوة والإيذاء فهذا ليس من الدين في شيء، بل القوة سبب لحفظ الدين من جانب، ولتطبيق أوامره على الناس من جانب آخر، ولذلك احتاج الدين فيما احتاج إلى نصرة أبي طالب عليه السلام خاصة في الظروف الحرجة لبداية الدعوة، واحتاج في كل أدواره وحتى كانت له الغلبة والنصر إلى سيف بطل الإسلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان هناك فئات لم تكن تذعن وتنقاد للدين، ولم يكن للدين أن يبقى ويدافع عن نفسه لولا قوة الجهاد، وهذا مظهر من مظاهر حاجة الدين إلى الجماعة كما سنتحدث -إن شاء الله تعالى- في النقطة الثانية.

«وكلمةُ الإخلاصِ فإنها الفطرة»: التي فطر الله الناس عليها.

«وإقامُ الصلاةِ فإنها المِلَّة»: وليس نمط النهج مخالفًا لنمط القرآن الكريم، وليس النهج كالمؤلفات الأخرى في تنظيمه وجهات بحثه، بل هو يعرض

لموضوعات عدة وأمور كثيرة في عبارات قصيرة، ويذكر الإمام هنا أن مفهوم الملَّة لا يكون له مصداق في الخارج إلاَّ بإبراز إقامة الصلاة، وإقامة الصلاة شيء فوق أدائها، فالإقامة تعني الإتيان بها في حدودها وبشروطها المعينة والتأثر بعطائها، ومن ذلك الخطاب للمعصوم ﴿عليه السلام﴾ في بعض الزيارات: «أشهد أنك قد أقمتَ الصلاة»، فمن يؤدي الصلاة كثيرون، ولكن لا يقيمها إلا أهلها العاشقون لها العارفون بها.

«وإيتاءُ الزكاةِ فإنها فريضةٌ واجبة»: وهذا التشريع يدخل في محاسن الإسلام كما يدخل في جامعيته، فبعد أن ذكر الإمام ﴿عليه السلام﴾ ما به حفظ الدين وهو الجهاد، وذكر جانبًا روحيًّا من التشريع وهو الصلاة- يذكر هنا جانبًا ماديًّا يتعلق بالحياة واقتصاد الأمة، وفي ذلك ما لا يخفى من إعانة المحتاج والقضاء على الفقر الذي يكاد يكون كفرًا.

«وصومُ شهرِ رمضانَ فإنهُ جُنَّةٌ من العقاب»: فامتناع الإنسان عن الطيبات المباحة طاعة لله تعالى وتقربًا له يوجب له غفران الذنب والأمن من عقاب الآخرة.

«وحجُّ البيتِ واعتمارُهُ فإنهما ينفيانِ الفقرَ ويرحَضَانِ الذنب»: ولا يخفى أن في هذه العبارات مجالًا واسعًا جدًّا للحديث عن أسرار التشريع وجوانب الحكمة البالغة في التشريعات، وهذا الدرس بطبيعته ومحدودية وقته لا يسع للتوسع كثيرًا في ذلك إلا أننا نأخذ القدر اللازم الذي يفي بالغرض، فالإمام ﴿عليه السلام﴾ يشير هنا إلى علاقة بعض التشريعات الدينية بخير الدنيا أيضًا، وهذه العلاقة هي من الأسرار وإن كان لها بعض الجهات الظاهرة كالتجارة التي تحصل في الحج فيكون بسببها

نفي للفقر، وإلا فالسبب أن لمثل هذه العبادة الجليلة المهمة خصوصية في استمطار الرزق وإنمائه وبركته، كما أن الحج والعمرة يرحضان (أي يغسلان ويزيلان) الذنب.

ثم يعطف الإمام على جهة أخلاقية وإنسانية يؤكد عليها في ضمن حديثه عن أركان الدين ودعائمه وتشريعاته الكبيرة، فيقول عليه السلام:

«وصِلَةُ الرحِمِ فإنها مثراةٌ في المالِ، ومنسأةٌ في الأَجَلِ»: وهذه أيضًا خصوصية لهذا التشريع بطبعه، ولعل من الروابط بين الأمرين أن إطالة العمر سبب في استحصال الرزق ونماء المال.

«وصدقةُ السرِّ فإنها تكفِّرُ الخطيئة، وصدقةُ العلانية فإنها تدفعُ مِيتةَ السوء»: وهذه دعوة إلى العمل وخاصة التصدق في السر والعلانية ولكلٍّ مميزاته وفضله، وبالإضافة إلى ما ذكر هنا فإن صدقة العلانية فيها دعاية لها وحث الناس عليها، ولهذا كان الإمام الرضا عليه السلام يأمر ولده الإمام الجواد عليه السلام وهو بعد غلام أن يخرج من مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مارًّا بالشارع العام ويكون عنده المال حتى يراه المحتاجون فيعطيهم فيسدُّ حاجتهم ويكون بذلك إشاعة للصدقة وحثٌّ عليها.

«وصنائعُ المعروفِ فإنها تقِي مصارعَ الهوان»[1]: وهذه كلمة جامعة للمعروف وإن له أثرًا في إبعاد الهوان والذل عن الإنسان في حياته وعند مماته.

ج) وتحدث الإمام عليه السلام عن الصلاة وموقعها[2]:

---

(١) وعن الإمام الصادق عليه السلام: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء». وسائل الشيعة ١١/ ٥٢٢.

(٢) خ١٩٩، ص٣١٦.

«تعاهَدُوا أمرَ الصلاة، وحافِظُوا عليها، واستكْثِرُوا منها، وتقرَّبوا بها، فإنها ﴿كانتْ على المؤمنينَ كتابًا موقوتًا﴾[1]، ألا تسمعونَ إلى جوابِ أهلِ النارِ حين سُئِلوا: ﴿ما سَلَكَكُمْ في سَقَرٍ * قالوا لم نَكُ من المصلِّين﴾[2]، وإنها لتَحُتُّ الذنوبَ حتَّ الورق، وتطلقُها إطلاقَ الرِّبَق، وشبَّهها رسولُ الله ﷺ بالحَمَّةِ تكونُ على بابِ الرجل، فهو يغتسلُ منها في اليومِ والليلةِ خمسَ مرات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن؟...».

في هذا النص الشريف بيان لأهمية الصلاة وأنها تقربٌ إلى الله تعالى، وقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «الصلاةُ قربانُ كلِّ تقي»[3]، وكذلك يبين الإمام عليه السلام عقوبة تاركها ودورها في مغفرة الذنوب وأنها تحتُّها كالورق وتطلقها كالربق (الحبال)، ومَثَلُها كالحَمَّة وهي المياه المعدنية الحارة أو مطلق المياه الحارة التي بطبيعتها تنقي البدن مما يعرض له من الدرن أي القذارة والوسخ، وفي هذا التشبيه لا يُقصَدُ طهارة البدن فقط، فالصلاة تتطلب الوضوء أو الغسل وفي هذا طهارة للبدن، ولكن الطهارة بالصلاة تشمل طهارة الروح فتزيل ما يحول بينها وبين الخشوع والخضوع لله تعالى من الذنوب وأمراض النفس.

ثم تحدث عن الزكاة بقوله عليه السلام:

(١) سورة النساء / ١٠٣.

(٢) سورة المدثر / ٤٢- ٤٣.

(٣) الكافي ٣/ ٢٦٥.

يمكن مراجعة نصوص أخرى حول النقطة الأولى فمن ذلك:

الخطبة رقم١، ص٤٥، والحكمة رقم١٥٢، ص٥١٢، وتمام النص في ص٣١٦ و٣١٧.

«ثم إن الزكاةَ جُعِلَتْ مع الصلاةِ قرباناً لأهلِ الإسلام، فمن أعطاها طيبَ النفسِ بها فإنها تُجعَلُ له كفارةً، ومنَ النارِ حجازًا ووقاية، فلا يتبِعَنَّها أحدٌ نفسَه، ولا يُكثِرَنَّ عليها لهَفَه...»: والتعبير بـ (أهلِ الإسلام) أسلوب رائع وله دلالة مهمة في أن من يدع أمر الزكاة فقد خرج على الأقل عن مظهر الإسلام، ثم يعالج الإمام عليه السلام قضية من أشد القضايا وهي حرص الإنسان على المال واعتباره إياه سرَّ حياته ووجوده، وأن نتائج ذلك الحرمان من الأجر والندم نتيجة لمنع الزكاة أو إعطائها بغير طيب نفس.

د) وفي واحدة من روائعه تحدث حول آثار بعض العبادات فقال عليه السلام[1]:

«وعن ذلك ما حرَسَ اللهُ عبادَهُ المؤمنين بالصلواتِ والزكوات، ومجاهدةِ الصيامِ في الأيامِ المفروضات، تسكيناً لأطرافِهم، وتخشيعًا لأبصارِهم، وتذليلًا لنفوسِهم، وتخفيضًا لقلوبِهم، وإذهابًا للخُيَلاءِ عنهم...»: وفي ذلك بيان لبعض أوجه الحكمة المهمة من بعض العبادات وأثرها على الجوارح وكذلك أثرها العظيم على الجوانح.

ثانيًا: حاجة الدين للجماعة

وقد يكون هذا التعبير غريبًا باعتبار أن المعروف لدينا أن الجماعة بل كل البشر تحتاج إلى الدين فيضمن سعادتها ونجاتها، فما معنى أن الدين بحاجة إلى الجماعة؟! والجواب أن الدين مجموعة من المعارف والتشريعات التي لو كانت مقتصرة على وجودها في كتاب مقدس أو مقتصرة على فئة معينة من حملة الدين المؤمنين به لما استفاد منها البشر، فلا بد إذن من جماعة تأخذ على عاتقها نصرة

(١) خ١٩٢، ص٢٩٤.

الدين وتقوم بتنفيذه بين الناس وتبلغه ليكون دينًا لهم، ولا يعني هذا -بالطبع- حاجة الله تعالى للبشر بل يعني أن أمر الدعوة يحتاج إلى من يقوم به ويدافع عنه كما أشرنا إليه في النقطة الأولى حول موضوع الجهاد.

ومن النصوص حول هذه النقطة قوله عليه السلام(1):

«ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءَنا وأبناءَنا وإخوانَنا وأعمامَنا، ما يزيدُنا ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، ومُضيًّا على اللَّقم، وصبرًا على مَضَضِ الألم وجِدًّا في جهادِ العدو....»: وفي الواقع إن هذا الحديث مثير وهو يكشف عن مدى تغلغل الإسلام في نفوس من آمن به وفضلهم في وصوله إلينا، وإن كان مصدر الفضل هو الله تعالى، وللرسول ولأمير المؤمنين -عليهما وآلهما السلام- الفضل الأكبر في ذلك.

وهو هنا يتحدث عن وضع المسلمين بشكل عام يوم آمنوا بالإسلام وتقدموا لأجله في ساحات الجهاد، مسلِّمين ماضين على اللَّقم وهي جادة الطريق أو معظمه، والمقصود طريق الحق الواضح.

«فلما رأى اللهُ صدقَنا أنزلَ بعدوِّنا الكبْت، وأنزلَ علينا النصرَ، حتى استقرَّ الإسلامُ ملقيًا جِرَانَه، ومتبوِّئًا أوطانَه، ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم، ما قام للدينِ عمودٌ...»: فالصدر الأول الذين شيدوا دولة الإسلام لهم الفضل في قيامه بها، حتى ألقى الإسلام جِرَانه وهذا التعبير في معناه الأولي هو إلقاء البعير منحره (جِرَانَه) على الأرض تعبيرًا عن استقراره واطمئنانه، والمعنى المجازي هنا استقرار

(1) خ56، ص91-92.

الإسلام، والإمام في معرض المقارنة بين جيش الرسول وبين جيشه يوم صفين، وأن أولئك لو كانوا كهؤلاء لما قام للإسلام عمود أو كانت له الغلبة والنصر، ثم يقول عليه السلام:

«وأيمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّها»: والمنتظر أن ما يحلب يكون لبنًا سائغًا فيه الخير والفائدة، لكنه يقول عليه السلام:

«دَمًا»: كناية عن العواقب الوخيمة لتركهم الدين.

«ولَتُتْبِعُنَّها ندمًا»: وهذا إنذار أيضًا بالشر كما سنتحدث عنه في النقطة الثالثة التالية.

ثالثًا: إنذار بالشر وتحذير من العواقب الوخيمة لترك المسلمين الإسلام

وهذا تعبير رهيب في واقع الأمر، إلا أن وجود العواقب الوخيمة لترك عملٍ ما دليل على أهميته وأحقيته، فإذا كان الأمر في فعل أو ترك العمل سواءً- كان هذا العمل وضيعًا ليس له هيبة أو أهمية في حياة البشر، فللدين إذن هذه الهيبة وهذه الحساسية والأهمية الخاصة بحيث أنه إذا طُبِّقَ فإنه يضمن سعادة البشر ورقي المجتمعات، وإذا تُرِكَ فإن نتيجة ذلك انتشار الجهل والفساد وهيمنة الظلم، بل ما هو وراء ذلك ألا وهو الحساب والعذاب يوم القيامة. ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[1]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2]،

(١) سورة الجن / ١٦.

(٢) سورة الأعراف / ٩٦.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1].

ومما قاله عليه السلام في هذا الإنذار والتحذير:

أ) قوله عليه السلام[2]:

«فمن يبتغِ غيرَ الإسلامِ دينًا تتحقَّقْ شِقوتُه، وتنفصِمْ عُروتُه، وتعظُمْ كَبوتُه، ويكنْ مآبُهُ إلى الحزنِ الطويل، والعذابِ الوبيل»: وهذه العواقب لترك الدين يقرِّرها الإمام عليه السلام كما قرَّرها الله تعالى في كتابه الكريم، فإن نتيجة الأخذ بالإسلام السعادة وعاقبة تركه الشقاء وانفصام العرى المربوطة الوثيقة والكبوة والوقوع في الأمر الشائك والخطيئة الكبيرة، ثم يؤدي ذلك إلى الحزن الطويل (في الدنيا) والعذاب الشديد (في الآخرة).

ب) وفي إحدى كلماته القصيرة الجامعة قال عليه السلام[3]:

«لا يتركُ الناسُ شيئًا من أمرِ دينِهم لاستصلاحِ دنياهم إلاَّ فتحَ اللهُ عليهم ما هو أضرُّ منه»: ولعلَّ المصداق العملي لذلك ملاحظة البشر في تأريخهم الطويل، بل ملاحظة أهل المنطقة الصغيرة، بل ملاحظة الإنسان لنفسه ليرى العواقب التي تنزل عند ترك الدين والإعراض عنه رغبةً في الدنيا، فإذا بالخسارة والضرر يكون أكثر، فقد يلهو الإنسان بالمال ويضيعُ حقَّ الله تعالى حرصًا منه على المال فإذا بجوانب الشر من مرض أو موت أو مصيبةٍ ما أو خذلان في الدنيا تسارع إليه

---

(١) سورة الفجر / ١٤.

(٢) خ١٦١، ص٢٣٠.

(٣) خ١٦١، ص٢٣٠.

بسبب اختياره السيء.

إذن فهذه عواقب يحذِّر الإمام عليه السلام منها ويرشد إلى أن سبيل النجاة منها هو اتباع دين الله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(1)، ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيطانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(2)، وأي عاقبة أشد من ذلك؟

نسألُ اللهَ تعالى أَنْ يبصِّرَنا دينَه، وأن يعرِّفَنا أحكامَه، وحلالَهُ وحرامَه، ويحيينا حياةً طيبةً على نهج محمد وعلي وآلهما، عليهما وآلهما الصلاةُ والسلام.

(1) سورة طه / ١٢٤.

(2) سورة الزخرف / ٣٦.

٢٨) سيرة النبي ﷺ وارتحاله إلى الرفيق الأعلى

مدخل

قالَ اللهُ العظيم في محكَمِ كتابِهِ الكريم:

﴿ماكانَ محمدٌ أبا أحدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتمَ النَّبِيِّينَ﴾(١).

رغبتُ أن يكون هذا الحديث مسك الختام لأحاديث النبوة بالحديث حول خير الأنام وخاتم النبيين ﷺ في جملة من شؤونه ومواقفه، ثم ارتحاله إلى الرفيق الأعلى.

أولاً: حياة النبي ﷺ

وهي حياة عجيبة حافلة بالمواقف، فمما يثير الانتباه حقًّا أن هذا الرجل العظيم بما يملك من مقام كبير ومنزلة من الله تعالى وسيادةٍ للمجتمع وأفضلية على الخلق وبما يحمل من سائر الكمالات- نجد أن شؤونه في نفسه ومع أهله وصلته بالناس وعموم أدوار حياته كلها مواطن تستوجب منا الوقوف والتأمل فيها طويلًا، وهذا التأمل في هذه السيرة العظيمة لا شك أنه يقوي إيماننا بمقام الرسول العظيم الذي هو برهان بذاته على حسن اختيار الله تعالى له وأهليته لتحمل أعباء الرسالة الكبيرة، وهذا أمر مهم جدًّا في المقام، وفي هذا المجال

(١) سورة الأحزاب / ٤٠.

يتحدث الإمام عليه السلام عن يوميات النبي وممارساته الطبيعية التي كان يحياها[1]:

«ولقد كان صلى الله عليه وآله يأكُلُ على الأرضِ، ويجلِسُ جِلسةَ العبدِ، ويخصِفُ بيدِهِ نعلَه، ويرقَعُ بيدِهِ ثوبَه، ويركبُ الحمارَ العاري ويُردِفُ خلفَه».

وذلك مظهر التواضع من هذه النفس الفذة التي هي بالأفق السامي، ومع ذلك فهو يجلس ليأكل على الأرض، ولم يأخذ به منصب النبوة والسيادة بل والطباع البشرية التي تلازم المناصب العليا بطبعها، فهو مع كل ذلك يجلس كالعبد[2]، وهو أنموذج آخر مغاير لكل هذه الاعتبارات فبيده يصلح نعله، وثوبه مرقوع وراقعه هو نفسه، وأما مركبه فلا سروج من ذهب عليه ولا بطائن من حرير بل هو المركب العادي العاري الذي يساويه في ذلك بعامة الناس ويُركِبُ عليه معه (يردف) من يكون من الناس.

«ويكون السترُ على بابِ بيتِهِ فتكونُ فيه التصاويرُ فيقول: يا فلانةُ -لإحدى أزواجِهِ- غيِّبِيهِ عني فإني إذا نظرتُ إليه ذكرتُ الدنيا وزخارِفَها...».

«فأعرضَ عن الدنيا بقلبِه، وأماتَ ذكرَها من نفسِه، وأحبّ أن تغيبَ زينتُها عن عينِه، لكيلا يتخذَ منها رياشًا ولا يعتقدُها قرارًا...».

---

(١) خ١٦٠، ص٢٢٨.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام: «مرت امرأة بذية برسول الله صلى الله عليه وآله وهو يأكل وهو جالس على الحضيض، فقالت: يا محمد والله إنك لتأكل أكل العبد وتجلس جلوسه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ويحك وأي عبد أعبد مني؟! قالت: فناولني لقمة من طعامك، فناولها، فقالت: لا والله إلا التي في فيك، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله اللقمة من فمه فناولها، فأكلتها، قال أبو عبد الله عليه السلام: فما أصابها داء حتى فارقت الدنيا روحها». المحاسن، للبرقي ٢/ ٤٥٧.

فيعمرها ويعمل لها ويهيء له فيها أسباب النعيم بل هو يعتقدها -كما هي- ممرًّا عاجلًا إلى الآخرة، هذه حياة مميزة ونفسية فذة سمت من السمو ما تحار به العقول[1].

ثانيًا: النبي أكمل الخلق

لا شك أن مظهر الشجاعة ومظهر القوة التي دافعت عن الإسلام وأعزته تَمَثَّلَ في بطولات أمير المؤمنين ﵇، ولكن ينبغي أن لا يُغفل عن حقيقة أن النبي ﷺ هو أشجع الناس من غير حاجة إلى شهادة أحد، وكذلك هو الأمر في الخطابة والبلاغة فمظهرها وشمسها هو أمير المؤمنين ﵇، ولكن النبي ﷺ هو أبلغ الناس وقد أوتي جوامع الكلم، وهكذا هو الأمر في كل فضيلة لأن النبيَّ لا بد وأن يكون أكمل الناس ليكون لائقًا بهذا المنصب، وهذا ما يقتضيه الاعتقاد الصحيح كما أنه مما تشهد به سيرة النبي ﷺ، والإمام ﵇ يقرِّر هذه الحقيقة بل جاء في بعض تعبيراته: «إنما أنا عبدٌ من عبيدِ محمد ﷺ»[2]، والشهادة من الإمام ﵇ لها قيمتها الخاصة نظرًا للشجاعة الكبيرة التي اتصف بها فتكون شهادته شهادة الخبير العارف المختص.

وسجّل الإمام ﵇ شهادته فقال[3]:

«كنا إذا احمرَّ البأسُ اتَّقينا برسولِ الله ﷺ فلم يكن أحدٌ منا أقربَ إلى العدوِّ منه»: وليس بعد هذا الوصف وصف فعند اشتداد البأس يكون الرسول ﷺ

---

(١) من المفيد مراجعة كتاب (سنن النبي) للسيد الطباطبائي صاحب الميزان.

(٢) الكافي ١/ ٩٠.

(٣) غريب كلامه ﵇ رقم٩، ص٥٢٠.

درعًا للمسلمين وأقربهم إلى العدو، وقد علم الجميع شجاعة أمير المؤمنين عليه السلام فهذا الأمر إذًا ليس ضعفًا فيه أو خوفًا في بعض الأوقات بل هو دلالة وشهادة بشجاعة النبي التي لا تضاهيها شجاعة، فكون النبي له عريش في المعركة يوجِّهُ منه أصحابه ويشاورهم لا يعني بُعدَه عن القتال، ولكن اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يباشر الرسول سفك الدماء بنفسه بكثرة وإن كان هذا في سبيل الله، وذلك لأنه صاحب الدعوة الأول وهو مظهر الرحمة ﴿وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١)، فاقتضى الأمر أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة الشخص الثاني في الدعوة ونفس النبي علي عليه السلام، وشتان بين شجاعة النبي والوصي من جهة وبين ما كان عليه غيرهما كالأول والثاني اللذين يعتذر لهما ابن أبي الحديد بقوله:

عَذَرْتُكما إنَّ الحِمامَ لَمَبْغَضٌ ... وإِنَّ بقاءَ النفسِ للنفسِ محبوبُ

مذكرًا بفرارهما يوم أحد، وعودتهما منهزمين من خيبر يجبن كل منهما أصحابه ويجبنونه، ولا يخفى أن هذا العذر هو في حدِّ ذاته ذمٌّ لهما.

ثالثًا: النبي الأمان والرحمة

كما يعرف من التأريخ أن الأمم السابقة كانوا يُعاجَلون بالعقوبة والعذاب عند تكذيبهم للرسل، إلا أن أمة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانت آمنةً من العذاب والعقوبة في الدنيا وما ذلك إلا لامتياز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على بقية الرسل برحمةٍ إلهية خاصة وشاملة، ولهذا يُطلب منه أن يدعو على قومه فيدعو لهم لا عليهم قائلًا: «اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»(٢).

---

(١) سورة الأنبياء / ١٠٧.

(٢) الخرائج والجرائح ١/ ١٦٤.

ويرشدنا أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك[1]:

«وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال:

كان في الأرضِ أمانانِ من عذابِ الله، وقد رُفِعَ أحدُهما، فدونكمُ الآخرَ فتمسكوا به: أما الأمانُ الذي رُفِعَ فهو رسولُ الله صلى الله عليه وآله، وأما الأمانُ الباقي فالاستغفار، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهِمْ ومَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]».

قال الرضي: وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط.

ويلاحظ تركيز كثير من الروايات والآثار على هذه الناحية في حق النبي وفي حق آله وأنهم سببٌ لرحمة الله تعالى لعباده وإخراج الخيرات من الأرض وإنزالها من السماء، وينبغي أن يلاحظ أن رفْعَ الأمان لا يعني رفع الخير والبركات الأخرى للرسول بعد ارتحاله للرفيق الأعلى فخيره وبركاته والرحمة به باقية، وهذه ليست قضية جزئية بل هي أمور تكوينية تتعلق بالكون ونظامه، إضافةً إلى انتفاع الناس العظيم بالدعوة التي شيَّدها الرسول صلى الله عليه وآله وتركها لهم إن تمسكوا بها.

رابعًا: ﴿وابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيْلَةَ﴾[3]

ولا يعنينا -هنا- الحديث عن الوسيلة ببيان أنها ليست مظهرًا للشرك -والعياذ بالله- أو ليست مظهرًا لعدم التوكل على الله تعالى والثقة برحمته، مع تمام

(١) الحكمة رقم٨٨، ص٤٨٣.

(٢) سورة الأنفال / ٣٣.

(٣) سورة الشرح / ٤.

وثوقنا بصحة معتقداتنا ووضوحها ورسوخها وقيام الدليل التام عليها وبعدها عن أدنى مغالطة أو شك، بل يعنينا بيان ارتباطها بشخص الرسول الأعظم ﷺ بالدرجة الأولى، فالرسول بما يملك من قدسية ونفسية فذة جعل الله تعالى وجوده رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وقد قال ﷺ: «إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاة»[1].

ولكون حرمته حيًّا كحرمته ميتًا ولبقاء بركاته فإن الصلة به لم تنقطع بارتحاله إلى الرفيق الأعلى بل هذه الصلة باقية، ويلاحظ كما تشير إليه الروايات أنه لو لم يخلَّد ذكر الرسول ﷺ في القرآن الكريم ويكون له وجود في الشعائر الإسلامية ومنها الأذان، وكذلك العبادات كالصلاة، لنُسِيَ ذكره الشريف ونسيانه حرمان من الخير والعطاء، وهذا الخلود هو مصداق لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[2].

إذن فهو بهذا المقام حينما يُتَّخَذُ وسيلةً إلى الله تعالى إنما لأنه العبد المرتضى والحبيب المصطفى ونحن نستعين به لغفران الذنب وتهذيب النفس الأمارة بالسوء ولعموم الخير والرحمة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[3].

وبيَّن عليه السلام أدب مسألة الله تعالى فقال[4]:

«إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجةٌ فابدأ بمسألةِ الصلاةِ على رسولِهِ ﷺ ثم سلْ حاجتَك، فإن اللهَ أكرمُ من أن يُسألَ حاجتين فيقضيَ إحداهما ويمنعَ الأخرى».

(١) بحار الأنوار ١٦/ ١١٥.

(٢) سورة النساء / ٦٤.

(٣) الحكمة رقم٨٨، ص٤٨٣.

(٤) خ١٩٧، ص٣١١.

فسمَّى الصلاة مسألة لأنك تسأل الله أن يصلي عليه، وكما نعتقد -وهو الحق- أن الله لا يرضى ورسوله لا يرضى بالصلاة البتراء إنما يرضى الله تعالى ويرضى رسوله بالصلاة التي شرَّعها الله تعالى، فيصلي صاحب الحاجة قائلًا: (اللهم صلِّ على محمدٍ وآلِ محمد)، وهذه المسألة مقضية لحب الله تعالى لرسوله، فإذا سأل السائل بعدها بمسألته المشروعة قضاها الله تعالى لأنه أكرم من أن يمنع حاجة وقد قضى أخرى، وذلك بغض النظر عن وجه استجابة الدعاء، فقد يستجاب سريعًا وقد يؤجل في الدنيا وقد يؤخر ويدَّخر للآخرة، وقد يدفع الله به بلاء عن السائل.

خامسًا: الفاجعة الكبرى بارتحال النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وهذه الفاجعة ألَّمت بالدرجة الأولى بالإمام عليه السلام لأن الشخص إنما يتأثر بارتحال العظيم بقدر ما يدرك من مقامه، ومن هذا ما حدثني به أحد أجلاء أساتذتي أن الشيخ عبد الحسين الأميني صاحب الغدير كان يأتي لحرم أمير المؤمنين عليه السلام كل ليلة فيستقبل الضريح ساعة كاملة يتفجر بركانًا من البكاء، لأنه كان يعرف الكثير عن مقام ومظلومية أمير المؤمنين عليه السلام، ولهذا فإن تأثر الإمام وتصويره لرحلة النبي إنما هو ناتج عن معرفته التامة والخاصة بمقام النبي وبركات وجوده الشريف وارتباط الأرض بالسماء لوجوده، كما أنه يصور خطورة الفادحة وشدة آثارها على الأمة.

عبر الإمام عليه السلام عن ارتحال النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1]:

«ولقد قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنَّ رأسَهُ لعلى صدري، ولقد سالت نفسُهُ في كفِّي فأمرَرْتُها على وجهي، ولقد وُلِّيتُ غُسْلَهُ صلى الله عليه وآله وسلم والملائكةُ أعواني...».

(١) خ٢٣٥، ص٣٥٥.

وتستوقفنا في هذا النص الشريف عدة مواطن نشير إليها فيما يلي:

أ) تفنيد وكذب ما يرويه بعضهم من أن النبي ﷺ مات عند عائشة وهو بين سحرها ونحرها محاولين أن يجعلوا لها بهذا مقامًا، ومن المعروف أن النبي كان في لحظاته الأخيرة لا يأنس إلا بعلي والزهراء والحسنين عليهم السلام ويدعوهم إليه، والإمام يشير هنا بوضوح أنه صاحب هذا المقام وهذا الفضل في كونه مع الرسول حين قُبِضَ وإن رأسه لعلى صدره.

ب) ماذا يعني بالنفس؟ يرى البعض أن المعني بالنفس هو الدم كما هو أحد معانيها، وأنه خرج من النبي عند احتضاره دم أخذه علي وأمرَّهُ على وجهه، أما التفسير الآخر وهو اللائق والمناسب كما يذكره الميرزا حبيب الله الخوئي رحمه الله فهو أن المقصود بالنفس هي الروح الطيبة المقدسة التي استلهم منها الإمام البركة والقداسة والشرف الأرفع، ولا يخفى أن هذا بعيد كل البعد عن حلول روح النبي في الإمام فإن هذا مما لا يصح أصلًا، ومن قبيل التشبيه العادي لتقريب المعنى ما يفعله المسلمون عند ذكر النبي أو بعد الدعاء من أنهم يمرُّون أيديهم على وجوههم طلبًا للرحمة والبركة، كما لا يخفى أن الحقيقة التامة لهذا الأمر هي من أسرار النبي والوصي وهذا ليس بغريب عن عالمهما إذْ ضمَّ من الأسرار الشيء الكثير، وإلا فأي معنى مثلًا لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن رسول الله ﷺ علمني ألفَ بابٍ من العلم يفتح كل بابٍ ألفَ باب، ولم يعلم ذلك أحدًا غيري»[1]، وأيُّ أسلوب هذا الذي يتعلم فيه الإمام مليون (ألف ألف) باب من العلم في مناجاة واحدة.

---

(١) الخصال، للشيخ الصدوق / ٥٧٢.

ج) إن مهمة وشرف تغسيل النبي وتجهيزه ومواراته كانت موكولة إلى نفسه علي والملائكة أعوان له.

وقال عليه السلام عند تغسيله النبي صلى الله عليه وآله مُؤَبِّنًا ومُتَفَجِّعًا(١):

«بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله! لقد انقطعَ بموتِكَ ما لم ينقطعْ بموتِ غيرِكَ من النبوةِ والإنباء، وأخبارِ السماء»: فالأنبياء السابقون كان لهم بعد ارتحالهم خلف من الأنبياء، وأما الرسول فارتحاله نهاية لوجود النبوة الظاهر.

«خَصَصْتَ حتى صِرْتَ مسليًا عمن سواك، وعَمَمْتَ حتى صارَ الناسُ فيك سواء...»: فقد ملك النبي على الإمام كل مشاعره إذ كان وجود الرسول هو كل شيء عند أمير المؤمنين.

«بأبي أنت وأمي! اذكرنا عند ربِّك واجعلنا من بالِك!»: وهذه التفاتة رائعة من الإمام لحياة النبي الخاصة عند الله تعالى وأنه يسأله أن يذكره ويجعله من اهتماماته.

ومما أظهره من الأسى على قبر الرسول ساعة دفنه(٢):

«إن الصبرَ لجميلٌ إلا عنك، وإن الجزعَ لقبيحٌ إلا عليك، وإن المصابَ بك لجليل، وإنه قبلك وبعدك لجلل»: فالإمام يصور افتجاعه بارتحال النبي الذي عاش معه وعاصر دعوته كلها ثم بقي بعده ورأى الآثار وخطورة الموقف بارتحاله وحيرة الأمة وتخبطها وانقلابها بعده، كما أنه رأى اختلاف الحال يوم أن كان مع

(١) غريب كلامه عليه السلام رقم٢٩٢، ص٥٢٧.

(٢) غريب كلامه عليه السلام رقم٢٩٢، ص٥٢٧.

الرسول يُرمَقُ كالنجم، وإذا به بعده ينزِله الدهر حتى صار يُقرَن إلى تلك النظائر، وتلك هي المأساة التي لم يُصب بمثلها أحد، ولذلك كان له أن يبوح ويبثَّ آهاته.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يهتدي بهدي محمد وآله

وأن يوفقنا للسير على نهجهم وإحياء أمرهم

عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

٢٩) الإمامة

مدخل

قالَ اللهُ العظيم في محكَمِ كتابِهِ الكريم:

﴿وإذِ ابْتَلَى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهنَّ قالَ إني جاعلُكَ للناسِ إمامًا قالَ ومِنْ ذُرِّيَّتي قالَ لا ينالُ عَهْدِي الظالمين﴾(١).

هذا الحديث هو بداية أحاديثنا -إن شاء الله تعالى- حول الإمامة، ومعلوم أننا نتناول مواضيع هذا الدرس الشريف من خلال كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه العظيم، وحديث الإمامة له تمام الأهمية لأنه يواكب ويتصل بحياتنا، وقد تحدث الإمام عن الإمامة كثيرًا في ذاتها وفي أهميتها وشروط القائم بها ونهجها الذي يجب أن تنهجه كي تقود الأمة للهداية عبر الطرق الإلهية الصحيحة، وعن الملابسات التأريخية التي اكتنفت وحفت هذا الموضوع الخطير، وحديث الإمام له أهمية خاصة باعتباره معنيًّا مباشرة بموضوع الإمامة، وهو رجل القضية وبطلها، وقوله الحق والفصل، ونتناول في هذا الحديث تعريف الإمامة وأهميتها ثم عرض المواضيع التي تناولها الإمام في نهجه الخالد.

أولاً: تعريف الإمامة

أ) الإمام بالمعنى اللغوي هو القدوة سواء كان في الحق: ﴿وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

---

(١) سورة البقرة / ١٢٤.

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[1]، أو في الباطل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[2].

ب) أما في الاعتقاد فهناك تعاريفُ كثيرة ومنها ومن أشهرها تعريف العلامة الحلي بأن الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، لشخصٍ من الأشخاص نيابةً عن النبي ﷺ.

فهي إذن رئاسة والناس مرؤوسون، وهي لا تحدُّ بحد بل هي في جميع الشؤون الدينية والدنيوية فهي في مجال الحكم التشريعي والتنفيذي فيما يتعلق بالإدارة والسياسة وجميع قضايا الحياة، بخلاف من يعرِّفُها بأنها خاصة بالسياسة فقط ولا تتصل بالمعتقد والشريعة.

وهي إذن ليست على غرار النبوة بل هي نيابة عن النبوة وامتداد لها، فلها جميع صلاحيات ومقومات النبوة باستثناء ما يتعلق بالوحي ويختص بالنبي فالإمام ليس نبيًّا.

ثانيًا: أهميتها

وأحسب أن أهميتها للحياة والبشر أمر بدهي لا حاجة إلى الإفاضة فيه، فحتى في المحيط الضيق في العائلة أو المدرسة ندرك بالوجدان أنه إذا لم يكن هناك من يقوم بشؤونها وينظر في مصالحها فإن مآلها إلى الضياع نظرًا لتشتت الأهواء وعبث الأفكار واختلاف المقاييس، وقد قِيلَ:

---

(١) سورة الأنبياء / ٧٣.

(٢) سورة القصص / ٤١.

لا يصلحُ الناسُ فُوضى لا سُراةَ لهم ولا سراةَ إذا جُهَّالُهُم سادوا

وقد «ضلَّ من ليس لهُ حكيمٌ يرشده»(١).

فإن الذي يضبط الأمور إما أن يكون عقل الفرد أو المجتمع أو الدين أو الإمام، فأما عقل الفرد فقد يكون مغلوبًا خاضعًا للأهواء ومؤثرات أخرى، قاصرًا عن إدراك المصالح، وأما المجتمع فتختلف فيه النزعات والأهواء وتتضارب المقاييس، وأما الدين فقد يكون معارَضًا غير قادر أن يبثَّ تشريعاته كما هي الحال في فترات كثيرة من التأريخ كان الحكم فيها لغير الدين بل لحكومات لا تحكم بالدين مطلقًا أو لا تحكم بكل تشريعاته، فلا بدَّ إذن من إمام، أما الإمام الجائر أو الجاهل فلا يزيد الأمة إلا ضلالًا وشقاء، فلا بد من إمام عالم عادل يأخذ بالبشرية إلى الطريق الصحيح ويكفل لها سعادتها، ومتى وُجِدَتْ أمة في التأريخ دون حاكم؟ نعم ظهرت جماعة غير إسلامية تتبنى فكرة أو مذهبًا وتدعو إلى إحياء الفوضوية وعدم وجود أي حكومة تحكم البشر، وقد كان هذا كردة فعل نظرًا لأن الحكومات بطبعها مستبدة وجائرة تتحكم فيها الأهواء والعواطف، إلاَّ أنه -كما نعتقد- ليس هذا هو الحل، بل الحل في وجود إمام عادل.

ومن مظاهر أهمية الإمامة والتركيز عليها وجود حجة من قبل الله تعالى في عموم تأريخ البشر، فيوم أن كان وجود البشر منحصرًا في فرد واحد هو آدم عليه السلام كان هو نفسه الحجة، ولم يخلُ الناس من حجة في عموم حياتهم، فكان الأنبياء وكان أوصياؤهم الذين حملوا هديهم إلى الناس، حتى وصل الأمر إلى خاتم الأنبياء

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام. الفصول المهمة في معرفة الأئمة ٢/ ٨٥٩.

وامتدَّ في إمامة الأئمة عليه وآله وعليهم الصلاة والسلام.

وقد تحدث الإمام عليه السلام كثيرًا عن هاتين النقطتين وما يتعلق بهما، فمن جملة ذلك ما يلي:

أ) لما سمع قول الخوارج (لا حكم إلا لله) قال عليه السلام[1]:

«كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها باطل... وإنه لا بدَّ للناسِ من أميرٍ بَرٍّ أو فاجرٍ يَعْمَلُ في إمرتِهِ المؤمنُ، ويَسْتَمْتِعُ فيها الكافرُ، ويُبَلِّغُ اللهُ فيها الأجلَ، ويُجْمَعُ بِهِ الفيءُ، ويُقاتَلُ بِهِ العدوُّ، وتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ بِهِ للضعيفِ من القويِّ...».

وليس من غرضي هنا التفصيل في هذه النصوص الشريفة وإنما نأخذ منها مواضع الشواهد، فالإمام عليه السلام يشير إلى الضرورة الملحة للإمرة سواءً كان يعني بها الإمامة أو الإدارة بشكل عام.

ب) وتحدث عن الأمان بالإمام من الاختلاف والضلال فقال عليه السلام[2]:

«فياعجبًا! ومالي لا أعجبُ من خطأِ هذه الفرقِ على اختلافِ حُجَجِها في دينِها! لا يقتصُّونَ أَثَرَ نبيٍّ، ولا يَقْتَدُونَ بعملِ وصيٍّ... كأنَّ كلَّ امرئٍ منهم إمامُ نفسه»: فيعجب الإمام من ذلك الشتات فالكل له حجة ودليل والكل يرى أنه على الحق، ويقرن الإمام ضلالهم بعدم اتباع النبي أو الوصي اللذين هما في منصب إمامة الناس، فكل فرد إذن أصبح وكأنه إمام نفسه.

---

(١) خ٤٠، ص٨٢.

(٢) خ٨٨، ص١٢١.

ج) ويركز الإمام على أهمية الإمامة ثم على ممارسات الإمام في صدد تعليله لطلبه للحكم، فيقول عليه السلام(1):

«وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكونَ الوالي على الفروجِ والدماءِ والمغانمِ والأحكامِ البخيلُ فتكونَ في أموالِهم نَهْمَتُهُ، ولا الجاهلُ فيُضِلَّهم بجَهْلِهِ، ولا الجافي فيقطعَهم بجفائِه، ولا الحائفُ للدُّوَلِ فيتخذَ قومًا دونَ قومٍ، ولا المرتشي في الحكمِ فيَذْهَبَ بالحقوق...»: فهناك أحكام يجب القيام بها وتستلزم وجود الإمام، ومن أهم هذه القضايا النكاح والدماء أي ما يتعلق بها من قصاص وغيره وكذلك غنائم الحرب، وهناك إمامة المسلمين بشكل عام، فلا بد إذن من وجود الإمام، وهذا الإمام له صفات تميزه وتؤهله للقيام بهذا المنصب وهذه القضايا، فلا يكون الإمام بخيلًا فيطمع في أموالهم ويستأثر بها لنفسه، ولا جاهلًا فيقودهم ولكن إلى الضلال، فهم بحاجة إلى عالم بما يصلحهم، ولا الجافي الذي لا أريحية ولا لين فيه فيقطعهم ويقسو عليهم.

وينبغي أن يلاحظ أن تكرار الإمام لبعض المعاني في نصوص مختلفة إنما هو بسبب اختلاف المناسبات والحاجة إلى تلك المعاني بعينها فيها، وفي هذا النص التالي يأخذ الإمام بأسلوب آخر، وذلك حين استشاره عمر في أن يخرج مع الجيش لقتال الفرس سواء في القادسية أو غيرها(2)، فقال عليه السلام(3):

«ومكانُ القيِّمِ بالأمرِ مكانُ النظامِ من الخرزِ يجمعُه ويضمه: فإن انقطعَ

(1) خ١٣١، ص١٨٩.

(2) من أجل الوقوف على تفصيل هذه الاستشارات يمكن مراجعة شرح الميرزا حبيب الله الخوئي لهذا النص الشريف في كتاب (منهاج البراعة).

(3) خ١٤٦، ص٢٠٣.

النظامُ تفرَّقَ الخرزُ وذهبَ ثم لم يجتمعْ بحذافيرِهِ أبدًا»: فقد أشار الإمام على عمر بعدم الخروج، وقد يكون ذلك لحكمة ظاهرة كالحفاظ على من جُعِلَ رمزًا وسُمِّيَ خليفة للمسلمين، أو كان السبب هو خوف الإمام من هزيمة المسلمين بسبب القائد الذي كانت على يديه الهزيمة أولًا في خيبر، أو كان ذلك لحكمة لا نعلمها، فعلى أي حال فإن مصلحة الإسلام عند الإمام هي فوق كل اعتبار آخر، وتشبيه الإمام هنا تشبيه حسي يصور فيه الناس كالخرز، وإمامهم بمثابة النظام وهو السلك الذي يجمع الخرز، فإذا انقطع السلك تناثر الخرز وتعسَّر جمعه، وذلك كناية عن شتات الناس وضياعهم دون إمام.

د) وفي كتاب هو من عجائب الدهر وجهه إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة وقد بلغه أنه دُعِيَ إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها، فمما قاله عليه السلام في هذا الكتاب في شأن الإمامة[1]:

«ألا وإن لكلِّ مأمومٍ إمامًا يقتدي به، ويستضيءُ بنورِ علمِه، ألا وإنَّ إمامَكم قد اكتفى مِنْ دُنياهُ بطِمْرَيْهِ[2]، ومِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ...».

ثالثًا: أحاديث الإمام عليه السلام حول الإمامة

تحدث الإمام عليه السلام كثيرًا عن موضوع الإمامة، ونعرض هنا بعض المواضيع والتي سوف نتناولها فيما نستقبل من دروس إن شاء الله تعالى، فقد بثَّ شجونه وآهات جراحه التي ضمها، فذكر الوصية والإمامة وموقع أهل البيت عليهم السلام منها، وذكر مناقبه التي هي مؤهلاته للإمامة، وفي هذا أيضًا نعيٌ ونقدٌ واعتراض على

(١) الكتاب رقم ٤٥، ص٤١٧.

(٢) الطِّمْرُ: الثوب الخَلِقُ البالي.

الذين كان لهم الحكم مع أنهم يفقدون كل مقوِّمات الإمامة والحكم، فتقدموا وأخَّروه رغم ما كان يملكه من كمالات، وأنزله الدهر حتى صار يقرن بتلك النظائر.

وتحدث الإمام عليه السلام عن ضياع الناس وحيرتهم بعد الرسول صلى الله عليه وآله حتى أنتجت سقيفتهم ما أنتجت، فخاض الإمام هذا الموضوع بما فيه من حساسية بقلب مألوم، وانتقد بكل وضوح وصراحة من تولى الحكم، وهذا النقد والاعتراض له أهميته الخاصة لأنه صدر من البطل الذي عاصر الدعوة من أولها إلى آخرها وبقى بعدها ورأى الحال التي وصلت إليها الأمة، وهذا النقد لا نجده عند غير الإمام وهذا سبب آخر لأهميته، فقد سجل في مناسبات عدة على الحاكمين ملاحظات وجوانب نقد سواء كان في مؤهلاتهم العلمية أو الإدارية أو الحكمة أو غيرها من الجهات.

كما تحدث الإمام عن برنامجه ونظامه في الحكم من أحكام إلهية كان يجب للناس أن يهتدوا بهديها، إلا أنه نُحِّيَ عن الحكم فترة، ثم أتاه الناس يريدونه حاكمًا بعد أن أحدث الأولون في الدين والأمة ما أحدثوا، فكانت المهمة صعبة، وفوق كل ذلك انشغل بحروب طويلة فكانت الجمل وكانت صفين وكانت النهروان، فلم يتأتَّ له أن يطبق نهجه الإلهي العظيم في الحكم، وقد بين الإمام جوانب من هذا النهج في عهده العظيم الخالد لصاحبه ورفيق دربه العزيز على قلبه مالك الأشتر، رضوان الله تعالى عليه، مبينًا فيه نظام الحكم كما أراده الله تعالى أن يجري ويطبق، ولكن الناس أبوا واتبعوا أهواءهم ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[1].

(١) سورة الجن / ١٦.

٣٠) الإمامة والنص

مدخل

قالَ اللهُ العظيم في محكَمِ كتابِهِ الكريم:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا﴾(١).

الدرس الثاني في هذا الموضوع المثير الحساس (الإمامة) يدور حول نقطتين: دعوى الإمامة من أمير المؤمنين عليه السلام، والنص عليه.

أولاً: دعوى الإمامة من أمير المؤمنين عليه السلام

للإمامة أهمية بالغة في الإسلام وهي على جانب كبير من الخطورة حتى قال في حقها الباحثون إنه ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام على موضوع كما سُلَّ على موضوع الإمامة، وأهميتها فوق سائر الأركان التي يقوم عليها الدين لأنها أساسه وامتداد للرسالة والنبوة، وهذا الادعاء من الإمام عليه السلام للإمامة ومطالبته بتصديه لمهامها هو تكليف ومهمة إلهية على غرار ادعاء النبي صلى الله عليه وآله للنبوة وإقامته المعجز دليلًا عليها، فالإمامة أمر إلهي لا يدَ للبشر فيه، وهي ليست فعلًا اختياريًّا يمكن أن يرفضه الإمام أو يتخلَّى عنه، ولهذا يلاحظ في التأريخ أن الأئمة عليهم السلام لم يتنازلوا عن الإمامة بل لم يعملوا بالتقية فيها رغم المحن والبلاء العظيم الذي عاشوه،

(١) سورة الأحزاب / ٣٦.

وفي المواطن التي تستدعي إظهار الكمالات الشخصية والمؤهلات للإمامة نجد أن الإمام يشير إليها بوضوح ويصرح بفضائله وخصوصياته، وليس هذا فخرًا لا يحسن أو تزكية للنفس وثناء عليها بل هو إظهار للحق وحديث عن المؤهلات لا سيما وأن الآخرين الذين تصدوا للحكم كانوا يفقدونها، فالمنصب إلهي وعلى تمام الأهمية فلا مجال للتواضع فيه وليس هذا محله.

ومن شواهد ذلك في حياة الأنبياء قول نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1]، إذ هو جدير لأن يقوم بهذه المهمة.

ونأخذُ هنا بعض النصوص الشريفة حول هذه النقطة، فمن ذلك ما يلي:

أ) أشار إلى أهم مؤهلات الإمام فقال عليه السلام[2]:

«ولهم خصائصُ حقِّ الوِلايةِ وفيهم الوصيةُ والوِراثةُ»: فهو يتحدث عن أهل البيت عمومًا وهو سيدهم، فهي إذن دعوى منه أنه يمتلك صفات اختص بها وهي تؤهله لأن يكون وليًّا، وبالنتيجة فإن من لا يحملها لا يكون أهلًا للولاية.

«الآن إذْ رَجَعَ الحقُّ إلى أهلِه، ونُقِلَ إلى منتقَلِه»: فهذه الخطبة قالها في أيام خلافته وبعد انصرافه من صفين، فهي إذن بعد فترة طويلة ضاع فيها حقه ثم عاد إليه حيث المكان الذي انتقل منه وكان يجب أن يبقى فيه.

ب) وفي الخطبة المعروفة بالشِّقْشِقِيَّة، قال عليه السلام[3]:

(١) سورة يوسف / ٥٥.

(٢) خ٢، ص٤٧.

(٣) خ٣، ص٤٨.

«أما والله لقد تقمَّصَها فلانٌ وإنِه لَيَعْلَمُ أن مَحَلِّي منها مَحَلُّ القُطْبِ من الرَّحَى، ينحدرُ عني السيلُ، ولا يرقى إليَّ الطيرُ»:

وهذه الخطبة اشتهرت باسم الشقشقية نسبة إلى الكلمة التي جاءت في جواب الإمام لابن عباس بعد الخطبة وهي قوله: «تلك شِقْشِقَةٌ هدَرَتْ ثم قرَّتْ»، وقوله (فلان) واضح في الدلالة على أبي بكر لأنه هو أول من حكم بعد الرسول وتقمص الخلافة أي لبسها كالقميص، وفي نسخ أخرى التصريح: «لقد تقمَّصها ابنُ أبي قحافة»، وهذا بيان واضح في أن الأول أخذ الخلافة بدون حق وكان يعلم أن الإمام عليه السلام هو صاحبها وقطب رحاها وأنه في تمام علو المنزلة والشأن، وليكن هذا التصريح فخرًا أو تعريفًا بالنفس أو ثناءً عليها، فعلى أي حال «عليٌّ مع الحقِّ، والحقُّ مع علي» كما شهد له بذلك الرسول صلى الله عليه وآله، وإن تحدث فإنما يتحدث لإحقاق الحق وكفى.

«فسدَلْتُ دونها ثوبًا، وطَوَيْتُ عنها كَشْحًا». أي أغضيت عنها، وليس هذا الأمر أمرًا سهلًا بل كان مرارةً، وكان باعثًا على التفكير في أمر الأمة والقلق بشأنها والخوف عليها من الضياع. فقد بُنِيَتْ شرائعها وأحكامها وقضاؤها وحربها وسلمها على هذا الأساس الذي وضعه مَن حَكَمَ بعد الرسول صلى الله عليه وآله وبعد أن أزالوا الأسس التي وضعها الله تعالى وفي مقدمتها الإمامة التي كان الإمام قطب رحاها وبطلها الأول.

«وطَفِقْتُ أَرْتَئِي بينَ أَنْ أَصُولَ بيدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ على طَخْيَةٍ عَمْياءَ»: فقد أخذ الإمام عليه السلام يخير نفسه بين أن يصول ويقاتل بلا أنصار وبين أن يصبر على هذه القضية التي هي ظلم وظلمات، ولكنه اختار أن يصبر محتسبًا ذلك في ذات

الله تعـالى.

ج) وحين أُشِيرَ عليه أن لا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال، كان مما قاله عليه السلام[1]:

«فوالله مازلتُ مدفوعًا عن حقي، مُسْتَأْثَرًا عليَّ، منذُ قَبَضَ اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وآله حتى يومِ الناسِ هذا»: فهو يسجل هذه الحقيقة بعد ٣٥ سنة من حياته التي كانت توأمًا مع العناء والجفوة من الآخرين الذين صدوه عن حقه واستأثروا به لأنفسهم.

د) ويصف حاله قبل البيعة له بقوله عليه السلام[2]:

«فنظرتُ فإذا ليس لي معينٌ إلا أهلُ بيتي، فضنِنْتُ بهم عن الموتِ، وأغضَيتُ على القَذَى، وشرِبتُ على الشَّجا...»: فقد كان الحق له ولو أمكنه أن يسترجعه بالقوة لفعل وذلك واجب عليه لأن هذا الحق (الإمامة) ليس حقًّا شخصيًّا بل هو حق الله تعالى، إلا أن استرجاع الحق لم يكن ممكنًا لعدم توفر الجيش القادر على ذلك، فليس له إلا أهل بيته الذين سيُقتلون إن حارب بهم ولن يحقق نصرًا يُمَكِّنه من استرجاع ذلك الحق.

وستمر علينا في النصوص التالية أسباب أخرى لسكوت الإمام عن الحق أخيرًا كخوفه على الإسلام من أعدائه الذين يتربصون به، فأغمض عينه عن حقه الضائع رغم صعوبةِ وألمِ ذلك وتجرَّع الغصص صابرًا محتسبًا وفي القلب شجا وفي

---

(١) خ٦، ص٥٣.

(٢) خ٢٦، ص٦٨.

العين قذى لأنه أغضى بها عن أمر عظيم.

هـ) وفي كتاب وجَّهَهُ إلى أهلِ مصرَ مع مالك الأشتر حين ولاَّه إمارتها قال عليه السلام[1]:

«فلمَّا مضَى عليه السلام تنازع المسلمون الأمرَ من بعدِه، فوالله ما كان يُلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العربَ تُزعِجُ هذا الأمرَ من بعده صلى الله عليه وآله عن أهلِ بيته ولا أنهم مُنَحُّوهُ عني من بعده، فما راعني إلا انثيالُ الناسِ على فلانٍ يبايعونه، فأمسكتُ يدي حتى رأيتُ راجعةَ الناسِ قد رجعتْ عن الإسلامِ يدعونَ إلى محقِ دينِ محمدٍ صلى الله عليه وآله فخشيتُ إن لم أنصرِ الإسلامَ وأهلَهُ أن أرى فيه ثلمًا أو هدمًا تكونُ المصيبةُ به عليَّ أعظمَ من فوتِ ولايتكم التي إنما هي متاعُ أيامٍ قلائل يزولُ منها ما كان كما يزولُ السراب، أو كما يتقشَّعُ السحاب، فنهضتُ في تلك الأحداثِ حتى زاحَ الباطلُ وزهق، واطمأنَّ الدينُ وتَنَهْنَه...»: فهو يركِّز على دعواه للإمامة وأنه كان على عقيدةٍ راسخة ووثوق تام بأنه الإمام والوصي، ولم يكن يخطر بباله -بحسب المقاييس الطبيعية ولكثرة ما جاء في حقه- أن الناسَ تبايع غيره، وهذا لا يعني أنه لم يكن يفهم نفسيات القوم وطمعهم بل كان يقرأ ذلك بعينه ويعقله بفكره ولكنه يسجله عليهم، ولذلك لنا أن نأخذ تلك النصوص وثائقَ تأريخية صادقة على تلك الأحداث، وهو هنا يذكر سببًا آخر أكثر أهمية لصبره وسكوته عن حقه ألا وهو خوفه على الإسلام من أعدائه الذين أرادوا أن يستغلوا النزاع بين المسلمين لكي يقضوا على الدين تمامًا، وقد رأى شتات الأمة وضياعها فاختار أن يحافظ على الإسلام ويرعى قضاياه ويصلح شؤونه وإن أُبْعِدَ عن المنصب الحقيقي

(١) الكتاب رقم٦٢، ص٤٥١.

الذي أراده الله تعالى له، وهو القائل: «ووالله لأُسْلِمَنَّ ما سَلِمَتْ أمورُ المسلمينَ ولم يكنْ فيها جورٌ إلا عليَّ خاصَّةً»(١).

و) وفي كتاب بعثه إلى معاوية، قال (عليه السلام)(٢):

«فيا عجبًا للدهر!؟ إذْ صِرْتُ يُقرَنُ بي من لم يسعَ بقَدَمي، ولم تكن له كسابقتي، التي لا يُدلي أحدٌ بمثلِها، إلا أن يدَّعي مدَّعٍ ما لا أعرفُه، ولا أظنُّ اللهَ يعرفُه، والحمدُ للهِ على كلِّ حال»:

يعجب فيه من الدهر حين ضاعت المقاييس ولم يبقَ للناس موازينُ صحيحة، حتى صار المفضول يُقدَّمُ على الفاضل، وصار يُقرَن بعليٍّ من لم يكن له شيءٌ من جهاد عليٍّ أو شجاعته أو علمه أو إيمانه، والإمام يتحدَّى أن يدَّعي غيرُهُ ما له من كمالات إلا أن يدعي كذبًا، وكلمة الإمام عجيبة حين أراد أن يصور كذب دعوى من يدعي أن له من الكمالات والمؤهلات ما لعلي، فوصف الإمام هذه الكمالات المدَّعاة بأن الله لا يعلمها وذلك دليل على أنها غير موجودة في الواقع، وقوله (ولا أظن) ليس احتمالًا بل جزمًا كما هو معروف من بعض استخدامات هذا الأسلوب.

ز) وأخيرًا نذكر هذا النص الشريف الذي عبَّر فيه الإمام (عليه السلام) عن خلاصة القضية، فقد سأله أحد أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فكان مما قال (عليه السلام)(٣):

---

(١) خ٧٤، ص١٠٢.

(٢) الكتاب رقم٩، ص٣٦٩.

(٣) خ١٦٢، ص٢٣١.

«وقد استعلمتَ فاعلم: أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسبًا والأشدون برسولِ الله ﷺ نوطًا فإنها كانت أَثَرَةً شحَّت عليها نفوسُ قوم، وسَخَتْ عنها نفوسُ قومٍ آخرين؛ والحكَمُ اللهُ، والمَعْوَدُ إليه القيامةُ»:

ثانيًا: النص على الإمام

وحديثنا حول هذه النقطة مستوحًى -بطبيعة البحث- من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه العظيم، وإلا فلو أردنا الحديث عن هذه النقطة بالذات من خلال القرآن الكريم أو السنة الشريفة لطال بنا المقام كثيرًا، وفي حدود ما لاحظت في النهج لم أجد استشهادًا من الإمام بالآيات والروايات التي نصَّت على إمامته عليه السلام، وإنما وجدتُ جملة من النصوص تدخل في هذا الباب، فمن جملة ذلك ما يلي:

أ) قوله عليه السلام وهو النص الأول الذي استشهدنا به على النقطة الأولى(١):

«وفيهم الوصيةُ والوِراثةُ»: وهذه إشارة واضحة للنص بالإمامة، والوراثة لا تعني وراثة المال بالنسب وإلا لكانت الزهراء عليها السلام أولى بذلك، ولكن المعنيَّ بها وراثةُ اللهِ على دينه وقرآنه وأحكامه.

ب) وأشار عليه السلام إلى بعض مكانة الأئمة عليهم السلام فقال(٢):

«إن الأئمةَ من قريشٍ غُرِسوا في هذا البطنِ من هاشم، لا تصلُحُ على سواهم، ولا تصلُحُ الولاةُ من غيرِهم»: فالنص على الأئمة جلي وأنهم من قريش،

---

(١) خ٢، ص٤٧.

(٢) خ١٤٤، ص٢٠١.

ثم أضاف الإمام جملة دقيقة ولم يجعل العنوان عامًّا يدور في قريش هذه الأسرة الكبيرة بل خصَّصه في محله فصرَّح أن النص في بني هاشم.

وذلك معنى الحديث المشهور الذي من رواياته ما رواه جابر بن سمرة عن رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الدينُ عزيزًا منيعًا إلى اثني عشر خليفة، قال جابر: فقال كلمة أَصَمَّنِيها الناس، فقلت لأبي: ماذا قال؟ قال: كلُّهم من قريش»[1].

وفيما لاحظتُ وأحسب أنها ملاحظة مهمة ما ذكره العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي حول هذه القضية حين ناقشها ونبَّهَ أن بعض النصوص كما في (ينابيع المودة) و(منتخب الأثر) تشير إلى أن عبارة الرواية «كلهم من بني هاشم»[2]، وأحسب أنه لا يمنع أن تكون الرواية جامعة للتعبيرين (كلهم من قريش من بني هاشم) فهو تخصيص بعد تعميم كما في كلمة الإمام في هذا النص.

ج) وتحدث عن يوم الشورى وما حمله فقال عليه السلام[3]:

«وقد قالَ قائلٌ: إنك على هذا الأمرِ يابن أبي طالبٍ لحريص؛ فقلتُ: بل أنتم واللهِ لأحرصُ وأبعد، وأنا أخصُّ وأقرب، وإنما طلبتُ حقًّا لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه، فلما قرَّعته بالحجة في الملإ الحاضرين هبَّ كأنه بُهِت لا يدري ما يجيبني به!»: ويذكر بعض الشراح للنهج أن القائل هو سعد بن أبي وقاص[4]، و(هبَّ) أي صاح وتكلم بالمهمل في سرعةٍ حمله عليها الغضب.

---

(١) من مصادر هذا الحديث صحيح مسلم ٦/ ٤، و(إحقاق الحق) - الملحقات ١٦/ ١.

(٢) الغدير والمعارضون/ ٩٦، للعلامة السيد جعفر مرتضى العاملي وهو باحث ومتتبع جريء.

(٣) خ١٧٢، ص٢٤٦.

(٤) قال ابن أبي الحديد: والذي قال له: «إنك على هذا الأمر لحريص» سعد بن أبي وقاص، مع روايته

د) واستشهد الإمام (عليه السلام) بما قاله له رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال[1]:

«إنك تسمعُ ما أسمعُ، وترى ما أرى إلا أنك لستَ بنبيٍّ ولكنك لوزير»: وهذه إشارة واضحة إلى النص الواضح عليه من قبل رسول الله وهو معنى حديث المنزلة المشهور عن رسول الله مخاطبًا عليًّا: «أنتَ مني بمنزلةِ هارونَ من موسى إلَّا أنهُ لا نبيَّ بعدي».

هـ) وفي كتاب وجهه إلى أخيه عقيل جوابًا، قال (عليه السلام)[2]:

«فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حربِ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبلي، فجَزَتْ قريشًا عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطانَ ابنِ أمي»: والأمر ليس مسألة قبلية أو عربية أو سلطانًا يملكه الإمام بل هو سلطان الله تعالى.

وأخيرًا فقد استعرضنا في هذا الدرس دعوى الإمام للإمامة وبيانه للمؤهلات التي تؤهله لذلك ومنها النص عليه، وسنتحدث في الدرس القادم -إن شاء الله تعالى- عن سائر المؤهلات والكمالات التي كانت للإمام (عليه السلام) والتي أهَّلته لمنصب الإمامة.

فيه: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وهذا عجب. شرح نهج البلاغة ٩/ ٣٠٥.

(١) خ١٩٢، ص٣٠١.

(٢) الكتاب رقم٣٦، ص٤٠٩.

٣١) مؤهلات الإمام

مدخل

قالَ اللهُ العظيم في محكَمِ كتابِهِ الكريم:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

نتحدث في هذا الدرس وهو الحلقة الثالثة حول الإمامة عن بعض مؤهلات أمير المؤمنين عليه السلام لمنصب الإمامة، وإن كانت تصلح في مجملها كمؤهلات لإمامة سائر الأئمة من ذريته عليه وعليهم الصلاة والسلام.

إن واقع الإمامة مقرون بواقع الأمة في هذا الدين الجديد على الناس والذي بذل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثًا وعشرين سنة من عمره الشريف يبلِّغه للناس حتى دخلوا فيه أفواجًا، وأخذًا بهذه الحقيقة نلاحظ أمرين استوجبا أن تكون الإمامة امتدادًا لائقًا بالنبوة ومواصلًا لمهمتها في التبليغ، وهذان الأمرانِ هما:

١) أنه وبطبيعة الحال لم تتوغل أفكار الإسلام وأهدافه في نفوس كل المسلمين الداخلين في هذا الدين، فقد كان منهم حديثو العهد بالإسلام، ومنهم الطلقاء الذين دخلوا في الدين خوفًا عند فتح مكة، ومنهم المشككون ومنهم المنافقون

---

(١) سورة البقرة / ٢٤٧.

الذين مردوا على النفاق.

٢) يضاف إلى ذلك أن هذا الدين القادم شكل خطرًا بحيث كاد أن يقضي تمامًا على سائر الأديان الأخرى في حينها، وكان لهذا أن يتم لو شاء الله تعالى لنبيه أن يعيش فترة أطول أو لم يحصل الارتداد بعد وفاته، فكان أعداء الإسلام يبثون الشكوك في الإسلام ويتحينون الفرص للقضاء عليه، ولم تكن فرصة مواتية لهم كالفترة التي سيرتحل فيها النبي ﷺ إلى جوار ربه، فكانوا يهيِّئون لإبراز أحقادهم وشن غاراتهم على الإسلام والمسلمين.

إذن فبملاحظة أتباع الإسلام أو أعدائه كان ارتحال النبي يشكل فترة عصيبة وخطرة، ولهذا كان لا بد لهذا الموقف من شخص يملؤ هذا الفراغ الذي خلَّفَهُ النبي فيصعد المنبر ليرشد الناس ويتولى القضاء ويرعى شؤون الأمة بالحكمة التي كانت لرسول الله وبعلمه وهديه وشجاعته وصموده درعًا وحصنًا للإسلام والمسلمين، فيجب إذن أن يكون من يخلف النبي يليق بشأنه الرفيع ومقامه الجليل، ويليق كذلك بالمهمة الكبيرة بعد ارتحال النبي.

ومن غير المعقول أن يكون من يخلف النبي بعيدًا في مؤهلاته عنه، فيؤول الأمر من تلك القمة الشامخة إلى الحضيض، فهي إذن وجهة عقلية تستلزمها تلك الفترة العصيبة بما حملت من محنٍ شتى، فلا بد إذن من شخص تتوفر فيه مؤهلات وكمالات تهيؤه لخلافة النبي في مهمته العظيمة، ومن أهم تلك المؤهلات ما يلي:

أولاً: العلم

وغنيٌّ عن البيان الحاجة والأهمية البالغة للعلم في شخص الإمام، وتركيزنا

هنا على العلم بالشريعة دون العلوم الأخرى، فإنها وإن كانت من الكمالات التي يتفاضل بها العظماء إلا أنها ليست بأهمية العلم بالشريعة بالنسبة للإمام، فمن غير اللائق أن يكون إمام المسلمين الذي يخلف النبي صلى الله عليه وآله يُسأَلُ عن مسألةٍ تتعلق بالدين في معتقده أو عباداته أو أخلاقه فيقول: لا أدري، جاهلًا محتاجًا إلى أن يتعلم، خاصة إذا كان من يسأل من غير المسلمين فيجد أن إمام المسلمين جاهلٌ ولو بشيء من مسائل الإسلام.

وقد حاز أمير المؤمنين عليه السلام هذا المؤهّل وهذه الميزة وفاقها أيضًا، فقد أحاط بعلم الشريعة بكل تفاصيله، بل فاقه حتى بلغ العلم بالملإ الأعلى، وحتى شمل بعلمه علوم الطبيعة وأسرار الكون، ولم يشاركه في كل ذلك أحد، والإمام يجعل هذه الناحية من ركائز إمامته المهمة، وهو القائل: «إِنَّ هاهنا لَعِلْمًا جمًّا لو أصبتُ له حَمَلَةً»(1).

بل كان عليه السلام يتحدى بعلمه لإقامة الحجة على الناس بأحقيته بالإمامة، وكان مرموقًا بينهم جميعًا ولم تكن منزلته في العلم خافية عليهم فكانوا يفزعون إليه في المهمات، ولسنا بصدد استعراض حديث الرسول صلى الله عليه وآله عن علم الإمام أو حديث الصحابة أو التأريخ، بل نحن وكما هو منهج الدرس، نأخذ كلمات الإمام كوثائق تحمل في طيها ادعاء الإمام للإمامة والمواصفات التي يجب أن تتوفر عند الإمام الذي يشغل مقام النبي صلى الله عليه وآله(2).

---

(1) الحكمة رقم ١٤٧، ص٤٩٦.

(2) وقد عرضتُ في كتاب (ثلاث مقالات) في المقالة الخاصة بعلم الإمام توسعًا في هذا المجال يمكن مراجعته للفائدة.

فمن جملة هذه النصوص ما يلي:

أ) قال عليه السلام عن مناهل علمه الشريف[1]:

«ولقد قرنَ اللهُ بنبيِّهِ صلى الله عليه وآله من لدُنْ أن كانَ فطيـًا أعظـمَ ملَـكٍ مـن ملائكتِـهِ يسلُكُ بـهِ طريـقَ المكارم، ومحاسـنَ أخـلاقِ العـالم، ليلَـهُ ونهـارَه، ولقـد كنـتُ أَتَّبِعُـهُ اتِّبـاعَ الفصيلِ أَثَـرَ أمِّه، يرفعُ لي في كلِّ يـومٍ مـن أخلاقِـهِ علَـمًا ويأمرني بالاقتداءِ بـه».

والأخلاق هنا لا تعني فقط حسن المعاشرة أو جوانب الأخلاق كالصبر وغيره بل هي عامة تشمل العلم بكل ما يتعلق بالشرع وبسائر المجالات التي يكون فيها كمال المتصف بها.

ب) وأضاف عليه السلام[2]:

«بل اندمجتُ على مكنونِ علمٍ لو بُحْتُ بـهِ لاضطربتُم اضطرابَ الأرشيةِ في الطويِّ البعيدة»: الأرشية: جمع (رشا) وهي الحبل تنزل في البئر لاستخراج الماء، والطوي: هي البئر، والبعيدة بمعنى العميقة، فيقول عليه السلام إنني اشتملت وضمت جوانحي من العلوم ما لو أطلعتكم عليه لاضطربتم كالحبال تضطرب بسبب عمق البئر وتلك كناية عن علمه الغزير الذي لا ينال، وهذا الكلام قاله الإمام وجهر به أمام الملأ فكان بإمكان أي أحد أن يحاجه ويناقشه لو كان يستطيع لذلك سبيلًا.

(١) خ١٩٢، ص٣٠٠.

(٢) خ٥، ص٥٢.

ج) وتحدث (عليه السلام) وملؤه علم وثقة(١):

«فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيدِهِ لا تسألوني عن شيءٍ فيما بينكم وبين الساعةِ... إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ...»: وهذه من الكلمات الخاصة بالإمام والتي سُجِّلَتْ حولها النوادر أيضًا في ذكر من قال: سلوني، ثم افتضح لأذل سائل وأقل مسألة(٢)، ويشاء الله تعالى أن ينطق التأريخ بفضل علي (عليه السلام)، وقوله (وبين الساعة) تحدٍّ عجيب لا يحتمله أحد غيره، ثم يتمم ذلك بتتميمٍ رائعٍ قائلًا:

«ولو قد فقدتمُوني ونزلَتْ بكم كرائِهُ الأمورِ، وحوازبُ الخطوبِ، لأطرَقَ كثيرٌ من السائلينَ وفَشِلَ كثيرٌ من المسؤولينَ»: وذلك هو الفرق بين علي الذي لا يتحير في مسألة وبين غيره ممن قبله وبعده.

د) وفي نص عُنْوِنَ بِـ (علم الوصي) قال (عليه السلام)(٣):

«أيُّها الناسُ، سلوني قبلَ أن تفقدوني، فلأنا بطرقِ السماءِ أعلمُ مني بطرُقِ الأرض، قبل أن تشغَرَ برِجلِها فتنةٌ تطأُ في خطامِها وتذهَبُ بأحلامِ قومِها»: والإمام هنا لا يقصد أنه لا يعلم بعلوم الأرض بشكل تام كعلمه بالسماء، ولكن حديثه هذا لعله باعتبار أن علوم السماء أكثر سعة من علوم الأرض، أو باعتبار أن سائر الناس تعلم بعلوم الأرض أكثر من علمها بالسماء فتكون له (عليه السلام) الميزة والأعلمية في هذا المجال، ويستخدم الإمام الكنايات لهذه الفتن القادمة التي تشغر برجلها أي ترفعها كناية عن كثرة مداخل الفساد وعدم العدة للنجاة من الفتن التي

(١) خ٩٣، ص١٣٧.

(٢) يمكن مراجعة كتاب (الغدير) ٦/ ١٩٥-١٩٦.

(٣) خ١٨٩، ص٢٨٠.

تطأ في خطامها أي تتعثر كناية عن الطيش وأنه لا قائد لها، فحينها تشتد الفتن وتكثر الخطوب ويحار الناس ويحتاجون إلى من يفزعون إليه فلا يجدون عليًّا وقد فقدوه، فعليهم إذن أن يبادروا بسؤاله الآن فهو المفزع والنجاة، ونؤكد أن الإمام كان يقول هذا أمام الملأ وفيهم خصومه وأعداؤه الذين يعدون عليه أنفاسه ولو كانوا يملكون حيلة لأفحموه وأحرجوه أمام الناس، ولكن يأبى الله إلا أن يظهر الحق على يد وليه.

هـ) وسجّل عليه السلام هذه الحقيقة مضيفًا امتيازًا آخر(١):

«وليس كلُّ أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله من كان يسأله ويستفهمه، حتى إنْ كانوا ليحبُّون أن يجيءَ الأعرابيُّ والطارئُ فيسألَهُ عليه السلام حتى يسمعوا، وكان لا يمرُّ بي من ذلك شيءٌ إلا سألتُهُ عنه وحفظتُه»: فهي إذن ميزة كان يتصف بها الإمام عليه السلام ويفقدها غيره.

ثانيًا: العصمة

ولا نقصد بهذا العنوان الحديثَ عن جهات العصمة المتعددة فإن المقام وإن كان مهمًّا إلا أنه يطول بنا، فنتحدث فقط عن أهميتها ودورها في منصب الإمامة وما ينبغي أن يكون عليه من سيكون حاكمًا في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، ومالكًا للأمر في قضايا الحرب والسلم وما يتعلق بمقدرات الأمة، فيجب أن يكون على نحو كبير من الإيمان والتقوى والتعلق بالله تعالى بحيث لا تزيده كثرة الناس حوله عزة ولا تفرقهم عنه وحشة، ويجب أن يكون محيطًا بالشريعة وأوضاع الأمة إحاطة تعصمه من الخطأ مهما كان، وهذا ما لا يقوى عليه عامة البشر إلا من

(١) خ٢١٠، ص٣٢٧.

اختصهم الله تعالى واصطفاهم لذلك.

والعصمة جهة باطنية فإن أعماق الشخص لا تعرف ولا يطلع على سره إلا الله تعالى وهو وحده يعلم إن كان ذلك الشخص يذنب سرًّا أم لا، وهو وحده العالم بنفسيته ومؤهلاته ومدى استعداده، وهو إذن العالم بالإمام وجدارته لهذا المنصب وهو وحده من يملك حق الاصطفاء.

والملاحظ أن الإمام كان يذكر لأصحابه ولأعدائه في كتبه إليهم شواهد من حياته حينما تقتضي المناسبة فتتجلى فيها صورة فريدة من الانضباط والنزاهة والعصمة التي ما كان يقدر عليها سواه، ومن جملة هذه النصوص ما يلي:

أ) أشار إلى مستوى من العصمة فقال (عليه السلام)[1]:

«ما شكَكْتُ في الحقِّ مذْ أُرِيتُه»: وكلمة الحق تشمل كل حقٍّ، علمًا كان أو عملًا وممارسة، فالإمام فيما يعتقد وفيما يفعل ويترك كان على الحق وهذا غاية الكمال وشاهد على العصمة لأن الخطأ هو باطل مجانب للحق.

ب) وقال (عليه السلام) حينما بويع بالخلافة[2]:

«والله ما كَتَمْتُ وَشْمَةً، ولا كَذَبْتُ كِذْبَةً»: والوشمة هي الكلمة، ومن ذا الذي يحتملَ أن لا يكتم شيئًا من الحق ولا يكذب مطلقًا حتى ولو كان سهوًا؟! فهذه منزلة ليست لكل أحد ورتبة سامية دعا الله عباده إليها: ﴿يا أيُّها الذينَ

---

(١) خ٤، ص٥١.

(٢) خ١٦، ص٥٧.

آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصادِقِينَ﴾[1].

ج) ومما قاله عليه السلام للخوارج[2]:

«ووالله إنْ جِئْتُها إِنِّي لَلْمُحِقُّ الذي يُتَّبَعُ، وإِنَّ الكتابَ لَمَعِي، ما فارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ»: فهو يصرح وبنفس واثقة بأنه أحق أن يُتَّبع، وأن الكتاب الذي ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[3] معه يشهد له بأنه على الحق، هذا وهو عِدْلُ الكتاب، بل هو كتاب الله الناطق.

د) وقال عليه السلام[4]:

«ولقد عَلِمَ المُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وآله أني لم أردَّ على اللهِ ولا على رسولِهِ ساعةً قط»: ونلاحظ هنا براعة الاستهلال لهذا النص الشريف، وهو يستشهد بما يعلمه الصحابة الذين استحفظوا (على الحديث) ولم يكن في قلوبهم زيغ ولا خصومة وبغض للحق، فهم يعلمون علمًا يقينًا بمدى نصرة الإمام وطاعته لله ولرسوله وأنه لم يرد على الله ولا على رسوله أبدًا وهذا نهاية التسليم.

«ولقد واسيتُهُ بنفسي في المواطنِ التي تنكِصُ فيها الأبطالُ، وتتأخَّرُ فيها الأقدامُ، نَجْدَةً أكرمَنِي اللهُ بها»: وإن الاستدلال بهذا على العصمة واضح فهي الالتزام الاعتقادي والعملي.

(١) سورة التوبة / ١١٩.

(٢) خ١٢٢، ص١٧٩.

(٣) سورة الإسراء / ٩.

(٤) خ١٩٧، ص٣١١.

ثالثًا: الشجاعة

فإن قائد الأمة ينبغي له من القوة والشجاعة ما يكون به سندًا ووجودًا يرهبه الأعداء، ولا يعني هذا أن يكون ظالمًا يبطش بالعباد أو تنزع منه الرحمة، بل هي القوة والشجاعة في الحق ونصرته، فالحق لا يُحفَظُ إلا بقوةٍ تتكفل بإقامته والدفاع عنه وإلا ألَمَّتْ به الفتن وشمله البلاء، وإن من نافلة الحديث أن نقول: عليٌّ شجاع، وكفى بالتأريخ دليلًا بما ضمه من مواقف خالدة وبطولات عجيبة ونماذج من شجاعة أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا أردنا أن نستشهد بكلماته هو والتي صرح فيها بشجاعته إبرازًا لصفة من صفات الإمام وأنه أولى بالإمامة من غيره، فمن ذلك ما يلي:

أ) مما قاله عليه السلام[1]:

«والله لابنُ أبي طالبٍ آنسُ بالموتِ من الطفلِ بثديِ أمِّه»: وأي شجاعة كالأنس بالموت وعدم الاكتراث به، ولِلعلمِ فإن مظهر الشجاعة ليس في الحرب فقط بل هي أيضًا القوة القلبية في تحمل الشدائد والصبر على البلاء.

ب) وقال عليه السلام مؤرخًا لذلك السجل الحافل[2]:

«حتى لقد قالت قريشٌ: إن ابنَ أبي طالبٍ رجلٌ شُجاعٌ، ولكن لا علمَ له بالحربِ، لله أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مراسًا، وأقدمُ فيها مقامًا مني! لقد نهَضتُ فيها وما بلَغتُ العشرينَ، وهأنذا قد ذرَّفتُ على الستينَ! ولكن لا رأيَ

---

(١) خ٥، ص٥٢.

(٢) خ٢، ص٧٠-٧١.

لمن لا يُطاعُ»: فلو اقتصرنا على مظهر الشجاعة في الحرب لوجدنا أنها تربو على أربعين سنة خاض الإمام فيها الحرب بطلًا للإسلام ومدافعًا عن الحق، لم يمنعه صغر السن ولم تقعده الستون، ومن العجب أن القوم أبوا عليه الخلافة لصغر سِنِّهِ كما صرَّحوا بذلك، فلماذا إذن لم يستصغروا سنّه فيخرجوا بدله حين خرج يواجه الأبطال في بدر وأحد والخندق وخيبر وكثير غيرها، ولماذا كان الكبار كبارًا للخلافة وصغارًا في حروب الإسلام؟!

ج) وفي كتاب وجَّههُ إلى معاوية قال عليه السلام[1]:

«وقد دعوتَ إلى الحربِ، فدعِ الناسَ جانبًا واخرجْ إليَّ، وأَعْفِ الفريقينِ من القتال، لتعلمَ أيُّنا المَرِينُ على قلبِه، والمُغطَّى على بصرِه! فأنا أبو حسنٍ قاتلُ جدِّكَ وأخيكَ وخالكَ شدخًا يومَ بدر، وذلك السيفُ معي، وبذلك القلبِ ألقى عدوِّي، ما استبدلتُ دينًا، ولا استحدثتُ نبيًّا، وإني لعلى المنهاجِ الذي تركتموهُ طائعين، ودخلتم فيه مكرَهين»: أمير المؤمنين عليه السلام إمام البلاغة ومَشْرَعُ الفصاحة، وأسلوبه هنا من الأساليب التي ترهب أعداء الله وتدخل الخوف على قلوبهم فلا يهنؤون بحياة، وكلماته عليه السلام كسيفه، وفي أسلوبه أيضًا الفخر الذي هو في محله لإحقاق الحق واستثارة أعداء الحق.

د) وفي كتاب بعثه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رضي الله عنه لما ولّاه عليها قال عليه السلام[2]:

«إني والله لو لقيتُهم واحدًا وهم طِلاعُ الأرضِ كلِّها ما باليتُ ولا استوحشت»: فعليٌّ يتحدَّى الدنيا بأسرها بشجاعته، وهو الكفؤ الذي كان حامية

(١) الكتاب رقم ١٠، ص ٣٧٠.

(٢) الكتاب رقم ٦٢، ص ٤٥٢.

الإسلام والمسلمين والبطلَ المدافِعَ حين اشتداد الخطوب، والقائد إذا كان عليًّا فإن جيش الإسلام به منتصر كما كان كذلك، وإن الجند إنما يثبتون بثبات قائدهم فيربي منهم الأبطال أمثال مالك والمرقال وقيس بن سعد، وأما إذا كان القائد جبانًا فإن الجيش ينهزم بانهزامه ويفرُّ معه. فأما علي فيقال عنه:

إنْ كنتَ لجهلِكَ بالأيامِ ... جحدْتَ مقامَ أبي شبرْ

فاسأَلْ بدرًا واسأَلْ أحدًا ... وسلِ الأحزابَ وسلْ خيبرْ

وأما غير عليٍّ فيقال له:

عَذرتكما إنَّ الحِمَامَ لَمبغَضٌ ... وإنَّ بقاءَ النفسِ للنفسِ محبوبُ

إذن فالعلم والعصمة والشجاعة مؤهلات لمن يكون جديرًا ومستحقًّا لأن يشغل هذا المنصب الجليل (الإمامة) ويكون خلفًا لرسول الله في القيام بأمر الإسلام وقيادة الأمة، والله تعالى هو الذي اطلع وعلم من يصلح لهذا المقام فاصطفاه و﴿اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه﴾(1)، ﴿أَلاَ يعلمُ مَنْ خلقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾(2).

---

(1) سورة الأنعام / ١٢٤.

(2) سورة الملك / ١٤.

٣٢) علي عليه السلام والحاكمون

مدخل:

قاسوكَ أبا حسنٍ بسوا ... كَ وهل بالطَّودِ يُقاسُ الذَّرْ

أنَّى ساووكَ بمنْ ناوو ... كَ وهل ساووا نَعْلَي قنبرْ

الحديث في هذا الدرس يدور حول ثلاث نقاط:

١) أنه لا تصح مقارنة بين علي عليه السلام وبين غيره.

٢) ما وجَّهَهُ الإمامُ عليه السلام من انتقاد لمن تولى الحكم قبله بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله.

٣) أن الإمام عليه السلام تتوفر فيه المؤهلات ولديه الحجج التي احتجوا بها ليتسلموا الحكم، بل عنده من الحجج ما يزيد عليهم أيضًا.

ويكون هذا الدرس تتميمًا لموضوع المؤهلات التي يجب أن تتوفر في خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله.

أولاً: المقارنة بين علي عليه السلام وغيره

تحدثنا عن هذا المنصب الجليل (الإمامة) وخطورته والأهمية البالغة لمن يشغل مقام النبي صلى الله عليه وآله، وذلك أن كلمة (إمام) تعني قائدًا للأمة يهدي الناس إلى سواء السبيل ويكون حجة عليهم، لذلك لا بد وأن يكون الإمام مميزًا عن الكل في مستواه العلمي والعقلي والإيماني وما إلى ذلك من كمالات.

وكما عُنِيَ الإمام عليه السلام بأحقيته في الإمامة والنص عليه بها وأقام الدليل على ذلك، نجده أيضًا عُنِيَ وصرَّحَ بأنه لا تصح مقارنة بينه وبين غيره، وما ذاك إلا لبيان أحقيته بالإمامة ودليل ومؤهل آخر يجعله أحق بالإمامة، وليس هذا التصريح من باب الفخر بل هو بيان للحقيقة، ولا مجال هنا للتواضع والتنازل فإن الإمامة أساسًا حق الله تعالى، وقد صرح الإمام بعدم صحة المقارنة بينه وبين غيره في خطبه وفي كتبه خاصة إلى معاوية، ومن ذلك ما يلي:

أ) قال عليه السلام[1]:

«لا يُقَاسُ بآلِ محمدٍ صلى الله عليه وآله من هذهِ الأمةِ أَحَد»: وهذا تعبير جازم وصريح بأنه لا تصح مقارنة بين آل محمد وسواهم، هذا والإمام سيد آل محمد فهو نفس النبي وأبو السبطين ووالد الأئمة الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وليست هذه الأفضلية لآل محمد بشرف النسب بل يعني الإمام بالمقاييس الصحيحة وما به التفاضل، فلا يقاس بهم أحد في علم أو إيمان أو نزاهة، ولهذا لا تعني هذه الكلمة كلَّ آل محمد وفي كل مجال وفضيلة بل تعني من استحق ذلك بما يملك من كمالات، ولهذا فالقريب من محمد من قرَّبه عمله، والبعيد عن محمد من أبعده عمله وإن قرَّبه نسبه.

«ولا يسوَّى بهم من جَرَتْ نعمتُهم عليهِ أبدًا...»: ولعل الإمام يشير إلى أمور بعيدة باعتبار أن نعمة الخلق ونعمة المعرفة والهداية التي أفاضها الله على البشر إنما هي ببركات محمد وآله عليه وعليهم الصلاة والسلام، فهم من جهةٍ علة الخلق، ومن جهةٍ أخرى ظاهرةٍ هم الذين جاهدوا لإيصال المعرفة والهداية

---

(١) خ٢، ص٤٧.

إلى الناس فكانت دعوة الرسول وكان جهاد عليٍّ بفكره وسيفه في سبيل الدعوة.

فعليٌّ نفسُهُ كان مؤسسًا ورائدًا للجهاد في سبيل نصرة الدعوة وإيصالها إلى الناس، وما بالك بقول النبي في يوم الخندق: «الضربةُ عليٍّ خيرٌ من عبادةِ الثقلين»[1]، وذلك لأنه لولا أن الإمام برز وجدَّل أعداء الإسلام لقُضِي على الإسلام والمسلمين بحسب الأسباب الطبيعية، ولم يصل الإسلام إلى ذلك الجيل والأجيال التي تلَتْه إلى يوم القيامة ولم يكونوا ليعرفوا العبادة وسائر تعاليم الإسلام، لذلك فهم مَدِينون لتلك الضربة وذلك الموقف الذي نمَّ عن جهاد خاص من أجل إيصال الدعوة إلى الخلق.

ب) وفي الخطبة الشقشقية، قال عليه السلام[2]:

«مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ معَ الأولِ منهُمْ حتى صِرْتُ أُقرَنُ إلى هذه النظائر»:
فإنه من المعلوم أن صيغ التفاضل إنما تصح إذا كان بين الشيئين أو الشخصين جهة مشتركة يمكن معها المفاضلة كأن يكون شخصان غنيين فنقول هذا أغنى من هذا أو كلاهما مؤمنَين فنقول هذا أشد إيمانًا من هذا، ولكن لا نقول إن هذا المؤمن أشد إيمانًا من ذلك الكافر لعدم وجود جهة الاشتراك أصلًا، والإمام هنا يركز على هذه النقطة وأنه لا يقبل بالمقارنة بينه وبين غيره لأنها لا تصح أصلًا، ولم يكن هناك شك يمكن أن يرِدَ في فضله وعدم مقارنته بالأول منهم بالذات، وما ذَكَرَ الإمامُ عليه السلام الأولَ منهم إلا لأنه أول من حكم لا لميزة فيه أو أنه أفضل من غيره أو لشيء آخر، ولذلك يخطيء أهل السنة كثيرًا حين يرتبون الحكام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) المواقف، للإيجي ٣/ ٦٢٨.
(٢) خ٣، ص٤٩.

في الأفضلية بحسب ترتيبهم في تولي الحكم فيكون الأول أفضل من الثاني، والثاني أفضل من الثالث، بل إن بعضهم يبالغ كثيرًا في الخطأ فيفَضِّل من جاء إلى الحكم أولًا حتى في الشجاعة فيكونون كلهم أشجع من الإمام عليه السلام، وهذا النوع من المقاييس مما لا ينبغي الإجابة عنه أصلًا، فالإمام إذن يستنكر وبشدة مقارنته بغيره.

ج) وفي كتاب وجهه إلى معاوية، قال عليه السلام[1]:

«فيا عَجَبًا للدَّهْرِ! إذ صِرْتُ يُقْرَنُ بي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ولَمْ تكنْ لهُ كسابقتي، التي لا يُدْلي أَحَدٌ بِمِثْلِها، إِلَّا أَنْ يدَّعي مُدَّعٍ...»: فإذا كان التفاضل بالسبق في الفضائل فليس لغيره مثل الذي له عليه السلام، وقد أوردنا في درس سابق[2] شيئًا من النواحي البلاغية في هذا النص الشريف.

وأخيرًا أود أن أذكر نصين حول هذه النقطة لم يذكرهما الشريف الرضي في النهج وقد ذكرهما ابن أبي الحديد في شرحه للنهج، وهذان النصان هما[3]:

النص الأول: قال له عثمان في كلام تلاحيا فيه حتى جرى ذكر أبي بكر وعمر: أبو بكر وعمر خير منك، فقال: «أنا خير منك ومنهما، عبدتُ اللهَ قبلهما وعبدتُهُ بعدهما».

فهو عليه السلام لم يفخر بحسب أو نسب أو شيء مما يتفاخر به أهل الدنيا وإنما افتخر بعبادة الله تعالى وسبقه إلى ذلك في فترة لم يكن أحد منهم يعرف عبادة الله

(١) الكتاب رقم٩، ص٣٦٩.

(٢) درس (الإمامة والنص).

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، الكلمة رقم ٦٦، ج٢٠، ص٢٦٢، والكلمة ٧٣٣، ج٢٠، ص٣٢٦.

تعـالى.

النص الثاني: قـال عليه السلام: «كنتُ في أيام رسـول الله صلى الله عليه وآله كجزء من رسـول الله صلى الله عليه وآله يَنْظُرُ إِلَيَّ النـاس كما يُنْظَرُ إلى الكواكبِ في أفقِ السماء، ثم غضَّ الدهرُ مني فقُرِنَ بي فلانٌ وفلان، ثم قُرِنَ بي خمسةٌ أمثلُهُمْ عثمان، فقلتُ: واذفراه، ثم لَمْ يرضَ الدهرُ بذلك حتى أرذلني فجعلني نظيرًا لابنِ هندٍ وابنِ النابغة، لقد استنَّتِ الفِصَالُ حتى القَرْعَى».

ومـن الملاحـظ أن الإمـام يـصرح بالأسـماء أحيانًـا ولكـن بعـض الكتـاب لا يجرؤون على إيراد الاسم الصريح أو أنهم احترامًا للشيخين يقولون: فلان وفلان، فالإمـام عليه السلام يـصرح أن مقارنتـه بـالأول والثـاني غـضٌّ لحقـه وفضلـه وأنهـا لا تصح أساسًا، ثـم أنزلـه الدهـر حتـى قُرِنَ بالخمسـة في شـورى عمـر، ثـم لم يـرضَ الدهـر حتى أنزلـه وقرنـه بابـن هنـد معاويـة وابـن النابغـة عمـرو بـن العـاص، والمثل الـذي أورده الإمـام عليه السلام يُضرب لمن يرعـى أمـرًا فـوق مسـتواه أو ينـال مـا ليس لـه، فالإمـام إذن يضمِّـن آهاتـه وحسراتـه بسـبب هـذه المقارنـة بينه وبـين مـن لا تليـق المقارنـة بـه.

ثانيًا: الانتقاد

ومسـألة الانتقـاد ممـا ابتلي بهـا المسـلمون فتحجـرت عقـول بعضهـم عندهـا، وكان للتعصب دوره الكبير في الإصرار على عدالـة كل الصحابة، وأن رسـول الله صلى الله عليه وآله اسـتغفر لأهـل بـدر، وأن الله اطلـع عـلى قلوبهـم فقـال افعلـوا مـا شـئتم... وجـرت خطـوب السياسـة فأوقفت العقـول وحَرَّمَـتِ الحديـث وانتقـاد أيِّ فـردٍ رأى النبي صلى الله عليه وآله بـأي نحو كان، وهـذا ظلـم للحقيقـة وجـور على الحق، ومـن هنا تكمـن الأهمية البالغـة لأحاديث الإمـام عليه السلام بهـذا الصدد، فهـو -كما عبرنـا مـرارًا- أصدق المؤرخين

وأقربهم إلى تلك الأحداث وذلك الصراع، فنجد أنه بكل لباقة من جهة، وبكل وضوح وجرأة من جهة أخرى تحدث في هذا المجال وانتقد ممارسات الحاكمين وأشار إلى افتقارهم لمؤهلات الحكم وخلافة الرسول ﷺ وشغل ذلك المنصب الجليل، فانتقد الثلاثة: أبا بكر وعمر وعثمان، وشخصيات أخرى.

وقد أوجد ذلك الانتقاد وخاصة الخطبة الشقشقية شجًى وقذًى عند أعداء أمير المؤمنين عليه السلام أو المتعصبين لتلك الشخصيات، فحاولوا إبعاد ذلك الانتقاد لكي لا يأخذ أثره الكبير، وكان من نتائج ذلك الطعن في نسبة النهج إلى الإمام عليه السلام، وقد أجبنا عن ذلك، ومن أحاديثه عليه السلام بهذا الصدد ما يلي:

أ) قال عليه السلام في الخطبة الشقشقية أيضًا[1]:

١) أبو بكر:

«أما والله لقد تقمَّصَها فلانٌ وإِنه لَيَعْلَمُ أن مَحَلِّي منها مَحَلُّ القُطْبِ من الرَّحَى، ينحدرُ عني السيلُ، ولا يرقى إليَّ الطيرُ».

وقد قلنا إنه في بعض النسخ تصريح باسم ابن أبي قحافة، وعلى كل فالمعني بالأمر معروف، كما قلنا إن معنى تقمصها أي لبسها كالقميص، فالإمام ينتقد وبوضوح هذا العمل لأن الذي اغتصب الخلافة كان يعلم تمامًا أن الإمام عليه السلام أولى بها فهو لها كالقطب في الرحى قريب منها ولائق بها ولا تصلح إلا به، ويلاحظ تمام الأدب والسمو في عبارات الإمام صلوات الله وسلامه عليه.

«فسدَلْتُ دونها ثوبًا، وطَوَيْتُ عنها كَشْحًا»: فمن كان يرى الحكم بل الدنيا

(١) خ٣، ص٤٨.

كورقة في فم جرادة ، ومن كانت الخلافة عنده كالنعل البالية لا قيمة لها- لا بد وأنه يزهد فيها لِذَاتِها ولا يطلبها إلا ليقيم الحق.

«وطَفِقْتُ أَرْتَئِي بينَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ على طَخْيَةٍ عَمْياءَ»: فإن الإمامة حق الله تعالى، والإمام يعلم أن الواجب عليه أن يسترجعها، ولكنه لم يفعل ذلك لقلة الناصر ولخوفه على الإسلام من أعدائه الذين كانوا يتربصون به في تلك الفترة العصيبة ويستغلون خلاف المسلمين للقضاء على الإسلام والمسلمين، ولأسباب أخرى، ولذلك صبر الإمام محتسبًا وتجرع الغصص حتى لقي ربه.

٢) عمر:

«حتى مَضَى الأولُ إلى سبيلِه فأَدْلَى بها إلى فلانٍ بعدَه. ثم تمثَّل بقولِ الأعشى:

شتانَ ما يومي على كورِها ويومُ حيَّانَ أخي جابرِ

فيا عجبًا!! بينا هو يستقيلُها في حياتِهِ إذْ عَقَدَها لآخرَ بعد وفاتِه، لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَيها!»: وهذا غاية البلاء أن يغتصب الأول الخلافة ثم يطلب الاستقالة منها لعلمه أنها ليست له، ومع ذلك فهو يعطيها للثاني بعد مماته وحتى دون استشارة أحد، وكأنها حقه وملكه، فأصبحت الخلافة كالبقرة الحلوب شَطْرٌ لأبي بكر وشطرٌ لعمر، وقد أورد التأريخ أن عمر هو أول من بايع أبا بكر وهو الذي عقد له البيعة ومكَّنَه من الخلافة، ولذلك يستدل بعض علماء السنة بذلك على صحة عقد الخلافة لشخص إذا بايعه ولو شخص واحد، ثم كافأ أبو بكر عمر على ذلك فأعطاه الخلافة بعده.

ولكن لمن أعطاها؟

«فصيَّرها في حوزةٍ خشناءَ»: فقد عُرِفَ عمر بالخشونة والشدة حتى أن ابن أبي الحديد قال متحدثًا عن عائشة: «ولو كانت فعلتْ بعمر ما فعلتْ بهِ، وشقَّتْ عصا الأمةِ عليه ثم ظفرَ بها، لقتلَها ومزَّقها إربًا إربًا، ولكنَّ عليًّا كان حليمًا كريمًا»[1]، واعتذر ابن أبي الحديد أيضًا لعمر بأن هذه الشدة والفظاظة فيه غريزة جُبِلَ عليها.

«يغلُظُ كلْمُها...»: أي يشتد جَرحها للأمة.

«ويكثُرُ العِثَارُ فيها...»: أي الخطأ والزلل فيها وتلك نتيجة عدم العلم، ولهذا أُحصِيَ لعمر سبعين مرة أو أكثر يقول فيها: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن، ولولا علي لهلك عمر[2].

«فصاحبُها كراكبِ الصعبةِ إنْ أشنقَ لها خرَم وإنْ أسلَسَ لها تقحَّم»: أي عمر وحاله مع الخلافة، كراكب الناقة الصعبة، إن شد لجامها ليتمكن منها فإنه قد يقطع أنفها، وإن أسلس وأرخى اللجام ذهبت به وأقحمته في الأخطار.

«فمُنِيَ الناسُ -لعمرُ اللهِ-...»: فإنها عشر سنوات قاسى الناس فيها بلاءً شديدًا ومحنةً كبرى.

فيا للّهِ وللشورى!

«حتى إذا مضى لسبيلِهِ جعلها في جماعةٍ زعمَ أني أحدُهُم، فيالله وللشورى!

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١٧/ ٢٥٤، شرح الكتاب رقم٦٤.

(٢) يمكن مراجعة الغدير ٦/ ٨٣ إلى ص٣٣٣، نوادر الأثر في علم عمر. وبالخصوص الصفحات: ١١٠ ، ١١١، ١٢٦، ١٤٤، ١٧٢، ٢٤٧.

متى اعترضَ الريبُ فيَّ مع الأولِ منهم حتى صِرْتُ أُقرَنُ إلى هذه النظائر!»: وقد ذكرنا معنى تخصيص الإمام عليه السلام الأول منهم بالذكر.

«فصغى رجلٌ منهم لضغنِه، ومالَ الآخرُ لصهرِه، معَ هَنٍ وهَنٍ»: إذ كانت الشورى سداسية، وكان عمر يعلم أن عبد الرحمن بن عوف يميل إلى عثمان وكذلك سعد بن أبي وقاص لأن أمه من بني أمية، والتعبير (مع هَنٍ وهَنٍ) أي مع أمور أخرى وغالبًا ما يستخدم ذلك كناية عن أمور مستقبحة.

٣) عثمان:

«إلى أن قامَ ثالثُ القومِ»: وهذا تعبير لطيف من الإمام يقصد به أن عثمان الثالث من شاكلة قومه الأول والثاني.

«نافجًا حِضنَيهِ بين نثيلِهِ ومُعتَلَفِهِ»: ويقصد الإمام بهذا أن هَمَّ الثالث كان علفه ودنياه(١).

«وقامَ معه بنو أبيهِ يَخْضَمُونَ مالَ اللهِ خِضْمَةَ الإبلِ نِبتَةَ الربيع»(٢).

---

(١) قال ابن أبي الحديد عند شرحه للخطبة الشقشقية ١/ ١٩٧: يريد أن همَّهُ الأكل والرجيع، وهذا من ممض الذم وأشد من قول الحطيئة الذي قِيلَ إنه أهجى بيت للعرب:

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لِبُغْيَتِها ... واقعُدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

(٢) وقال ابن أبي الحديد عند شرحه للشقشقية ١/ ١٩٨-١٩٩ متحدثًا عن عثمان: وصحَّت فيه فراسة عمر، فإنه أوطأ بني أمية رقاب الناس، وولَّاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتُتِحَت إفريقية في أيامه فأخذ الخمسَ كلَّهُ فوهبه لمروان...

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صِلَةً فأعطاه أربعمائة ألف درهم، وأعاد الحكم بن أبي العاص

«إلى أن انتكثَ عليهِ فتلُه، وأجهزَ عليهِ عملُه، وكبتْ بهِ بِطنتُه!»: وهذا غاية الأمر أن يكون كل ما أصاب عثمان من بلاء وغضب من الناس حتى قتلوه كان بسبب حرصه على لذات الدنيا وملأ بطنه، فكانت تلك عاقبته.

وذكر الشيخ المطهري أن الإمام تحدث عن عثمان في ١٦ موضعًا في النهج نظرًا لكثرة المحن التي جرَّها عثمان وشدة البلاء عليه[١].

ب) وقال عليه السلام في معنى قتل عثمان[٢]:

«وأنا جامعٌ لكم أمرَه، استأثر فأساءَ الأثَرة، وجزعتُمْ فأسأتُم الجزَع، ولله حكمٌ واقعٌ في المستأثرِ والجازع»: أي أنه طمع وأساء، وهذا تعبير دقيق من الإمام وبيان لواقع الحال.

ج) وقال عليه السلام في حديث إلى عثمان[٣]:

«فاعلمْ أن أفضلَ عبادِ اللهِ عندَ اللهِ إمامٌ عادلٌ، هُدِيَ فهدى... وإنَّ شرَّ الناسِ

بعد أن كان رسول الله 1 قد سيَّره ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم، وتصدق رسول الله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزوز على المسلمين، فأقطعه عثمانُ الحارثَ بن الحكم أخا مروان بن الحكم، وأقطع مروان فدك... وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية، وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب... وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف....

(١) في رحاب نهج البلاغة، للشيخ المطهري، فصل (نقده للخلفاء)، ص١٢١.

(٢) خ٣٠، ص٧٣.

(٣) خ١٦٤، ص٢٣٥.

عند الله إمامٌ جائرٌ ضلَّ وضُلَّ به... فلا تكونَنَّ لمروانَ سيِّقَةً يسوقُكَ حيثُ شاءَ، بعد جلالِ السنِّ وتَقَضِّي العُمْرِ»: وهذه صراحة ودقة في النقد ما بعدها شيء.

ويذكر التأريخ أن مروان كان هو المتحكم في عثمان وحكمه، وقد كانت زوجة عثمان أيضًا تخبره أن بلاءه هو من مروان.

د) وفي كتاب إلى معاوية، قال عليه السلام[1]:

«وما كنتُ لأعتذرَ من أني كنتُ أنقمُ عليهِ أحداثًا، فإن كانَ الذنبُ إليه إرشادي وهدايتي له، فرُبَّ ملومٍ لا ذنبَ له»[2].

ثالثًا: حجة الإمام عليه السلام

فقد أخذ الإمام الحجة منهم عليهم وأدانهم بها بل وزاد عليها، كما يتجلى في هذه النصوص التالية:

أ) «لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله قال عليه السلام:

ما قالتِ الأنصار؟ قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير؛ قال عليه السلام: فهلاَّ احتججتم عليهم بأن رسولَ الله صلى الله عليه (وآله) وسلم وصَّى بأن يحسنَ إلى محسنِهم، ويُتجاوزَ عن مسيئِهم؟ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ فقال عليه السلام: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصايةُ بهم، ثم قال عليه السلام: فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم، فقال عليه السلام:

---

(١) الكتاب رقم٢٨، ص٣٨٨.

(٢) وللتوسع في مجال النقد يراجع كتابنا الكبير (النصب والنواصب) فقد أوردنا الكثير من ذلك في تراجم الحكام الثلاثة.

احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة»[1].

وحجة الإمام في الأنصار واضحة، وإذا كانت المسألة بالقرابة فأهل البيت أولى برسول الله وأقرب من سائر قريش.

ب) وقال عليه السلام متعجبًا ومفندًا[2]:

«وا عجباه! أتكونُ الخلافةُ بالصحابةِ والقرابة؟»، وفي رواية يذكرها ابن أبي الحديد: «واعجبًا أتكونُ الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة»[3].

فعلى الرواية الأولى ليست الصحابة ولا القرابة مقياسًا صحيحًا للأحقية بالخلافة وتولي منصب جليل كان يشغله رسول الله صلى الله عليه وآله، والحق أن أحقية آل محمد عليهم السلام بالخلافة ليست بسبب القرابة بل بسبب المؤهلات التي أهلتهم لذلك، ومن أهم الدلائل النص فهو يكشف عن المؤهلات لتولي هذا المنصب المهم، وقد كان النص وكانت المؤهلات جلية في أشخاص الأئمة عليهم السلام، وعلى الرواية الثانية حتى لو أردنا الصحابة مقياسًا فإن عليًّا عليه السلام يشترك مع القوم في كونه صحابيًّا، بل يزيد عليهم بطول الصحبة وقرابته أيضًا، وأين أبو بكر وعمر وعثمان من القرابة الشديدة والصلة الوثيقة بين رسول الله وبين علي؟

قال الرضي: وروي له شعر في هذا المعنى:

فإنْ كنتَ بالشورى ملكتَ أمورَهمْ ... فكيفَ بهذا والمشيرونَ غُيَّبُ

وإنْ كنتَ بالقُربى حجَجْتَ خصيمَهمْ ... فغيرُكَ أولى بالنبيِّ وأقربُ

---

(1) خ٦٧، ص٩٧.

(2) الحكمة رقم١٩٠، ص٥٠٢.

(3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨/ ٤١٦.

٣٣) الأئمة

مدخل

قال اللهُ العظيم في محكمِ كتابِهِ الكريم:

﴿يومَ ندعُو كلَّ أُناسٍ بإِمامِهِم﴾(١).

درسُنا لا يزال حول موضوع الإمامة بعد أن تحدثنا في دروس سابقة عن ادعاء أمير المؤمنين عليه السلام للإمامة وإقامته الدليل والحجة وانتقاده لمن تصدى قبله للحكم، ويتناول درسنا هذا ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام حول الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وهو يدور حول جهتين:

أولاً: التقاء النصوص العامة والخاصة في الأئمة عليهم السلام وانطباقها عليهم

ونعني بذلك أن كل الأحاديث التي تدور في فلك الإمامة والمسلَّم بها والمقبولة عند كافة المسلمين جميعها تنطبق وتؤيد مقولة أهل البيت عليهم السلام حول الإمامة، وهذا الانطباق دليل ومقياس لصحة المعتقد، أما الآراء الأخرى حول الإمامة من غير طريق أهل البيت عليهم السلام فإن الخلل فيها واضح والإشكالَ بيِّنٌ ويلاحظ بُعْدُها عن هذه الأحاديث المسلَّم بها وعدم قدرتها على تفسيرها، فحينما نستعرض حديث (الثقلين) وحديث «الأئمةُ اثنا عشرَ كلُّهم من قريش»، أو «كلُّهم

(١) سورة الإسراء / ٧١.

من بني هاشم»، كما بينا في درس سابق[1]، والروايات الأخرى كالتي جاءت في الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٥٠: «في كلِّ خلفٍ من أمتي عدولٌ من أهلِ بيتي ينفُونَ عن هذا الدينِ تحريفَ الضالِّين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين، ألا وإِنَّ أئمتكم وفْدُكُم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فانظروا من تُوفِدون»، وأحاديثَ أخرى كثيرة كحديث (سفينة نوح) و(باب حطة) يمكن مراجعتها مثلًا في المراجعة العاشرة من كتاب (المراجعات) للإمام شرف الدين رحمه الله، فحينما نستعرض هذه الأحاديث وكثيرًا غيرها نجد أنها لا تنطبق إِلاَّ على مقولة أهل البيت عليهم السلام حول الإمامة.

وهنا أمران آخران:

الأمر الأول:

أن هذه الروايات وهذا الموضوع الذي تتحدث عنه عاد محيِّرًا لعلماء السنة الذين وقفوا حائرين أمام هذه الروايات التي جاءت في صحاحهم وكتب الحديث عندهم، فهذا السيوطي وهو من أعلامهم المتبحرين في علم الحديث يلقي قولًا عجيبًا بل مضحكًا في تحديد الأئمة الاثني عشر الذين يجدهم في أحاديث صحيحة كثيرة عندهم، فيقول إن هؤلاء الأئمة الاثني عشر هم الخلفاء الأربعة وخامسًا معاوية وسادسًا الحسن وسابعًا الزبير وثامنًا عمر بن عبد العزيز فهؤلاء ثمانية يمكن أن يضاف إليهم المهدي العباسي لأنه يشبه فيهم عمر بن عبد العزيز في الأمويين ويبقى منتظران آخران أحدهما المنتظر من آل محمد والمنتظر الآخر لم يذكره، ومع كل هذا التخبط والتجاوز واختيار حكام دون آخرين فإن العدد لم يكمل بعد، ولهذا عقَّب أبو رية ناقل الكلام بقوله رحم الله من قال إن السيوطي كحاطب ليل[2].

---

(١) درس (الإمامة والنص).

(٢) نقل ذلك السيد محمد تقي الحكيم رحمه الله في كتابه (الأصول العامة للفقه المقارن)/ ١٨٠، نقلاً عن

وكذلك الفضل بن روزبهان في رده على العلامة الحلي كان على هذه الشاكلة[1]، فهم يتخبطون في تعداد أسماء هؤلاء على مر التأريخ في حين أن الإمامية يأتون بأسماء الأئمة على نسق تأريخي صحيح وبصفاتهم المميزة التي اعترف لهم التأريخ بها وشهد بفضلهم كما أنهم يستندون إلى أدلة نقلية من الروايات الأخرى وأدلة عقلية جلية.

الأمر الثاني: طريفة:

يذكرها السيد عبدالله شبر[2] وخلاصتها أن سلطانًا من سلاطينهم بعد أن اطلع على هذه الأحاديث جمع علماء بلده وسألهم على من تنطبق هذه الروايات فإذا كان على كل أحد من قريش فالذين تصدوا منهم للحكم كثيرون، وإذا كان على مجموعة منهم فمن هي هذه المجموعة الخاصة المعينة، فاستمهلوه ١٠ أيام ثم بعد أن جمعهم غاب أحدهم وكان أبرزهم وأنبههم فلما طلب حضوره طلب منه الأمان أولًا ثم قال في جوابه إن هذه الروايات لا تنطبق إلا على مذهب الإمامية، ولكنا نقول إنها أخبار آحاد لا تُثبتُ علمًا ولا حجةً، فقنع منه وقبل قوله.

ويعقِّب السيد عبدالله شبر أن هذه روايات صحيحة ومتواترة وبعيدة تمامًا عن إطار أخبار الآحاد فلا يصح الحكم عليها بهذا الحكم.

أبي ريَّة في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) ص٢١٢.

(١) كما في (دلائل الصدق) للشيخ محمد حسن المظفر ٢/ ٣١٥، وتجدر مراجعة ص٣١٤ إلى ص٣١٩.

فقد ألَّفَ العلامة الحلي كتابه (كشف الحق) وردَّ عليه ابن روزبهان بكتابه (إبطال الباطل) فرد القاضي نور الله على ابن روزبهان بكتابه (إحقاق الحق) وانتصر الشيخ المظفر للعلامة بِـ(دلائل الصدق).

(٢) في كتابه (حق اليقين) ١/ ٢٠٢.

إذن فالنقطة الأولى هي انطباق أحاديث الإمامة على نظرية أهل البيت فقط ووضوح مصداق الأئمة الإثني عشر في أئمتهم عليهم السلام مما يدلل على صحة المعتقد وقوته.

ثانيًا: نص الوصي

وهذا مطلب مهم يعتمد على ما قُرِّرَ من أن الإمام يكون بالنص عليه إما من قِبَلِ الرسول أو من قِبَلِ الإمام الذي يسبقه، وحيث أن الإمام السابق معلومة إمامته مُصَدَّقٌ في قوله فيكون نصُّهُ على من يليه صحيحًا مثبتًا للإمامة، وقد بيَّنا فيما سبق أن النص الأول هو في الأساس من قِبَلِ الله تعالى وليس تبرعًا أو تكلفًا من عند الرسول أو الإمام، فنصوص أمير المؤمنين عليه السلام حول الإمامة هي بأمر الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو أردنا أن نصنف هذه النصوص على الإمام لوجدنا أنها صنفان أساسان:

الأول: النصوص العامة:

وهي التي تحمل امتياز أهل البيت عليهم السلام على من سواهم وأهليتهم للإمامة بمؤهلات العلم وجامعية المعرفة والإحاطة بكتاب الله تعالى وأنهم لا يقاس بهم أحد في فضيلة وبهم استقام الدين.

الثاني: النصوص الخاصة:

كذكره الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام أو حديثه عن الإمام المهدي عليه السلام، وأما بقية الأئمة فلم يرد ذكرهم فيما بين يدينا من نهج البلاغة وإن كانوا قد ذُكِروا بأسمائهم في أحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن مجال درسنا هو فلك نهج البلاغة.

نماذج من النصوص العامة:

أ) قال (عليه السلام)[1]:

«هم موضعُ سرِّهِ، ولجَأُ أمرِهِ، وعيبةُ علمِهِ، وموئلُ حكمِهِ، وكهوفُ كتبِهِ، وجبالُ دينِه»: فأهل البيت (عليهم السلام) هم لجأ (ملاذ) أمر الله تعالى وعيبة (وعاء) علمه وهم كهوف كتبه المنزلة على الأنبياء أي أنهم يحيطون بالتوراة والإنجيل والزبور والصحف التي أنزلت على إبراهيم وغيره من الأنبياء (عليهم السلام) بالإضافة إلى إحاطتهم بكتاب الله القرآن الكريم وهذه دعوى كبيرة لا تتم لأحد غيرهم.

«بهم أقامَ انحناءَ ظهرِهِ، وأذْهَبَ ارتعادَ فرائصِه»: فحينما يتولى أمر الدين غيرهم ينحني أمره وترتعد فرائصه أما هم فإنهم مصدر قوته وأمانه.

ب) وحبًّا وحرصًا على هداية الأمة أكّد (عليه السلام)[2]:

«انظروا أهلَ بيتِ نبيِّكم فالْزَمُوا سَمْتَهم واتَّبِعُوا أثَرَهم، فلن يُخْرِجُوكم مِنْ هدى، ولن يُعِيدُوكم في ردى، فإنْ لَبَدُوا فالْبُدُوا، وإن نَهَضُوا فانْهَضُوا»: وهذا الأمر بالاتباع المطلق ليس دعوةً للتقليد الأعمى بل للتقليد الأهدى، وهو مُعَلَّلٌ بأنهم يقودون إلى الهدى ويُبعدون عن الضلال والردى وهم محل ثقة الله ومصاديق العصمة والهداية.

ج) ويقرر (عليه السلام) هذه الحقيقة بقوله[3]:

«ألا إن مثَلَ آلِ محمدٍ (صلى الله عليه وآله) كمثلِ نجومِ السماءِ إذا خوى نجمٌ طلعَ نجمٌ،

---

(١) خ٢، ص٤٧.

(٢) خ٩٧، ص١٤٣.

(٣) خ١٠٠، ص١٤٦.

فكأنكم قد تكامَلَتْ من الله فيكمُ الصنائعُ وأراكم ما كنتم تَأْمَلُونَ»: ففي كل فترة إمام من آل محمد قائم بأمر الدين، وهذا ضمان وأمان للناس من الضلال، وقد علمنا أن التعبير بآل محمد أو العترة أو أهل البيت لا يُقصَدُ به عموم السادة -ممن له شرف الانتساب- بل يقصد به تلك المجموعة الخاصة المباركة المتمثلة في الأئمة عليهم السلام، ولعل آخر الكلام إشارة إلى الإمام المهدي عليه السلام لأن به كمال النعمة وتحقق آمال المؤمنين بإقامة العدل وإبادة الظلم.

د) ويكرر الإمام عليه السلام هذه الحقيقة بأسلوب آخر بقوله[1]:

«نحن شجرةُ النبوَّةِ، ومحَطُّ الرسالةِ، ومختلَفُ الملائكةِ، ومعادِنُ العِلْمِ، وينابيعُ الحُكْمِ، ناصِرُنا ومحبُّنا ينتظرُ الرحمةَ، وعدوُّنا ومبغضُنا ينتظرُ السَّطْوَةَ»:

فقد أوضح هنا المؤهلات التي ميزت أهل البيت عليهم السلام وأَهَّلَتْهم للإمامة من كون الملائكة تتنزل في بيوتهم فهم أصل الدعوة، ومن كونهم أصحاب العلم لا يجاريهم فيه أحد، ثم بيَّن عليه السلام وجوب اتباعهم وأهمية ذلك وأن ناصرهم موضع للرحمة في الدنيا والآخرة وعدوهم موضع للعذاب في الدنيا والآخرة.

هـ) وقال عليه السلام[2]:

«فإنه من مات منكم على فراشِهِ وهو على معرفةِ حقِّ ربِّهِ وحقِّ رسولِهِ وأهلِ بيتِهِ مات شهيدًا...»: فهنا يذكر الإمام هذه الأصول المهمة: التوحيد والنبوة والإمامة وأن العارف بها يرتقي إلى مرتبة الشهيد ولو مات على فراشه،

---

(١) خ١٠٩، ص١٦٢.

(٢) خ١٩٠، ص٢٨٣.

وما ذاك إلا لجلال مقام هذه الأصول التي منها الإمامة.

وهذا النص ينسجم مع رواية يرويها الجميع: «مَنْ ماتَ على حبِّ آلِ محمدٍ ماتَ شهيدًا»[1].

و) وفي حديث إلى كميل بن زياد رضي الله عنه قال عليه السلام[2]:

«اللهم بلى لا تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحجةٍ، إما ظاهرًا مشهورًا، وإما خائفًا مغمورًا...»: وهذه إشارة واضحة إلى الإمام المهدي عليه السلام لأنه هو الإمام المغَيَّب، وهذا ينسجم مع المعتقد الحق وسيرة الأئمة من تعاقبهم على أمر الدين ووجودهم في كل فترة.

ولا يخفى أن هذه النصوص المتقدمة صادرة عن مصدر مسؤول، قوله حجة وتبليغه هو من عند الله تعالى.

نماذج من النصوص الخاصة:

أ) قال عليه السلام[3]:

«فأين تذهبون؟ وأنَّى تُؤفكون! والأعلامُ قائمة، والآياتُ واضحة... وبينكم عترةُ نبيِّكم! وهم أَزِمَّةُ الحق، وأعلامُ الدين وألسِنَةُ الصدق! فأنزِلوهم بأحسنِ منازلِ القرآنِ، ورِدُوهم ورودَ الهِيمِ العِطاش... ألم أعملْ فيكم بالثقلِ الأكبر، وأتركْ فيكم الثقلَ الأصغر!».

(١) ينابيع المودة ٢/ ٣٣٣، وتفسير الرازي ٢٧/ ١٦٥، وغيرها.

(٢) الحكمة رقم١٤٧، ص٤٩٧.

(٣) خ٨٧، ص١١٩.

وهذا النص ينسجم مع حديث الثقلين (كتاب الله وعترة رسوله) فكان يجب على الناس أن يتبعوا العترة كما يتبعون القرآن وأن يعطوا القرآن والعترة حقيهما من الالتزام بهما وأن يأتوا العترة برغبة وشوق كما تأتي الإبل العطاش إلى الماء.

ب) وفي كتاب جوابًا إلى معاوية، قال عليه السلام[1]:

«ومنا سيِّدا شبابِ أهلِ الجنة، ومنكم صِبْيَةُ النار...»: فهذه إيماءة إِنْ لم تكن نصًّا صريحًا على إمامة الحسن والحسين عليهما السلام اللذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، لأن هذه السيادة لا تتأتى إلا للكامل في جميع الصفات والأخلاق والملكات وهذه هي العصمة التي هي شرط للإمامة.

ج) وفي ما استدركه ابن أبي الحديد على النهج[2] قوله عليه السلام:

«اللهم إني أستعديكَ على قريشٍ فإنهم أضمَرُوا لرسولِك صلى الله عليه وآله ضروبًا من الشرِّ والغدرِ فعجزوا عنها وحُلْتَ بينهم وبينها فكانت الوجبةُ بي والدائرةُ عليَّ»: فهو يسأل الله تعالى أن يأخذ له بحقه من قريش لأن البلاء منهم كان خاصة عليه، وعليه وقعت المحنة فكانت مظلوميته أشد وأعظم.

«اللهم احفظْ حسنًا وحسينًا ولا تمكِّنْ فجرةَ قريشٍ منهما ما دمتُ حيًّا»: فإن الحفظ والسلامة يراد لكل العترة بل لكل المسلمين ولكن تخصيص الحسن والحسين بهذا الأمر إنما كان لمقامهما من الإمامة.

(١) الكتاب رقم٢٨، ص٣٨٧.

(٢) في شرحه للنهج ٢٠/ ٢٩٨، الكلمة رقم٤١٣.

د) وفيما ذكره حول الإمام المهدي عليه السلام قوله(١):

«يَعْطِفُ الهوى على الهدى إذا عَطَفُوا الهدى على الهوى، ويَعْطِفُ الرأيَ على القرآنِ إذا عَطَفُوا القرآنَ على الرأي... وتُخرِجُ له الأرضُ أفاليذَ كبدِها، وتُلقي إليه سِلْمًا مقاليدَها، فيُريكم كيف عدلُ السيرة، ويحيي ميتَ الكتابِ والسُّنة»: وهذا النص هو من أخبار الملاحم وهي قضايا من عالم الغيب يخبِر بها الإمام قبل وقوعها فتقع بعد حين كما أخبر بها.

وهو يشير هنا إلى تبدل مقاييس الناس فحينما يريدون أن يكون الهدى تابعًا للهوى يأتي من يجعل الهوى والميل إلى الهدى، وحينما يريدون أن يجعلوا القرآن حسب آرائهم يأتي من يجعل آراءهم حسب القرآن، وتخرج له الأرض خيراتها فيُرِي الناس العدل العظيم، ويحيي ما اندثر من تعاليم الكتاب والسنة وأضاعه الناس.

هـ) وتحدَّث عن بعض بركات الإمام المهدي عليه السلام قائلًا:

«لتعطِفَنَّ الدنيا علينا بعد شِماسِها عطْفَ الضَّرُوسِ على ولدِها وتلا عقيب ذلك: ﴿ونُرِيْدُ أَنْ نَمُنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ ونَجعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾(٢)».

والآية التي تلاها الإمام فُسِّرتْ في المهدي عليه السلام فإن الدنيا منعت أهل البيت عليهم السلام من خيرها، وظَلَمَهم أهلُها واستضعفوهم ولم يتغير هذا الظلم بعدُ، فهي إشارة إلى رجوع الحق إلى أهله بظهور المهدي عليه السلام الذي يرث الأرض وتهب له

(١) خ١٣٨، ص١٩٥.

(٢) سورة القصص / ٥.

خيراتها فيتحقق نصرُ المستضعَفين وسعادتهم.

و) وقال عليه السلام[1]:

«قد لبسَ للحكمةِ جُنَّتَها... فهو مغترِبٌ إذا اغتربَ الإسلامُ وضَرَبَ بعَسِيبِ ذنبِه وألصقَ الأرضَ بجِرَانِه، بقيةٌ من بقايا حجتِه خليفةٌ من خلائِفِ أنبيائه».

فهذه إشارة إلى ما يؤول إليه أمر الدين من ضعف وهوان وغربة حتى يأتي من يعيد له قوته وعزته وهو البقية والحجة المهدي عليه السلام.

وقد لاحظت في الشروح كشرح ابن أبي الحديد أنه يفسر هذه النصوص بأنها تعني المهدي عليه السلام ويقول إن مقالة الإمامية تعني إمامًا حاضرًا ومقالتهم هم تعني إمامًا سيولد بعد ذلك، فالجميع إذن متفق أن هذه النصوص تشير إلى قضية المهدي عليه السلام مع اختلاف المنهجين.

وقد عُدَّتْ أحاديث الإمامة بشكل عام والصادرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنها من الإنباء بالغيب لأنه تحدث عن أئمة بأسمائهم وتسلسلهم قبل أن يولدوا بعد وقد دُوِّنت هذه الأحاديث عند الجميع قبل ميلاد جملة من الأئمة وكان الناس على علم بها، ثم تتحقق الأحاديث كما تحدث بها الرسول فيولد الأئمة ويتصدون للإمامة ويكون لهم ذلك الوجود البارز والامتياز الخاص على أهل زمانهم، ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[2].

(١) خ١٨٢، ص٢٦٣.

(٢) سورة النساء / ٨٢.

٣٤) علي والحكم

مدخل:

جُمِعَتْ في صفاتِكَ الأضدادُ فلهذا عزَّتْ لكَ الأندادُ

موضوعنا الذي سنتناوله فيما يأتي من دروس -إن شاء الله تعالى- هو حول عليٍّ: الإمام الحاكم والإمام الإنسان، ونتناول في هذا الدرس نقطة واحدة كمقدمة للموضوع وهي الأهمية الذاتية للحكم من جهة، وزهد الإمام فيه من جهة أخرى، ونتناول فيما يأتي من حلقات هذا الموضوع شيئًا من سياسة الإمام في حكمه، وإنسانيته وأخلاقه كحاكم.

أولاً: الأهمية الذاتية للحكم وحرص الإمام عليه

فقد كان الإمام عليه السلام على يقين تام بأن الحق والحكم له وكان يصرِّح بأنه لو وجد أنصارًا ولم يكن هناك خطر على الإسلام لحارب من أجل استرجاع حقه السليب، وذلك لأن الإمامة والحكم ليست مسألة شخصية اختيارية يقوم بها الإمام أو يدعها بل هي قضية إلهية على نسق النبوة التي يجعلها الله تعالى لمن هو أهلها من عباده ﴿اللهُ أَعْلَمُ حيثُ يجعلُ رِسالَتَهُ﴾[1]، فكما أن الإمام مكلفٌ بالصلاة والصيام ولا مجال له أن يدع ذلك، فكذلك هو مكلف بالقيام بالإمامة والحكم كتكليف النبي بالنبوة والدعوة، ولا مجال له أن يدع ذلك ويتنازل عنه،

(١) سورة الأنعام / ١٢٤.

بل إن موضوع الإمامة أسمى وأجل من سائر التكاليف بالعبادات لأهميتها البالغة في إقامة الدين وهداية الأمة.

ومن هذا المنطلق كان الإمام حريصًا على أمر الحكم ومستميتًا في ذلك، إلا أنه لم يتهيأ له من الظروف ما يمكِّنه من أخذ حقه وكانت هناك أسباب تمنعه بيناها فيما سبق، كعدم وجود ما يكفي من الأنصار والخوف على الإسلام في تلك الفترة الحرجة التي رجع فيها من رجع من الناس واستعد أعداء الإسلام للقضاء عليه.

وكان الإمام -وهو المحيط بأوامر الشرع ونواهيه وتعاليمه وقضايا الدعوة- عالمًا بحاجة الناس أن يتعرفوا منه على أحكام الدين وغاياته وجميع شؤونه بما يصلحهم في دنياهم وأخراهم، فكان والحال هذه لا يسعه أن يتنحَّى ويعتزل ويترك أمر الأمة على ما هي عليه من الحاجة إليه.

وأما من جهة أخرى تتعلق بملكات الإمام وذاته السامية فقد كان أزهد الناس في الحكم لذاته بل في الدنيا بأسرها بكل نعيمها ومغرياتها، وإن كل ما أبداه الإمام من آهات وحسرات ومطالبة بالخلافة إنما كان من أجل إحقاق الحق وإقامة العدل وإيصال الدين كما أراده الله تعالى إلى الناس.

ويعرف ذلك جليًّا في سيرته عليه السلام بالدرجة الأولى، كما يعرف من النصوص التي نستعرض هنا بعضها ويلاحظ عليها أنها قد تحوي مزيجًا من هذه الحقائق التي بيناها، كما أن بعضها ذكرناه في دروس سابقة كشواهد على نقاط أخرى لذلك قد نعرض هنا عن إعادة شرحها، فمن هذه النصوص ما يلي:

أ) قوله عليه السلام حول ضرورة الأمير[1]:

«وإنه لا بدَّ للناسِ من أميرٍ بَرٍّ أو فاجر، يعملُ في إمرتِهِ المؤمن، ويستمتعُ فيها الكافر، ويبلِّغ اللهُ فيها الأجل، ويُجْمَعُ به الفيء، ويُقاتَلُ به العدو، وتَأمنُ به السُّبُل، ويُؤخذُ به للضعيفِ من القوي، حتى يستريحَ بَرٌّ، ويُستراحَ من فاجر»: فيلاحظ التركيز هنا على أمر الحكم وأنه منصب لا بد أن يبقى، وكم من فرق بين أن يتولاه إمامٌ بَرٌّ يهدي الناس إلى الجنة وبين أن يتولاه إمام فاجر يقود الناس إلى النار.

ب) وقال عليه السلام[2]:

«فوالله ما زلتُ مدفوعًا عن حقي، مُستأثَرًا عليَّ، منذُ قبضَ اللهُ نبيَّهُ صلى الله عليه (وآله) وسلم حتى يومِ الناسِ هذا»: فهنا تصريح واضح منه عليه السلام بأنه الأولى بالحكم إلا أن القوم دفعوه عن هذا الحق.

ج) وفي الخطبة الشقشقية انتقاد واضح واعتراض شديد على من تولى الحكم قبله، وقد ضمَّنها الإمام حسراتٍ على ضياع الحكم واغتصابه من قبل الحاكمين قبله، لا سيما وأن هذه الخطبة كانت بعد انتهاء فترة الحكام قبله، وقد تكشَّفت حينها الحقائق وبان عدم أهليتهم للحكم من ناحية المقام العلمي والإيماني، فكانت حسرات الإمام أشد بسبب ما جرى من أضرار كبيرة على الدين والأمة[3].

د) وفي كتاب أرسله مع مالك الأشتر رضي الله عنه إلى أهل مصر لما ولاَّه إمرتها قال عليه السلام[4]:

(١) خ٤٠، ص٨٢.

(٢) خ٦، ص٥٣.

(٣) وقد فصَّلت ذلك في شرح الخطبة الشقشقية.

(٤) الكتاب رقم٦٢، ص٤٥١.

«فلما مضى عليه السلام تنازعَ المسلمون الأمرَ من بعده... فما راعني إلا انثيالُ الناسِ على فلانٍ يبايعونه، فأمسكتُ يدي حتى رأيتُ راجعةَ الناسِ قد رجعتْ عن الإسلامِ، يدعون إلى محقِ دينِ محمدٍ صلى الله عليه وآله فخشيتُ إنْ لم أنصرِ الإسلامَ وأهلَهُ أن أرى فيهِ ثلمًا أو هدمًا، تكونُ المصيبةُ به عليَّ أعظمَ من فَوتِ ولايتِكم التي إنما هي متاعُ أيامٍ قلائل، يزولُ منها ما كان، كما يزولُ السراب، أو كما يتقشَّعُ السحاب، فنهضتُ في تلك الأحداثِ حتى زاحَ الباطلُ وزَهَق، واطمأنَّ الدينُ وتنهنه»: وإن من مظاهر اهتمام الإمام بهذه القضية (غصب الخلافة) أننا نجده يسجلِّها في كثير من المناسبات فنجدها في خطبه وكتبه وكلماته القصار، وهذا النص الشريف جامع لكل ما ذكرناه حول أهمية الحكم وزهده فيه من جهة أخرى، وفيه ترجمة موسَّعة لقوله عليه السلام: «لأُسلِمَنَّ ما سَلِمتْ أمورُ المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلا عليَّ خاصة، التماسًا لأجرِ ذلك وفضلِه، وزهدًا فيما تنافستموه من زخرفِه وزبرجِه»[1].

وهذا ما ذكرناه في المقدمة من ضمن أسباب عدم قيام الإمام في أول الأمر وهو الحرص على مصلحة الإسلام والمسلمين، ثم هو يضمِّنُ ما أشرنا إليه من زهده في الحكم الذي هو متاعُ أيامٍ قلائل.

هـ) ويشير الإمام إلى هدفه من الحكم فيقول عليه السلام[2]:

«اللهم إنكَ تعلمُ أنه لم يكنِ الذي كان منا منافسةً في سلطانٍ، ولا التماسَ شيءٍ من فضولِ الحُطام، ولكنْ لِنَردَ المعالمَ من دينِك، ونُظهِرَ الإصلاحَ في بلادِك، فيأمنَ المظلومون من عبادِك، وتُقَامَ المُعطَّلَةُ من حدودِك»: فهذا بيان منه لسبب

(١) خ٧٤، ص١٠٢.

(٢) خ١٣١، ص١٨٩.

اهتمامه بالحكم وأنه ليس رغبةً شخصية أو حبًّا في السلطان بل لإقامة دين الله به ونصرة المظلومين، وبعد هذه الكلمات برهن الإمام أنه أولى وأحق بالحكم ثم بين صفات الحاكم الحق.

ثانيًا: زهد الإمام في الحكم متاعًا دنيويًّا زائلاً

ونأخذ هنا ثلاثة نصوص فيها تشبيهات عجيبة بيَّن فيها نظرته للحكم وللدنيا بأسرها:

و) «قال عبدالله بنُ عباس رضي الله عنه: دخلتُ على أميرِ المؤمنينَ عليه السلام بذي قار وهو يخصِفُ نعله، فقال لي: ما قيمةُ هذه النعل؟ فقلتُ: لا قيمةَ لها! فقال عليه السلام: واللهِ لهيَ أحبُّ إليَّ من إمرتِكم، إلا أن أُقِيمَ حقًّا، أو أدفعَ باطلًا، ثم خرج فخطب الناس...»[1].

في الوقت الذي يتنافس فيه الناس في الحكم حتى أنهم يُذهبون جاههم وحياتهم دونه على أملٍ قد يتم أو لا يتم- نجد أن الإمام عليه السلام يرى أن الحكم لذاته أحقر من نعل بالية لا قيمة لها، إلا أن يقيم به حقًّا أو يدفع باطلًا.

ز) وأما التشبيه الثاني فهو قوله عليه السلام[2]:

«والله لو أُعطِيتُ الأقاليمَ السبعةَ بما تحت أفلاكِها، على أن أعصيَ اللهَ في نملةٍ أسلبُها جُلْبَ شعيرةٍ ما فعلتُه، وإنَّ دنياكم عندي لأهونُ من ورقةٍ في فمِ جرادةٍ تقضَمُها، ما لعليٍّ ولنعيمٍ يفنى ولذةٍ لا تبقى».

---

(١) خ٣٣، ص٧٦.

(٢) خ٢٢٤، ص٣٤٧.

هـذه الدنيـا بأسرهـا بـما تحمـل مـن لـذات ونعيـم وسـلطان وكـرسي الحكـم يعشـقها البـشر ويتهالكـون عليهـا، وإذا بأمـير المؤمنـين عليه السلام يراهـا كـما هـي فيشـبهها بورقـة في فـم جـرادة تكسرهـا بـل هـي أهـون عنـده مـن ذلـك، فـأيُّ تشـبيهٍ كهـذا وأيُّ زهـدٍ يضاهـي زهـد عـليٍّ الـذي برهـن عليـه مـن خـلال سـيرته العمليـة.

ح) وأمـا التشـبيه الثالـث فهـو تشـبيه بشـع مـن ناحيـة المُشَبَّه وهـو الدنيـا، وهـو تشـبيه رائـع لذاتـه وحقيقـة تصويـره ووصولـه لهدفـه وهـو بيـان الزهـد وإبعـاد النـاس وتحذيرهـم مـن التهالـك عـلى الدنيـا، فيقـول عليه السلام[1]:

«والله لدنياكـم هـذه أهـونُ في عينـي مـن عِـراقِ خنزيـرٍ في يـدِ مجـذوم»: وقـد لاحظنـا أن الإمـام -وهـو مـع الصـدق- يبـدأ القـول في هـذه النصـوص بالقسـم فيعـرِّضُ الله تعـالى الـذي يُجِلُّـهُ للقسـم، ومـا هـذا إلا بسـبب غرابـة الأمـر عـلى السـامع وحـرص الإمـام عـلى بيانـه لمـن يسـمع أو يصلـه القـول وتأكيـده عـلى ذلـك، وإن النفـس لتنقبـض لمجـرد سـماع هـذه الكلـمات، فالعِـراق قيـل فيـه أنـه اللحـم الـذي لا عظـم فيـه أو هـو عِـرْقٌ داخـل البطـن بـين السرة والأحشـاء أو هـو الكـرش، فهـو شيء وضيـع فـما بالـك إذا كان مـن خنزيـر الـذي هـو نجـس العـين، بـل مـا أبشـعه إذا كان في يـد مجـذوم الـذي يبتعـد النـاس عنـه وينفـرون منـه، ولا شـك أن هـذا الأمـر الـذي يصـوِّره الإمـام هـو في غايـة المهانـة بحيـث تنفـر النفـس منـه أشـد النفـرة، وهـذا هـو حـال الدنيـا عنـد عـليٍّ الـذي يراهـا كـما هـي فيتعامـل معهـا بـما تسـتحقه.

إذن نلاحـظ في هـذه النصـوص مـا قدمنـاه مـن أن الحكـم في حـد ذاتـه مهـم ولكـن مـن زاويتـه الإلهيـة التـي هـي الإمامـة فـلا يسـع الإمـام تركـه أو التخـلي عنـه لأنـه

(١) الحكمة رقم٢٣٦، ص٥١٠.

وظيفة إلهية لا بد من القيام بها، ولأهميته الذاتية في إقامة الحق والعدل وتنفيذ أحكام الله تعالى بين عباده، ومن جهة ثانية رأينا زهد الإمام غاية الزهد في الحكم بل في الدنيا بأسرها وما فيها.

وقد أثبت الإمام هذا عمليًّا، وسيرته كلها تشهد بذلك وإنه من القلائل الذين لم تكذِّب أفعالُهم أقوالَهم بل كان يفعل فوق ما يقول ويأمر، وقد عَرَفَ هذه السيرةَ وهذا الزهدَ عدوُّهُ ومحبُّه وشهد به من شهد، فهو بالمنزلة التي لا تحوم حولها شبهة.

٣٥) سياسة الإمام

أولاً: وضع الناس عند تسلم الإمام للحكم

إننا نعرف أن الإمام عليه السلام عاصر الدعوة الإسلامية وشارك فيها المشاركة الفعالة، وقد آتاه الله تعالى سعة الأفق والعلم والشجاعة وسائر الكمالات التي امتاز واختص بها دون سائر الناس -باستثناء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم- فعايش تلك الأدوار ولاحظها ملاحظة دقيقة ووقف على التحول العجيب والسر الإلهي الخاص الذي تبدلت به حياة الناس من الجاهلية إلى نور الإسلام.

وعاش بعد ذلك فترات طويلة كان يعلم فيها أنه صاحب الحق ومع ذلك كان يشهد مدى رجوع أمر الناس إلى ما كانت عليه الجاهلية من قبل، وذلك الرجوع كان لعدة عوامل من أهمها أن القائمين بالحكم لم يكونوا بالمستوى اللائق بإمامة الناس والإحاطة بالشؤون الشرعية والسياسية.

وعلى مدى تلك الفترة الطويلة التي انتهت بمقتل عثمان سنة ٣٥هـ ابتعد الناس كثيرًا عن الدين المقدس وتبدلت عقلياتهم وتغيرت نفسياتهم واضطربت أمورهم وكانوا ليسوا أولئك الذين نجح النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم نجاحًا عظيمًا في نقلهم إلى حياة جديدة كريمة وتحويلهم من الجاهلية المظلمة إلى نور الإسلام المشرق، وكان الإمام عليه السلام حين عاد إليه الحق أمام هذا الوضع المتردي الذي وصل إليه الناس بسبب الحاكمين وطول مدتهم، والتأريخ يحدث عن مدى الاضطراب الذي شمل الحاكمين والمحكومين، فكان الإمام أمام هذه المعاناة في سبيل إرجاع الناس إلى

نهجهم الأول وأن يرتووا من معين الإسلام العذب على يديه، وهذا الوضع يحتاج إلى سياسة فائقة وظروف مساعدة ويحتاج إلى توفيق الله تعالى له، وأما الظروف بالذات فقد كانت ضد مسيرة الإمام، فقد مُنِيَ بأحداث كثيرة لم يتهيأ له فيها أن يطبق نهجه كما يريد، واستعصى عليه الناس كثيرًا نظرًا لعدم عمق ارتباطهم بالأصول الإسلامية والتعاليم النبوية بسبب قصر المدة التي كانوا فيها مع الرسول ﷺ، وبسبب التربية التي عاشوها مع الحاكمين بعد رحيل النبي ﷺ.

فلم يتأتَّ للإمام عليه السلام أن ينجح تمامًا في مشروعه الهادف إلى إعادة الناس إلى النهج الإلهي القويم.

وهذه المقدمة تلقي الضوء على ما سنراه من سياسة الإمام عليه السلام التي كانت تتسم أحيانًا بشدة في الحق لا يرضاها الناس، وتتسم أحيانًا أخرى بالصفح والتسامح الكبير حينما يكون الحق متعلقًا بشخصه، وهذا ما انتقده عليه بعضهم.

ثانيًا: سمو الهدف

قلنا إن هدف الإمام عليه السلام من الحكم هو إقامة أحكام الله تعالى كما أرادها الله تعالى أن تكون، مقتفيًا في سبيل ذلك سيرة النبي ﷺ، وهذا الهدف شهدت به سيرة الإمام العملية وقد كان الإمام يصرح به كثيرًا في خطاباته الأولى ويجعله محورًا لسياسته القادمة، ومن جملة النصوص في بيان هذا الهدف ما يلي:

أ) لما بويع بالمدينة قال عليه السلام(١):

«ذِمَّتِي بما أقولُ رهينة، وأنا به زعيم، إنَّ من صرَّحتْ له العِبَرُ عما بين يديه

(١) خ١٦، ص٥٧.

من المَثُلات حجزتْهُ التقوى عن تقحُّمِ الشبهات، ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتِها يومَ بَعَثَ الله نبيَّه ﷺ، والذي بعثه بالحقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بلبلة، ولَتُغَرْبَلُنَّ غربلة، ولَتُساطُنَّ سوطَ القدرِ حتى يعودَ أسفلُكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلَكم، وليسبِقَنَّ سابقون كانوا قصَّروا، وليُقصِّرَنَّ سبَّاقونَ كانُوا سبقوا، واللهِ ما كتمتُ وشمة، ولا كذبتُ كذبة، ولقد نُبِّئْتُ بهذا المقام وهذا اليوم».

وهذا النص هو إعلان المبادئ الأولية والأهداف التي يريدها الإمام عليه السلام بصفته الامتداد الطبيعي للقيام بأمر الدين بعد رحلة النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد كان ينبغي أن يكون له هذا الحق قبل عشرات السنين فحينها ستكون المهمة أسهل، وأما الآن وقد أُبعد عن الحكم لمدة تصل إلى ٢٥ سنة فإن الناس قد عادوا إلى جاهليتهم وإلى وضعهم عند بدء البعثة، فهو سيبدأ معهم كما بدأ الرسول مع الجاهلية الأولى، وإن كان أولئك كفارًا وهؤلاء مسلمون إلا أنهم يشتركون في قلة الإدراك وتردي الفكر، وإن التربية التي رباهم عليها الحاكمون طيلة هذه المدة قد أخذت منهم مأخذها، ثم أقسم الإمام ولم يستعمل لفظ الجلالة (واللهِ) أو غيره من ألفاظ القسم بل أقسم بالذي بعث النبي بالحق لتمام مناسبة القسم مع الحديث عن البعثة، ورجوع الوضع كما كان قبل البعثة.، ثم أخبرهم بأنهم يبلبلون أي يخلطون ويختبرون ويغربلون أي يفصلون لتمييز الخبيث من الطيب ويساطون كما يساط القدر أو يحرك فيكون الأسفل أعلى والأعلى أسفل، فهي إذن فترة امتحان للإرادة وللإيمان، وقد يكون من قصَّر قبل هذا تتضح له أمور فيكون سابقًا، وقد يكون من سبق لا يصمد أمام هذه المحنة والعودة إلى الإسلام الصحيح، فيكون مقصِّرًا بعد أن كان سابقًا.

ثم يقسم الإمام عليه السلام بالله تعالى أنه على المبادئ التي كان عليها من استخلفه

للإمامة وهو النبي ﷺ وأنه لم يكتم كلمة للحق ولم يكذب مطلقًا فهو صادق إذن في هذا الإعلام وأن الأمر كما قاله وأنه على تمام البينة من أمر ربه بل هو يعلم بهذا اليوم وهذا الموقف مع الناس قبل أن يكون.

ب) وقال ﷺ في خطبة عنونت بأنها في الرسول الأعظم ﷺ وبلاغ الإمام عنه(1):

«والله ما أَسْمَعَكُمُ الرسولُ شيئًا إلا وها أنا ذا مُسْمِعُكُمُوه، وما أسماعُكم اليومَ بدونِ أسماعِكم بالأمسِ... ولقد نزلتْ بكم البليةُ جائلًا خطامُها، رِخوًا بِطانُها، فلا يغرنَّكم ما أصبح فيه أهلُ الغُرور، فإنما هو ظلٌّ ممدود، إلى أجلٍ معدود»: وهذا تصريح بأن الإمام على سيرة الرسول ويحمل نفس أهدافه، وأن هؤلاء يمكنهم أن يقبلوا من الإمام ﷺ كما قبل أولئك من الرسول ﷺ، فإن لهم أسماعًا وعقولًا كما كان لأولئك، هذا وإن بعض من كان مع الإمام كانوا أيضًا مع الرسول فيمكنهم أن يقبلوا الحق كما قبلوه من قبل.

ثم تحدث الإمام عن الفتنة التي حلت وأنها كالناقة التي يكون خطامها أي حبالها الذي تقاد به غير مشدود، ويكون البطان الذي يربط في بطنها مرتخٍ فراكبها إذن في خطر من السقوط، وذلك كناية عن خطر تلك الفتنة.

ثم أشار الإمام ﷺ إلى شيء في غاية الأهمية ونبَّه الناس له وهو أن البعض نالوا من الدنيا شيئًا كثيرًا في الحكومات السابقة فكان بعضهم أميرًا أو قائدًا أو قاضيًا إلا أنهم في حكومة الإمام قد لا يكونون كذلك، كما أن فئة من الناس

---

(1) خ٨٩، ص١٢٢.

خاصة من قريش كانت تُعطَى الأموال وتُفضل على سائر الناس وأما في حكومة الإمام فسيكون هناك العدل والمساواة، فعلى أولئك الذين كانوا منعمين بغير حق أن لا يغتروا بذلك النعيم فإنما كان بغير حق وهو بعد هذا نعيم زائل.

ثالثًا: وضوح السياسة ونهج الحكم

فالإمام عليه السلام ليس كسائر السياسيين قديمًا وحديثًا والذين يخدعون الناس بالعبارات البراقة والإغراءات والدعايات الزائفة فيكسبون بذلك أصوات الجماهير ويشترون بأموال الأمة ضمائر البعض، ثم بعد ذلك يخلفون وعودهم للناس فلا ينالون منهم شيئًا، وقد كان الإمام على تمام الوضوح في سياسته وفي بيان أهدافه ومنهجه في الحكم، ومن جملة النصوص في هذا المجال ما يلي:

أ) قوله عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان(١):

«دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبِلونَ أمرًا له وجوهٌ وألوان، لا تقومُ له القلوب، ولا تثبُتُ عليه العقول، وإن الآفاقَ قد أغامت، والمحجةَ قد تنكرت، واعلموا أني إنْ أجبتُكُمْ ركبتُ بكم ما أعلم، ولم أُصغِ إلى قولِ القائل، وعتْبِ العاتب، وإنْ تركتموني فأنا كأحدِكم، ولعَلِّي أسمعُكم وأطوعُكم لمن ولَّيتموه أمرَكم، وأنا لكم وزيرًا خيرٌ لكم مني أميرًا».

وفي هذا النص عدة نقاط نعرض لها بإيجاز:

فقد سبق الحديث عن أن الإمامة منصب إلهي لا يمكن للإمام أن يستقيل منه، ولكن الإمام يقول هنا (دعوني) يقصد بذلك مسألة الحكم لا مسألة الإمامة

(١) خ٩٢، ص١٣٦.

العامة، وحتى في مسألة الحكم لم يرد الإمام التخلي عن مسؤوليته، بل قال هذا الكلام لعدة أسباب منها أن يبين للناس أن سياسته ليست كسياسة الحاكمين قبله وقد أوضح ذلك في هذا النص أيضًا.

كما أنه أراد أن يقيم الحجة على الناس وأنه لم يفرض نفسه عليهم بالحيلة والقوة أو بغيرها، كما فعل من كان قبله حين وصلوا للحكم عبر المكر والعنف، فقد اختار الناس الإمام عليه السلام بمحض إرادتهم بل وبإلحاح شديد منهم.

وسبب ثالث هو أن الإمام أراد أن يرشدهم إلى ثقل الحق عليهم بعد أن استمتعوا بالباطل سنين طويلة على حساب الأغلبية التي حرمت من كل متاع، كما أنه كانت هناك اعتبارات عند الحكام في تطبيق الأحكام والإمام ليس عنده تلك الاعتبارات والمجاملات بل سيطبق أحكام الله تعالى على الكل دون تفريق بين الناس في ذلك، فالتأريخ يذكر أن عمر كان يميز بين الناس في العطاء ويقسمهم أصنافًا، فيعطي عائشة -مثلًا- ١٢ ألفًا في الوقت الذي يحرم فيه أم سلمة من العطاء سنة كاملة، وكذلك عثمان الذي امتازت سياسته بكثير من هذا التمييز، ولا شك أن الذين كانوا يستمتعون بتلك السياسة على حساب الآخرين لن يرضوا بسياسة الإمام القادمة.

هذا بالإضافة إلى إقامة الإمام للحدود دون تفريق وهذا ما لا تحتمله العقول أو ترضاه القلوب، وليس هذا لأنه أمر محيِّر أو يخالف الفطرة السليمة بل لأنهم تعودوا على غيره لمدة طويلة، وقد كانوا يعلمون من سيرة الإمام عليه السلام وهديه ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله فيه أنه على هذا النهج من العدل، وقد اعترف بذلك غيره فقد صرح عمر عند تعيينه للشورى أنه إن تولى الأمرَ عليٌّ حملهم على الجادة.

إذن فقد كان الإمام عليه السلام على تمام الوضوح في إعلان سياسته وفي تجسيدها في الواقع العملي، وقد عبر الإمام عن حياة المسلمين بشكل عام بأنها كالآفاق الغائمة وأن طريقهم لم يعد واضحًا، فقد تغيرت الأحكام والأفكار وأصبح الناس بعيدين عنها، وبيَّن لهم أنه إنْ أجابهم ركب بهم ما يعلم هو فإنه صاحب المقام العلمي الذي لا يجاريه فيه أحد، وهو المسدد بعصمة الله تعالى، فمن عساه يستشير وعمن يأخذ وقد استغنى عن الكل؟! فهل يصغي إلى انتقادهم وعتبهم إذا عزل فلانًا من منصبه أو أقام الحكم على آخر وبدَّل وغير لتعود أحكام الله كما كانت؟!

ثم يوضح الإمام عليه السلام موقفه من الحكام السابقين وأنه كان مسالمًا «ما سلِمتْ أمورُ المسلمين»، بل كان وزيرًا قريبًا من الأحداث خوفًا على الإسلام من أن يقضي عليه أعداؤه في تلك الفترة الحرجة ولا سيما أن الحاكمين لم يكونوا بمستوى المسؤولية، والإمام يعلن أنه على استعداد أن يكون وزيرًا كما كان إذا كان ذلك في صالح الإسلام.

ب) وقال عليه السلام(١):

«لو قد استوت قدمايَ من هذه المداحضِ لغيَّرتُ أشياء».

وهذه إشارة إلى جملة أشياء لم يغيرها الإمام فورًا وسنأتي عليها فيما بعد، ومن جملتها -مثلًا- أنه أقرَّ بالفعل للقضاة أن يقضوا كما كانوا يقضون من قبل حتى يأتيهم الأمر منه بغير ذلك، فقد كان الإمام ينتظر أن تستقر الأمور شيئًا ما، وهذا ما عناه هنا بقوله: (لو قد استوت) أي (ثبتت) قدماه من تلك المداحض

(١) الحكمة رقم ٢٧٢، ص ٥٢٣.

(أي المزالق) وذلك كناية عن استقرار الأمور له.

رابعًا: التسامح مع المتخلفين والمعارضين

فالتأريخ يذكر ذلك الإجماع الكبير والإلحاح الشديد من الناس في بيعتهم للإمام عليه السلام والذي يُعَدُّ حجة ظاهرة في قبال الطرق التي تمت بها بيعة غيره، وإلاَّ فالإمام لا يحتاج إلى إجماع الناس عليه، وإنْ صحَّ التعبير بالإجماع فهو إجماع الله تعالى عليه وملائكته ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، وكفاه نص الله تعالى عليه بالإمامة وأمره نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

وقد صوَّر الإمامُ نفسُهُ هذه البيعة والصورة التي تمت بها في عدة نصوص، فمنها قوله عليه السلام[1]:

«وبسطتُم يدي فكففتُها، ومددتُموها فقبضتُها، ثم تداككتُم عليَّ تداكَّ الإبلِ الهيمِ على حياضِها يوم وِرْدِها، حتى انقطعتِ النعلُ، وسقط الرداء، ووُطِيءَ الضعيفُ، وبلغ من سرورِ الناسِ ببيعتِهم إيايَ أن ابتهجَ بها الصغيرُ، وهَدَجَ إليها الكبيرُ، وتحاملَ نحوها العليلُ».

وأما بعد البيعة فكان التسامح الكبير منه مع الذين تخلفوا عن البيعة له أو ما يسميه أهل العصر بالديمقراطية مع المعارضة، في حين نرى الفارق الكبير بين هذا الموقف وموقف عمر وأبي بكر مع آل محمد ومع الزهراء عليها السلام بالذات ومع عليٍّ عليه السلام نفسه والمؤمنين معه، حتى تأسف أبو بكر ولكن بعد حين على ما صنعه ببيت الزهراء وتمنى أنه لم يصنع ما صنع ولو اشتمل بيت الزهراء على حرب

(١) خ٢٢٩، ص٣٥٠.

ضده، ولو صنع الإمام بالمعارضين ما كان يقدر عليه وأخذهم بالشدة لكانت له تمام الحجة والعذر لأنه الإمام المنصوص عليه وهم يعلمون بهذا النص من جهة، ومن جهة أخرى فقد بايعه المهاجرون والأنصار وسائر المسلمين، ومن جملة أحاديثه عن المتخلفين عنه:

أ) وقال عليه السلام (في الذين اعتزلوا القتال معه)[1]:

«خَذَلُوا الحقَّ ولم ينصرُوا الباطل»: فهم لم ينصروا الباطل المتمثل في أعداء الإمام إلا أنهم أيضًا لم ينصروا الحق الذي كان مع الإمام وكان الإمام يدافع عنه، وعدم نصرتهم خذلان منهم للحق.

ب) «وقيل: إن الحارث بن حَوْط أتاه فقال: أتراني أظنُّ أصحابَ الجملِ كانوا على ضلالة؟ فقال عليه السلام: يا حارثُ إنك نظرتَ تحتك ولم تنظرْ فوقك، فحِرْتَ! إنك لم تعرفِ الحقَّ فتعرفَ من أتاه، ولم تعرفِ الباطلَ، فتعرفَ من أتاه»[2].

فقد ظن هذا الرجل أن المقياس الصحيح هو أن يرى الأشخاص ثم يحكم بأن الذي هم عليه هو الحق، بينما المقياس الصحيح كما وضحه الإمام عليه السلام هو أن يعرف الحق تمامًا ثم يقيِّم الناس على أساسه، فإنما يُعرف الرجالُ بالحقِّ ولا يُعرف الحقُّ بالرجال.

«فقال الحارث: فإني أعتزل مع سعيد بن مالك وعبد الله بن عمر، فقال عليه السلام: إن سعيدًا وعبدَ اللهِ بنَ عمر، لم ينصرا الحقَّ، ولم يخذلا الباطل»: فقد كان

(١) الحكمة رقم١٨، ص٤٧١.
(٢) الحكمة رقم٢٦٢، ص٥٢١.

عليهما أن ينصرا الحق المتمثل فيه ومعه، وأن يخذلا الباطل بمعارضتهم وإطفائهم للحروب التي شنها أصحاب الجمل وأصحاب صفين، وعبد الله بن عمر هذا أبى بيعة الإمام عليه السلام فطلب منه الإمام أن يأتي بكفيل له، ولعل ذلك ليضمن أنه لا يقوم ضد الإمام فقال إنه لا يجد كفيلًا فكفله الإمام نفسه وأخبره بأنه سيء الخلق صغيرًا وكبيرًا، والمقصود ليس حدة المزاج بل الحمق وضعف الإدراك، وقد صدَّقَ الواقعُ قولَ الإمام فيه، فإن عبد الله بن عمر هذا الذي رفض بيعة الإمام آلت به الأمور أن يأتي للحجاج وما أدراك ما الحجاج! ليبايع عن طريقه عبد الملك بن مروان، فلما استعلمه الحجاج عن سبب ذلك الإلحاح في ذلك الوقت قال له ابن عمر: لأني رويت عن رسول الله أنه قال: لا يحِلُّ لامرءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت وليس في عنقه بيعة، فاستهزأ به الحجاج كثيرًا وقال له إن يدي لمشغولة بالطعام عنك، هذه رجلي فامسح عليها[1].

ومن جملة المعارضين أيضًا سعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير ومع ذلك فإن الإمام عليه السلام تعامل معهم بالصفح والتسامح الكبير.

---

(١) يراجع لذلك (الغدير) ١٠/ ٤٣ إلخ.

٣٦) نماذج من سياسة الإمام

مدخل

درسنا هذا حول حلقة أخرى من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسته في الحكم وهو يشمل الحياة السياسية والاجتماعية ويأخذ جهة تأريخية نظرًا لاتصال هذه الأمور بموضوعنا هذا، وسوف نستعرض ست نقاط نحاول أن لا نطيل حديثنا حولها بل نستقيها من كلام الإمام وسيرته العملية التي حفظ لنا نهج البلاغة جزءً مهمًّا منها، وسنلاحظ في جميع هذه النقاط نمطًا خاصًّا كان يحياه الإمام سواءً من جهة فكرية أو من جهة عملية وتربوية.

أولاً: البيعة والمبادئ الأولية

لقد ركز الإمام عليه السلام على أمر البيعة وأكَّدَ عليها، كما ركَّزَ كثيرًا على إعلان مبادئه الأولية للناس بعد البيعة مباشرة، وقد أشرنا إلى هذه النقطة في الدرس السابق ونتمم هنا استعراضها.

فمن جملة النصوص حولها قوله عليه السلام[1]:

«لم تكن بيعتكم إِيَّايَ فلتةً، وليس أمري وأمرُكم واحدًا، إني أريدُكم لله وأنتم تريدونني لأنفسِكم»: فهو إذن يركِّزُ على أمر البيعة ويحمل ذلك تعريضًا بل تصريحًا ونقدًا للطريقة التي تمت بها بيعة الحكام قبله وأبي بكر بشكل خاص، وأن

(١) خ١٣٦، ص١٩٤.

أساس الحكم السابق كان خطأً وإن جميع ما ترتب عليه أخطاءُ أخرى على نسقه، وكلمة (فلتة) معهودة وهي التي عبر بها عمر عن بيعة أبي بكر فقال: «كانت بيعة أبي بكر فلتةً وقى اللهُ المسلمين شرَّها، فمن عاد لمثلِها فاقتلوه»، وفي بعض النصوص «فلتةً كفلتاتِ الجاهلية»[1].

فالإمام عليه السلام إذن يشير بكل ثقة إلى حقه في الحكم فقد نص اللهُ تعالى عليه وبلَّغَ ذلك رسولُه صلى الله عليه وآله أولًا، ثم بايعه الناس وبإلحاح شديد، فهو أولى الناس بالناس ولن تكون بيعته فلتةً أولًا أو آخرًا.

ثم يقيِّم الإمامُ الوضعَ وموقفه كحاكم وموقفهم كرعية فيبيِّن الفرق الكبير، فهو يريدهم لله تعالى وهي كلمة جامعة مانعة تعني أنه يريد من الرعية ما يريده الله تعالى منهم سواءً فيما يتعلق بالقانون الاقتصادي أو أمور الحرب والسلم أو الجهة الفقهية أو بجميع شؤون الدين والدنيا، أما هم فلهم أهواؤهم وتربيتهم التي عاشوا عليها وعصبيتهم وقبليتهم، وهذا فرق جوهري للغاية، فإنه شتان بين أن يكون الهدف هو الله تعالى وبين أن يكون الهدف هو الأهواء والأنفس أو الدنيا.

ثم عقَّبَ الإمام عليه السلام بما يفصِّل ويشرح الأمر فقال:

«أيها الناسُ أعينوني على أنفسِكم، وأَيْمُ الله لأُنصِفَنَّ المظلومَ من ظالِمِهِ، ولأَقودَنَّ الظالِمَ بخِزامتِهِ حتى أُورِدَهُ منهلَ الحقِّ وإنْ كان كارهًا»: وهذا بعض ما عنيناه من إعلان المبادئ الأولية بعد البيعة.

(١) تلخيص الشافي ٢/ ١٠٤، عن عدة مصادر.

ثانيًا: العدل وموقف الناس

فقد كان الإمام حريصًا وملتزمًا بأن لا يصلح أمر الحكم واستقرار الأمور له بما يهوى الناس إذا استلزم ذلك فسادًا كتفضيل فئة على أخرى، وشراء الضمائر، أو مخالفة أوامر الله تعالى وأحكامه، فمن جملة هذه الأمور ما يلي:

أ) قوله عليه السلام[1]:

«وإني لَعالِمٌ بما يُصْلِحُكم ويُقيمُ أَوَدَكم، ولكنني لا أرى إصلاحَكم بإفسادِ نفسي»: فالإمام مطلع وعالم بأمر المجتمع وهو خبير بأمر الدين، فإما أن يستجيب للناس فيما يعلم أنه يضمن استقرارهم ورضاهم بحكمه وإن استلزم ذلك مخالفات للشرع، وإما أن يلتزم بأحكام الله تعالى وإن أباها الناس بسبب تربيتهم وأهوائهم فلم يخضعوا لها واضطربوا عليه.

ب) ونموذج آخر يلقي الضوء على ذلك الوضع هو قوله عليه السلام: «لما عُوتِبَ على التسويةِ في العطاء»:

«أتأمروني أن أَطلبَ النصرَ بالجورِ فيمن وُلِّيتُ عليه! واللهِ لا أطورُ به ما سمَرَ سميرٌ، وما أَمَّ نجمٌ في السماءِ نجمًا».

فقد تربّى الناس على التفريق بينهم في العطاء وتفضيل فئة على أخرى فكانت هناك اعتبارات للمهاجرين والأنصار ولمن حظُوا بمودة الحاكمين فأغدقوا عليهم العطاء وفاضلوا بين الناس بغير وجه حق، ولا سيما حين انتهى الحكم إلى

---

(١) خ٦٩، ص٩٩.

عثمان فإنه أعطى الدنيا التي ملكها لبني أمية حتى وصل الأمر إلى أن يعطي خُمْسَ بلادٍ افتتحت لشخص واحد[1]، فلما جاء الإمام سوَّى بين الناس في العطاء ملتزمًا بذلك أمر الله تعالى وسيرة رسول الله ﷺ في العطاء، فعُوتِبَ على هذه التسوية فإن الأغنياء لا يروق لهم ذلك ومن يرون لأنفسم أفضلية لا يقبلون بذلك، ومن هذه الأمثلة أنْ أتت سيدة قرشية من الحجاز وجاءت بعجوز فارسية تقيم في الكوفة فخاطبت أمير المؤمنين قائلةً: هل من العدل أن تسوِّي بيني وبين هذه الأَمَةِ الفارسية؟[2] وقد أبى الإمام أن يسعى للنصر واستقرار الحكم بأن يظلم من كان حاكمًا عليهم وأقسم أن لا يصنع ذلك «ما أَمَّ نجمٌ في السماءِ نجمًا» أي للأبد وما بقي الزمان لا يصنع ذلك، فهي إذن مسؤولية إلهية وولاية وأمانة تجاه من وُلِّيَ عليهم واللهُ مسائلُهُ عن ذلك.

ثم أشار الإمام إلى جهة مهمة ليتعظ الناس فقال:

«لو كانَ المالُ لي لسوَّيتُ بينهم، فكيف وإنما المالُ مالُ الله»: وتلك هي ذات عليٍّ التي تنطوي على قانون العدل وتحبه لذاته فضلًا عن أمر الله تعالى به ونهيه عن الظلم، فلو كان المال له لجعل الناس سواسية فيه وأقام العدل فكيف وهو مالُ الله تعالى الذي استأمنه عليه وولاَّه على الناس ليقيم العدل بينهم.

ثالثًا: أوضاع الناس وتربيتهم السابقة

وقد أشرنا إلى أن الناس اعتادوا على تربية سابقة مع الحاكمين قبل الإمام

(١) يمكن مراجعة شرح ابن أبي الحديد عند شرحه للخطبة الشقشقية وقد ذكرت بعض ذلك في درس (علي والحاكمون).

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام، للشيخ باقر شريف القرشي ١/ ٤٠٧.

ولم تكن تلك التربية هي التي يرضاها الله تعالى فيقبلها الإمام، كما أن الناس لا ترضى باستقامة الإمام وما يريده لهم من تربية إلهية، ونأخذ لذلك نماذج:

أ) وفي كلام «كلَّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما» فمما قاله [1]:

«وأما ما ذكرتما من أمرِ الأسوة، فإن ذلك أمرٌ لم أحكمْ أنا فيه برأيي، ولا وَلِيتُهُ هوًى مني، بل وجدتُ أنا وأنتما ما جاء به رسولُ الله ﷺ قد فُرِغَ منه، فلم أحتجْ لكما فيما فَرَغَ اللهُ من قَسْمِه، وأمضى فيه حُكْمَه، فليس لكما، والله، عندي ولا لغيرِكما في هذا عُتبَى، أخَذَ اللهُ بقلوبِنا وقلوبِكم إلى الحقِّ، وألهَمَنا وإياكم الصبر».

وقد كان الزبير ممن يظهر مودة الإمام ويدعو له وكان معه في بيته يوم امتنعوا عن بيعة أبي بكر فهجم عليهم القوم، ثم لما آلت الأمور إلى الإمام تبدل سلوكه وبرغم ذلك فقد بايع هو وطلحة الإمامَ طائعَين لا مُكرَهَين فإذا بهما يظهران ما أخفياه من طلبهما للدنيا التي ابتعد عنها الإمام وطلَّقها ثلاثًا، وكانا يريان لأنفسهما شرفًا كبيرًا خاصة وأنهما من المرشحين للخلافة في شورى عمر، فكيف بعد كل هذا يأتي عليٌّ ليسوِّي بينهم وبين سائر الناس في العطاء؟ لذلك عاتباه في أمر الأسوة (أي التسوية في العطاء) واحتَجَّا عليه بفعل عمر في تفضيله أناسًا على آخرين في العطاء، فأجابهم الإمام بما بانت منه نفسيته وأن منهجه معلوم وهو دين الله تعالى فلا يحتاج إلى إجالة الفكر واستشارتها في الحكم بين الرعية وتدبير أمورهم، وردًّا على احتجاجهم عليه بفعل عمر احتج عليهم هو أيضًا ولكن بفعل رسول الله ﷺ وسيرته في العطاء وقد كانا يعلمان ذلك فاحتج

(١) خ٢٠٥، ص٣٢٢.

الإمام عليهم به، وقوله (ولا لغيرِكما) إشارة إلى أنه إذا كان هذا تعامل الإمام مع من يرون أنفسهم أو يراهم الناس أن لهم مقامًا وأفضلية- فإن غيرهم إذن لن يطمع أو يتصور أن الإمام سيفضله في العطاء أو في غير ذلك.

ب) وأما النموذج الثاني فهو موقف الإمام من قطائع عثمان وهذا بعض ما عنيناه بالجهة التأريخية في الموضوع، فقد أبى الإمام أن يُقِرَّ الناس على ما كانوا عليه وكان صارمًا في إرجاع ما أعطاه عثمان لمن أراد من قومه سواء كان أموالًا أو أراضٍ أو غيرها، قال عليه السلام[1]:

«والله لو وجدتُهُ قد تُزُوِّجَ بهِ النساءُ، ومُلِكَ به الإماءُ، لَرَدَدْتُه، فإن في العدلِ سَعَةً، ومن ضاقَ عليهِ العدلُ، فالجورُ عليه أضيق»: وكل ذلك إصرار من الإمام على إقامة العدل بين الناس وإرجاعهم إلى التربية التي رباهم عليها رسول الله صلى الله عليه وآله.

رابعًا: معاملة الإمام للولاة

يحدث التأريخ عن تعامل الحكام مع عمالهم والولاة على البلاد، فأما عمر فقد وصفه التأريخ بالشدة في تعامله مع عماله، إلا أن ذلك لم يكن وصفًا دقيقًا وتامًّا حيث أن شدته ظهرت على أشخاص كأبي هريرة الذي كان عامله على البحرين فجاءته أخبار سرقته من أموال المسلمين فاتهمه وكذّبه وأوجع ظهره بالضرب[2]، أما هذه الشدة فلم تظهر من عمر مع معاوية أبدًا، فإن معاوية الذي كان واليًا على الشام كان قبل ذلك لا يملك شيئًا لكنه أخذ ينهب ويستأثر بأموال

---

(١) خ١٥، ص٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢/ ٤٢، والنص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين/ ٢٨٦.

المسلمين فلم يصنع معه عمر شيئًا إلا أنه لقَّبه بكسرى العرب وأعظم به من لقب يرتاح له معاوية[١].

وأما عثمان فحدث عنه وعن عماله وما صنعوه بأموال المسلمين ولا حرج[٢].

وأما في حكم أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، فإن التأريخ يحدث عن مدى ملاحظته لعماله والولاة على البلاد الإسلامية، وحرصه على إقامتهم العدل في كل صغيرة وكبيرة، ويلاحظ تفاوت مستويات الولاة في عقلياتهم ونفسياتهم بطبيعة الحال.

ونأخذ هنا نماذج من تعامل الإمام وبعض قضاياه مع عماله، فمن ذلك ما يلي:

أ) كتابه عليه السلام إلى أحد عماله وقد جاء فيه[٣]:

«أما بعد، فقد بلغني عنك أمرٌ، إنْ كنتَ فعلتَهُ فقد أسخطْتَ ربَّك، وعصيتَ إمامَك، وأخزيتَ أمانتَك، بلغني أنك جرَّدْتَ الأرضَ فأخذتَ ما تحتَ قدميك، وأكلتَ ما تحت يديك، فارفعْ إليَّ حسابَك، واعلمْ أن حسابَ اللهِ أعظمُ من حسابِ الناسِ، والسلام»: لقد أمره الإمام أن يرسل إليه فيخبره بالوارد والصادر وما أخذه وما بذله ليحاسبه، ولكن الإمام عليه السلام لم يكتفِ بذلك بل نبَّهَهُ إلى أنَّ الحساب الحقيقي هو حساب الله تعالى له، فالإمام إنما يحاسبه بالظاهر وإن كان بإمكانه أن يحاسبه بما هو في الواقع بما يعلمه من الله تعالى، ولكن الله الخبير

(١) النص والاجتهاد/ ٢٩٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد في شرح الخطبة الشقشقية ١/ ١٩٨-١٩٩، وقد مرّ بعض ذلك، والغدير ٨/ ٢٨٦.

(٣) الكتاب رقم ٤٠، ص٤١٢.

بالأمـور يحاسـب بـما هـو في الواقـع فيكـون حسـابه شـديدًا.

ب) ومـن النـماذج الأخـرى مـا روتـه امـرأةٌ لمعاويـة، وقـد كانـت تتحـدث عـن عـدل الإمـام عليه السلام وسـيرته فقالـت: «والله لقـد جئتُـهُ في رجـلٍ كان قـد ولاَّهُ صدقاتِنـا فجـارَ علينـا، فصادفتُـهُ قائـمًا يصلِّي فلـما رآني انفتـلَ مـن صلاتِـهِ ثـم أقبلَ علـيَّ برحمـةٍ ورفـقٍ ورأفـةٍ وتَعَطُّـفٍ وقـال: أَلـكِ حاجـة؟ قلـتُ: نعـم، فأخبرتُـهُ الخبر، فبكـى ثـم قـال: اللهـم أنـتَ الشـاهدُ علـيَّ وعليهـم وأني لم آمرْهـم بظلـمِ خلقِـك، ثـم أخـرجَ قطعـةَ جلـدٍ فكتـب فيهـا...».

وعزل الإمامُ ذلك الرجل من فوره[1].

وليُلاحَـظ هـذا الموقـف قبـال موقـف سـليمان بـن عبـد الملـك الحاكـم الأمـوي حينـما بعـث أحـد رجالـه إلى مـصر فقـال لـه: «احلـبْ حتـى ينفيـك الـدم، فـإذا أنفـاك فاحلـبْ حتـى ينفيـك القيـح، لا تبقيهـا لأحـدٍ بعـدي»[2].

فهو وحكام بني أمية كانوا يأمرون رجالهم أن يسلبوا كل شيء من أموال الناس.

ج) ولنأخـذ نموذجًـا آخـر مـن النهـج كتابًـا «إلى المنـذر بـن الجـارود العبـدي وقـد خـان في بعـض مـا ولاَّه مـن أعمالـه» فقـد جـاء فيـه[3]:

«أمـا بعـد فـإنَّ صـلاحَ أبيـك غـرَّني منـك، وظننـتُ أنـك تتبـعُ هَدْيَـه، وتسـلُكُ

---

(١) الإمـام علي مـن المهـد إلى اللحـد، لمحمـد كاظـم القزوينـي / ٢٦٩-٢٧٠، وحيـاة الإمـام الحسـين عليه السلام للشـيخ باقـر شريـف القـرشي ١/ ٤١٥.

(٢) تأريخ ابن عساكر ٢/ ٤٠٢-٤٠٣.

(٣) الكتاب رقم ٧١، ص ٤٦١.

سبيلَه، فإذا أنتَ فيما رُقِّيَ إليَّ عنكَ لا تدَعُ لهواكَ انقيادًا، ولا تُبقي لآخرتِكَ عتادًا، تعمُرُ دنياكَ بخرابِ آخرتِك، وتصِلُ عشيرتَكَ بقطيعةِ دينِك، ولئنْ كان ما بلغني عنكَ حقًّا، لجملُ أهلِكَ وشِسْعُ نعلِكَ خيرٌ منك، ومن كان بصفتِكَ فليس بأهلٍ أن يُسَدَّ بهِ ثغرٌ، أو يُنفَذَ به أمرٌ، أو يُعلَى لهُ قدْرٌ، أو يُشرَكَ في أمانةٍ، أو يُؤمنَ على جبايةٍ، فاقبِلْ إليَّ حينَ يصِلُ إليكَ كتابي هذا إن شاء الله».

وقد قلنا إن الإمام يعامل الناس بالظاهر من أمورهم لا بما يمكنه أن يعلمه من علم الله تعالى، وإن هذه الشدة في تعامله مع أحد عماله هنا وهذه الدقة لا تصدر من غير أمير المؤمنين عليه السلام، كما أنه لا غرابة في صدورها منه فإن الذي يرى الدنيا بكل نعيمها أهون من ورقة في فم جرادة وأحقر من نعل بالية- لا شك أنه يستحقر متاعًا يأخذه أحد عماله بالخيانة ويبيع دينه من أجله، لذلك فالإمام يستعظم منه ماصنع ولا يرضاه ويحاسبه أشد المحاسبة، ويصفه بذلك الوصف.

خامسًا: الحقُّ ثَقُلَ عليهم

قال عليه السلام(1):

«إن كانتِ الرعايا قبلي لتشكو حيفَ رُعَاتِها، وإنني اليومَ لأشكو حيفَ رعيتي، كأنني المَقُودُ وهمُ القادة»: فقد كان معهودًا قديمًا كما أنه كذلك حديثًا أن الحاكم لكي تستقر له أمور الحكم ويهابه رعيته ويخضعوا له يأخذهم بالشدة في غير موضعها وبالظلم والاستبداد والعنف فكانت الرعايا تشكو لذلك ظلم الحكام، أما الإمام عليه السلام فلم يكن يعمل بتلك الطرق التي لا يرضاها الله تعالى، ولذلك قد يطغى عليه ضعاف النفوس وأهل الدنيا الذين يجدون الحق ثقيلًا

(1) غريب كلامه عليه السلام رقم ٢٦١، ص ٥٢٠.

لتعارضه مع مصالحهم وأهوائهم، فكان الإمام مع معاناته ذلك لا يلجأ لتلك الطرق أبدًا بل يلتزم بأحكام الشريعة.

سادسًا: الغدر والتقوى

لقد كانت الأمور والظروف مضطربة على الإمام عليه السلام ومن هنا حاول البعض قديمًا وحديثًا أن يبيّن أن سبب ذلك هو عدم معرفة الإمام عليه السلام بأمور السياسة والإدارة، إلا أن الواقع أن الإمام كان ملتزمًا بأحكام الله تعالى فلم يكن يلجأ إلى الأساليب التي نجح بها الآخرون في سياستهم لأن تلك الأساليب تخالف الشرع، لذلك قال ابن أبي الحديد: «وأمير المؤمنين كان مقيدًا بقيود الشريعة... فلم تكن قاعدتُهُ في خلافتِهِ قاعدةَ غيرِهِ ممن لم يلتزمْ بذلك»[1].

ومعلوم أن الإسلام لا يريد أن يستقرّ حكمه بطرق الظلم والفساد والكذب والمراوغة والرشوة والغدر وهذا ما لجأ إليه غير الإمام في سياستهم وتربى عليه الناس حتى لم يعد يصلحهم إلا ذلك، فالإمام عليه السلام إذن رفض تلك الطرق لأن فيها مخالفة لأحكام الله تعالى كما أنها تمتع فئة من الناس على حساب الآخرين الذي يُحرمون من كل نعيم.

ومن جملة النصوص حول هذه النقطة ما يلي:

أ) قال عليه السلام[2]:

«ولقد أصبحنا في زمانٍ قد اتخذَ أكثرُ أهلِهِ الغدرَ كَيْسًا، ونسبَهُم أهلُ الجهلِ

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠/ ٢١٢.

(٢) خ٤١، ص٨٣.

إلى حسنِ الحيلة، ما لهم! قاتلهُمُ اللهُ! قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجهَ الحيلةِ ودونَها مانعٌ من أمرِ اللهِ ونهيِه، فيدَعُها رأيَ عينٍ بعدَ القدرةِ عليها، وينتهِزُ فرصتَها من لا حريجةَ لهُ في الدين».

وهذا أيضًا بعض ما قدمناه من اتصال الحديث بجهاتٍ اجتماعية، فالإمام عليه السلام يعرض مشكلة ونظرة اجتماعية خاطئة ترى أن الغادر هو الكيِّسُ العاقل الذي يعرف كيف يدير الأمور، وهذه النظرة قائمة قديمًا وحديثًا، والإمام هنا يصرح بأن من يقلب الأمور أو يكون عارفًا بتقليبها وتحويلها لعقليته وإدراكه يجد الحيلة ويعرف كيف يستخدمها، فإذا كان ذلك الشخص من المتقين فإنه يدع تلك الحيلة لاشتمالها على معصيةٍ لله تعالى مع قدرته عليها وهذا غاية الرفعة، أما إذا كان الشخص لا يعبأ بالدين فإنه ينتهز تلك الفرصة ويعصي الله تعالى.

ب) وتحدث عن لعبة السياسة حينها فقال عليه السلام(1):

«والله ما معاويةُ بأدهى مني، ولكنه يغدِرُ ويَفْجُرُ، ولولا كراهيةُ الغدرِ لكنتُ من أدهى الناس، ولكنْ كلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَة، وكلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَة، ولكلِّ غادرٍ لواءٌ يُعرَفُ به يومَ القيامة، واللهِ ما أُسْتَغْفَلُ بالمكيدةِ، ولا أُسْتَغْمَزُ بالشديدةِ».

ولعل باعث المقارنة وهذا التصريح هو تلك الظروف الحرجة التي كان فيها معاوية يغزو اليمن والمدينة وأطراف العراق فيقتل الرجال ويسلب الأموال، ويحقق نجاحًا في سياسته بالطرق المعروفة عنه، فأراد الإمام عليه السلام أن يوضح للناس أن ذلك النجاح ليس لأن معاوية أعرف بأمور السياسة من الإمام عليه السلام أو لقدرته

---

(1) خ٢٠٠، ص٣١٨.

على الحيلة والمكر أكثر من قدرة الإمام، بل لأن الإمام يتقي الله تعالى ومعاوية لا يهتم بذلك، فقد كان معاوية يغدر ويشتري الضمائر بأموال المسلمين حتى أن قائد جيش الإمام الحسن عليه السلام وهو ابن عمه عبيد الله بن العباس أغراه معاوية بالمال، فقد ذُكر أنه عرض عليه ألف ألف درهم وقيل غير ذلك، وكان جيش الإمام عليه السلام معسكرًا استعدادًا للحرب مع معاوية، فما كان من عبيد الله هذا إلا أن ضعف أمام المال وتوجه إلى معسكر معاوية(١).

أما أمير المؤمنين عليه السلام فلم يكن ليشتري ضمائر الناس ويمارس الرشوة ويضيع أموال المسلمين التي هي أمانة لديه، وكان يسمع ويعلم بذهاب الناس عنه إلى معاوية، فيحدثه مالك الأشتر حول اختلاف الناس فيقول عليه السلام: «وأما ما ذكرتَ من أنَّ الحقَّ ثَقُلَ عليهم ففارقونا لذلك فقد علمَ اللهُ أنهم لم يفارقونا من جورٍ، ولا لجأوا إذْ فارقونا إلى عدلٍ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلةً عنهم كأَنْ قد فارقوها، وليُسأَلُنَّ يوم القيامةِ أَ للدنيا أرادوا أم للهِ عمِلوا»(٢).

وكان بعض أصحابه يشير عليه باتباع تلك الطرق لاستقرار الحكم فقد «مشى إليه طائفةٌ من أصحابه وسألوه تفضيلَ أولي السابقاتِ والشرفِ في العطاء»، «فقالوا يا أمير المؤمنين أعطِ هذه الأموالَ وفضِّلْ هؤلاءِ الأشرافَ من العربِ وقريشٍ على الموالي والعجمِ، ومن تخافُ خلافَهُ من الناسِ وفرارَه»(٣)،

---

(١) صلح الحسن عليه السلام للشيخ راضي آل ياسين/ ١٣١، وحياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ٢/ ١٢٦.

(٢) وليراجع أيضًا كتابه (إلى سهل بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على المدينة، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية) وهو الكتاب رقم ٧٠، ص٤٦١ من نهج البلاغة.

(٣) منهاج البراعة، للميرزا حبيب الله الخوئي ٨/ ١٨٤، ١٩٢، وكذلك (الإمام علي من المهد إلى اللحد) / ٤٢٣.

فكان الإمام عليه السلام في تلك الظروف ثابتًا لا يعمل إلا بحكم الله تعالى مهما كلَّفَ الأمر فلا يطلب النصر بالجور.

وللتأريخ نذكر أن أول من استخدم المال واشترى الضمائر للهيمنة على الأوضاع هما أبو بكر وعمر لتثبيت حكم أبي بكر في تلك الفترة، فقد كان أبو سفيان يستهين كثيرًا بأبي بكر ويرى أنه من أحقر الناس، وقد كان أبو سفيان في مكة يجمع الصدقات فلما رجع إلى المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله سأل من تولى الأمر؟ فقيل له: أبو بكر، فقال: أبو فصيل؟ مستهينًا به، فأراد أبو سفيان أن يشعل الفتنة فأتى إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأخبره أنه يريد أن ينصره فطرده الإمام عليه السلام، فلما علم عمر بما يحاول فيه أبو سفيان أشار على أبي بكر بأن يعطي أبا سفيان ما في يديه من الصدقات لإسكاته ففعل ذلك[1].

وإننا نجد في تأريخنا المعاصر أن وضع الحكام على هذه الشاكلة فهم يَعِدُون الناس ويغرونهم ويشترون الضمائر والأصوات في الانتخابات ليتولوا الحكم.

وقد رفض أمير المؤمنين عليه السلام كل تلك الوسائل وأبى إلا أن يقيم العدل وأراد من الناس أن يقبلوا الحكم بالحق وليس بمعصية الله تعالى وظلم الناس ولو كانت سيرته خلاف ذلك لما صحَّ فيه:

«عليٌّ مع القرآنِ والقرآنُ مع عليٍّ» و«عليٌّ مع الحقِّ والحقُّ مع عليٍّ».

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٢/ ٤٤.

٣٧) عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر رضي الله عنه

مدخل

قال عليه السلام:

«رَحِمَ اللهُ مالكًا، لقد كانَ لي كما كنتُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم»(١).

الحديث في هذا الدرس يدور حول عهدِ الإمامِ عليه السلام لمالكٍ الأشتر رضوان الله تعالى عليه، حينما بعثه إلى مصر، وجديرٌ بهذا العهد العظيم أن يُبحثَ بما يستحقه.

وقبل الدخول في مضامين هذا العهد الجليل، لا بد أن نمر ببعض المقدمات:

أولاً: مقدمات

أ) شخصية مالك رضي الله عنه:

وهو الرجل الكفؤ الذي كان مؤهلًا لأن يحمِّلَهُ الإمام تلك الأمانة العظيمة، وشخصية مالك من الشخصيات البارزة جدًّا في التأريخ، وهو من الرواد الأوائل والأماثل الذين لهم الوجود المميز حتى كانوا سواعد قوية يعتمد عليها أمير المؤمنين عليه السلام، ويرى العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي -كما سمعتُ منه- أَنَّ مالكًا هو أفضلُ شخصيةٍ في صحابةِ أميرِ المؤمنينَ على الإطلاق، وناهيك بهذا المقام العظيم، وشهرة هذا الرجل في التأريخ ومقامه معروف بحيث لا يحتاج

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥/ ٩٨، ومثله معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ١٤/ ١٦٥.

إلى مزيد من القول فيه، ولكن تأديةً لحق البحث نذكر شيئًا من سيرته المباركة.

فقد ذكره الإمام عليه السلام كما في النهج في مواطن كثيرة بعنوان الثناء بكلمات عالية لا ترقى لها عبارات أخرى، أو بعنوان بيان فضله لمن أُرْسِلَ إليهم أو بعنوان ذكره في مناسبة ما، وكلمات الإمام خير مترجم لهذا الصديق المخلص والناصر العظيم الذي قل نظيره ممن كان يعرف حق الإمام وفضله[1].

ومن النصوص غير الموجودة في النهج هو قوله عليه السلام في رثاء مالك:

«فرحمَ اللهُ مالكًا، لو كان جبلًا لكان فندًا، ولو كان حجرًا لكان صلدًا، لله مالك، وما مالِك؟ وهل قامتِ النساءُ عن مِثْلِ مالك؟ وهل موجودٌ كمالك؟... وبكى عليه أيامًا، وحزن عليه حزنًا شديدًا، وقال: لا أرى مثله بعده أبدًا»[2].

«وروى الشيخ المفيد رضي الله عنه مرسلًا عن المفضّل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يخرج مع القائم عليه السلام من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلًا، خمسة عشر من قوم موسى عليه السلام الذين كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون[3]، وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون، وسلمان وأبو دجانة الأنصاري، والمقداد، ومالك الأشتر، فيكونون بين يديه أنصارًا وحكّامًا»[4].

---

(١) وأكتفي هنا بالإشارة إلى أرقام وصفحات هذه النصوص، وهي:

الكتاب رقم١٣ ص٣٧٢، ورقم٣٤ ص٤١٧، ورقم٣٨ ص٤١٠، ورقم٦٢ ص٤٥١، وغريب كلامه عليه السلام رقم٤٤٣، ص٥٥٤.

(٢) معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ١٤/ ١٦٣-١٦٤.

(٣) قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾. سورة الأعراف/ ١٥٩.

(٤) معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ١٤/ ١٦٢، عن الإرشاد للشيخ المفيد.

وقد عُرِفَ منه البلاءُ الحسن والرجولة والشجاعة والشهامة والصلاح والسداد، وهو ممن وصفهم الرسول ﷺ بالإيمان وذلك في حديثه عن وفاة أبي ذرٍّ رضوان الله تعالى عليه، فقد أخبر الرسولُ بذلك وأن أبا ذر يأتيه رجال مؤمنون للصلاة عليه، وبالفعل حينما توفِّيَ أبو ذر في الربذة جاءه مالك ومن معه وصلوا على أبي ذر[1].

ونظرًا لما لمالك من مؤهلات فقد وجهه الإمام لبلد مهم كمصر، فكان سفيرًا للإمام لينفِّذَ ويطبق بنود هذا العهد العظيم والميثاق الجليل، وبالإضافة إلى تزوده بهذا العهد وما يحمل من تعاليم، فإن لمالك ما يعينه ويؤهله لهذه المهمة الكبيرة من علم وإيمان وسداد رأي وبعد نظر وحسن سياسة.

وقد دعا الإمام في ختام ذلك العهد بالشهادة له ولمالك، فكان ذلك، فأما الإمام فكانت شهادته في محرابه بسيف ابن ملجم، وأما مالك فكانت شهادته مسمومًا على يد نافع مولى عثمان[2] الذي صحب مالكًا وخدمه ثم لما نزل القلزم غدر به ودسَّ له سمًّا في شربة عسل وقدمها له، وقيل إن من سمه مولى لعمر أو لآل عمر[3]، وكان ذلك سنة ٣٩هـ أو ٣٨هـ وهي السنة التي بعثه الإمام إلى مصر، وقد اشتهرت عن معاوية كلمته: إِنَّ لله جنودًا من عسل[4].

(١) معجم رجال الحديث ١٤/ ١٦١-١٦٢. كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد وغيره وعدوا ذلك منقبة كبيرة لمالك أن يصفه رسول الله ﷺ بالإيمان.

(٢) معجم رجال الحديث ١٤/ ١٦٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٧٦.

(٤) معجم البلدان، للحموي ١/ ٤٥٤، وتروى كثيرًا عن عمرو بن العاص كما في تأريخ البخاري ٧/ ٣١١، وتأريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٥٦/ ٣٨٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٣٥، وغيرها.

ب) العهد الشريف[1]:

وتكمن أهميته في عدة أمور:

١) أنه ينضم إلى جملة عهود مختصرة وموسعة عهدها الإمام عليه السلام إلى مالك أو غيره وجملة نصوص أخرى أوضحت في مجموعها جانبًا كبيرًا من السياسة الإسلامية وأساليب الحكم والإدارة.

٢) أنه جاء بعد مرحلة كانت الأمة الإسلامية تعيش فيها فتنة مقتل عثمان ومجيء أهل البصرة والاضطراب الذي عاشه الناس والحروب التي قامت، فكانت الأمور بعد ذلك تسير إلى فترة أكثر هدوء واستقرارًا، ولذلك فقد سعى الإمام إلى إبراز السياسة الحقيقية للإسلام كما أرادها الله تعالى حتى يستفيد منها البشر ويأخذوها من هذا الوجود المقدس؛ من شخص الإمام نفسه عليه السلام، فالإمام أراد أن يهيء للناس في كل البلاد حياة خاصة تؤمن سعادة الدنيا والآخرة، بعد تلك الحياة وذلك الانحراف الذي شهدته فترات حكم الحاكمين قبل الإمام عليه السلام، فكان هذا العهد تجربة رائدة سجلها الإمام وسلمها إلى أوثق أصحابه عنده، بل إن الإمام لأهمية مصر آثر أهلها بمالك على نفسه مع حاجة الإمام إليه[2].

٣) نضيف إلى ذلك ما نعتقده من أن الإمام عليه السلام عندما بيَّن أُسَسَ السياسة والإدارة الإسلامية في هذا العهد لم يحتجْ إلى أَناةٍ وروية وطول تفكير ومزيد مشاورة، بل أملاه أوكتبه فلم يحتج إلا إلى الوقت الكافي لإملائه أو كتابته، وهذا

(١) الكتاب رقم٥٣، ص٤٢٦.

(٢) قال عليه السلام متحدثًا عن مالك في كتاب إلى أهل مصر: «وقد آثرتكم به على نفسي». الكتاب رقم٣٨، ص٤١١.

هو الإمام وذلك هو العلم الذي لا بد أن يملكه من يكون نائبًا عن النبي ﷺ في الولاية العامة على الأمة بل على البشر.

إذن فالإمام يبلغ للناس السياسة الإلهية ويدلِّلُ على أنه ليس بالضعيف الذي لم يحقق نجاحًا، وليس بالمفتقر إلى الرؤية السياسية الواضحة والحكمة الإدارية والمعرفة بأساليب الحكم، وإنما وكما هو واضح لم تكن الظروف مواتية فكانت الفتن وكانت الحروب الطويلة التي شُغِلَ بها الإمام عليه السلام، وكانت التربية المنحرفة التي تربى عليها الناس مع الحاكمين، نعم لم يتحقق النجاح كما أراده الإمام عليه السلام، وكان هناك فشل من الناس وتقصير بل عجز فيهم، وسيرة الإمام وما حمله من فكر ثاقب ونظرة حكيمة وهذا العهد بالذات خير شاهد على هذه الحقيقة.

فالمسؤولية تقع على الناس، وأما علي فإنه ومن هذا العهد فقط يتجلى لنا أي رجل كان هو في سياسته وحكمته وأنه لا يمكن أن يُقرَنَ به على الإطلاق أحد ممن سبقه أو لحقه.

ولا ينفي ذلك سائر إنجازاته عليه السلام الإدارية فيما يترتبط بالولاة والعمال، وإصلاح القضاء، والتنظيمات الاقتصادية، وبسط العدل، وتعليم الناس، والضمان الاجتماعي، وإصلاح السجون، وسك العملة، وغير ذلك كثير(١).

---

(١) وهي جوانب -مع بالغ الأسف- لم يسلّط عليها الضوء، ولم تجمع في دراسات مستقلة ومستوعبة، إلا أني أشير إلى بعض هذه الدراسات المتفرقة، فمن ذلك:

١- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق.

٢- الراعي والرعية، للمحامي توفيق الفكيكي، وقد سبقت الإشارة إليه.

٣- السياسة الاقتصادية في خلافة الإمام علي بن أبي طالب، جامعة اليرموك، رسالة ماجستير، لأحمد أسعد محمود إبراهيم.

ج) العناية بهذا العهد:

فقد جالت فيه الأقلام شرحًا وبحثًا ودراسةً في جميع شروح النهج، بل أُفرِدتْ له شروح ودراسات مستقلة، فقد ذكر السيد عبد الزهراء الخطيب أكثر من ١٦ شرحًا مستقلًّا لهذا العهد(١).

ونضيف إلى ذلك (دراسات في نهج البلاغة) و(عهد الأشتر) للشيخ محمد مهدي شمس الدين، ويحسن بالطالب كثيرًا مراجعة هذا الكتاب (عهد الأشتر) فإنه مختصر ونافع في هذا المجال، ومن أفضل الشروح لهذا العهد شرح المحامي الكبير توفيق الفكيكي حين تعرض لشرحه ودراسته في كتابه (الراعي والرعية)، خاصة وأنه أخذ منهجًا آخر غير الذي أخذه الشراح، وهذا المنهج هو أنه سعى للتطبيق بين ما قام به الإمام من بناء الدولة وإرساء السياسة والنواحي الإنسانية في سيرة حكمه، وبين ما أوضحه الإمام في هذا العهد، فكان سعي الكاتب للتطبيق بين نظرية الإمام وسيرته العملية، ثم قارن ذلك بالنظريات والقوانين الأخرى فبين أنها أخذت من فكر الإمام ونظرياته، فكان الإمام عليه السلام هو الرائد والسَّبَّاق في هذه النواحي السياسية والإدارية(٢).

٤- السياسة الاقتصادية للإمام علي، للشيخ نزيه محيي الدين.

٥- تأريخ النقود الإسلامية / ٤٤-٤٦، للسيد موسى الحسيني المازندراني.

٦- مقال بعنوان: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بين حقوق الإنسان وواجباته، للسيد محمد تقي الحكيم.

٧- مجموعة مقالات بعنوان: الإمام علي عليه السلام وتنمية ثقافة أهل الكوفة، لمحمد العبادي.

(١) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ٣/ ٤٢٦-٤٢٩.

(٢) ومن مظاهر هذه العناية بالعهد الشريف ما ذكره الأستاذ محمد عبد الغني حسن المصري، في

وحول أهمية هذا العهد الشريف نقرأ ثلاثة نصوص[1]:

١) قال الشيخ آغابزرگ الطهراني:

«وهو أولُ كتابٍ قانونيٍّ إسلاميٍّ قويم، كما أنه أطولُ عهودِهِ عليه السلام، وأجمعُ كتبِهِ لوجوهِ السياسةِ الدينيةِ والمحاسنِ والقيادةِ والتدبير، وقد وقفَ عندَهُ المشَرِّعونَ ورجالُ القانونِ في الشرقِ والغربِ منذُ العهودِ السالفةِ حتى يومِ الناسِ هذا موقفَ الإكبارِ والإعجابِ والتعظيمِ، وقد دُرِسَتْ على ضوئِهِ بعضُ القوانينِ والنُّظُمِ الأوروبيةِ الحديثةِ وقُورِنَتْ بهِ فظهرتْ ميزتُهُ وأفضليَّتُهُ، ولم يوجدْ لهُ نظيرٌ أو شبيهٌ، بل إنَّ معظمَ دساتيرِ الدولِ وقوانينِ الممالكِ مأخوذةٌ منهُ ناسجةٌ على منوالِه».

٢) وقال جورج جرداق، في كتابِهِ القيِّم (الإمام علي صوت العدالةِ الإنسانية)[2]:

«إلاَّ أنهُ يصعبُ على المرءِ أن يجدَ اختلافًا بين العهدِ العلويِّ والوثيقةِ الدوليةِ

تقريضه لكتاب (الراعي والرعية) فقد قال عن العهد الشريف:

«فالإمام الشيخ محمد عبده شرحه في كتاب (مقتبس السياسة)... كما شرحه من أفاضل العلماء السيد الماجد البحراني... وسمَّاه (التحفة السليمانية)... وشرحه سلطان محمد المتوفَّى سنة ١٣٥٤هـ وسمَّاه (أساس السياسة في تأسيس الرياسة)، وشرحه الحسين الهمداني وسمَّاه (هداية الحسام لهداية الحكام)، وترجمه إلى اللغة الفارسية نظمًا الوقاري الوصال الشاعر الشيرازي المتوفَّى سنة ١٢٧٤هـ، كما ترجمه إلى التركية نظمًا الشاعر محمد جلال». الراعي والرعية / ٢٩١.

(١) وقد أورد السيد عبد الزهراء الخطيب هذه النصوص في (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) ٣/ ٤٢٥ نقلًا عن مصادرها.

(٢) ج١.

لحقوقِ الإنسانِ، فليس مِنْ أساسٍ بوثيقةِ حقوقِ الإنسانِ إلَّا ونجدُ له مثيلًا في دستورِ ابنِ أبي طالبٍ، هذا إلى إطارٍ مِنَ الحنانِ الإنسانيِّ العميقِ يحيطُ بهِ الإمامُ دستورَهُ في المجتمعِ ولا تحيطُ الأممُ المتحدةُ وثيقتَها بمثلِه».

٣) وقال ابن أبي الحديد(١):

«الأليقُ أن يكونَ الكتابُ الذي كانَ معاويةُ ينظرُ فيهِ ويعجبُ منهُ ويفتن بهِ ويقضي بقضاياهُ وأحكامِهِ هو عهدُ عليٍّ عليه السلام إلى الأشترِ، فإنهُ نسيجٌ وَحْدَهُ، ومنهُ تعلَّمَ الناسُ الآدابَ والقضايا والأحكامَ السياسيةَ، وهذا العهدُ صار إلى معاويةَ لما سمَّ الأشترَ وماتَ قبلَ وصولِهِ إلى مصر».

د) سند العهد:

فإنه من جهات أهمية هذا العهد أن يكون سنده صحيحًا ومعتبرًا، قال السيد الخوئي -رضوان الله تعالى عليه- في مباني تكملة المنهاج ج١، ص٥: «طريقُ الشيخِ إلى عهدِهِ عليه السلام إلى مالكٍ الأشترِ معتَبَر».

هـ) لماذا التخصيص بمصر؟

فقد خصَّ الإمامُ مصرَ بالذات بهذا العهد العظيم وبإيفاد شخصيةٍ كمالك الأشتر إليها، ولعل سبب ذلك هو ما قاله الشيخ محمد مهدي شمس الدين(٢): «إن مصر عريقةٌ في التنظيم المجتمعي والحضارة منذ عشرات القرون، وإن تقاليدها في السياسة والإدارة عريقة في القِدم، وإن مجتمعها الأصلي مجتمع مكتمل التكوين

(١) شرح نهج البلاغة ٦/ ٧٣.

(٢) في كتابه (عهد الأشتر) / ١٣.

في عاداتِهِ وتقاليده وفئاته الاجتماعية».

نضيف إلى ذلك وجود من قام على عثمان من مصر ممن لم يرضوا بسياسته، وكانوا يريدون عدالة الإسلام فأراد الإمام عليه السلام نشر العدالة هناك وتهدئة الوضع ولتكون نموذجًا للبلاد الأخرى.

ثانيًا: مضامين العهد الشريف

ونتناول في ذلك ثلاث نقاط:

أ) أهداف العهد:

وقد ذكرها الإمام عليه السلام نفسه في مقدمة العهد، كما صاغها مَنْ كتبَ حول هذا العهد بعبارات أخرى كالشيخ شمس الدين، وهذه الأهداف هي أربعة أهداف أساسية:

١) مالية الدولة، التي عبر عنها الإمام بِـ (جباية خراجها).

٢) الدفاع والأمن، الذي عنونه الإمام بِـ (جهاد عدوها).

٣) الإصلاح الاجتماعي، وقد عبَّر عنه الإمام بِـ (استصلاحِ أهلها)، وهذا يشمل جهات عدة من التعليم والتربية والتثقيف في كل المجالات.

٤) التنمية الاقتصادية، التي عبر عنها الإمام بِـ (عمارة بلادها).

ب) بعض المضامين التي ركز الإمام عليها:

ويلاحظ أن مضامينه شملت نواحٍ عدة فيما يتعلق بالنفس وبالله تعالى

وبالرعية وبطبقات المجتمع والجيش وما يرتبط بالأخلاق والآداب ومجالات عدة واسعة.

فمن قوله عليه السلام في مقدمة الكتاب(١):

«أمرَهُ بتقوى الله، وإيثارِ طاعتِه، واتباعِ ما أمرَ به في كتابِه: من فرائضِهِ وسننِه... وأن ينصرَ اللهَ سبحانه بيدِهِ ولسانِه... وأمرَهُ أن يكسرَ نفسَهُ ويزعَها عند الجَمَحَاتِ، فإن النفسَ أَمَّارةٌ بالسوءِ إلا ما رَحِمَ الله».

ثم بيَّن ركيزةً من الركائز المهمةِ يلفت إليها نظر هذا السفير الموفَد:

«ثم اعلم يا مالكُ، أني قد وجَّهْتُكَ إلى بلادٍ قد جرتْ عليها دولٌ قبلك من عدلٍ وجورٍ، وإن الناسَ ينظرونَ من أمورِك في مثلِ ما كنتَ تنظرُ فيه من أمورِ الولاةِ قبلَك، ويقولونَ فيك ما كنتَ تقولُ فيهم». فجعل ذلك مقياسًا يجب أن يراعيه مالك في تصرفه مع أهل هذا البلد القادم عليه، فبالتزامه بهذه الناحية يحقق العصمة العملية والكمال المنشود.

وعالج الإمامُ قضيةَ ما يستوجبه الحكم بطبعه في نفس الإنسان وهذا أمر دقيق من الأمور النفسية الخاصة، فقال عليه السلام(٢):

«وإذا أَحْدَثَ لكَ ما أنتَ فيه من سلطانِكَ أُبَّهةً أو مَخِيلةً، فانظرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ الله فوقَك، وقدرتِهِ منك على ما لا تقدرُ عليهِ من نفسِك...».

---

(١) ص٤٢٧.

(٢) ص٤٢٨.

فـإن طبـع الحكـم لـه نشـوة معينـة ويسـتوجب نوعًـا مـن الخيـلاء والتعـالي، والإمـام عليه السلام يـربِّي تلميـذه وسـفيره بهـذه التربيـة ويريـده أن ينظـر إلى سـلطان الله تعـالى وقدرتـه ويفكـر في ذلـك دائـمًا كـي لا يغـره مـا عنـده مـن سـلطان، بـل إن الإمـام يحذره مـن نخـوة هـذا السـلطان والتكبر، وينهـاه أن يـؤدي بـه ذلـك إلى تضييـع حقـوق الرعيـة حينـما يخطـئ في حقهـم فيقـول لـه(١):

«ولا عـذرَ لـك عنـد الله ولا عنـدي في قتـلِ العَمْـدِ لأن فيـه قَـوَدَ البـدن، وإنِ ابتُليـتَ بخطـإٍ وأفـرطَ عليـك سـوطُك أو سـيفُك أو يـدُك بالعقوبـةِ فـإن في الوكـزةِ فـما فوقهـا مقتَلـة، فـلا تطمحـنَّ بـك نخـوةُ سـلطانِكَ عـن أن تـؤدِّي إلى أوليـاءِ المقتـولِ حقَّهـم».

ونبـه الإمـام عليه السلام أيضًـا عـلى أمـر مـلازم للحاكـم، فإنـه يجـب أن يتعـرف عـلى مـن يحبـه ومـن يبغضـه فيلجـأ إلى التجسـس وقـد يشـتري ضـمائر النـاس لاسـتقرار أمـوره، فيلفـت الإمـام نظـر مالـك إلى هـذه الجهـة بقولـه(٢):

«وليكـنْ أبعـدَ رعيتِـكَ منـك وأشـنأَهُمْ عنـدَكَ أَطْلَبُهُـمْ لمعائـبِ النـاسِ؛ فـإن في النـاسِ عيوبًـا، الـوالي أحـقُّ مَـنْ سَـتَرَها، فـلا تكشِـفَنَّ عـما غـابَ عنـكَ منهـا، فإنـما عليكَ تطهـيرُ مـا ظهـرَ لـك، واللهُ يحكـمُ عـلى مـا غـابَ عنـك، فاسـترِ العـورةَ مـا اسـتطعتَ يسـترِ اللهُ منـك مـا تحـبُّ سـترَه مـن رعيتِـك».

فهـذا تهذيـب للنفـس ومنـع مـن التجسـس لمـا يحملـه مـن أضـرار عـلى ذات الراعـي وعـلى الرعيـة ويخالـف أمـر الـشرع المقـدس.

(١) ص٤٤٣.

(٢) ص٤٢٩.

ثم ذكر الإمام جهة يحتاج لها الحاكم، ألا وهي المشورة فيعلِّمُ الإمام مالكًا أصول المشورة وشروطها بقوله عليه السلام[1]:

«ولا تُدْخِلَنَّ في مشورتِكَ بخيلًا يعدلُ بكَ عن الفضلِ، ويَعِدُكَ الفَقْرَ، ولا جبانًا يُضعِفُكَ عن الأمورِ، ولا حريصًا يزيِّنُ لك الشرَهَ بالجورِ، فإن البخلَ والجبنَ والحرصَ غرائزُ شتى يجمعُها سوءُ الظنِّ بالله».

فالإمام عليه السلام يأمره باستشارة من هو أهل لأن يستشار، وينهاه عن مشورة هؤلاء الأصناف بالذات ويبين له سبب ذلك وأضرار مشورتهم، وتلاحظ هنا جهة أخرى وهي أن الإمام إلى جانب تقديم الإرشاد والتعاليم يُدخِل في ذلك المعرفة فيخبره بأن تلك الأمور غرائز مختلفة ولكن يجمعها سوء الظن بالله.

ثم يرشده الإمام إلى الوزراء وشؤونهم بقوله عليه السلام:

«إن شرَّ وزرائِكَ من كان للأشرارِ قبلك وزيرًا، ومن شَرِكَهُمْ في الآثامِ فلا يَكُونَنَّ لك بطانةً، فإنهم أَعوانُ الأثمةِ، وإِخوانُ الظَلَمةِ، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخلفِ ممن له مثلُ آرائِهم ونفاذِهم...»: وهذا يسترجع في الذهن ما كان عليه الحكم السابق حين كان آل أبي سفيان وآل أبي معيط وبني أمية عامة في زمن عثمان هم القائمين على رقاب الناس والناهبين لأموالهم بغير حق، فيحذِّره الإمام عليه السلام من هؤلاء وأمثالهم وإن كانوا يملكون الإدارة ويعلمون بالسياسة، فإنه سيجد من الأخيار المؤمنين غيرهم ممن يملك الإدارة ويعلم بالسياسة.

وبعد ذلك يشير الإمام عليه السلام إلى جهة أخرى هي من طبع الحكم ألا وهي

---

(١) ص٤٣٠.

أن الحاكم يحب الثناء عليه، وقد كانت سيرة الإمام تشهد أنه لا يحب الثناء عليه وكان ينهى أصحابه عن أن يثنوا عليه، وهو هنا يريد من مالك ما يريده لنفسه، قائلًا:

«ثم ليكنْ آثرُهم عندكَ أقولَهم بمرِّ الحقِّ لك، وأقلَّهم مساعدةً فيما يكونُ منك مما كَرِهَ اللهُ لأوليائِه، واقعًا ذلك من هواكَ حيثُ وقعَ، والصقْ بأهلِ الورعِ والصدقِ؛ ثم رُضْهُمْ على ألَّا يُطْرُوكَ ولا يَبْجَحُوكَ بباطلٍ لم تفعلْه، فإن كثرةَ الإطراءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ...»: وهذا ما لا يريده الإمام لحاكمٍ يقومُ مقامه.

ثم يوجه الإمام عليه السلام نظرةً دقيقة إلى ترابطِ جميعِ فئات المجتمع وطبقاته، بقوله[1]:

«فالجنودُ -بإذنِ الله تعالى- حصونُ الرعيةِ، وزينُ الوُلاةِ، وعِزُّ الدينِ، وسُبُلُ الأَمْنِ... ثم لا قوامَ للجنودِ إلا بما يُخْرِجُ اللهُ لهم من الخَراجِ الذي يقوَوْنَ به على جهادِ عدوِّهم... ثم لا قوامَ لهذين الصنفينِ إلا بالصنفِ الثالثِ من القضاةِ والعمالِ والكُتَّابِ لما يُحْكِمُونَ من المعاقِدِ، ويَجْمَعُونَ من المنافعِ... ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجارِ وذوي الصناعاتِ فيما يجتمعونَ عليه من مَرافِقِهم ويُقيمونَهُ مِنْ أسواقِهِمْ... ثم الطبقةُ السفلى من أهلِ الحاجةِ والمسكنةِ الذينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ ومعونتُهُمْ، وفي اللهِ لكلٍّ سَعَةٌ، ولكلٍّ على الوالي حقٌّ بقَدْرِ ما يُصْلِحُه...».

وتوصية بالأناة والبعد عن البطش[2]:

---

(١) ص٤٣٢.

(٢) ص٤٤٤.

«وإِيَّاكَ والعَجَلَةَ بالأمورِ قبلَ أوانِها، أو التَّسَقُّطَ فيها عندَ إِمكانِها، أو اللجاجةَ فيها إذا تنكَّرَتْ، أو الوهنَ عنها إذا استوضحَتْ، فضَعْ كلَّ أمرٍ مَوْضِعَه...».

ثم يذكر الإمام عليه السلام أمرًا رائعًا فيربط الأناة والبعد عن العنف والبطش بأمر المعاد قائلًا:

«وعما قليلٍ تنكشفُ عنك أغطيةُ الأمورِ، ويُنتَصَفُ منك للمظلومِ، امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وسَوْرَةَ حَدِّكَ، وسَطْوَةَ يَدِكَ، وغَرْبَ لِسانِكَ، واحْتَرِسْ مِنْ كلِّ ذلك بكفِّ البادِرَةِ وتأخيرِ السَّطْوَةِ، حتى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فتَمْلِكَ الاختيارَ، ولن تَحْكُمَ ذلكَ مِنْ نَفْسِكَ حتى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ المعادِ إلى رَبِّكَ»: فالسلطان حينما يغضب قد يفتك وقد يزهق الروح، والإمام عليه السلام يوصيه بأن ينتظر حتى يسكن الغضب ليملك بذلك اختياره ويستطيع أن يصيب في رأيه ويكون عادلًا في حكمه، وهذه أمور صعبة لا يمكن الوصول إليها إلا بالارتباط بالله تعالى وتذكر أمر المعاد والوقوف بين يديه تعالى.

ج) النواحي الإنسانية:

قال جورج جرداق: «هذا إلى إطارٍ مِنَ الحنانِ الإنسانيِّ العميقِ يحيطُ بهِ الإمامُ دستورَهُ في المجتمعِ ولا تحيطُ الأممُ المتحدةُ وثيقتَها بمثلِه».

ومن أمثلة هذه النواحي الإنسانية، ما يلي:

قوله عليه السلام في حديثه عن الناس الذين كان فيهم المؤمنون وأهل الذمة وغيرهم(١):

(١) ص٤٢٧.

«فإنهم صنفانِ: إِمَّا أخٌ لكَ في الدِّينِ، أو نظيرٌ لك في الخَلْق...».

وحين يلتفت الإمام إلى طبيعة الجنود وأن من طبعهم الشدة والفتك وإراقة الدماء – ينبه إلى أن الإسلام يريد نموذجًا آخر، فإن الجندي على ما يتطلبه وضعه من القوة والشدة في الحق ينبغي أن يكون أيضًا القدوة والمثل الأعلى في الرأفة والإنسانية، وقد كانت هذه صفة مميزة وعجيبة في سيرة الإمام نفسه عليه السلام وهو هنا يقول[1]:

«فولِّ من جنودِكَ أنصحَهم في نفسِك لله ولرسولِهِ ولإمامِك... وأفضلَهم حلمًا ممن يُبْطِئُ عن الغضب، ويستريحُ إلى العُذْرِ، ويَرْأَفُ بالضُّعفاءِ، ويَنْبُو على الأقوياءِ، وممن لا يُثِيْرُهُ العُنْفُ، ولا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ».

وحين يتحدث عن اهتمامه بالرعية يقول عليه السلام[2]:

«ثم تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ ما يَتَفَقَّدُ الوالدانِ من وَلَدِهما».

ثم يأمره بالموازنة بين الرعية والاعتراف بفضل أصحاب الفضل فيقول[3]:

«وواصِلْ في حُسْنِ الثناءِ عليهِمْ وتعديدِ ما أَبْلَى ذَوُو البلاءِ مِنْهُمْ».

كما بين الإمام عليه السلام المقاييس التي يجب أن يعتمد عليها الحاكم، وأن يتجنب المقاييس التي تصيب وتخطئ كالظن والفراسة، فيقول عليه السلام:

---

(١) ص٤٣٢.

(٢) ص٤٣٣.

(٣) ص٤٣٤.

«فإن الرجالَ يَتعَرَّضُونَ لِفراساتِ الوُلاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ، وحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، وليس وراءَ ذلكَ من النصيحةِ والأمانةِ شيءٌ...».

ومن لطفه وعطفه على الفقراء وحبه للمساكين يؤكد على الاهتمام بهم، ورعايتهم كل الرعاية، فيقول عليه السلام[1]:

«ثم اللهَ اللهَ في الطبقةِ السفلى من الذين لا حِيلةَ لهم، من المساكينِ والمحتاجينَ وأهلِ البُؤْسَى والزَّمْنَى، فإنَّ في هذه الطبقةِ قانعًا ومعترًّا، واحفظْ لله ما استحفَظَكَ من حقِّهِ فيهم، واجعل لهم قِسْمًا من بيتِ مالِك، وقِسْمًا من غَلَّاتِ صَوافِي الإسلامِ في كلِّ بلدٍ، فإن للأَقْصَى منهم مثلَ الذي للأَدْنَى... فإنك لا تُعذَرُ بتضييعِكَ التافِهَ لإِحكامِكَ الكثيرَ المُهِمَّ، فلا تُشْخِصْ هَمَّكَ عنهم، ولا تُصَعِّرْ خدَّكَ لهم، وتَفَقَّدْ أمورَ من لا يَصِلُ إليكَ منهم ممن تَقْتَحِمُهُ العُيونُ وتَحْقِرُهُ الرجالُ... وتعهَّدْ أهلَ اليُتْمِ وذَوِي الرِّقَّةِ في السِّنِّ ممن لا حيلةَ له، ولا يَنْصِبُ للمسألةِ نَفْسَه»: وقد لاحظت أن الإمام عليه السلام لم يبدأ فقرةً وأمرًا في هذا العهد الشريف بمثل هذه البداية «ثم اللهَ اللهَ في الطبقةِ السُّفْلَى»، فطبع المجتمع أن يكون فيه أثرياء ووزراء وقضاة كما أن فيه فقراء وزَمنى (مرضى) وأيتامًا ومسنين وقد تقتحم العيون هذه الطبقة أي لا يُعْبَأُ بهم ويُحتقرون، وفيهم القانع الذي لا يسأل كما أن فيهم المعترَّ الذي يتعرض للمسألة وهم بطبيعتهم وظروفهم هذه أحوج الناس إلى العدل، والحاكم لا يعذر إذا حفظ العدل والأمن والحقوق للغالبية المهمة وترك الأقلية غير المهمة من هذه الطبقة السفلى.

فعليه أن يلتفت إليهم ويُعنى بهم تمام العناية بل يجعل مجلسًا لذوي

---

(١) ص٤٣٨.

الحاجات منهم فإنهم قد لا يبوحون لكل أحد بوضعهم وحاجتهم، وقد استشهد الإمام له بسيرة رسول الله ﷺ قائلًا:

«فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ في غيرِ موطنٍ:(لن تُقَدَّسَ أمةٌ لا يؤخَذُ للضعيفِ فيها حقُّه من القويِّ غيرَ مُتَتَعْتِعٍ».

ثم يوصيه بالثبات وسعة الصدر بقوله:

«ثم احتملْ الخُرْقَ منهم والعِيَّ ونحِّ عنهم الضِّيقَ والأَنَفَ يبسطِ اللهُ عليك بذلكَ أكنافَ رحمتِه، ويُوجِبُ لكَ ثوابَ طاعتِه».

وقد دعا عليه السلام أخيرًا بهذا الدعاء:

«وأنا أسألُ اللهَ بسَعَةِ رحمتِه، وعظيمِ قُدْرَتِه على إعطاءِ كلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَني وإياكَ لِما فيه رضاهُ مِنَ الإقامةِ على العُذْرِ الواضحِ إليهِ وإلى خلقِه، مع حُسْنِ الثناءِ في العِبادِ، وجميلِ الأثرِ في البلادِ، وتمامِ النعمةِ، وتضعيفِ الكرامةِ، وأَنْ يَخْتِمَ لي ولكَ بالسعادةِ والشهادة، إنا إليهِ راجِعُونَ، والسلامُ على رسولِ اللهِ ﷺ الطيبين الطاهرين، وسلم تسليمًا كثيرًا».

٣٨) الإمام الإنسان.. السيرة الذاتية

مدخل

حديثنا هذا هو الحديث الختامي عن حياة أمير المؤمنين عليه السلام وهو حول سيرته الذاتية، فبعد أن تحدثنا عن الإمام الحاكم نتحدث هنا عن الإمام الإنسان، وسنلاحظ سعة مجالات الحديث وكثرتها، وسوف نقتصر على مجالات منها بما يستوعبه هذا الدرس.

مقدمة

أ) دراسة الشخصية:

إن الدراسة الدقيقة والموضوعية لشخصية ما هي الدراسة التي تستوعب حياة تلك الشخصية في مختلف الأدوار: في فترة الطفولة والصبا والشباب والشيخوخة، ففترة الطفولة والصبا لها طبيعتها من الميل إلى اللهو، وفترة الشباب تستدعي طيشًا وانطلاقًا معينًا في العواطف والغرائز والمواقف، وفترة الشيخوخة تصاحبها مؤثراتها ومتاعبها، وأمير المؤمنين عليه السلام عاصر في بداية حياته وضع الجاهلية بكل انحرافاتها، ثم عاصر بداية الدعوة وواكبها حتى انتصارها وهو في مرحلة الشباب، ثم قاسى اغتصاب حقه منه مع إيمانه الراسخ به، ثم كان أن عاد الحق إليه مع ابتلائه بالأحداث الجسام من فتن وحروب وغير ذلك وهو في ذلك السن الذي جاوز فيه الستين، ومرورًا بكل تلك الأدوار نجد هذه الشخصية متماسكة فلا تجد ثغرة واحدة فيها خلال تلك الحياة الحافلة بالبلاء والأحداث الكبيرة، وإن

هذه النظرة السريعة لتثبت لنا وتؤكد أن عليًّا بشر ولكن ليس كسائر البشر.

إن قلتُ ذا بشرٌ فالعقلُ يمنعني وأختشي اللهَ في قولي هو اللهُ

فصفات عليٍّ عليه السلام هي صفات ممكن الوجود ولكنها صفات في أعلى درجات الإمكان، وصفات الله تعالى صفات واجب الوجود التي لا يصل إليها ممكن الوجود بأي حال، وصدق من قال: إذا كان عليٌّ بشرًا فلسنا من البشر في شيء، وإن يكن هو الله فذلك هو الكفر.

ب) ملتقى الكمالات:

فأمير المؤمنين عليه السلام هو ملتقى الكمالات والفضائل الإنسانية وأنموذج الاصطفاء والعناية الربانية، وسنلاحظ ذلك في عموم أدوار حياته وسائر نشاطه في أمر الدين بما يتعلق بأمر الحروب التي خاضها دفاعًا عن الإسلام ونصرةً للحق من بدر إلى النهروان، وبما يتعلق بمواقفه في فترات حكمه وفترات الحاكمين قبله، ومجال آخر هو عدالته ومظاهر ذلك مع أقرب الناس إليه أو مع ألد الأعداء له، وهي كذلك مع ولاته ومع سائر الناس، ومجال آخر هو إنسانيته مع أهله وخدمته لهم، وفي شؤونه الخاصة في لباسه وطعامه، وفي تواضعه وأريحيته في دعابته، وسعة أفقه وتعاليه، وجملة من شؤونه مع الناس.

وقد تجلت في كل ذلك عظمته تجليًا تامًّا.

وأخيرًا فإن هذه السيرة الذاتية الرائعة بل المعجزة للإمام عليه السلام هي مدعاة للسرور والغبطة والفخر من جانب، كما أنها مدعاة للأسى من جانب إعراض الناس عن هذا الرجل الإلهي العظيم الذي جسَّدَ القرآن وجسَّدَ الحق.

أولاً: بطل الإسلام

وإذا تحدث عليٌّ عليه السلام عن نفسه فهو الصادق غير المتهم، وفوق كل ذلك فإن سيرته تصدق قوله فلا مجال للإنكار أبدًا، وقد قال عليه السلام[1]:

«حتى لقد قالت قريشٌ: إنَّ ابنَ أبي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ، ولكن لا علمَ له بالحرب، لله أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراسًا، وأقدمُ فيها مَقامًا مني! لقد نَهَضْتُ فيها وما بلغتُ العشرينَ وهأنذا قد ذَرَّفْتُ على الستينَ! ولكنْ لا رأيَ لمن لا يُطاعُ!».

فعليٌّ الذي لم يتجاوز حينها العشرين سنة كان بطلَ الإسلام الأول في ساحة الجهاد، ويوم ذاك لم يكن لأبي بكر أثر.. ولم يكن لعمر عين ولا أثر.. ولم يكن لعثمان اسم يذكر في تلك المواقف.. ففي (بدر) كان عليٌّ فارسَ الإسلام الذي جدَّلَ فرسان الكفر، وفي (أُحُد) جاء النداء من السماء قائلًا: «لا فتى إلا عليٌّ ولا سيفَ إلا ذو الفقار»، وإن (أُحُد) لتشهد بذلك، وتلك الفتوة هي كما يقول ابن أبي الحديد كالتي عبر بها القرآن الكريم عن خليل الله إبراهيم عليه السلام[2] فلا يرقى لمثلها إلا مثل تلك الشخصية، وفي (الخندق): ضربة عليٍّ يوم الخندق تعدل أعمال الثقلين.

قال ابن أبي الحديد:

«فأما الخرجة التي خرجها يوم الخندق إلى عمرو بن عبد وَدٍّ فإنها أجل من أن يقال جليلة، وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هي إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل

---

(١) خ٢٧، ص٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/ ٢١٧.

وقد سأله سائل أيما أعظم منزلة عند الله، عليٌّ أم أبو بكر؟ فقال: يابن أخي، والله لَمبارزة عليٍّ عمْرًا يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتِهم كلها وتُربي عليها، فضلًا عن أبي بكر وحده»[1].

فقد كان في تلك الضربة نصر الإسلام وعزته وقوة المسلمين وبقاؤهم، واندحار الكفر وهزيمة جيشه، وكان عليٌّ عليه السلام طوال تلك الفترة يمثل وحده جيشًا عظيمًا لا يحتاج الإسلام إلى غيره، وإلى أن بلغ الإمام الستين وهو بعد يجاهد دفاعًا عن الحق.

وقد تحدث الإمام عن تلك المنزلة شاكرًا الله تعالى الذي أكرمه بها وتفضل بها عليه، وتلك الكرامة التي خصه بها، فيقول عليه السلام[2]:

«ولقد عَلِمَ المستحفَظُونَ من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله أني لم أردَّ على الله ولا على رسولِهِ ساعةً قط، ولقد واسيتُهُ بنفسي في المواطنِ الَّتي تنكصُ فيها الأبطَالُ وتتأخر فيها الأقدامُ، نجدةً أكرمني اللهُ بها»: واللهُ أعلم حيث يجعل رسالته وأمانته فإنه الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها.

ثانيًا: مظاهر عدالته

وما أكثر هذه المظاهر وأعظمها، ولكن نأخذ سطورًا معبرة منها:

أ) قال عليه السلام[3]:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩/ ٦٠.

(٢) خ١٩٧، ص٣١١.

(٣) خ٢٢٤، ص٣٤٦.

«والله لَأَنْ أبيتَ على حَسَكِ السعدانِ مسهَّدًا، أو أُجَرَّ في الأغلالِ مصفَّدًا، أحبُّ إليَّ من أن ألقى اللهَ ورسولَهُ يوم القيامةِ ظالمًا لبعضِ العبادِ، وغاصبًا لشيءٍ من الحُطامِ، وكيف أظلمُ أحدًا لنفسٍ يُسْرِعُ إلى البِلى قُفولُها، ويطولُ في الثرى حُلولُها؟!».

ثم يتحدث عن موقف مع أخيه عقيل وهو من أقرب الناس إليه وقد كان فقيرًا محتاجًا وكان في حالة شديدة يعلمها الإمام عليه السلام وقد وصفها بدقة، ولكن عليًّا لا يساوم على دينه كما يساوم الآخرون، والإمام يقسم بالله تعالى ويؤكد واقع الحالة قائلًا:

«والله لقد رأيتُ عقيلًا وقد أملَقَ حتى استماحني من بِرِّكم صاعًا، ورأيتُ صبيانَهُ شعثَ الشعورِ، غُبْرَ الألوانِ من فقرِهم، كأنما سُوِّدَتْ وجوهُهم بالعِظْلِمِ، وعاودني مؤكِّدًا، وكرَّرَ عليَّ القولَ مردِّدًا، فأصغيتُ إليهِ سمعي، فظنَّ أني أبيعُهُ ديني وأَتَّبِعُ قيادَهُ مفارقًا طريقتي، فأحميتُ له حديدةً، ثم أدنيتُها من جسمِهِ ليعتبِرَ بها، فضجَّ ضجيجَ ذي دَنَفٍ من أَلِمِها، وكاد أن يحترقَ من مِيْسَمِها، فقلتُ له: ثكلتْكَ الثواكلُ يا عقيلُ! أتئنُّ من حديدةٍ أحماها إنسانُها لِلَعِبِه، وتجرُّني إلى نارٍ سَجَرَها جبَّارُها لغضبِه! أتئنُّ من الأذى ولا أَئِنُّ من لظى».

وموقف آخر يذكره على إثر هدية أهداها له ابن الأشعث، فيقول عليه السلام بعد ذلك:

«وأعجبُ من ذلك طارقٌ طرَقَنا بملفوفةٍ في وعائِها، ومعجونةٍ شنِئْتُها، كأنما عُجِنَتْ بريقِ حيةٍ أو قيئِها، فقلتُ: أَصِلَةٌ أم زكاةٌ أم صدقةٌ؟ فذلك مُحَرَّمٌ علينا أهلَ البيت! فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية. فقلتُ: هبِلَتْكَ الهَبُولُ! أَعن دينِ

الله أتيتني لتخدَعني؟ أَمُختبِطٌ أنتَ أم ذو جِنَّة، أم تهجُر؟ والله لو أُعطِيتُ الأقاليمَ السَبعةَ بما تحتَ أفلاكِها، على أن أعصيَ اللهَ في نملةٍ أسلبُها جُلْبَ شعيرةٍ ما فعلتُه، وإنَّ دنياكم عندي لأهونُ من ورقةٍ في فمِ جرادةٍ تَقْضَمُها، ما لعليٍّ ولنعيمٍ يفنى، ولذةٍ لا تبقى! نعوذُ باللهِ من سُباتِ العَقْلِ وقُبْحِ الزَّلَلِ، وبه نستعين».

ولله أنت يابن أبي طالب، فالذي يتنافس فيه الملوك والناس كنت تنفر منه وتبتعد عنه بهذه الصورة، فهذا المنصور العباسي «هُيِّئَتْ له عجّةٌ من مخٍّ وسكر فاستطابها فقال: أراد إبراهيم أن يحرمني هذا وأشباهه»[1].

وأما أمير المؤمنين عليه السلام فيصف هذه الهدية بأنها كالتي عجنت بريق حية أو قيئها، فنفسه تنفر منها أشد النفرة، لأنها جاءت طمعًا أن يفضل الإمام عليه السلام جماعة على أخرى في العطاء، وهو يجيب من أتى بها بذلك الجواب الشديد ثم يقسم بأنه لو أعطي الأقاليم السبعة ما ظلم نملة فكيف يظلم العباد.

ب) وكان عنده والٍ له شأن وكان معه في حرب الجمل يجاهد، وذلك الوالي لم يرتكب جرمًا عظيمًا ولكن عليًّا يأبى إلا أن يربيه على آداب الله تعالى وبكل دقة، ويهديه بالهداية التي يعلمها وبكل إخلاص له، ويأبى إلا أن يكون ولاة الأمة بذلك المستوى الرفيع الذي أرشدهم إليه، فقد أرسل إليه الإمام كتابًا جاء فيه[2]:

«أما بعد يابنَ حنيفٍ: فقد بلغني أن رجلًا من فتيةِ أهلِ البصرةِ دعاكَ إلى مأدبةٍ فأسرعتَ إليها تُستطابُ لك الألوانُ، وتُنقَلُ إليكَ الجِفانُ، وما ظننتُ أنك

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٣٠٩.

وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو أحد الذين قاموا على المنصور.

(٢) الكتاب رقم ٤٥، ص٤١٦.

تجيبُ إلى طعامِ قومٍ، عائلُهم مجفوٌّ، وغنيُّهم مدعوٌّ، فانظُرْ إلى ما تَقْضَمُهُ من هذا المَقْضَمِ، فما اشْتبَهَ عليكَ عِلْمُهُ فالْفِظْهُ، وما أيقنتَ بطِيبِ وجوهِهِ فنَلْ منه».

فالإمام عليه السلام يريد من الوالي أن يكون ملتفتًا دائمًا إلى رعيته بحيث لا يتميز عنهم، ويظل يرعاهم تمام الرعاية، ولا يرضى أن يكون الفقير في رعيته يُبعَدُ ويجفى وأما الغني فإنه يُكرَّم ويدعا، كما يحذره الإمام من أن يُخدع ويُرتَشَى بمثل هذه الدعوات وغيرها.

ثم يقرر الإمام عليه السلام قانونًا عامًا بقوله:

«ألا وإن لكلِّ مأمومٍ إمامًا يقتدي به، ويستضيءُ بنورِ علمِه، ألا وإنَّ إمامَكم قد اكتفى مِنْ دُنياهُ بطِمْرَيْهِ[1]، ومِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلا وإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ على ذلكَ ولكنْ أَعِينُوني بورعٍ واجتهادٍ، وعِفَّةٍ وسَدادٍ».

ومن مظاهرعدالتِهِ مع أعدائه أو المعارضين له موقفه مع طلحة والزبير، فقد «قالا له وقت البيعة: نبايعك على أنا شركاؤكَ في هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنكما شريكايَ في الفيء لا أستأثر عليكما ولا على عبدٍ حبشيٍّ مجدَّع بدرهمٍ فما دونه، لا أنا ولا ولدايَ هذان، فإن أبيتما إلا لفظ الشركة، فأنتما عونان لي عند العجزِ والفاقة، لا عند القوة والاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشترطا ما لا يجوزُ في عقد الأمانة، وشرط عليه السلام لهما ما يجب في الدين والشريعة»[2].

---

(١) الطِّمْرُ: الثوب الخَلِقُ البالي.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/ ٤٢.

فهو يضرب المثل الأعلى في العدالة ويساوي نفسه -وهو أمير المؤمنين- بسائر رعيته، ويأبى أن يمتاز عليهم بشيء ويأبى أن يُفضِّلَ بعضهم على بعض في العطاء.

ثالثًا: إنسانيته الفذة

وهي تتمثل في كثير من المظاهر، فهو ورغم كونه الحاكم في فترة معينة ورغم كونه قبل هذا أمير المؤمنين إلا أنه عليه السلام كان طوال حياته عاملًا كادحًا، بل كان في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يؤجِّرُ نفسه حتى لليهودي فيسقي نخيلاتٍ له بأجرٍ ولو كان زهيدًا كمقدارٍ من التمر يوفِّره لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما إنسانيته في بيته فهو يشارك زوجه عليها السلام الخدمة في الطحن أو الكنس أو سائر الأمور الأخرى.

وأما إنسانيته في أموره الشخصية فقد تجلت حتى في لباسه وطعامه، وهو يقتدي في ذلك برسول الله، وقد قال متحدثًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1]:

«خَرَجَ من الدنيا خميصًا، ووردَ الآخرةَ سليمًا، لم يضعْ حَجَرًا على حَجَرٍ حتى مضى لسبيلِهِ وأجابَ داعيَ ربِّه، فما أعظمَ منةَ الله عندنا حين أنعمَ به سَلَفًا نَتَّبِعُه، وقائدًا نَطَأُ عَقِبَه!»: وهذا هو الوعي والإدراك لرسالة الإسلام ومنزلة الرسول في القدوة ودور الحاكم وسيرته.

ثم قال عليه السلام:

(١) خ١٦٠، ص٢٢٩.

«والله لقد رقَّعتُ مِدْرَعَتي هذه حتى استحييتُ من راقعِها، ولقد قال لي قائلٌ: ألا تَنْبِذُها عنك؟ فقلتُ: اغْرُبْ عني فعند الصباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى!»: والإمام بقوله عن مدرعته: (هذه)، يشير إلى واقع محسوس يرونه، وقد كان من يرقع مدرعته هو الإمام الحسن صلوات الله وسلامه عليه، ومع ذلك فقد وصل الحال بالإمام أن يستحي منه.

وفي الكتاب رقم ٤٥ شيء من شؤون الإمام الشخصية في لباسه وطعامه وسائر أموره، ولم يكن ذلك الحال منه بسبب الفقر أو الحاجة بل ليكون أسوة لأضعف رعيته وأشدهم حاجة، وهذه غاية الإنسانية من شخص كان هو الإمام الحاكم المهيمن على المقدرات والثروات، فهو عليه السلام يقول في هذا الكتاب[1]:

«ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مُصَفَّى هذا العسلِ ولُبابِ هذا القمحِ ونسائجِ هذا القَزِّ، ولكن هيهاتَ أن يَغلبَني هوايَ، ويقودَني جشعي إلى تخيرِ الأطعمةِ، ولعلَّ بالحجازِ أو اليمامةِ من لا طَمَعَ له في القُرْصِ ولا عَهْدَ له بالشَّبَعِ»: فهو إمام الخلق فأراد أن يكون أسوةً لهم جميعًا، وذلك هو همه وتلك هي نفسيته وعدالته وحبه للخلق وخوفه من الخالق.

وكان من تواضعه وإنسانيته أنه لا يحب الإطراء والثناء عليه وينهى أصحابه عن ذلك، فقد خطب بصفين «فأجابه عليه السلام رجلٌ من أصحابِهِ بكلامٍ طويلٍ، يكثر فيه الثناءَ عليه ويذكرُ سمعَهُ وطاعتَهُ له» فكان مما قاله عليه السلام[2]:

«فلا تُثْنُوا عليَّ بجميلِ ثناءٍ، لإِخراجي نفسي إلى اللهِ سبحانَهُ وإليكم من التقيةِ

(١) الكتاب رقم ٤٥، ص ٤١٧-٤١٨.

(٢) خ ٢١٦، ص ٣٣٥.

في حقوقٍ لم أَفْرُغْ من أدائِها، وفرائضَ لا بدَّ من إمضائِها، فلا تكلموني بما تُكَلَّمُ به الجَبابِرَةُ... ولا تظنُّوا بي استثقالًا في حقٍّ قيلَ لي ولا التماسَ إعظامٍ لنفسي... فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكونَ لربٍّ لا ربَّ غيره».

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾(١).

فلو حكم في الأمة أمير المؤمنين عليه السلام من يومها الأول فهو بهذا المستوى من التعامل مع الرعية، ولو أُعطِيَ الخلافة بعد الرسول مباشرةً لظهرت الخيرات وبانتِ البركات في أعمالهم لأنه سيهديهم ويحملهم على الصراط المستقيم فيستقيمون (على الطريقة)، وذلك بما يحمله الإمام من فكر ووعي، وبما يملك من هيمنة على النفس لا يملكها غيره.

وقد تحدث الإمام عليه السلام عن تقصيره في الحقوق التي كلفه الله تعالى بأدائها للرعية، وما ذاك إلا لسان العبد الكامل الذي يستشعر التقصير دائمًا.

رابعًا: أريحيته وسعة أفقه وتعاليه

فأما أريحيته فقد وصفه حتى أعداؤه بالدعابة والمزاح.

قال ابن أبي الحديد:

«وأما سجاحة الأخلاق وبشْر الوجه وطلاقة المحيا والتبسم، فهو المضروبُ به المثل فيه؛ حتى عابه بذلك أعداؤه؛ قال عمرو بن العاص لأهلِ الشام: إنه ذو

(١) سورة الجن / ١٦.

دعابةٍ شديدة، وقال عليٌّ عليه السلام في ذاك: عجبًا لابنِ النابغةِ يزعم لأهل الشام أن فيَّ دعابة وأني امرؤ تلعابة أعافس وأمارس، وعمرو بن العاص إنما أخذها من عمر بن الخطاب لقوله له لما عزم على استخلافه: للهِ أبوك لولا دعابةٌ فيك! إلَّا أن عمر اقتصر عليها، وعمرو زاد فيها وسمَّجها»[١].

وأما واقع تلك الدعابة فهي جانب من جوانب كمال الإمام عليه السلام في أخلاقه وسيرته، قال ضرار بن ضمرة حينما قال له معاوية صف لي عليًّا: «وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن واللهِ مع تقريبهِ إيانا وقربِهِ منا لا نكاد نكلمه هيبةً له»[٢].

وقال قيس بن سعد في حديث مع معاوية أيضًا: «أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيبَ من ذي لبدتين قد مسَّهُ الطَّوى، تلك هَيبةُ التقوى، لا كما يهابك أهل الشام»[٣].

وقد أجاب الإمام نفسه على كلام عمرو هذا[٤].

وموقف آخر مع الأسرى ومع مَصقلة بن هبيرة وذلك «لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام» فقال عليه السلام[٥]:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٥.

(٢) الإمام علي من المهد إلى اللحد/ ٢٤٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٥.

(٤) خ٨٤، ص١١٥.

(٥) خ٤٤، ص٨٥.

«قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ! فعلَ فعلَ السادةِ وفرَّ فِرارَ العبيدِ! فما أنطق مادحَهُ حتى أَسْكَتَه، ولا صدَّق واصِفَهُ حتى بكَّتَهُ، ولو أقام لأخذنا ميسورَه، وانتظرْنا بمالِهِ وُفُورَه».

فقد مدحه الإمام على فعله الأول وكان مستعدًّا لأَنْ يعينه على هذا العمل الإنساني مع سبي من أعداء الإمام عليه السلام، وموضع الشاهد الذي هو فوق ذلك أنه قيل للإمام أن يعيد من أعتقهم مصقلة إلى الرق لأنه لم يقبض ثمن عتقهم كله، فرفض الإمام ذلك وقال عليه السلام: «ليس ذلك في القضاءِ بحقٍّ؛ قد عتقوا إذْ أعتقهم الذي اشتراهم، وصار مالي دينًا على الذي اشتراهم»[1].

وموقف آخر مع مروان، وما أدراك ما مروان؟

«أُخِذَ مروان بن الحكم أسيرًا يوم الجمل، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلماه فيه فخلَّا سبيله، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أَوَ لم يبايعني بعد قتل عثمان؟ لا حاجةَ لي في بيعتِه! إنها كفٌّ يهودية، لو بايعني بكفه لغدر بِسُبَّتِهِ، أَمَا إِنَّ له إِمْرَةً كلَعْقَةِ الكلبِ أَنْفَه، وهو أبو الأَكْبُشِ الأربعة، وستلقى الأمةُ منه ومن وَلَدِهِ يومًا أحمر!»[2].

فقد عامله الإمام عليه السلام بذلك المستوى من الإنسانية التي ليس لها نظير والتي هي ذاتية من ذاتياته لا تكلُّفَ فيها.

وموقف آخر مع الخريت بن راشد الذي كان مع الإمام في صفين، ثم بعد

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ١٤٧.

(٢) خ٧٣، ص١٠٢.

التحكيم لم يرض بما صنعه الإمام فعزم على عصيانه والاعتزال عنه فجاء إلى الإمام مع ثلاثين من أصحابه، وأخبر الإمام بذلك ولكن الإمام ناقشه وطلب منه أن يناظره وأراد له الهداية وتلك إنسانية رفيعة أن يقبل أولًا أن يفاوض معارضًا يريد الخروج عليه بدل أن يرغمه بالقوة حتى يرجع أصحابه ولا يلحق به آخرون، بل إن الإمام عليه السلام كان يحب وبكل إخلاص له الهداية[1].

وموقف آخر لما مر عليه السلام بالأنبار في العراق خرج أهلها «فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاؤوا يشتدون معه وبين يديه، ومعهم براذين[2] قد أوقفوها في طريقه، فقال: ما هذه الدواب التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء؛ وأما هذه البراذين فهدية لك، وقد صنعنا للمسلمين طعامًا وهيئنا لدوابكم علفًا كثيرًا، فقال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم خلق تعظمون به الأمراء، فوالله ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له، وأما دوابكم هذه، فإن أحببتم أن آخذها منكم، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم، وأما طعامكم الذي صنعتم لنا؛ فإنا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بثمن...»[3].

وهذا لطف ورأفة بالرعية وإنسانية لا يقدر عليها إلا عليٌّ عليه السلام وهو يربي رعيته على ما يصلحهم ولا يريد أن يمتاز عليهم أو يرهقهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ١٢٨.

(٢) جمع (بِرْذون): وهو الخيل غير العربي.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ٢٠٣.

خامسًا: الانضباط والملكات الشريفة

ونجد ذلك في ما قاله قبل موته لما ضربه ابن ملجم لعنه الله[1]:

«إِنْ أبقَ فأنا وليُّ دمي، وإِنْ أَفْنَ فالفناءُ ميعادي، وإِنْ أَعْفُ فالعَفْوُ لي قُرْبَةٌ».

وقال عليه السلام[2]:

«يا بني عبدالمطلب، لا أُلْفِيَنَّكم تخوضونَ دماءَ المسلمينَ خوضًا، تقولونَ: قُتِلَ أمير المؤمنين، ألا لا تَقْتُلُنَّ بي إلا قاتلي، انْظُرُوا إذا أنا متُّ من ضربتِهِ هذه، فاضِرْبُوهُ ضربةً بضربةٍ، ولا تمثِّلوا بالرجلِ، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: إياكم والمُثْلَةَ ولو بالكلبِ العَقُور»: وقد كان بإمكانه أن يأمر أهله وشيعته أن يشعلوا الحروب مع قريش والعرب قاطبة من أجل الثأر له، ولكنه يأبى إلا الانضباط والالتزام بأحكام الشرع المقدس، كما أنه يوصيهم كيف يعاملون قاتله وأن لا يمثلوا به التزامًا بحكم الله تعالى.

وموقف عجيب كان للإمام عليه السلام لما أن منعه معاوية من ماء الفرات بصفين وكان مع الإمام أكثر من مائة ألف فارس، فلما أن تمكن الإمام من الماء بعد قتال شديد، قال «أصحاب عليٍّ عليه السلام له: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، فقال: لا، خلُّوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون، سنعرضُ عليهم كتاب الله، وندعوهم إلى الهدى، فإن أجابوا؛ وإلا ففي حد السيف ما يغني إن شاء الله»[3].

---

(١) رقم٢٣، ص٣٧٨.

(٢) ص٤٢٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ٣٣١.

وفي مجال ملكاته الشريفة نقف على جانب عظيم ومثير في موقف الإمام مع عمرو بن العاص:

قال ابن أبي الحديد:

«كان عمرو بن العاص عدوًّا للحارث بن نضر الخثعمي وكان من أصحاب عليٍّ عليه السلام، وكان عليٌّ عليه السلام قد تهيبتْهُ فرسان الشام، وملأ قلوبهم بشجاعته، وامتنع كل منهم من الإقدام عليه، وكان عمرو قلما جلس مجلسًا إلا وذكر فيه الحارث بن نضر الخثعمي وعابه، فقال الحارث:

ليسَ عمرٌو بتاركٍ ذكرَهُ الحا ... رثَ بالسوءِ أو يلاقي عليّا

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمْرًا فأقسم بالله ليلقينَّ عليًّا ولو مات ألف موتة، فلما اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه فتقدم عليٌّ عليه السلام وهو مخترطٌ سيفًا معتقلٌ رمحًا، فلما رهقه همز فرسه ليعلو عليه، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغرًا برجليه؛ كاشفًا عورته، فانصرف عنه لافتًا وجهه مستدبرًا له، فعدَّ الناسُ ذلك من مكارمه وسؤدده، وضرب بها المثل»[1].

سواء ضرب المثل بترفع أمير المؤمنين عليه السلام وإنسانيته، أو بِضِعَةِ عمرو وموقفه ذاك، ولهذا قيل:

ولا خيرَ في دفعِ الرَّدَى بمذلَّةٍ ... كما ردَّها يومًا بسوءتِهِ عَمرُو

وأما بسر بن أرطاة -وهو الرجل الطاغية الجافي- فقد كان شديدًا مع غير عليٍّ، أما مع عليٍّ فقد كان كقول القائل:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٣١٣.

أنا في الحربِ ما جرَّبتُ نفسي ولكـن في الهزيمـةِ كالغـزالِ

أو كقول القائل:

أسـدٌ عـليَّ وفي الحـروبِ نعامـةٌ خرقاءُ تهربُ من صفيرِ الصافرِ

فقـد حرضـه معاويـة عـلى لقـاء عـليٍّ عليه السلام في الحـرب «ولم يـزلْ يشـجعه ويمنيـه حتى رأى عليًّا في الحرب، فقصده، والتقيا فصرعه عليٌّ عليه السلام وعـرض لـه معـه مثل ما عـرض لـه مـع عمـرو بـن العـاص في كشـف السـوأة».

وللشعراء فيهما أشعار مذكورة.

وكان مما قاله الحارث بن نضر في ذلك[1]:

أفي كلِّ يـومٍ فـارسٌ لـك ينتهـي وعورتُـهُ وسـطَ العجاجـةِ باديـه
يكـفُّ لهـا عنـه عـليٌّ سنانَهُ ويضحـكُ منهـا في الخلاءِ معاويـه
بـدتْ أمسِ مـن عمـرٍو فقنَّـعَ رأسَـهُ وعـورةُ بـسرٍ مثلُهـا حـذو حاذيـه
فقـولا لعمـرٍو ثـم بـسرٍ: ألا انظـرا لنفسِـكما: لا تلقيـا الليـثَ ثانيـه
ولا تحمـدا إلا الحيـا وخِصاكـما همـا كانتـا واللهِ للنفـسِ واقيـه
ولولاهمـا لم تنجيـا مـن سنانِهِ وتلـك بـما فيهـا إلى العَـوْدِ ناهيـه
متـى تلقيـا الخيـلَ المغيـرةَ صبحـةً وفيهـا عـليٌّ، فاتـركا الخيـلَ ناحيـه

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٣١٦-٣١٧.

وأعتذر من القارئ الكريم لذكر هذه الأبيات لما فيها، ولكن وكما يقول الشيخ القمّي إنه إذا كان مثل هذا الكلام في ذكر أعداء الله تعالى فلا بأس به.

وكونـا بعيـدًا حيـث لا يبلـغُ القنـا نحورَكـما إنَّ التجـاربَ كافيـه

«قـال معاويـة يومًا بعـد اسـتقرار الخلافـة لـه لعمـرو بـن العـاص: يـا أبـا عبـد الله، لا أراك إلا ويغلبني الضحك؛ قال: بـماذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين، فأزريتَ نفسك فَرَقًا من شبا سنانه، وكشفتَ سوأتَك لـه؛ فقال عمرو: أنا منك أشد ضحكًا؛ إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك، وربا لسانك في فمك، وغصصتَ بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك... فقال: يا أبا عبد الله، خض بنا الهزل إلى الجد، إن الجبن والفرار من عليٍّ لا عارَ على أحد فيهما»(١).

سادسًا: السيرة الواحدة

فإن سيرة رسول الله وسيرة أمير المؤمنين صلوات والله وسلامه عليهما وآلهما واحدة «وإذا تأملتَ أحواله في خلافتِهِ كلها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله ﷺ في حياته كأنها نسخة منتسَخة منها، في حربه وسلمه وسيرته وأخلاقه، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره؛ وإذا أردت أن تعلم ذلك علمًا واضحًا، فاقرأ سورة (براءة) ففيها الجم الغفير من المعنى الذي أشرنا إليه»(٢).

وقال عليه السلام:

«أنا من رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم كالعضد من المنكب، وكالذراع من العضد وكالكف من الذراع، رباني صغيرًا وآخاني كبيرًا؛ ولقد علمتم أني كان

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦/ ٣١٣-٣١٧ . ففيها ما يتعلق بعمرو بن العاص وبسر بن أرطاة.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ١٢٩ .

لي منه مجلس سرٍّ لا يطلع عليه غيري؛ وأنه أوصى إليَّ دون أصحابه وأهل بيته؛ ولأقولن ما لم أقله لأحد قبل هذا اليوم، سألته مرة أن يدعو لي بالمغفرة فقال: أفعل، ثم قام فصلى، فلما رفع يده للدعاء استمعت عليه، فإذا هو قائلٌ: اللهم بحق عليٍّ عندك اغفر لعليٍّ، فقلت يا رسولَ الله، ما هذا؟ فقال: أَواحدٌ أكرم منك عليه فأستشفع به إليه»[1].

وقال عليه السلام:

«كنتُ في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله كجزء من رسول الله صلى الله عليه وآله يَنْظُرُ إِلَيَّ الناس كما يُنْظَرُ إلى الكواكبِ في أفقِ السماء، ثم غضَّ الدهرُ مني فقُرِنَ بي فلانٌ وفلان، ثم قُرِنَ بي خمسةٌ أمثلُهُمْ عثمان، فقلتُ: واذفراه، ثم لَمْ يرضَ الدهرُ بذلك حتى أرذلني فجعلني نظيرًا لابنِ هندٍ وابنِ النابغة، لقد استنَّتِ الفِصَالُ حتى القَرْعَى»[2].

وكم هو معبِّرٌ هذا النص عن المرارة والحسرة التي كان يحياها أمير المؤمنين عليه السلام بسبب ذهاب الحق وبعد الناس عنه، ولهذا كان مما يأسى عليه كثيرًا أن يؤول أمر الحكم والإسلام إلى مثل معاوية ومن بعده، وتضيع كل الجهود التي بُذِلت من أجل الدعوة.

سابعًا: أمير البيان

وهنا كلمة لابن أبي الحديد بعد ذكره كلامًا قاله الإمام عليه السلام بعد تلاوته ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[3]، قال ابن أبي الحديد:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠/ ٣١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠/ ٣٢٦.

(٣) خ٢٢١، ص٣٣٨.

«وينبغي لـو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتـلي عليهم أن يسجدوا لـه، كـما سجد الشعراء لقول عديٍّ بن الرقاع:

* قلمٌ أصابَ من الدواةِ مِدادَها *

فلـما قيـل لهـم في ذلـك، قالـوا: إنـا نعـرف مواضـع السـجود في الشـعر؛ كـما تعرفـون مواضـع السـجود في القـرآن.

وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الأسود والنمور وأمثالها من السباع الضارية، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه، إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أن طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابسي المسوح الذين لم يأكلوا لحمًا ولم يريقوا دمًا... وتارة يكون في صورة سقراط الحبر اليوناني، ويوحنا المعمدان الإسرائيلي، والمسيح بن مريم الإلهي.

وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفًا وعظة، وأثَّرت في قلبي وجيبًا، وفي أعضائي رِعدة...»[1].

وبعدُ.. فهذا شيء من السيرة الذاتية للإمام عليه السلام وبعض من روائعه التي لا تحد، وحق للقائل أن يقول:

تحيرُ بمعناكَ عشرُ العقولْ ... ولولاكَ لا بعلَ يغشى البتولْ
ولولا ابنُ عمِّكَ كنتَ الرسولْ ... ولولا الغلوُّ لكنتُ أقولْ
جميعُ صفاتِ المهيمنِ لكْ

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/ ١٥٣.

وليس المعنى بالطبع أن صفات عليٍّ هي صفات الله تعالى لأن صفات الله تعالى هي عين ذاته، وأما صفات عليٍّ فهي مُفَاضَةٌ من الله تعالى، وكما قلنا فتلك صفات واجب الوجود التي لا يصل إليها ممكن الوجود، وهذه صفات الممكن ولكنها في أرفع درجات الإمكان.

فكان عليٌّ مظهرًا لعلم الله تعالى ومظهرًا لقدرته ولكلِّ أثرٍ من آثاره.

خاتمة:

كان عبد الله بن عباس قبل موته يرفع يديه إلى السماء ويكرر قوله: «اللهم إني أتقرَّبُ إليك بمحمدٍ وآلِ محمد، اللهم إني أتقرَّبُ إليكَ بولايةِ الشيخِ عليِّ بنِ أبي طالب»(١).

وجاء في زيارة الأمير عليه السلام (٢):

«السلامُ على أبي الأئمة، وخليلِ النبوة، والمخصوصِ بالأُخُوَّة، السلامُ على يعسوبِ الدينِ والإيمان، وكلمةِ الرحمان، السلامُ على ميزانِ الأعمال، ومقلِّبِ الأحوال، وسيفِ ذي الجلال، وساقي السلسبيلِ الزلال، السلامُ على صالحِ المؤمنين، ووارثِ علمِ النبيين، والحاكمِ يومَ الدين، السلامُ على شجرةِ التقوى، وسامعِ السرِّ والنجوى، السلامُ على حجةِ اللهِ البالغة، ونعمتِهِ السابغة، ونقمتِه الدامغة، السلامُ على الصراطِ الواضح، والنجمِ اللائح، والإمامِ الناصح، والزنادِ القادح، ورحمةُ اللهِ وبركاته».

---

(١) الكنى والألقاب ١/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) مفاتيح الجنان / ٤٣٧.

ويستحب في تعقيبات صلاة الصبح أن يقال:

«اللهم أحيني على ما أحييتَ عليهِ عليَّ بنَ أبي طالب، وأمتْني على ما مات عليه عليُّ بنُ أبي طالبٍ (عليه السلام)»[1].

نسأل الله تعالى أن يحيينا على نهجه العظيم، ويحشرنا تحت ظلال لوائه لواء الحمد، ويسقينا من حوض كوثره بيده، ويجعلنا معه في أعلى عليين.

---

(١) مفاتيح الجنان / ٤٨.

٣٩) المعاد

مدخل

قال عليه السلام:

«عَجِبْتُ لِمَنْ أنكرَ النشأةَ الأخرى وهو يَرَى النشأةَ الأولى»[(١)].

الدرس الختامي لهذا الدرس الشريف هو الحديث عن الأصل الخامس من أصول الدين وهو المعاد، وبحث المعاد من أكثر الأمور التي عُنِيَ بها الإمام عليه السلام في كلِمِهِ، في خطبه وكتبه وكلماته القصار، فنجده يذكُر المعاد ويذكِّر به في كل مناسبة لذلك.

وحديث المعاد مترامي الأطراف وهو يتعلق بأحاديث عن الدنيا والآخرة ويتصل بموضوع الجنة والنار والبرزخ والبعث والنشور وأمور كثيرة هي في مجموعها من عالم الغيب الذي إنما نأخذ ما نعلم من تفصيلاته من القرآن الكريم ومن أحاديث رسول الله والأئمة عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

أولاً: تعريف المعاد

المعاد لغةً: البعث يوم القيامة، واصطلاحًا يعرِّفُهُ علماء الكلام بأنه الوجود الثاني للأجسام وإعادتها بعد موتها وتفرقها[(٢)].

---

(١) كلمة رقم ١٢٦، ص٤٩١.

(٢) النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، للمقداد السيوري/ ٨٦.

وهـذا نـصٌّ عـلى أن المعـاد يتعلـق بإعـادة الأجسـام وليـس إعـادة الأرواح فقـط كـما يعتقـد آخـرون.

في الكلمة التي افتتحنا بها هذا الدرس يقول عليه السلام(1):

«عَجِبْتُ لِمَنْ أنكرَ النشأةَ الأخرى وهو يَرَى النشأةَ الأولى».

فالإمـام عليه السلام يتعجب أن ينكـر الإنسـان النشـأة الآخـرة وهـي المعـاد في حـين أنـه يـرى النشـأة الأولى التـي هـي الخلـق والحيـاة في الدنيـا، فقـد خُلِـقَ الإنسـان وقـد أتـى عليه حين من الدهـر لم يكـن شيئًا مذكـورًا، فمـن الممكـن والأَولى أن يعـاد خلقـه بعـد أن أصبـح رفاتًـا، وهـذا مصـداق لقولـه تعـالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾(2).

وفي هـذا المجـال يشير الإمـام إلى ناحيـة أخـرى وهـي مـا عـرَّفَ بـه علـماء الـكلام المعـاد -كـما ذكرنـا- فيقـول عليه السلام(3):

«حتـى إذا تصرَّمَـتِ الأمـورُ، وتقضَّـتِ الدهـورُ، وأَزِفَ النشـورُ، أخرجهـم مـن ضرائـحِ القبـورِ، وأوكارِ الطيـورِ، وأوجـرةِ السـباعِ، ومطـارحِ المهالِـكِ، سراعًـا إلى أمرِهِ، مهطعينَ إلى معادِهِ، رعيلًا صموتًـا، قيامًـا صفوفًـا، يَنْفُذُهُـمُ البَصَرُ»: فيمكـث الإنسان دهورًا في البـرزخ، حتى إذا أزف (أي قـرب) النشـور، يخرج البشر من أماكـن شتى كانـوا متفرقين فيهـا، فبعضهـم كان في قـبر وبعضهـم أكلتـه الطيـور في أوكارهـا

(1) الحكمة رقم126، ص491.

(2) سورة مريم / 67.

(3) خ83، ص108.

وبعضهم أكلته السباع في أوجرتها (أي جحورها) أو في أماكن ومطارح أخرى يموت فيها البشر كقيعان البحار وغيرها، فيخرج الجميع مهطعين (أي مسرعين، وهو تعبير قرآني) فيكونون في سيرهم كالرعيل أي القطعة من الخيل فلا ينفرد أحد عن الآخر بسبب سرعتهم فيكونون كلهم بين يدي الله تعالى يراهم ويحيط بهم وذلك تعبير الإمام (يُنْفِذُهُمُ البَصَرُ).

ثانيًا: سير الإنسانية

فقد أعطى الإمامُ نبذةً مختصرةً وهي جامعة لسير الإنسانية ابتداءً وانتهاءً.

فمن ذلك قوله عليه السلام[1]:

«عبادٌ مخلوقونَ اقتدارًا، ومربوبونَ اقتسارًا»:

فقد خلقهم بقدرته وهو مهيمن عليهم بهذه القدرة، وهذا لا يعني أنهم مجبورون على الأعمال بل القسر هنا هو من ناحية الخلق من الأساس، كما يقول الشيخ محمد جواد مغنية بأن الإنسان مخيرٌ ظاهرًا مسيرٌ باطنًا، وهذا لا يعني الجبر في شيء بل يعني أن أساس الخلق كان قسرًا ولم يكن باختيار الإنسان، فالإنسان لم يختر أن يأتي للدنيا ولا يختار كيف يخرج منها ولم يختر أن يكون له عقل، بل إن كوننا مختارين في أعمالنا هو في حد ذاته أمر قسري علينا لا خيار لنا فيه.

«ومقبوضونَ احتضارًا، ومضمَّنونَ أجداثًا، وكائنونَ رفاتًا»: فالله تعالى يقبض أرواحنا ويحضرها إليه، وأما أجسادنا فتوضع في الأجداث أي القبور، ثم بعد ذلك ينقلب سير الإنسانية فتتحلل هذه الأجساد وتصبح رفاتًا تحت التراب.

---

(١) خ٨٣، ص١٠٩.

«ومبعوثون أفرادًا، ومَدِينون جزاءً، ومميزون حسابًا»:

وتلك مرحلة أخرى من سير الإنسانية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى في موضوع التمييز بين الناس في الحساب كل بعمله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[3]، فكلٌّ مدينون ومجزيون بأعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[4].

«قد أُمهِلوا في طلبِ المخرج، وهُدوا سبيلَ المنهج؛ وعُمِّروا مَهَلَ المستعتب، وكُشِفَتْ عنهم سُدَفُ الريَب، وخُلُّوا لمضمارِ الجياد... في مدةِ الأجل»:

ولله الحق أن يعاتبهم ويحاسبهم فقد أمهلهم وأعطاهم الحياة وأعطاهم الاختيار وأوضح لهم الطريق ومكّنهم من التنافس في المضمار نحو الخيرات والمكارم لنيل الجنة.

ثالثًا: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[5]

وفي هذا المجال نلاحظ قوله عليه السلام[6]:

---

(١) سورة الأنعام / ٩٤.

(٢) سورة يس / ٥٩.

(٣) سورة هود / ١٠٥.

(٤) سورة الإسراء / ١٥.

(٥) سورة إبراهيم/ ٤٨.

(٦) خ١٠٩، ص١٦١.

«حتى إذا بلَغَ الكتابُ أجلَه، والأمرُ مقاديرَه، وأُلحِقَ آخِرُ الخلقِ بأوَّلِه، وجاءَ من أمرِ الله ما يريدُه من تجديدِ خلقِه».

ومن أقواله عليه السلام: «تخفَّفُوا تَلْحَقُوا، فإنما يُنتظَرُ بأوَّلِكم آخِرُكم»(1).

فهم مجموعون جميعًا أولهم وآخرهم في عرصة واحدة ومجمع واحد، فبعد ذلك البِلى والتحلل في التراب أو في أحشاء الحيوان أو في قاع البحار يشاء الله تعالى أن يعيد الناس من جديد فيكون ذلك الموقف الرهيب:

«أمادَ السماءَ وفطَرَها، وأَرَجَّ الأرضَ وأرجفَها، وقلعَ جبالَها ونسفَها، ودكَّ بعضُها بعضًا من هيبةِ جلالتِه، ومَخُوفِ سطوتِه، وأخرجَ مَنْ فيها، فجدَّدهم بعد إخلاقِهم، وجمعهم بعد تفرُّقِهم، ثم ميَّزهم لما يريدُهُ من مسألتِهم عن خفايا الأعمال، وخبايا الأفعال، وجعلهم فريقين: أنعمَ على هؤلاء وانتقمَ من هؤلاء...».

وميَّزهم بأعمالهم فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الجنةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(2)، وعندها (لا يظعَنُ النُّزَّالُ) أي لا يرتحلون بل يقيمون فيقال لأهل الجنة: خلود، ويقال لأهل النار: خلود.

وقال عليه السلام(3):

«يومٍ تَشْخَصُ فيهِ الأبصارُ، وتُظلِمُ له الأقطارُ... ويُنْفَخُ في الصُّورِ، فتزْهَقُ كلُّ مهجةٍ، وتَبْكَمُ كلُّ لهجة، وتذِلُّ الشمُّ الشوامخ... فلا شَفِيعٌ يَشْفَعُ، ولا حَمِيمٌ

(1) خ21، ص62-63.

(2) سورة الشورى / 7.

(3) خ195، ص310.

يَنْفَعُ، ولا مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ»:

وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[١].

رابعًا: عدل وعفو ومداقّة

ولـو أنَّـا إذا مِتنـا تُركنـا   لـكانَ المـوتُ راحـةَ كلِّ حـيِّ
ولكنـا إذا مِتْنـا بُعِثْنـا   ونُسْـأَلُ بعدَهـا عـن كلِّ شيِّ

ويتحدث الإمام عليه السلام عن هذا العدل والعفو والتدقيق في الحساب في عدة مواطن، فمن ذلك:

قوله عليه السلام في كتابٍ كتبه إلى محمد بن أبي بكر[٢]:

«فإنَّ اللهَ تعالى يسائِلُكم معشرَ عبادِهِ عن الصغيرةِ من أعمالِكم والكبيرة، والظاهرةِ والمستورة، فإنْ يعذِّبْ فأنتم أظلم، وإنْ يعفُ فهو أكرم».

فمن جانب نجد الإحاطة التامة من الله تعالى بأعمال العباد والدقة في تسجيل جميع شؤونهم ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٣]، والتعبير بالعباد تعبير مهم وله مدلوله وهو أن الله تعالى هو المولى والناس عبيده فهو إذن

(١) سورة طه / ١٠٥-١٠٦.

(٢) الكتاب رقم٢٧، ص٣٨٣.

(٣) سورة الكهف / ٤٩.

يملك أمر مساءلتهم وحسابهم على أعمالهم صغيرها وكبيرها وظاهرها وباطنها وتلك هي الدقة في رصد الأعمال لأنه تعالى مطلع على كل شيء ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]، فإنْ عذَّبَ اللهُ تعالى عباده فذلك هو العدل لأنه إنما يعذبهم بأعمالهم، وإنْ عفا عنهم فهو العفوُّ الكريم.

إذن ففي ذلك مشهد وشأن من شؤون المعاد والقيامة، ونلاحظ أن في مجموع ذلك وما سيأتي أيضًا حكمًا وأدلةً عقليةً توجب أن يكون المعاد حقًّا وأنه لا بد منه، وإلا لما كان هناك عدلٌ وانتظام ولكان القويُّ في هذه الحياة الذي يظلم ويفتك لا يُؤخَذُ منه الحق للضعيف المظلوم وهذاخلاف العدل والحكمة الإلهية، وتضييعٌ لحقوق الإنسان من النفس والمال والحريات.

خامسًا: صورتان للنعيم والجحيم

تحدث الإمام عن نعيم الجنة وعن جحيم النار في مواطن عديدة، فمن ذلك قوله عليه السلام:

«واعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يجعلْ لهُ مخرجًا من الفِتَنِ، ونورًا من الظُّلَمِ، ويخلِّدْهُ في ما اشتهتْ نفسُه ويُنْزِلْهُ منزِلَ الكرامةِ عندَه، في دارٍ اصْطَنَعَها لنفسِه؛ ظِلُّها عَرْشُه، ونُورُها بَهْجَتُه، وزُوَّارُها ملائكتُه، ورُفَقاؤُها رُسُلُه»[2].

فالجنة فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد

---

(١) سورة ق / ١٦.

(٢) خ١٨٣، ٢٦٦.

وصفها الإمام عليه السلام بهذه العبارات الكبيرة، وإن أمر الجنة وما تحويه لدليل على عِظَمِ تكريم الله تعالى للإنسان لو وعى الإنسان ذلك، وإذا كانت الجنة بهذا المستوى من النعيم والتكريم الإلهي وبما فيها من المقربين، وقد أرادها الله تعالى لعباده – فما الذي يجدر بالعباد أن يصنعوا؟

«فبادِرُوا المعادَ، وسابِقوا الآجالَ، فإن الناسَ يُوشِكُ أن يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأملُ، ويَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ، ويُسَدَّ عنهم بابُ التوبةِ».

وبعد أن أشار الإمام إلى الجنة وما يجدر بالإنسان أن يصنعه لينال ذلك التكريم – يشير الإمام عليه السلام إلى جحيم النار بقوله:

«واعْلَمُوا أنهُ ليس لهذا الجِلْدِ الرَّقِيقِ صبرٌ على النارِ، فارْحَمُوا نُفُوسَكم، فإنكم قد جرَّبْتُمُوها في مصائِبِ الدنيا.

أَ فرأيتُمْ جزعَ أحدِكم من الشوكةِ تصيبُه، والعثرةِ تُدْمِيه، والرمضاءِ تُحْرِقُه؟ فكيف إذا كانَ بين طابقينِ مِنْ نارٍ، ضجيعَ حَجَرٍ وقرينَ شيطانٍ! أَ علمتُمْ أن مالكًا إذا غَضِبَ على النارِ حَطَمَ بعضُها بعضًا لِغَضَبِه، وإذا زَجَرَها توثَّبَتْ بين أبوابِها جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِه!»: والإمام هنا يتحدث عن أشياء محسوسة ندركها ولكنا قد نغفل عنها، فهو يذكّرنا بها لكي تكون أكثر حجة وتأثيرًا فينا، فقد جَرَّبَ الإنسان مقدار تحمله لمصائب الدنيا وضعفه أمامها، فالشوكة تدميه، وجسده ضعيف لا يقوى على الآلام فكيف يصنع بألم النار وشدة العذاب وأهوال الجحيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ

غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾(١)، ومالكٌ خازنُ النار لا يحتاج لإشعالها حتى تضطرب بل إنه إذا غضب عليها اضطربت وتأججت وحطَمَ بعضها بعضًا.

ثم يخاطبُ الإمام كبار السن بشكل خاص لضعفهم وقرب أجلهم عادة، بقوله:

«أيها اليَفَنُ الكبير، الذي قد لَهَزَهُ القتير، كيف أنتَ إذا التحمتْ أطواقُ النارِ بعظامِ الأعناق، ونشبتِ الجوامعُ حتى أكلتْ لحومَ السواعد»: فهو يذكر هذا الشيخ ضعيف البدن بأطواق النار التي تطوِّقُه، وبالجوامع (الأغلال) التي تأكل لحم سواعده، وهذا ما لا يحتمله الإنسان، فلو تدبر فيه لم يُقدِم على المعصية.

فقد جمع الإمام عليه السلام ذكر الجنة ونعيمها وذكر الجحيم وعذابها، وما ينبغي للعباد أن يصنعوه، ثم ختم بقوله:

«أقولُ ما تسمعون، واللهُ المُستعانُ على نفسي وأنفسِكم، وهو حسبُنا ونعم الوكيل».

وقال عليه السلام(٢):

«فمن أقربُ للجنةِ من عاملِها، ومن أقربُ إلى النارِ من عاملِها! وأنتم طُرَداءُ الموت، إنْ أقمتُمْ له أَخَذَكُمْ، وإنْ فررْتُمْ منه أَدْرَكَكُمْ، وهو ألزمُ لكم من ظِلِّكم، الموتُ معقودٌ بنواصيكم؛ والدنيا تُطوَى مِنْ خَلْفِكم، فاحْذَرُوا نارًا قعرُها بعيد، وحرُّها شديد، وعذابُها جديد، دارٌ ليس فيها رحمةٌ، ولا تُسْمَعُ فيها

(١) سورة التحريم / ٦.
(٢) الكتاب رقم٢٧، ص٣٨٤.

دعوةٌ...»: فالتسابق مُتاحٌ للجميع وبإمكان كل فرد أن ينال الجنة بعمله، كما أنه له الخيار أن يدخل النار بعمله أيضًا.

وقد عبر الإمام عليه السلام عن عذاب النار بأنه جديد وذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾[1]، وإن النار ليس فيها رحمة من جهة العذاب لأن من فيها لا يستحق ذلك.

سادسًا: نومتان عن الجنة والنار مرديتان

قال عليه السلام[2]:

«ألا وإني لم أرَ كالجنةِ نامَ طالبُها، ولا كالنارِ نامَ هاربُها».

فهناك من يطلب الجنة ولكنه في مجال العمل لا يعمل للوصول إليها بل ينام عن ذلك أو أن الجنة نظرًا لما فيها من النعيم العظيم والتكريم ينبغي أن لا ينام من يطلبها لأنها تستحق العمل الدائم من أجلها، فمن يعشق شيئًا دنيويًا نجده يحرص على نيله وإذا كان موعده قريبًا نجد أنه لا ينام شوقًا إليه وخوفًا من أن يفوته غدًا.

وكذلك فإن النار بما فيها من أهوال كيف ينام من يريد الهرب منها، فإن من يحذر من أمر دنيوي نجده قلقًا مضطربًا خائفًا فلا ينام بسبب ذلك أو أنه يستميت في سبيل التخلص منه والبعد عنه.

---

(١) سورة النساء / ٥٦.

(٢) خ٢٨، ص٧١.

وهاتان النومتان عن الجنة والنار هما النومتان المرديتان فإن نتيجتهما الهلاك والحرمان من نعيم ليس فوقه نعيم.

سابعًا: الخير والشر الحقيقيان

قال عليه السلام(١):

«ما خيرٌ بخيرٍ بعدهُ النار، وما شرٌّ بشرٍّ بعدهُ الجنة، وكلُّ نعيمٍ دونَ الجنةِ فهو محقور، وكلُّ بلاءٍ دونَ النارِ عافية».

وما أروع أمير المؤمنين في فكره وهديه وقوله وعمله، فهو يبين عليه السلام هنا أن جميع ما في الدنيا من نعيمٍ وملكٍ ومالٍ يُؤتاهُ الإنسان، فيكون كفرعون أو قارون أو معاوية أو يزيد أو هذه النماذج من الماضين والباقين الذين نالوا من الدنيا أكبر النعيم وتحكموا بها، ومع ذلك حينما يكون عاقبة كل ذلك إلى النار ينكشف الواقع وأن ما كانوا عليه لم يكن نعيمًا حقيقيًّا بل نعيمًا زائفًا ولم يكن خيرًا حقيقيًّا، وإن هذا النعيم كله تُنسيهِ حالةٌ واحدةٌ ولحظاتٌ قليلة في نارِ جهنم ومشهدٌ واحدٌ من مشاهد القيامة.

وأما من ينال بلاءً وشرًّا دنيويًّا فيُظْلَم، ويُنهَب ويُشتَم ويُشَهَّرُ به ويُفترَى عليه ويُحتقَرُ وهو في رثِّ الثيابِ وليًّا من أولياءِ الله تعالى لو أقسم على الله لأبرَّ قَسَمَه، ومع كل ذلك البلاء الذي يناله فإن ذلك ليس شرًّا حقيقيًّا، لماذا؟ لأن وراءه نعيم الجنة وهو النعيم والخير الحقيقي ﴿وِرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾.

إذن نحن نؤمن ونؤكد بأن هذه المشاهد وهذه الحقائق عن المعاد يجب أن

(١) الحكمة رقم ٣٨٧، ص ٥٤٤.

تبقى في أذهاننا وتخالط مشاعرنا لأن الارتباط بالمعاد له أكبر الأثر في سير الإنسان نحو الله تعالى ونيل رضوانِهِ وجنانِهِ.

وفي نفس الوقت نلتمس جانبًا آخر غير الخوف من الآخرة وهو جانب من الألطاف الإلهية ألا وهو التمسك بولاء أمير المؤمنين عليه السلام والتزام نهجه وسيرته، وإن ما ينال المؤمن بسبب هذا الولاء، من البلاء والمضايقة في عمل أو دراسة أو في سائر الأمور، لا لشيءٍ إلا لأنه يوالي محمدًا وآلَ محمد، فكل ذلك البلاء يهون ما دام الإنسان على الحق وما دامت عاقبته إلى النعيم.

ولذلك أحببتُ أن أختم هذا الدرس الشريف بذكر بعض من آثار الولاء لأولياء الله تعالى، محمدٍ وآلِ محمد، وبعضٍ من آثار العداء والبعد عنهم.

«وإنَّ على الكوثرِ أميرَ المؤمنين عليه السلام وفي يدِهِ عصًا من عوسج يحطِم بها أعداءَنا، فيقولُ الرجلُ منهم إني أشهدُ الشهادتين، فيقول انطلقْ إلى إمامِكَ فلانٍ فاسألْه أن يشفعَ لك، فيقولُ: تبرَّأَ مني إمامي الذي تذكرُه، فيقولُ ارجعْ إلى ورائك فقل للذي كنتَ تتولاَّه وتقدِّمه على الخلق فاسألْهُ إذا كان خيرَ الخلقِ عندك أن يشفعَ لك فإن خيرَ الخلقِ من يشفع، فيقول إني أهلكُ عطشًا، فيقول له زادَكَ اللهُ ظمًا وزادَكَ اللهُ عطشًا، قلتُ: جعلتُ فداك وكيف يقدرُ على الدنوِّ من الحوضِ ولم يقدرْ عليه غيرُه، فقال وَرِعَ عن أشياءَ قبيحةٍ وكفَّ عن شتمِنا أهلَ البيت إذا ذكرنا، وترك أشياء اجترأ عليها غيره وليس ذلك لحبنا ولا لهوىً منه لنا، ولكن ذلك لشدةِ اجتهادِهِ في عبادتِه وتديُّنِهِ ولما قد شغل نفسه به عن ذكر الناس، فأما قلبه فمنافق ودينه النصب، واتباعه أهل النصب وولايةُ الماضين وتقديمه لهما على

كلِّ أحد»[1].

هذا حال عدو آل محمد، فماذا عمن يوالي محمدًا وآل محمد:

«وأمير المؤمنين عليه السلام قائمٌ على الحوضِ يصافحُهُ ويرويه من الماء وما يسبقه أحدٌ إلى ورودِهِ الحوض حتى يروى ثم ينصرف إلى منزلِهِ من الجنة ومعه ملَكٌ من قِبَلِ أميرِ المؤمنين يأمر الصراطَ أن يَذِلَّ له ويأمر النارَ أن لا يصيبه من لفحِها شيء حتى يجوزَها ومعه رسوله الذي بعثه أمير المؤمنين عليه السلام»[2].

أَبَا حَسَنٍ لو كانَ حُبَّكَ مُدْخِلِي   جهنمَ كانَ الفوزَ عندي جحيمُهَا
وكيف يخافُ النارَ مَنْ بَاتَ مُوقِنًا   بِأَنَّ أَمِيرَ المؤمنينَ قَسِيْمُهَا

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل اليسير، وهذا الدرس الذي عشقتُهُ وارتبطتُ به وأحسُّ بالحسرة لانتهائه فأسألُ اللهَ تعالى أن يتقبله بأحسن القبول وأن يجزيَ بالحسنى كل من ساهم في إحياءِ هذا الأمر، ونسأل الله تعالى أن يكافئنا على ذلك ويثبِّتنا على حب أمير المؤمنين عليه السلام والتزام نهجه وسيرته.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله السادة المنتجبين.

(١) كامل الزيارات/ ١٠٢.

(٢) كامل الزيارات/ ١٢٣.

المصادر

القرآن الكريم

١. إحقاق الحق: الشهيد نور الله التستري ، (ت: ١٠١٩).

٢. أدب الطف وشعراء الحسين، جواد شبر، دار المرتضى-بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٣. الإرشاد: الشيخ المفيد، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٤. أسباب النزول: الواحدي النيسابوري، (ت: ٤٦٨هـ)، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة، ١٣٨٨ - ١٩٦٨م.

٥. الأصول العامة للفقه المقارن: السيد محمد تقي الحكيم، مؤسسة آل البيت (عليه السلام) للطباعة والنشر، ط٢: ١٩٧٩م.

٦. أصول الكافي: الشيخ الكليني، (ت: ٣٢٩)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية - طهران، ط٥: ١٣٦٣ش.

٧. أضواء على السنة المحمدية: محمود أبو رية، (ت: ١٣٨٥)، دار البطحاء، ط٥.

٨. إعلام الورى بأَعلام الهدى: الشيخ الطبرسي، ط١: ١٤١٧.

٩. أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين، (ت: ١٣٧١هـ)، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان.

١٠. أمالي الصدوق: (ت: ٣٨١هـ)، تحقيق : قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، ط١، ١٤١٧هـ.

١١. الإمام الصادق (عليه السلام): الشيخ محمد حسن المظفر، (ت: ١٣٧٥هـ)، ط٣، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ١٣٩٧ - ١٩٧٨م.

١٢. الإمام الصادق مُلْهِمُ الكيمياء: للدكتور محمد يحيى الهاشمي، دار الأضواء، ط١:

١٩٩٣م.

١٣. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، دار الأندلس، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م.

١٤. الامام علي (عليه السلام) من المهد الى اللحد: السيد محمد كاظم القزويني، مؤسسة النور للمطبوعات – بيروت، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

١٥. البابليات، الشيخ محمد علي اليعقوبي، المطبعة العلمية، النجف الأشرف، ١٩٥٥م.

١٦. بحار الأنوار، العلامة المجلسي: (ت: ١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان، ط٢: ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.

١٧. البداية والنهاية: ابن كثير، (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ط١، ١٤٠٨ – ١٩٨٨م.

١٨. بين الجاهلية والإسلام: الشيخ محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، ط٤: ١٩٩٥م.

١٩. التاريخ الكبير: محمد بن اسماعيل البخاري، (ت: ٢٥٦هـ) تحقيق مصطفى عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية.

٢٠. تاريخ النقود الإسلامية، للسيد موسى الحسيني المازندراني، دار العلوم للطباعة، ط٣.

٢١. تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، (ت: ٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان، ١٤١٥.

٢٢. ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله: مؤسسة المحمودي بيروت-لبنان، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٢٣. تلخيص الشافي، شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، قدم له وعلق عليه السيد حسين بحر العلوم، مؤسسة انتشارات، ط١، إيران- قم، ١٣٨٢.

٢٤. سلم الوصول إلى معارف نهج البلاغة، سلسلة مقالات منشورة على موقع نهج البلاغة

(/http://arabic.balaghah.net)

٢٥. التوحيد: الشيخ الصدوق، (ت: ٣٨١هـ)، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٢٦. نهج البلاغة في الأدب العربي، سلسلة مقالات منشورة على موقع (.http://www (/shiasearch.com/ar).

٢٧. حق اليقين في معرفة أصول الدين، السيد عبد الله شبر (ت: ١٢٤٢هـ)، مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر، ١٩٨٠م.

٢٨. حقائق التأويل في متشابه التنزيل: الشريف الرضي، (ت: ٤٠٦هـ)، تحقيق: محمد رضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

٢٩. حياة الإمام الحسن (عليه السلام)، الشيخ باقر شريف القرشي، مطبعة الآداب - النجف الأشرف ط١، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٣٠. الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي، (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق : مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام)، بإشراف السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، ط١ ، كاملة محققة، ذي مؤسسة الإمام المهدي - قم المقدسة، ١٤٠٩هـ.

٣١. الخصال: الشيخ الصدوق، (ت: ٣٨١هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ١٤٠٣ - ١٣٦٢ ش، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٣هـ.ق - ١٣٦٢هـ.ش.

٣٢. الدر الثمين في معرفة أمير المؤمنين (عليه السلام) سلسلة مقالات منشورة على الرابط (html.٠١/٦١_book/٠٣/https://www.haydarya.com/maktaba_moktasah)

٣٣. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

٣٤. الدعوات، لقطب الدين الراوندي، (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (عجل

الله فرجه)، ط١: ١٤٠٧هـ.

٣٥. دلائل الصدق لنهج الحق: الشيخ محمد حسن المظفر، (ت: ١٣٧٥هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث – دمشق، ط١: ١٤٢٢هـ.

٣٦. الراعي والرعية: للمحامي توفيق الفكيكي، مطبعة أسعد-بغداد: ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.

٣٧. الروضة المختارة، (شرح القصائد الهاشميات)، كميت بن زيد الأسدي، (ت: ١٢٦هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت- لبنان.

٣٨. سنن النبي: السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت: ١٤٠٢هـ)، كتابفروشي اسلامية للنشر، ط٥:، ١٣٧٠ش.

٣٩. السياسة الاقتصادية في خلافة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، جامعة اليرموك، رسالة ماجستير، لأحمد أسعد محمود إبراهيم.

٤٠. السياسة الاقتصادية للإمام علي، للشيخ نزيه محيي الدين، شبكة الفكر.

٤١. سير أعلام النبلاء، الذهبي، (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة للطبع - بيروت – لبنان، ط٩: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م،

٤٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، (ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١: ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

٤٣. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل: الحاكم الحسكاني، (ت: ق٥)، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي- مجمع إحياء الثقافة الإسلامية ط١: ١٤١١ - ١٩٩٠م.

٤٤. صحيح مسلم: مسلم النيسابوري، (ت: ٢٦١هـ) دار الفكر - بيروت – لبنان.

٤٥. صلح الحسن (عليه السلام)،الشيخ راضي آل ياسين، (ت: ١٣٧٢هـ).

٤٦. ظهر الإسلام: أحمد أمين المصري، تحقيق شفيق البسط، ٢٠١٣م.

٤٧. الغدير: الشيخ الاميني، (ت: ١٣٩٢هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان، ط٤: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٤٨. الغدير والمعارضون: السيد جعفر مرتضى العاملي، مطبعة مكتب الاعلام الإسلامي، دار السيرة للنشر، بيروت لبنان / قم إيران، ط٣: ١٤١٧ - ١٣٧٥ ش - ١٩٩٦م.

٤٩. الفصول المهمة في معرفة الأئمة: علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي (ت: ٨٥٥هـ)، تحقيق: سامي الغريري.

٥٠. في رحاب نهج البلاغة: مرتضى المطهري، دار الاسلام، بيروت لبنان.

٥١. في ظلال نهج البلاغة: محمد جواد مغنية، (ت: ١٤٠٠هـ)، مطبعة ستار، انتشارات كلمة الحق للنشر، ط١: ١٤٢٧.

٥٢. كامل الزيارات: جعفر بن محمد بن قولويه، (ت: ٣٦٧هـ) تحقيق: الشيخ جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقاهة ط١: ١٤١٧هـ.

٥٣. الكرام البررة، الشيخ الطهراني: اسم الكتاب: طبقات أعلام الشيعة، العلامة الشيخ أغا بزرك الطهراني، دار إحياء التراث العربي للطباعة والتوزيع، ط١، لبنان - بيروت، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٥٤. الكشكول: الشيخ يوسف البحراني، دار ومكتبة الهلال، ط١: ١٩٩١م.

٥٥. الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، (ت: ١٣٥٩هـ)، مكتبة الصدر - طهران.

٥٦. لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، (ت: ٩١١هـ) تحقيق: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٧. مجمع البحرين: الشيخ فخر الدين الطريحي، (ت: ١٠٨٥هـ)، چاپخانهء طراوت للطبع، مرتضوي للنشر، ط٢: ١٣٦٢ش.

٥٨. تفسير مجمع البيان: الشيخ الطبرسي، (ت: ٥٤٨هـ) تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان ط١: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥٩. المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت: ٢٧٤هـ) تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني (المحدث)، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٧٠هـ - ١٣٣٠ش.

٦٠. مذكرات الشيخ بهلول، عبد العظيم المهتدي البحراني، مكتبة سفينة النجاة، ط٣، الكويت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٦١. المراجعات الريحانية: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت: ١٣٧٣هـ)، تحقيق: محمد عبد الحكيم الصافي، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١: ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

٦٢. مراصد الاطلاع على نهج البلاغة، يحوي ٣٤٧ مقالًا.

٦٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي، (ت: ٣٤٦هـ)، منشورات دار الهجرة ايران - قم، ط٢: ١٤٠٤هـ - ١٣٦٣ش - ١٩٨٤م.

٦٤. مستدرك سفينة البحار: الشيخ علي النمازي الشاهرودي، (ت: ١٤٠٥هـ) تحقيق: الشيخ حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٨.

٦٥. مستدرك نهج البلاغة: الشيخ هادي كاشف الغطاء، (ت: ١٣٦١هـ)، منشورات مكتبة الأندلس.

٦٦. المستشرقون ونهج البلاغة، سلسلة مقالات منشورة في موقع نهج البلاغة (http://ar-abic.balaghah.net/)

٦٧. مصادر نهج البلاغة وأسانيده: السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، دار الزهراء - بيروت، لبنان، ط١: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٦٨. معالم الفلسفة الإسلامية: الشيخ محمد جواد مغنية، مكتبة الهلال بيروت.

٦٩. معالم النبوة في القرآن الكريم: الشيخ السبحاني، دار الاضواء للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

٧٠. معجم البلدان: الحموي، (ت: ٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت – لبنان ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٧١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، ١٣٦٤.

٧٢. المعجم الموضوعي لنهج البلاغة: أويس كريم محمد، مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة، مجمع البحوث الإسلامية للنشر - مشهد، ايران، ط١: ١٤٠٨هـ.

٧٣. معجم رجال الحديث: السيد أبو القاسم الخوئي، (ت: ١٤١٣هـ)، ط٥: ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٧٤. مفاتيح الجنان (عربي): الشيخ عباس القمي، (ت: ١٣٥٩هـ)، تحقيق: تعريب: السيد محمد رضا النوري النجفي، دار البعثة للطبع، منشورات مكتبة العزيزي-قم، ط٣: ١٣٨٥ش - ٢٠٠٦م.

٧٥. مقباس الهداية: الشيخ عبد الله المامقاني. تحقيق الشيخ محمد رضا المامقاني، مؤسسة ال البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث.

٧٦. مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب، (ت: ٥٨٨هـ) تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦ - ١٩٥٦م.

٧٧. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: حبيب الله الهاشمي الخوئي، (ت: ١٣٢٤هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، مطبعة الاسلامية بطهران، بنياد فرهنگ امام المهدي (عجل الله فرجه)، ط٤..

٧٨. منهاج الكرامة، العلامة الحلي: (ت: ٧٢٦هـ) تحقيق: عبد الرحيم مبارك، مطبعة الهادي – قم، تاسوعاء للنشر – مشهد، ط١: ١٣٧٩ش.

٧٩. المواقف: الإيجي، (ت: ٧٥٦هـ) تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٨٠. مواهب الرحمن: السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، منشورات دار التفسير، ط٥: ١٤٣١هـ.

٨١. شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني، (ت: ٦٧٩هـ) تحقيق: عدة من الأفاضل وقوبل بعدة نسخ موثوق بها، طبع چاپخانه دفتر تبليغات إسلامي، مكتب الاعلام الاسلامي - الحوزة العلمية للنشر، قم – ايران ط١: ١٣٦٢ش.

٨٢. تفسير الميزان: السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت: ١٤٠٢هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٨٣. النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادى عشر، المقداد السيوري، (ت: ٨٢٦هـ)، تحقيق: المقداد السيوري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت – لبنان، ط٢: ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٨٤. النص والاجتهاد: السيد عبد الحسين شرف الدين، ، دار القارىء للطباعة والنشر، ط٢.

٨٥. نهج البلاغة، خطب الإمام علي (عليه السلام)، تحقيق صحبي الصالح ، (ت: ١٩٨٦م)، ط١: ١٣٨٧ – ١٩٦٧م.

٨٦. نوادر الأثر في علم عمر، العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني، مركز الابحاث العقائدية.

٨٧. الوافي بالوفيات: الصفدي، (ت: ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث للطباعة والنشر، : ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٨٨. تفسير الرازي: فخر الدين الرازي، (ت: ٦٠٦هـ).

٨٩. وسائل الشيعة (آل البيت): الحر العاملي، (ت: ١١٠٤هـ) تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، مطبعة مهر – قم المشرفة. ط٢: ١٤١٤هـ.

٩٠. ينابيع المودة لذوي القربى: القندوزي، (ت: ١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، ط١: ١٤١٦هـ.

المحتويات

مقدمة المؤسسة ٧
مقدمة الطبعة الثانية........ ٩
مقدمة الطبعة الأولى ١٥
١) بين يدي الإمام........ ١٧
صلاة ١٧
افتتاح ١٧
أولاً: الإعداد الإلهي التكويني لهذه الذات المقدسة ١٨
أ) حديث الولادة:........ ١٨
ب) تربيته في حجر الإيمان:........ ٢٠
ثانيًا: مصادر علمه عليه السلام........ ٢١
أ) القلب الواعي: ٢١
ب) الإلهام: ٢١
ج) حديث الملائكة:........ ٢٢
د) الملَكة الخاصة:........ ٢٢
ثالثًا: طرق التعرف على أبعاد شخصيته عليه السلام........ ٢٣
أ) كتاب الله الأكرم:........ ٢٣
ب) الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم:........ ٢٤

ج) دلالة عليٍّ على ذاته بذاته: ٢٤
وختامًا. ٢٥
٢) الشريف الرضي ٢٧
مدخل ٢٧
أولاً: نسب الشريف الرضي.. ٢٧
ثانيًا: حياته ومعالم شخصيته ٢٨
أ) إشارات إلى عظمة شخصيته منذ صباه: ٢٨
ب) العمر القصير: ٢٩
ج) الكيان العلمي العظيم: ٢٩
د) آثاره: ٣٠
هـ) جمعه لنهج البلاغة: ٣١
و) القيادة المميزة: ٣٢
ثالثًا: صفاته ٣٣
١) النبوغ المبكر: ٣٣
٢) إباؤه المنقطع النظير: ٣٣
٣) سموّ نفسه: ٣٤
٤) كرمه: ٣٤
٥) علو همته: ٣٤
٦) شموليته وجامعيته للمعارف والكمالات: ٣٥
رابعًا: الشريف الرضي قدوة للمؤمنين الموالين ٣٥
٣) سهام التشكيك ٣٦
أولاً: سند نهج البلاغة ٣٧
أ) مقصد الشريف الرضي: ٣٧

ب) الشريف الرضي موضع الثقة والعدالة: ٣٧
ج) مصادر نهج البلاغة: ٣٧
ثانيًا: التشكيك في نسبة نهج البلاغة ٣٨
ثالثًا: أسباب التشكيك........................ ٣٨
أ) أسباب مفتعلة أو ثانوية: ٣٨
ب) أسباب حقيقية أو أساسية: ٣٩
رابعًا: الرد على التشكيكات ٤١
خامسًا: بعض ما أُلِّفَ حول مصادر نهج البلاغة وحول الشبه المثارة........................ ٤٢
سادسًا: مستدركات نهج البلاغة ٤٤
سابعًا: نهج البلاغة والضجة الفكرية والعلمية........................ ٤٥
ثامنًا: موضوعات نهج البلاغة وأفكاره........................ ٤٦
تاسعًا: القرآن الكريم ونهج البلاغة سيرة واحدة........................ ٤٩
١) التشكيك فيهما: ٤٩
٢) وحدة موضوعاتهما: ٤٩
٣) الاستفادة منهما للجميع: ٤٩
٤) كشف العلم والزمن عن أسرارهما: ٤٩
خاتمة: ٥٠
٤) بعض الصدى........................ ٥٠
مدخل: ٥١
أولاً: الاهتمامُ العجيبُ والعنايةُ التامةُ بهذا الكتاب الجليل........................ ٥١
ثانيًا: مظاهر الاهتمام........................ ٥١
١) الحِفْظ: ٥١
٢) النَّظْم: ٥٢

٣) الشرح: ٥٤
أنماط الشروح: ٥٤
٤) الدراسات الأخرى: ٥٥
٥) البحوث حول نهج البلاغة في مجالات أخرى: ٥٧
٦) عقد المؤتمرات حول هذا الكتاب: ٥٧
٧) الفهارس: ٥٧
٨) مكتبة نهج البلاغة: ٥٨
ثالثًا: هل يستدل بنهج البلاغة فقهيًّا؟ ٥٩
رابعًا: منهجنا في دراسة نهج البلاغة ٦٥
خامسًا: بعض المصادر للبحث ٦٥
أ) الشروح. ٦٥
ب) الدراسات: ٦٦
كلمة للسيد السيستاني حول نهج البلاغة ٦٧
٥) تأسيس الإمام عليه السلام لعلم الكلام ٦٩
أولاً: علم الكلام ٦٩
أ) تعريفه: ٦٩
ب) فائدته: ٦٩
ج) مكانته وشرفه: ٦٩
ثانيًا: دور العقل في القضايا الاعتقادية ٧٠
ثالثًا: التشيع والفلسفة أو علم الكلام ٧١
رابعًا: شبه المخالفين.. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ ٧٢
خامسًا: القرآن الكريم ونهج البلاغة.. أساليب متفقة لإثبات العقائد ٧٤
٦) الذات المقدسة ٧٧

مدخل: ٧٧
أولاً: تعريف الذات المقدسة ٧٧
ثانيًا: العقول قاصرة عن إدراك الكنه ٧٧
ثالثًا: قال سيد الموحدين عليه السلام ٧٨
رابعًا: شواهدُ على عجزنا ٨١
خامسًا: جوانبُ بلاغيةٌ وعلميةٌ في هذه النصوصِ الشريفة ٨٢
مطاف الخاتمة ٨٣
خاتمةُ المطاف ٨٤
تنبيه ٨٤
٧) التوحيد ٨٧
مدخل: ٨٧
أولاً: ضيق الخناق ٨٧
ثانيًا: أقسام التوحيد ٨٧
ثالثًا: الواحد والأحد ٨٨
رابعًا : قال إمام الموحدين صلوات الله وسلامه عليه ٨٨
خامسًا: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ ٩٤
خاتمة ٩٥
٨) الصفات الإلهية ٩٧
مدخل ٩٧
أولاً: «وبَحْرٌ عَمِيْقٌ فلا تَلِجُوهُ» ٩٧
ثانيًا: أقسام الصفات ٩٨
ثالثًا: مقياسٌ دقيق ٩٨
رابعًا: قال إمام الموحدين عليه السلام ٩٩

خاتمة ١٠٣
مصادر للبحث ١٠٣
٩) تنزيه الذات المقدسة ١٠٥
أثر واقعنا على فهمنا للصفات الإلهية ١٠٥
قال سيد الموحدين عليه السلام ١٠٥
خاتمة ١١٠
١٠) صفة العدل ١١١
مدخل ١١١
أولاً: تعريف العدل لغة واصطلاحًا ١١١
ثانيًا: مجالات العدل ١١١
ثالثًا: لماذا خُصَّ العدلُ ليكون الأصلَ الثاني من أصول الدين؟ ١١٢
رابعًا: من فكر وتربية أمير المؤمنين عليه السلام ١١٣
هكذا أدَّبَنا أمير المؤمنين عليه السلام ١١٥
١١) العدل وسعة آفاقه ١١٧
مدخل ١١٧
أولاً: عدل الله سبحانه وتعالى ١١٧
ثانيًا: القرآن الكريم منهل العدل ومشرعته ١١٨
ثالثًا: الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ١١٨
رابعًا: الوالي والعدل ١١٨
خامسًا: ومن مقومات العدل وشؤونه ١٢٠
سادسًا: عشّاق الدنيا لا يروق لهم العدل ١٢٢
سابعًا: انقطاع الأمل وبقاء الحسرة ١٢٣
ثامنًا: ويتجلّى الحق في يوم الجزاء ١٢٣

١٢) الحكمة والروية ١٢٥
مدخل ١٢٥
أولاً: تعريف الحكمة وعلاقتها بالرَّوِيَّة ١٢٥
ثانيًا: أسلوب الإمام عليه السلام في التدليل على الحكمة ١٢٥
ثالثًا: دلائل الحكمة ١٢٦
رابعًا: الرَّوِيَّة ١٢٩
خاتمة وخلاصة ١٣١
١٣) صفات الكمال والجمال ١٣٣
مدخل ١٣٣
أولاً: حقيقة السمع والبصر ١٣٣
ثانيًا: أسباب التصور الخاطئ لصفات الكمال والجمال ١٣٤
١) قيود المادية: ١٣٤
٢) الجمود على ظواهر الألفاظ: ١٣٤
٣) دور السياسة: ١٣٦
ثالثًا: المقولة الحق ١٣٧
والنتيجة ١٤١
١٤) النبوة، آدم عليه السلام ١٤٣
مدخل: ١٤٣
أولاً: تعريف النبوة ١٤٣
ثانيًا: أصل الإنسان ١٤٤
ثالثًا: رأي الإسلام ١٤٥
رابعًا: كيفية الخلق ١٤٦
١٥) الأنبياء عليهم السلام ١٥١

مدخل ١٥١
أولاً: آدم عليه السلام ١٥١
أ) مظهر للقدرة والابتلاء: ١٥١
ب) والمصدر لتناسل البشر: ١٥٢
ثانيًا: المخالفة.. ١٥٣
ثالثًا: الأنبياء عليهم السلام ١٥٥
أ) ﴿وإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيْرٌ﴾: ١٥٥
ب) طهارة الأصلاب والأرحام: ١٥٦
ج) النبيُّ والمهمة: ١٥٧
١٦) موسى وهارون عليهما السلام ١٦١
مدخل: ١٦١
أولاً: أهداف الإمام عليه السلام من عرض السيرة.. ١٦١
ثانيًا: ﴿أفمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه﴾ ١٦١
أ) مناسبة الكلمة: ١٦٢
ب) دلالة الكلمة:.. ١٦٢
ج) الدلالة على العصمة: ١٦٤
ثالثًا: ﴿وكَلَّمَ اللهُ موسى تكليمًا﴾ ١٦٤
رابعًا: موسى عليه السلام مثال الزهد والانقطاع ١٦٤
خامسًا: موسى وهارون عليهما السلام.. ١٦٦
أ) التواضع وصلابة الموقف:.. ١٦٧
ب) الحاكم العادل:.. ١٦٧
ج) اليقين في الدعوة: ١٦٧
١٧) عيسى عليه السلام.. روح الله وكلمته ١٦٩

مدخل ١٦٩
أولاً: هدف الإمام عليه السلام ١٦٩
ثانيًا: عيسى عليه السلام .. نهاية الانقطاع عن الدنيا.. ١٦٩
ثالثًا: مثال الكمال والعشق الإلهي.. ١٧١
رابعًا: لماذا هذا الإعراض الكامل عن الدنيا؟ ١٧١
خامسًا: عيسى في حياة الأئمة عليهم السلام.. ١٧٢
سادسًا: تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح ١٧٤
سابعًا: القدوة والتكليف.. ١٧٥
١٨) إبراهيم عليه السلام .. خليل الله ١٧٧
أولاً: معنى (إبراهيم).. ١٧٧
ثانيًا: إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم ١٧٧
ثالثًا: إبراهيم عليه السلام في نهج البلاغة ١٧٧
رابعًا: معنى كلامه عليه السلام ١٧٨
خامسًا: قانون الانسجام.. ١٨٠
سادسًا: ولد إسماعيل وبنو إسحاق وإسرائيل عليهم السلام ١٨١
سابعًا:أنبياء الله عليهم السلام في الكتب السماوية الأخرى ١٨٣
ثامنًا: الأنبياء عليهم السلام.. القدوة ١٨٣
١٩) داوود وسليمان عليهما السلام ١٨٥
أولاً: داوود عليه السلام ١٨٥
ثانيًا: سليمان عليه السلام.. ١٨٩
ثالثًا: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ١٩١
رابعًا: أمير المؤمنين عليه السلام سيد الزاهدين ١٩٢
طريفة وموعظة.. ١٩٢

٢٠) النبي الأعظم محمد ﷺ ١٩٣
مدخل ١٩٣
أولاً: مصادر معرفة النبي ﷺ ١٩٣
ثانيًا: طهارة الأصلاب والأرحام ١٩٥
ثالثًا: (كريمًا ميلادُه) ١٩٧
رابعًا: (خيرَ البريةِ طفلاً) ١٩٧
٢١) النبي الأعظم محمد ﷺ .. ما قبل البعثة ٢٠١
مدخل ٢٠١
أولاً: (وأنـجبَها كهلاً) ٢٠١
ثانيًا: بماذا كان النبي ﷺ يتعبد قبل البعثة؟ ٢٠٢
ثالثًا: قال أمير المؤمنين عليه السلام ٢٠٣
٢٢) النبي الأعظم محمد ﷺ .. البعثة المباركة ٢٠٥
مدخل ٢٠٥
أولاً: تعريف البعثة ٢٠٥
ثانيًا: مهمات النبي ﷺ ٢٠٦
ثالثًا: دعامة أمره وركن دعوته ٢٠٩
رابعًا: البلاء الحسن الجميل ٢١١
٢٣) الجاهلية ٢١٥
مدخل: ٢١٥
أولاً: تعريف الجاهلية ٢١٥
ثانيًا: أسبابها ٢١٥
ثالثًا: مظاهر الجاهلية ٢١٦
٢٤) نـجاح الدعوة ٢٢٣

أولاً: مدخل.. ٢٢٣
ثانيًا: النجاح الكبير.. ٢٢٤
ثالثًا: خاتمة.. ٢٣١
٢٥) الدرس العظيم.. ٢٣٣
مدخل.. ٢٣٣
أولاً: معنى الجاهلية.. ٢٣٣
ثانيًا: الدرس العظيم.. ٢٣٤
ثالثًا: هكذا تحدث أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾.. ٢٣٥
نقاش.. ٢٣٦
٢٦) الإسلام.. ٢٤١
مدخل.. ٢٤١
أولاً: نسبة الإسلام وتعريفه.. ٢٤٢
ثانيًا: ضلال البشر وحيرتهم إذا اتبعوا أهواءهم.. ٢٤٣
ثالثًا: الله تعالى هو مصدر الدين ودعامتا الدين هما الشهادتان.. ٢٤٥
رابعًا: محاسن الإسلام ومقاصده.. ٢٤٧
٢٧) الإسلام والحياة.. ٢٥١
.... ٢٥١
مدخل.. ٢٥١
أولاً: جامعية الإسلام لكل الفضائل.. ٢٥١
ثانيًا: حاجة الدين للجماعة.. ٢٥٨
ثالثًا: إنذار بالشر وتحذير من العواقب الوخيمة لترك المسلمين الإسلام.. ٢٦٠
.... ٢٦٢
٢٨) سيرة النبي ﷺ وارتحاله إلى الرفيق الأعلى.. ٢٦٣

مدخل ٢٦٣
أولاً: حياة النبي ﷺ ٢٦٣
ثانيًا: النبي أكمل الخلق ٢٦٥
ثالثًا: النبي الأمان والرحمة ٢٦٦
رابعًا: ﴿وابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيْلَةَ﴾ ٢٦٧
خامسًا: الفاجعة الكبرى بارتحال النبي ﷺ ٢٦٩
٢٩) الإمامة ٢٧٣
مدخل ٢٧٣
أولاً: تعريف الإمامة ٢٧٣
ثانيًا: أهميتها ٢٧٤
ثالثًا: أحاديث الإمام عليه السلام حول الإمامة ٢٧٨
٣٠) الإمامة والنص ٢٨١
مدخل ٢٨١
أولاً: دعوى الإمامة من أمير المؤمنين عليه السلام ٢٨١
ثانيًا: النص على الإمام ٢٨٧
٣١) مؤهلات الإمام ٢٩١
مدخل ٢٩١
أولاً: العلم ٢٩٢
ثانيًا: العصمة ٢٩٦
ثالثًا: الشجاعة ٢٩٩
٣٢) علي عليه السلام والحاكمون ٣٠٣
مدخل: ٣٠٣
أولاً: المقارنة بين علي عليه السلام وغيره ٣٠٣

ثانيًا: الانتقاد ٣٠٧
فيا لله ولِلشورى! ٣١٠
ثالثًا: حجة الإمام عليه السلام ٣١٣
٣٣) الأئمة ٣١٥
مدخل ٣١٥
أولاً: التقاء النصوص العامة والخاصة في الأئمة عليهم السلام وانطباقها عليهم ٣١٥
ثانيًا: نص الوصي ٣١٨
الأول: النصوص العامة: ٣١٨
الثاني: النصوص الخاصة: ٣١٨
نماذج من النصوص الخاصة: ٣٢١
٣٤) علي والحكم ٣٢٥
مدخل: ٣٢٥
أولاً: الأهمية الذاتية للحكم وحرص الإمام عليه ٣٢٥
ثانيًا: زهد الإمام في الحكم متاعًا دنيويًّا زائلاً ٣٢٩
٣٥) سياسة الإمام ٣٣٣
أولاً: وضع الناس عند تسلم الإمام للحكم ٣٣٣
ثانيًا: سمو الهدف ٣٣٤
ثالثًا: وضوح السياسة ونهج الحكم ٣٣٧
رابعًا: التسامح مع المتخلفين والمعارضين ٣٤٠
٣٦) نماذج من سياسة الإمام ٣٤٣
مدخل ٣٤٣
أولاً: البيعة والمبادئ الأولية ٣٤٣
ثانيًا: العدل وموقف الناس ٣٤٥

ثالثًا: أوضاع الناس وتربيتهم السابقة.................................... ٣٤٦
رابعًا: معاملة الإمام للولاة.. ٣٤٨
خامسًا: الحقُّ ثَقُلَ عليهم... ٣٥١
سادسًا: الغدر والتقوى ٣٥٢
٣٧)عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر رضي الله عنه.................................. ٣٥٧
مدخل ٣٥٧
أولاً: مقدمات... ٣٥٧
أ) شخصية مالك رضي الله عنه: ٣٥٧
ب) العهد الشريف:.. ٣٦٠
ج) العناية بهذا العهد:.. ٣٦٢
د) سند العهد: ٣٦٤
هـ) لماذا التخصيص بمصر؟ ٣٦٤
ثانيًا: مضامين العهد الشريف ٣٦٥
أ) أهداف العهد: ٣٦٥
ب) بعض المضامين التي ركز الإمام عليها: ٣٦٥
ج) النواحي الإنسانية: ٣٧٠
٣٨) الإمام الإنسان.. السيرة الذاتية ٣٧٥
مدخل ٣٧٥
مقدمة... ٣٧٥
أ) دراسة الشخصية: ٣٧٥
ب) ملتقى الكمالات: ٣٧٦
أولاً: بطل الإسلام ٣٧٧
ثانيًا: مظاهر عدالته ٣٧٨

ثالثًا: إنسانيته الفذة ٣٨٢
رابعًا: أريحيته وسعة أفقه وتعاليه ٣٨٤
خامسًا: الانضباط والملكات الشريفة ٣٨٨
سادسًا: السيرة الواحدة ٣٩١
سابعًا: أمير البيان ٣٩٢
خاتمة: ٣٩٤
٣٩) المعاد ٣٩٧
مدخل ٣٩٧
أولاً: تعريف المعاد ٣٩٧
ثانيًا: سير الإنسانية ٣٩٩
ثالثًا: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ ٤٠٠
رابعًا: عدل وعفو ومداقَّة ٤٠٢
خامسًا: صورتان للنعيم والجحيم ٤٠٣
سادسًا: نومتان عن الجنة والنار مرديتان ٤٠٦
سابعًا: الخير والشر الحقيقيان ٤٠٧
المصادر ٤١١